أشهر الإغتيالات في الإسلام

خالد سعيد



الكتاب: أشهر الاغتيالات في الإسلام
من زمن الصحابة إلى نهاية العصر العباسي
تأليف: خالد السعيد
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-712-8

مقدمة

هذا الكتاب ليس هو المحاولة الأولى في تناول الاغتيالات في الإسلام. لا أعرف على وجه الدقة عدد المؤلفات التي كتبت ضمن هذا السياق. أستطيع أن أعدد عليك أربعة كتب على الأقل قرأتها قبل الشروع بوضع هذا الكتاب بين يديك. وفي رأيي الخاص، فإن كتاب "الاغتيال السياسي في الإسلام" للمرحوم هادي العلوي هو الأشهر بينها والأبعد صيتاً حتى الآن. أراد العلوي في كتابه هذا أن يلقي بعض الضوء على الجانب المعتم من التاريخ الإسلامي من دون أن يشغل نفسه بحصر عمليات الاغتيال كافة. إن أهم ما في كتاب العلوي هو تقشير مؤلفه في جراءة نادرة لهذا الطلاء الأسطوري الذي يكسو وجه التاريخ. لقد قام العلوي بإعادة استنطاق التاريخ من خلال بحثه الدؤوب عن الحيثيات الإنسانية والدوافع المادية وراء عمليات الاغتيال من دون السقوط في فخ ترويج وترديد التبريرات الغيبية والتفسيرات الجاهزة.

وهناك كتاب آخر بسيط ولطيف لحسن عبدالله بعنوان "الاغتيالات في الإسلام: اغتيال الصحابة والتابعين". وكما يتضح من العنوان، فإن خيط الدم سينقطع في مرحلة متأخرة من العهد الأموي لأنه كان مقتصراً على أشهر العمليات التي طالت الصحابة رضوان الله عليهم وبعض التابعين. أما الكتاب الثالث فعنوانه "معجم السياسيين المغتالين في التاريخ العربي والإسلامي" لمؤلفه فؤاد صالح السيد. يضم هذا المعجم تراجم للسياسيين المغتالين، بدءاً من العصر الجاهلي حتى مطلع القرن الحادي والعشرين، أي طوال حقبة زمنية تزيد على ألف وخمسمائة سنة. لهذا لا عجب أن يستغرق إنجاز هذا العمل

الموسوعي سنوات من البحث والتدقيق. وعلى الرغم من طرافة الفكرة وغنى المحتوى، إلا أن ما عابه هو ضمه بين دفتيه عمليات قتل اعتيادية لا ينطبق عليها تعريف الاغتيال بما ينطوي عليه من توافر عنصري المفاجأة والغدر. وأخيراً، فهناك كتاب يستحق القراءة بعنوان "الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" لمحمد محمود خليل. يتناول المؤلف محمد خليل في مؤلفه هذا بعمق وموضوعية أشهر عمليات الاغتيالات التي أطاحت برؤوس الخلفاء والوزراء والقادة الفاطميين أثناء وجود الدولة الفاطمية على الأراضي المصرية.

لماذا هذا الكتاب؟ وما هي القيمة المضافة المتوقع الحصول عليها من قراءة هذا العمل؟ حسناً، يتناول هذا الكتاب أشهر عمليات الاغتيالات التي وقعت في الإسلام، بدءًا من زمن الخلافة الراشدة، مروراً بالعهد الأموي، وانتهاءً بزوال الخلافة العباسية في عام 656هـ. لم يكن مخططاً عند البدء بالنبش في دفاتر التاريخ أن يكون الكتاب مقتصراً على الاغتيالات السياسية، ولكنك ستجد عند تصفح أوراق هذا العمل أن جل، إن لم يكن كل العمليات، قد وقعت في سبيل التنافس والتحاسد على السلطة. سوف تتفاجأ عند قراءتك لعمليات الاغتيال أن أواصر القرابة والمودة قد تم التفريط بها والتخلي عنها من أجل صعود القمة وتسنم العرش. سوف تصعق عندما تجد الأب يقتل ابنه، والابن يغدر بأخيه، والأم تسمِّم ولدها، وهكذا.

لا أخفي القارئ أنني كنت مفتوناً بكتاب هادي العلوي وبنهجيته القائمة على الشك والمساءلة وليس التسليم والتصديق. والحق أن كتاب العلوي هو من ألهمني فكرة وضع هذا المؤلف. أردت بهذا الكتاب أن أوسع الدائرة التاريخية لتستوعب مزيداً من الشخصيات التي لم يتطرق لها العلوي في كتابه. وكما كان العلوي حريصاً على البحث عن الحقيقة حتى ولو كانت صادمة ومؤلمة، فقد حرصت بدوري على التجرد من أي عواطف تاريخية والتخلص من أي أحكام مسبقة في سبيل البحث عن الحقيقة حتى ولو كانت مزعجة وموجعة. إن التفسيرات التي ستطالعها في الصفحات اللاحقة لا ترقى بأي حال إلى حد

اليقينيات. إنها مجرد شكوك وتساءلات تعيد فتح ملفات قديمة تراكم عليها غبار القرون الطويلة. لا أحد عاقل يملك أن يدعي أن ما يقدمه من تصورات وتحليلات هي حقائق مؤكدة لا تخضع للنقاش ولا تقبل الشك، خصوصاً إذا تعلق الأمر بأحداث تاريخية موغلة في القدم. قصارى القول، إن التفسيرات التي ستقرأها هي مجرد اجتهادات شخصية مجردة من الأهواء الصرفة والأحكام المسبقة. وكما يقال في المأثور، إن أصبنا فلنا أجران، وإن أخطأنا فلنا أجر الاجتهاد.

أبو بكر الصديق

عُرف قبل الإسلام بعبد الكعبة بن عثمان بن عامر، ولمّا فتح الله قلبه للإسلام، سمّاه النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله. لقب أبو بكر بالصديق لأنه صدّق النبي في قصة الإسراء والمعراج، وقيل لأنه كان يصدق كل خبر يأتي به النبي. واشتهر كذلك بلقب عتيق، وقيل إنه دُعي بذلك لجمال وجهه، وقيل إن النبي هو من أطلق عليه هذا اللقب، حينما قال له: "أنت عتيق الله من النار". وكان رضي اللّه عنه صديقاً لرسول اللّه قبل الوحي، وهو أصغر منه سناً بثلاث سنوات، وكان يكثر غشيانه في منزله ومحادثته، فلمّا أسلم آزر النبي عليه الصلاة والسلام في نصرة الدين الجديد بنفسه وماله.

إن أبا بكر هو أول من أسلم من الرجال، وهو أول المبشرين بالجنة، وهو أول الخلفاء الراشدين، وهو أول من شهد له النبي بالعتق من النار، وهو والد عائشة زوج النبي وأحب النساء إلى قلبه، وهو من رافقه في هجرته من مكة إلى يثرب، وهو صاحبه في الغار، وهو أقرب الصحابة إلى قلب النبي، وهو من قال عنه النبي: "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً"، وهو من قال عنه النبي أيضاً: "أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار".

وعندما قبض النبي عليه الصلاة والسلام، بُويع أبو بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة. وقد أفاضت كتب التاريخ في عرض النقاشات الساخنة التي جرت بين أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام من المهاجرين والأنصار حول اختيار خليفة النبي. تقول القصة - في شيء من الإيجاز - إنّ الأنصار التفوا حول سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان سعد يومها مريضاً وقد جيء به إلى السقيفة

ملفوفاً في لحاف. ولمّا نمي إلى علم أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح أن الأنصار يريدون أن ينفردوا بالأمر من دون المهاجرين، ذهبوا إلى هناك، فوجدوا سعد يخطب فيهم، فلمّا فرغ سعد من خطبته، وقف فيهم أبو بكر خطيباً مذكراً الأنصار أن المهاجرين أول من آمن من العرب، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر بعده لا ينازعهم ذلك إلا ظالم. ثم امتدح أبو بكر الأنصار وفضلهم، وقال لهم: "فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء". فردّ الحباب بن المنذر الأنصاري بقوله: "لا والله لا نفعل أبداً، منا أمير ومنكم أمير"، فعاد أبو بكر، وقال: "لا، ولكنّا الأمراء وأنتم الوزراء، قريش أوسط العرب داراً وأعزهم أحساباً، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة". فقال له عمر: "بل نبايعك، أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فأخذ عمر بيده فبايعه، وقال بنو أوس (الفرع الآخر من الأنصار) لبعضهم بعضاً: "والله لئن وليتها عليكم الخزرج مرة لازالت لهم عليكم، فقوموا بايعوا أبا بكر"، فقاموا إليه وبايعوه، ووطأ الناس سعد بن عبادة، فقال أناس من أصحاب سعد: "اتقوا سعدا ولا تطأوه"، فقال عمر: "اقتلوه قتله الله".

وعندما تولى أبو بكر الخلافة، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام، ومنعت قبائل أخرى دفع الزكاة إلى أبي بكر، وأطلت رؤوس المتنبئين كالأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة في اليمامة، وسجاح في بني تميم، فنهض أبو بكر لقتالهم، فأشار عليه عمر وغيره من الصحابة أن يفتر عن قتالهم، فقال أبو بكر: "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها"، فقال له عمر: "كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله)؟"، فقال أبو بكر: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال (إلا بحقها)". ولسنا هنا في موطن مناقشة دواعي حروب الردة وتفصيل مجرياتها وعرض نتائجها وإفرازاتها، ولكن ما يهمنا هنا أن أبا بكر قد جهز إلى كل

طائفة منهم جيشاً، فتوجهت الجيوش إليهم وقاتلتهم، وأبادتهم قتلاً وأسراً. وعلى الرغم من كلفة تلك الحروب الباهضة إلا أنها جففت ما بقي من منابع الكفر، وقطعت دابر دعوات التنبؤ، ودجنت قبائل العرب وجعلت لجامها في يد قريش.

وبعد أن روّض أبو بكر جزيرة العرب بالتمام والكمال، ووحّد قبائلها تحت راية الإسلام، تطلع المسلمون بأبصارهم نحو الشمال حيث تتراص أكبر إمبراطوريتين في العالم: الفرس والروم، وكأن ثوب صحراء الجزيرة ما عاد يتسع لتلك القوة الثائرة والديانة الصاعدة. وعلى الرغم من تفوق جيوش فارس والروم من حيث العدد والعدة إلا أن النصر كان حليف المسلمين وذلك بفضل إيمان المسلم الساطع، وحماسه الجارف، وتخطيط قاداته البارع. ففي غضون عام، نجح المسلمون في كسر جدار الخوف، وإعادة كتابة التاريخ، ورسم جغرافية جديدة. وفي غضون عام، تغلغل المسلمون إلى داخل العراق والشام ليلحقوا بالفرس والروم هزائم نكراء، وليبسطوا نفوذهم على تلك الأرجاء.

وبعد عامين وبضعة أشهر أفناها أبو بكر في الحفاظ على تماسك الدولة الفتية وهيبتها، وفي قمع حركات الردة، وفي إخماد نوازع التمرد، وفي تحطيم أسطورة فارس والروم والتمدد داخل أراضيهم، أسلم أبو بكر الروح عن عمر يناهز الثالثة والستين. يسيّج ضباب كثيف وفاة أبي بكر، ممّا يجعل وفاته كما لو كانت سراً معلقاً يصعب حله. يعرض المؤرخون بحيادية روايتين حول وفاة أبي بكر من دون ترجيح إحداهما على الأخرى. الرواية الأولى، تقول إن اليهود عملوا على تسميمه بالأرزّ، وقيل في حريرة (نوع من الحساء)، فأكل منها هو والطبيب الحارث بن كلده، فكفّ الحارث، وقال: "إرفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسم سنة، وأنا وأنت نموت في يوم واحد"، فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة. أمّا الرواية الأخرى، فتقول إنه اغتسل، وكان يوماً بارداً فحُمَ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه إلى أن مات. وفي اعتقادي الخاص، فإن الرواية الأولى - لو صحت - فهي تغالي كثيراً

في تحميل اليهود وزر موت أبي بكر، خصوصاً وأن نفوذ اليهود قد تقلص تماماً بعد إجلائهم من المدينة زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي فلم يعد اليهود طرفاً من أطراف المعادلة السياسية القائمة وقتها، ولم يعد لهم من مصلحة تذكر في تغييب أبي بكر عن الساحة. وثمة مسألة أخرى تستدعي التوقف عندها، وهي أن الروايات التاريخية تتضارب في ما بينها حول تاريخ وفاة الحارث بن كلدة، فبعضها يرجع وفاته إلى فجر الإسلام، وبعضها يزعم بوفاته زمن الخليفة عمر بن الخطاب، بل إن بعض الروايات ترجع تاريخ مماته إلى زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان! ربما تكفي الملاحظتان السالفتان لتقويض الرواية الأولى، لكن حسن عبدالله في كتابه "الاغتيالات في الإسلام: اغتيال الصحابة والتابعين" يتحمس للفرضية التي ترجح اغتيال أبي بكر بالسم. ولا يميل حسن عبدالله إلى التسليم بالادعاء القائل أن اليهود هم من دسّوا السم إلى أبي بكر، ولكنه يرى أن مجاميع المرتدين الذين عادوا للإسلام كرهاً وسمح لهم أبو بكر بالقدوم إلى المدينة ومخالطة المسلمين هم وراء تصفية أبي بكر رضي الله عنه لدواعٍ انتقامية.

أم ورقة

هي أم ورقة بنت عبدالله بن الحارث بن عويمر بن نوفل الأنصارية. ويقال لها أم ورقة بنت نوفل نسبة إلى جدها الأعلى. ولا نعرف لها اسماً غير كنيتها التي جاءت في المراجع التاريخية كافة. وعلى العموم، فإن كتب التراجم لا تحتوي سوى معلومات مبتسرة عن هذه الصحابية الجليلة إلا أنها على درجة عالية من التطابق.

ومما يذكر أنه عندما كان النبي عليه السلام يتهيأ للخروج إلى محاربة قريش في يوم بدر، جاءته أم ورقة تستأذنه الخروج معه لمداواة الجرحى فلعل الله يمنّ عليها بالشهادة. فقال لها النبي عليه السلام: "قرّي في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة". فأصبحت أم ورقة منذ ذاك اليوم تسمى بالشهيدة. وكان النبي يتعهدها بالزيارة من حين لآخر، فيقول لأصحابه: "انطلقوا نزور الشهيدة". وكانت أم روقة قد اتخذت في دارها مؤذناً ينادي للصلاة، وكانت هي من تؤم أهل دارها فتصلي بهم.

وكان لدى أم ورقة غلام وجارية قد دبّرتهما، أي أنها علقت عتقهما بموتها. وعلى ما يبدو فإنهما لم يطيقا صبراً، وتعجلا الحرية، فتطاولا عليها فخنقاها بقطيفة حتى لفظت أنفاسها، ثم لاذا بالفرار. ولمّا كان من الغد، قال الخليفة عمر بن الخطاب لأصحابه: "والله ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة البارحة"، فانطلق عمر يزورها، فوجدها ملفوفة في قطيفة في جانب البيت. فخرج عمر، وصعد المنبر، وقال: "إن أم ورقة غمها غلامها وجاريتها فقتلاها وإنهما هربا". فبعث عمر من أدركهما، فجيء بهما وصُلبا، فكانا أول من

صلب في المدينة. أتساءل ما إذا كان هناك دافع آخر - كالسرقة مثلاً - وأن أم ورقة قد كشفتهما، فخافا الفضيحة والعقاب، فعمدا إلى قتلها ومن ثم الفرار. وإذا صح أنهما قتلاها تبرماً من طول الانتظار وتشوقاً لنسيم الحرية وضوء النهار فأظنهما قد ارتكبا حماقة لا تغتفر لهما. فما الذي كان سيضرهما لو أنهما تسللا تحت جنح الظلام وفي هدوء بدلاً من أن يتورطا بجريمة قتل سرعان ما سيكشف الغطاء عنها، وتطالهما يد العدالة عاجلاً أم آجلاً.؟!

سعد بن عبادة

يصفه الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء "بأنه السيد الكبير الشريف أبو قيس الأنصاري الخزرجي الساعدي المدني النقيب سيد الخزرج. وكان عقبياً نقيباً سيداً جواداً. وعندما نزل النبي محمد المدينة كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم أو ثريد بلبن أو غيره فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله في بيوت أزواجه. وكان سعد يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم". ويذكر أنه بعد أن تمت بيعة العقبة سراً، وأصبح الأنصار يتهيئون للسفر، علمت قريش بما كان من مبايعة الأنصار واتفاقهم مع الرسول على الهجرة إلى المدينة حيث يقفون معه ومن ورائه. جنّ جنون قريش فراحت تطارد الركب المسافر حتى أدركت من رجاله سعد بن عبادة فأخذه المشركون، وربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله وعادوا به إلى مكة، حيث احتشدوا حوله يضربونه وينزلون به ما شاءوا من العذاب. هذه الحادثة يبدو أنها تركت ندوباً عميقة في نفسه، ولهذا هتف ابن عبادة يوم فتح مكة وفي يده راية الأنصار بسقوط الكعبة، فشكاه أبو سفيان عند النبي فقال: "كذب سعد هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة"، ثم أمره بتسليم الراية إلى ولده قيس.

أما بشأن ما يروى عن اغتياله، فتروى في ذلك حكاية غاية في العجب مفادها أن الجن - أكرر الجن - رمته بسهمين في فؤاده فأردته قتيلاً وذلك لأنه بال واقفاً، وفي رواية أخرى لأنه بال في جحر فيه منازل الجن! وينقل أحدهم أنه سمع الجن (!) تنوح وهي تنشد هذا البيت:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

ولكن هناك أبياتاً شعرية تنفي تحميل الجن دم ابن عبادة، إذ يقول الشاعر:

يقولون سعد شكت الجن قلبه
ألا ربما صححت دينك بالغدر
وما ذنب سعد أنه بال قائما
ولكن سعد لم يبايع أبا بكر

ومن أجل إضفاء مزيدٍ من عناصر الإثارة والتشويق على تلك القصة العجيبة، قيل إن جسد ابن عبادة وجد بعد مقتله وقد اكتسى بلون أخضر.

وهناك رواية أخرى مذكورة في "العقد الفريد" لابن عبد ربه، تقول إن عمر بن الخطاب عندما تقلد منصب الخلافة، بعث برجل إلى حوران في الشام حيث يقيم ابن عبادة التي نزلها كمنفى اختياري بعد رفضه مبايعة أبي بكر وعمر. قال عمر للرجل: "ادعه إلى البيعة، واحمل له بكل ما قدرت عليه فإن أبى فاستعن الله عليه". فلمّا قدم الرجل حوران، وجد ابن عبادة في بستان، فدعاه لبيعة عمر، فقال ابن عبادة: "لا أبايع قرشياً أبداً"، فقال له الرجل: "فإني قاتلك"، فقال ابن عبادة: "وإن قاتلتني"، فقال الرجل: "أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟"، فقال: "أمّا من البيعة فأنا خارج"، فرماه بسهم فأرداه صريعاً. ويشكك الشيخ خليل عبد الكريم في كتابه "شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، السفر الثاني: الصحابة والصحابة" في ضلوع معاوية بن أبي سفيان والي الشام حينها في اغتيال ابن عبادة لتوطئة دولة قريش وتصفية معارضيها خصوصاً وأن معاوية - كما سنرى في صفحات قادمة - متورط في سلسلة من الاغتيالات التي أزاح بها خصومه السياسيين من المنافسة.

لماذا اختار سعد بن عباده السكن في حوران الشام؟ ولماذا لم يقبل بمبايعة أبي بكر ومن بعده ابن الخطاب؟ الإجابة نجدها في "الطبقات الكبرى" لابن سعد. "حين توفى الله نبيه عليه الصلاة والسلام، اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ومعهم سعد بن عبادة، فتشاوروا في البيعة له، فبلغ الخبر أبا بكر

الصديق وعمر الخطاب وأبا عبيدة الجراح، فجاءوا إلى السقيفة ومعهم ناس من المهاجرين، فجرى بينهم وبين الأنصار كلام ومحاورة في بيعة سعد بن عبادة، فقام خطيب الأنصار فقال: "أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش"، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات. وقال عمر: "...فقلت لأبي بكر: أبسط يدك، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون وبايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة وكان مزملاً بين ظهرانيهم، فقلت: ما له؟ فقالوا وجع، وقال قائل منهم: قتلتم سعدا، فقلت: قتل الله سعدا". لقد كان من سوء حظ سعد أنه يومها كان مريضاً، وفوق ذلك لم يحصل على تأييد الأوس، خصوم الخزرج التقليديين، حسداً لسعد وجماعته، وهذا ما سهّل على أبي بكر الظفر بالخلافة. ويكمل صاحب الطبقات الكبرى وصف ما جرى من ابن عبادة بعد مبايعة الناس لأبي بكر، "أن أبا بكر بعث إلى سعد بن عبادة أن أقبل، فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: لا والله لا أبايع حتى أرميكم بما في كنانتي وأقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي، فلمّا جاء الخبر إلى أبي بكر، قال بشير بن سعد: يا خليفة رسول الله إنه قد أبى ولجّ، وليس بمبايعكم، أو يقتل ولن يقتل حتى يقتل معه ولده وعشيرته، ولن يقتلوا حتى تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تحركوه فقد استقام لكم الأمر فإنه ليس بضاركم إنما هو رجل وحده ما ترك"، فقبل أبو بكر بنصيحة بشير فترك سعدا. بقي سعد طيلة خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر منعزلاً لدرجة أنه كان يكتفي بالصلاة في بيته، ولا يحضر الجماعة، ولا يشارك في أي محفل أو منشط كان. ويخبرنا ابن سعد أيضاً أنه عندما ولي عمر الخلافة، لقي ابن عبادة في الطريق، فقال له "إيه يا سعد فقال سعد إيه يا عمر فقال عمر أنت صاحب ما أنت صاحبه فقال سعد نعم أنا ذاك وقد أفضى إليك هذا الأمر كان والله صاحبك أحب إلينا منك وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك فقال عمر إنه من كره جوار جاره تحول عنه فقال سعد أما أني غير مستنسىء بذلك وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك قال فلم يلبث إلا قليلا حتى خرج مهاجراً إلى الشام في أول خلافة عمر بن الخطاب فمات بحوران. أخبرنا

محمد بن عمر قال "أخبرنا يحيى بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة عن أبيه قال توفي سعد بن عبادة بحوران من أرض الشام لسنتين ونصف من خلافة عمر قال محمد بن عمر كأنه مات سنة خمس عشرة".

لهذه الأسباب فإن الرواية الثانية، من دون أن نقطع بصحتها، هي الأقرب إلى المنطق لخلوها من عناصر الخرافة أولاً، ولكون أحداثها تشكل تفاعلاً دراماتيكياً وختامياً لخلاف السقيفة الشهير الذي وقع بين زعيم الخزرج سعد بن عباده وكل من أبي بكر وعمر على منصب الخلافة. والغريب أن الرواية الأولى على الرغم من سذاجتها ومنافاتها للعقل إلا أنها تكاد تكون هي الرواية الرسمية والمعترف بها بين القدامى والمحدثين. وظني أن تأييد رواية الجن وتداولها بين المؤرخين يعود إلى سببين: أولهما سيادة الفكر الغيبي وعدم امتلاك العقل العربي للمنهج التشكيكي والأدوات النقدية التي تتيح له مساءلة الموروث عقلانياً واخضاعه للبحث العلمي، وثانيهما، أن القبول بحكاية الجن سيجنب المؤرخين والرواة الحرج من الدخول إلى منطقة شائكة قد يؤدي الخوض فيها إلى زعزعة التصور الطوباوي لمجتمع الصحابة الكرام.

عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، وأحد المبشرين بالجنة. ويتحدر عمر من بني عدي إحدى أفخاذ قريش، وبنو عدي لم يكن لهم من الزعامة والشرف والثراء وكثرة العدد مثل ما كان لبني هاشم، وبني عبد شمس، وبني مخزوم. وعمر هو ابن عم زيد بن عمر بن نفيل أحد أشهر الأحناف الموحدين قبل الإسلام. ووالدة عمر هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة، وهي ابنة عم كلّ من أمّ المؤمنين أم سلمة والصحابي خالد بن الوليد، وهي كذلك ابنة عم أبي الحكم عمرو بن هشام أو ما اشتهر في الإسلام بلقب أبي جهل.

يكنى عمر بأبي حفص، ويلقب بالفاروق، ويقال إن أهل الكتاب هم من دعوه بالفاروق. ومما يدعم هذا الزعم أن كلمة الفاروق لا يستدل عليها في اللغة العربية، وقد أطلق هذا اللقب على عمر المسيحيون السريان المقيمون في إيلياء - أي القدس - وهي تعني في لغتهم المنقذ أو المخلص، وذلك أن عمر قد خلصهم وخلص بقية بلاد الشام من الاحتلال البيزنطي. ومن المرجح أن عمر ولد بعد عام الفيل وبعد مولد النبي عليه الصلاة والسلام بثلاث عشرة سنة. ونشأ عمر في قريش، وامتاز عن معظمهم بتعلم القراءة، وتعلم المصارعة وركوب الخيل والفروسية والشعر. وكان عمر أبيض البشرة تعلوه حمرة، وكان حسن الخدين، أصلع الرأس، وله شارب طويل، وكان طويلاً جسيماً تصل قدماه إلى الأرض إذا ركب الفرس فيظهر وكأنه واقف، وكان أعسر سريع المشي.

أسلم عمر كما تشير الروايات في السنة الخامسة من البعثة، وقيل السادسة، وقد كان عمره يوم بعث النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثين عاماً، أو بضعاً وعشرين سنة كما تذهب بعض الروايات. وكان إسلام عمر استجابة من الله لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال: "اللهم أعز الإسلام باحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام". وعندما اعتنق عمر الإسلام، ظهر الإسلام بعد أن كان متخفياً، ورفع المسلمون رؤوسهم بعد أن كانوا يخافون كفار قريش. وعندما بدأ المسلمون في الهجرة إلى المدينة، لم يتجاسر أحد منهم أن يهاجر علانية إلا عمر، حيث تقلد سيفه ووضع قوسه على كتفه وحمل نباله وعصاه، وذهب إلى الكعبة فطاف بها سبع مرات، ثم توجه إلى مقام إبراهيم فصلى، ثم قال لحلقات المشركين المجتمعة: "شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي"، فلم يلحقه أحد.

ورد في كتب السير والتاريخ جملة من الأحاديث المنسوبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام في مدح عمر بن الخطاب وتقريظه. فمن ذلك، قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب"، وقوله حينما نظر إلى أبي بكر وعمر: "هذان السمع والبصر"، وقوله: "إن الله وضع الحق على لسان عمر وقلبه"، وقوله: "لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب"، وقوله كذلك: "عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة". وينقل عن عمر بن الخطاب قوله وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وأسارى بدر، وفي مقام إبراهيم عليه السلام. وجاء في موضع آخر قوله: "وافقت ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: 125)، وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب (الأحزاب: 59)، واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك (التحريم: 5).

تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر سنة 13هـ، ودامت خلافته عشر

سنوات. وكان عمر خلال خلافة أبي بكر قريباً منه، يعاونه ويؤازره، ويمده بالرأي والمشورة. وعندما مرض أبو بكر مرض الموت، اختار عمراً خليفة من بعده، فما وجد فيهم من يرفض مبايعته. وقد اتسمت خلافة عمر بالعديد من الإنجازات الإدارية والحضارية والعسكرية، ولعل من أهمها أنه أول من اتخذ الهجرة مبدأ للتاريخ، وأنه أول من دوّن الدواوين، وهو أول من اتخذ بيت المال، وأول من اهتم بإنشاء المدن الجديدة، وأول من وسّع مسجد الرسول وفرشه بالحجارة الصغيرة، وأول من أضاء المساجد، وأول من جلد في الخمر ثمانين جلدة، وأول من جمع الناس على صلاة التراويح، وأول من أخذ زكاة الخيل، وأول من اتخذ القضاة، وأول من عاقب على الهجاء، وهو أول من قنّن الجزية على أهل الذمة فأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال، وجعلها ثمانية وأربعين درهماً على الأغنياء، وأربعة وعشرين على متوسطي الحال، واثني عشر درهماً على الفقراء. وفي عهد عمر، فتحت بلاد العراق وفارس ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وأذربيجان ونهاوند وجرجان، وبنيت في عهده البصرة والكوفة.

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له وأشرط عليه أن لا يركب برذوناً (الخيل غير عربية الأصل)، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة، ولنا في قصة سعد بن أبي وقاص خير مثال (أنظر إلى محمد بن مسلمة الأنصاري، ص63). وعلى الرغم من أن عمر كان يرأس أعظم امبراطورية في العالم إلا أن المنصب لم يبدل فيه شيئاً، فكان يلبس جبة من صوف مرقوعة بعضها بأدم، ويطوف في الأسواق على عاتقه الدرّة يؤدب بها الناس، ويمر بالنكث والنوى فيلقطه في منازل الناس لينتفعوا به.

كان عمر خلال خلافته لا يسمح لسبيّ قد احتلم في دخول المدينة إلى أن كتب المغيرة بن شعبة وهو في الكوفة كتاباً يذكر فيه أن له غلاماً عنده صنعاً ويستأذنه أن يدخل المدينة، فقال في كتابه: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس: إنه حداد نقاش نجار، فأذن له عمر أن يدخل المدينة، وضرب المغيرة عليه كل شهر مائة درهم، فجاء الغلام واسمه فيروز الديلمي، ويكنى بأبي

لؤلؤة، يشتكي لعمر من شدة الخراج، فقال عمر: ما خراجك بكثير، فانصرف ساخطاً يتذمر، فلبث عمر ليالي، ثم دعاه فقال: ألم أخبر أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت إلى عمر عابساً، وقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها. فلمّا ولّى، قال عمر لأصحابه: أوعدني العبد آنفاً، ثم صنع أبو لؤلؤة خنجراً ذا رأسين وشحذه بالسم. ولمّا دخل عمر المسجد ليصلي صلاة الفجر، دخل أبو لؤلؤة في الناس، وسدّد إلى عمر ست طعنات، إحداها تحت سرته وهي التي قتلته، ثم طفق أبو لؤلؤة يطعن كل من دنا منه من الرجال حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، وقيل ستة، فألقى عليه أحدهم ثوباً، ولما رأى أنه قد تقيّد وتعثر فيه قتل أبو لؤلؤة نفسه بخنجره.

وبعد أن طعن عمر، صلى عبد الرحمن بن عوف بالناس بأقصر سورتين، وجيء لعمر بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، ثم سقوه لبناً فخرج كذلك من جرحه. وعندما سأل عمر عمن طعنه، قيل له إنه أبو لؤلؤة فقال: "الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدعي الإسلام"، ثم نظر إلى ابنه وقال: "يا عبد الله انظر ما عليّ من الدَّين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم، فقال: "إن وفّى مال آل عمر فأدّه من أموالهم، وإلا فاسأل في بني عديّ، فإن لم تفِ أموالهم، فاسأل في قريش"، ثم قال: "اذهب إلى أم المؤمنين عائشة، فقل: يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه"، فذهب إليها، فقالت: "كنت أريده - تقصد المكان - لنفسي، ولأوثرنّه اليوم على نفسي"، فلما رجع وأخبر بذلك عمر، حمد الله، فدفن بجانب صاحبيه النبي محمد وأبي بكر كما أراد. وقبل أن يموت اختار ستة من الصحابة وهم من بقي من العشرة المبشرين بالجنة ليختاروا أحدهم خليفة على أن لا يمر ثلاثة أيام إلا وقد اختاروا من بينهم خليفة للمسلمين.

لماذا قتل أبو لؤلؤة الخليفة عمر؟ من المؤكد أن الباعث على قتل عمر هو الانتقام منه بسبب تهدم الأمبراطورية الفارسية على يد عمر وجنوده. ومما زاد من حرقة أبي لؤلؤة وحقده على عمر ما جرى لاحقاً من استرقاق واسع لأبناء فارس من الرجال والنساء والأطفال. وكان يقال إن أبا لؤلؤة كان يمسح على

رؤوس الأطفال من بني جلدته والذين جلبوا إلى المدينة، ويقول باكياً: "أحرق عمر كبدي، أحرق الله كبده". والحقيقة، أن أبا لؤلؤة ما كان وحده من يتمنى قتل عمر، فهناك عناصر أخرى من بني قومه كانت تتلهف لتلك اللحظة بالرغم من أن قتل عمر لن يعيد الحياة لعظام دولة فارس. فهناك الهرمزان، وهو أحد قادة الجيوش الفارسية، والذي جيء به إلى المدينة أسيراً، ثم ما لبث أن أسلم. وهناك أيضاً جفينة المسيحي، وكان على صلة بالهرمزان وأبي لؤلؤة، وهو غلام سعد بن أبي وقاص، وقد جاء به سعد إلى المدينة بعد أن عزله عمر بن الخطاب عن ولاية الكوفة لعدم رضاه عن سلوكيات ابن أبي وقاص. جاء في "الاغتيالات في الإسلام: اغتيال الصحابة والتابعين" لحسن عبدالله أن عبد الرحمن بن عوف قد أخذ بالخنجر ذي النصلين يتأمله، فقال متعجباً: "رأيت هذا بالأمس مع الهرمزان وجفينة، فقلت لهما: ما تصنعان بهذه السكين؟ فقالا: نقطع بها اللحم!"، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً يشبه ما قاله ابن عوف. فلمّا سمع عبيد الله بن عمر بن الخطاب ما قيل، انتفض وخرج متقلداً سيفه، فلقي الهرمزان فقتله، ثم ألحق به جفينة، ثم قتل صبية لأبي لؤلؤة. وبعد أن أجهز عبيد الله على الثلاثة ظل واقفاً شاهراً سيفه يهدد بقتل آخرين شاركوا في قتل والده من دون أن يذكرهم بالاسم. ويقال إن صهيب الرومي بعث إليه بعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، فأمسكا به، وانتزع ابن أبي وقاص السيف منه، واحتجزه عنده في داره.

ويشكك حسن عبد الله في احتمال تورط رجل آخر يقال له كعب الأحبار، وهو يهودي قدم من اليمن إلى المدينة في خلافة عمر معلناً اعتناقه للإسلام. قبل أن يموت عمر بثلاثة أيام، لقيه كعب، فقال له: " يا أمير المؤمنين أعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام"، فقال عمر: " وما يدريك؟"، فقال كعب: "أجده في التوراة"، فقال عمر: "الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة!"، فقال كعب: "اللهم لا، ولكني أجد حليتك وصفتك وأنك قد فني أجلك"، فقال عمر: "وعمر لا يحس وجعاً؟"، فقال كعب: "وجدتك في التوراة تقتل شهيداً". وتقول الرواية إن كعب جاء في اليوم الثاني، وأخبر عمر أنه لم يبق له

غير يومين، وفعل مثل ذلك في اليوم الثالث، وأخبره أنه لم يبق له غير يوم واحد! ويدلل حسن عبد الله من خلال هذه الرواية على علم كعب الأحبار بخيوط المؤامرة، بل إنه ربما كان من الضالعين في التخطيط لها. وقد تناول هادي العلوي في كتابه "الاغتيال السياسي في الإسلام" رواية كعب متشككاً في صحتها لاعتبارات محترمة ومنطقية. فالعلوي لا يقر بهذه الرواية والتي تظهر الخليفة عمر ساذجاً سريع التصديق، وهو ما يتنافى مع ما عرف عن شخصيته كقائد سياسي محنك وعسكري فذ. ويضيف الهادي أن بيتي الشعر اللذين ينسبان لعمر وهو على فراش الموت وتتضمنان نبؤة كعب هما من قبيل الشعر الجيد والمسبوك. وبرأي العلوي، فإن عمر ليست له الشاعرية الكافية التي تؤهله لنظم هذين البيتين وهو سليم، فكيف وهو يحتضر؟! ويختم العلوي قوله بأن صياغة مثل تلك الأقاويل تستهدف إضفاء القداسة من قبل المؤرخين المسلمين على شخصية عمر لدرجة أن التوراة تحمل في أحشائها إشارات حول اغتيال عمر.

وبالعودة إلى كتاب العلوي، سوف نجده يوسّع من دائرة الاتهام لتشمل أطرافاً أخرى. إن التشكيك في وجود عناصر أخرى قد يكون لها علاقة بمقتل عمر ليس حكراً على العلوي وحده، بل يضم طيفاً من الكتّاب المعاصرين. والحقيقة أن العلوي وغيره من المعاصرين قد بنوا موقفهم هذا متكئين على عدد من الإشارات المبثوثة في ثنايا المراجع التاريخية القديمة. بإيجاز، يريد العلوي أن يكشف عن أبعاد أخرى للقضية تم التعتيم عليها بسبب حساسية الموقف واصطدامه بمسلمات ويقينيات محددة. وبإيجاز أكثر، يريد العلوي أن يتساءل ما إذا كان للطبقة الارستقراطية القرشية من دور خفي في تصفية عمر. فمن جملة المواقف والعبارات التي استخرجها العلوي من المراجع التاريخية الشهيرة:

ما جاء على لسان عمر في كتاب "الخراج" لأبي يوسف: "لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس (من أسلموا متأخرين) بأولاهم (من أسلموا مبكراً) حتى يكونوا في العطاء سواء". إن ما دفع عمر إلى هذا القول أنه وخلال خلافته كان يخص من أسلم مبكراً، وبالذات من قريش وأقارب النبي بنصيب أكبر من أموال الفتوحات الإسلامية. وتأتي هذه السياسة كبديل عن

التوزيع المتساوي الأقدار الذي اتبعه سلفه أبو بكر. وفيما بعد، لاحظ عمر وبسبب تلك السياسة التفضيلية نمو الفوارق الطبقية بين مكونات المجتمع المديني ممّا جعله يتعهد بالعودة إلى سياسة أبي بكر المساواتية. ومن المؤسف أن القدر لم يمهل عمر لإجراء هذا التعديل حيث توفي قبل أن يحين موعد العطاء التالي.

ورد في "تاريخ الرسل والملوك" للطبري أن عمر قال في سنة 23هـ والتي قتل فيها: "لو استقبلت من أمري ما استبدرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين". ومرة أخرى، فإن عمر لم ينجز هذا العهد الذي قطعه على نفسه حيث توفي في أواخر ذي الحجة من العام نفسه.

وورد أيضاً في "تاريخ الرسل والملوك" للطبري، وعلى لسان الحسن البصري أن عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من المدينة إلى الأمصار المفتوحة إلا بإذن وأجل محدد. وورد في المرجع ذاته، وعلى لسان الشعبي قوله: "لم يمت عمر حتى ملته قريش". وقد كان حصرهم في المدينة، وقال: "إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد". ويضيف الشعبي إن بعضهم كان يستأذنه في الخروج إلى الجهاد، فيقول له عمر: "قد جاهدت مع النبي وهذا يكفيك. وخير لك من الجهاد اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك". ويكمل الشعبي أن عثمان بن عفان رفع الحجر عن قريش فتنقلوا في البلاد فكان أحب إليهم من عمر.

يقرأ العلوي في تلك الروايات مقدمة لانشقاق سياسي محتمل بين عمر والطبقة الارستقراطية القرشية والتي كانت تتطلع إلى إيجاد مواقع لها في الأمصار المفتوحة من أجل توسيع مصالحها الاقتصادية وتنمية مراكزها الاجتماعية. ويضيف إلى ما سلف أن عمر نفسه كان لديه بعض الهواجس وهو على فراش الموت حول احتمال وجود مؤامرة عليه، فكان يسأل من يدخل عليه: "أعن ملأ (يقصد تواطؤ) منكم كان هذا؟، فكانوا يقولون: "معاذ الله".

وأخيراً وليس آخراً، ما ذكرناه سابقاً، وما أخبر به الطبري في "تاريخ الرسل والملوك" من أن ابن عمر عبيد الله ظل ممتشقاً سيفه يهدد بقتل رجال

آخرين كان يراهم متورطين في عملية القتل من دون أن يفصح عن أسمائهم. وربما لو لم ينتزع سعد بن أبي وقاص السيف منه لكان قد نفذ تهديده.

تلك تقريباً أهم التساؤلات التي طرحها العلوي في كتابه. وبرأيي الخاص، إنها تساؤلات مشروعة لا تعوزها الوجاهة بالرغم من كونها صادمة بعض الشيء. وعلى أي حال، لا ترقى مثل تلك التساؤلات إلى مستوى الدليل الدامغ، ولكنها تبقى على أي حال محاولة تستحق التأمل مقترنةً بشيء من الهدوء.

عثمان بن عفان

اسمه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. هو أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. أحد السابقين الأولين، وذو النورين، وصاحب الهجرتين، وزوج الابنتين. تزوج عثمان رقية بنت النبي محمد عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، فولدت له عبد الله، وبه كان يكنى، وبابنه عمرو قبل الإسلام. وكان عثمان ممن هاجروا إلى الحبشة، واصطحب معه رقية، وخلّفه النبي عليه الصلاة والسلام عليها في غزوة بدر ليداويها في مرضها، وتوفيت بعد بدر بليال، فزوجه النبي عليه الصلاة والسلام بابنته أم كلثوم، ولهذا كان يقال له ذو النورين.

ما كان عثمان بالطويل ولا بالقصير، وكان حسن الوجه، عظيم اللحية، أسمر اللون، بعيداً ما بين المنكبين. وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام عدد من الأقوال بحق عثمان، فمنها: "إنّا نشبه عثمان بأبينا إبراهيم"، وقوله: "رحم الله عثمان تستحيه الملائكة"، وقوله: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، واشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان"، وقوله أيضاً: "لكل نبي رفيق، ورفيقي عثمان". وكان عثمان معروفاً بالجود والعطاء وبسخاء النفس واليد، فعثمان هو من اشترى بئر رومة عندما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بخمسة وثلاثين ألف درهم، وجعلها سبيلاً للمسلمين، وعثمان هو من جهزّ جيش العسرة بألف دينار صبّها في حجر النبي، فجعل يقلبها بيده، ويقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم".

ولمّا طعن الخليفة عمر بن الخطاب على يد فيروز الديلمي والمعروف بأبي لؤلؤة، جعل الخلافة شورى في من بقي من العشرة المبشرين بالجنة، وأبعد أحد العشرة المبشرين وهو ابن عمه سعيد بن زيد بن نفيل خوفاً من أن تكون الخلافة في بني عدي مرتين، وأقام مكانه ولده عبد الله بن عمر من دون أن يحق له الترشيح. ثم إن المشيرين جعلوا أمر الخلافة في يد عبد الرحمن بن عوف وأمهلوه ثلاثة أيام ليختار واحداً منهم. وبعد أن انقضت المدة، نودي للصلاة جماعة وصعد عبد الرحمن المنبر، وأطال المكوث طويلاً يدعو سراً، ثم دعا علي بن أبي طالب، فأخذ بيده، وقال له: "هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟"، فأجاب علي: "اللهم لا، ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي"، فأرسل عبد الرحمن يده، وقال: "هلم إلي يا عثمان"، فأقبل عثمان، فأخذ بيده، وقال له الكلام نفسه الذي قاله لعلي، فأجاب عثمان: "اللهم نعم"، فقال عبد الرحمن: "اللهم اشهد"، وكررها ثلاثاً، ثم قام الناس فبايعوا عثمان.

شهدت خلافة عثمان والتي دامت اثنتي عشرة سنة استمراراً لحركة التوسعات العسكرية، فانطلق المسلمون من مصر غرباً باتجاه بلاد البربر وكسروا الروم، وركبوا البحر وحاصروا قبرص، وهزموا الروم بحراً في موقعة ذات الصواري الشهيرة، وذهبوا إلى ما وراء بلاد فارس. وفي عهد عثمان، رفع الحجر الذي فرضه سلفه عمر على صحابة النبي، فتفرقوا في الأرض وساحوا فيها. وغرف عثمان من الأموال التي حملت إليه من البلاد المفتوحة، فوصل بها أعلام الصحابة حتى فاضت الأموال لديهم وتراكمت. وزاد عثمان في مسجد رسول الله، فوسّعه وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة، وسقفه بالساج.

وُلِيَ عثمان، فعمل ست سنين لا ينقم عليه الناس شيئاً، وكان إليهم أحب من عمر لما جُبِلَ عليه من لين، وما عرف به من العطاء والجود. وبعد أن انسلخت الست الأوائل، كتب عثمان لمروان بن الحكم خمس إفريقيا، وصب الأموال على أقربائه من بني أمية، واستعملهم على البلاد، فأنكر الناس عليه

ذلك. وعزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة، واستعمل أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي صلى بالناس الفجر أربعاً وهو سكران، ثم التفت إليهم، وقال: "أزيدكم!"، ثم أعفاه عثمان من منصبه، وعهد بالكوفة إلى رجل من بني أمية وهو سعيد بن العاص. وعزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، واستعمل عليها أخاه بالرضاعة سعد بن أبي سرح. وأقال عثمان أيضاً أبا موسى الأشعري عن البصرة، وجعل مكانه أحد فتيان بني أمية وهو عبد الله بن عامر بن كريز. ونزع حمص من يد عمير بن سعد، وكان صالحاً وزاهداً، وجمع الشام لمعاوية بن أبي سفيان.

أججت ممارسات عثمان النار في صدور الناس، وخلقت سياساته المالية والإدارية طبقة واسعة من المعارضين شملت عدداً من الصحابة. ولعل من أشهر رموز المعارضة، هم: عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري. فابن مسعود كان متولّياً بيت المال في الكوفة، وقد اقترض منه واليها الوليد بن عقبة بعض المال، ولمّا حلّ موعد السداد، امتنع الوليد، ولجّ ابن مسعود في الطلب، فكتب الوليد إلى عثمان يشكوه ابن مسعود، فرد عثمان بكتاب إلى خازن المال يعنّفه، فغضب وألقى المفاتيح. وزاد سخط ابن مسعود عندما عهد عثمان إلى جماعة من المسلمين وعليهم زيد بن ثابت جمع الناس على قرآن واحد وحرق ما عداه من المصاحف. ولمّا أكثر ابن مسعود من الطعن على عثمان والتشنيع به، أمر عثمان بإشخاصه إلى المدينة، فوقعت بينه وبين ابن مسعود ملاسنة، ثم أمر عثمان به، فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، وألقي على الأرض حتى انكسرت فيه إحدى أضلاعه. أمّا أبو ذر فقد راعه ما يصرفه عثمان من أموال على بني أمية وما ينثره فوق رؤوس المقربين إليه من الرجال، فكان أبو ذر يستكثر ذلك ويستنكره جهاراً، ولمّا نفد صبر عثمان عليه، سيّره إلى معاوية في الشام، فجعل ينكر على معاوية مثلما كان ينكر على عثمان، ثم انتهى المطاف به منفياً في الربذة حتى مات فيها غريباً. وأمّا عمار بن ياسر فقد كان من أكثر الصحابة معارضة لعثمان. ومما يذكر أن عثمان أخذ من بيت المال جواهر فحلّى بها بعض أهله، فغضب الناس وتحدثوا في ذلك، فقال عثمان:

"لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام"، فقال عمار: "أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك"، فرد عثمان: "أعليّ يا ابن المتكأ تجترئ؟ خذوه!"، فأخذوه وجيء به إلى عثمان فضربه حتى غشي عليه. وحمل عمار كتاباً كتبه هو وعدد من الصحابة إلى عثمان يعظونه فيه وينتقدون سياسته، فشتمه عثمان وضربه حتى أصاب عمار الفتق.

وفي سنة 35هـ، خرج من مصر رجال تظاهروا أنهم ينوون العمرة فذهبوا إلى المدينة ليخلعوا عثمان من الخلافة، وخرج من الكوفة وفد إلى المدينة، ومثله من البصرة. كان المصريون، وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي، يشتهون علياً، وكان الكوفيون، وفيهم مالك الأشتر وزياد بن النضر الحارثي، يشتهون طلحة بن عبيد الله، وكان البصريون، وفيهم حكيم بن جبلة وحرقوص بن زهير، يشتهون الزبير بن العوام. وأقبل علي في عسكره على المصريين، فصاح بهم وطردهم، فانصرفوا، وفعل مثله طلحة والزبير.

وبعد أن حسب أهل المدينة أن الغمة قد انقشعت، عادوا مطمئنين إلى منازلهم، وألقوا سلاحهم. وما هي إلا ساعات حتى كرّ الثوار في غفلة منهم، فدخلوا المدينة، وضجت جنباتها بالتكبير، واحتلوها من دون قتال، ثم طوقوا دار عثمان. وبينما هم كذلك، أتاهم علي، فقال لهم: "ما ردكم بعد ذهابكم؟"، فقال المصريون: "وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا"، وقال الكوفيون والبصريون: "نحن نمنع أخوتنا وننصرهم". وزعم الذين جاءوا بالكتاب أنهم وبينما هم في طريقهم راجعون، رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة، فأخذوه، فإذا غلام لعثمان، ففتشوا متاعه، فوجدوا فيه كتاباً من عثمان إلى واليه على مصر سعد بن أبي سرح يأمره بصلب ومعاقبة عدد من الرجال الذين خرجوا عليه. ودخل علي على عثمان ومعه الكتاب، فأنكر أن يكون هو من كتبه. وقيل إن ابن عمه مروان هو من خطه بيده، فامتنع عثمان أن يدفعه إليهم ليقتلوه. ويعتقد طه حسين في"الفتنة الكبرى: عثمان" أن هذا الكتاب ما هو إلا خدعة نسجها الثوار من أجل استكمال الهدف الذي من أجله قطعوا كل تلك المسافات.

ويستدل طه حسين على ذلك بالقول إن أهل المدينة سألوهم عن الكيفية التي علم بها أهل الكوفة والبصرة بالكتاب الذي وجده أهل مصر على الرغم من أن كل وفد منهم قد سلك طريقاً مغايراً! ولمّا أعياهم الجواب، قالوا في تذمر: "ضعوا هذا الأمر كيف شئتم، فلا حاجة لنا بهذا الرجل". ويقطع طه حسين بأنه كان للثوار أنصار وأعوان من أهل المدينة قد دعوهم سراً وشجعوهم على المجيء، وأنهم هم من أعلموهم بما عزم عليه علي والزبير وطلحة، ثم أعلموهم بعودة المدينة إلى الهدوء والدعة، ثم انضموا إليهم حينما ضربوا الحصار على عثمان. وهذا برأيي غير بعيد، ويكفينا ما قاله الذهبي في "سير أعلام النبلاء" من أن المصريين كانوا لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن ينصرهم إلا ثلاثة، فإنهم كانوا يراسلونهم، وهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر. وسيأتي معنا أن محمد بن أبي بكر هو من تقدم الثوار الذين تسلقوا دار عثمان وقتلوه فيها.

ولمّا كان يوم الجمعة، صلى عثمان بالناس، وخطب فيهم، وكان مما قال: "إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم. فامحوا الخطايا بالصواب، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن"، فأيد عثمان في مقالته محمد بن مسلمة وزيد بن ثابت، وردا عليهما بعنف اثنان من معارضي عثمان، ثم سرعان ما تحاصب المصلون، وحصبوا عثمان حتى سقط مغشياً عليه، فحملوه إلى داره. ثم طوّق الثوار دار عثمان، فحالوا بينه وبين الصلاة في مسجد النبي وهو الذي وسّعه وزيّنه، وقطعوا عنه الماء حتى اشتد الظمأ عليه وعلى أهله وهو الذي اشترى بئر رومة بماله وجعلها للمسلمين سبيلا. وقال عثمان وهو في داره لمالك الأشتر: "ما يريد الناس مني؟"، فرد عليه: "إحدى ثلاث: يخيرونك بين الخلع، وبين أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فإنهم قاتلوك"، فقال عثمان: "ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، وبدني ما يقوم لقصاص".

ويقال إن الثوار تناهى إلى مسامعهم أن أمداد العراق من عند عبد الله بن عامر، وأمداد مصر من عند سعد بن أبي سرح قد اقتربت من المدينة، فقالوا

لبعضهم: "نعالجه قبل أن تقدم الأمداد". وفي ذاك اليوم، أصبح عثمان صائماً، وقال لأصحابه: "إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر، فقال لي: "أفطر عندنا الليلة يا عثمان". يقدم الرواة أكثر من رواية حول مقتل عثمان. وعلى الرغم من تفاوت تلك الروايات في تفاصيلها حول عدد القتلة والكيفية التي نفذت فيها تلك العملية، والكلمات التي تبادلها عثمان ومحمد بن أبي بكر الصديق أحد أكثر المعارضين نقمة على عثمان في اللحظة الأخيرة، إلا أنها تشترك في وحشيتها ودمويتها التي تكسو تفاصيلها الصغيرة باللون الأحمر. تقول إحدى الروايات إن محمد بن أبي بكر تسلق في ثلاثة عشر رجلاً دار عثمان، فدخل عليه، وأخذ بلحيته قائلاً: "ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك"، فقال عثمان: "أرسل لحيتي يا ابن أخي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت"، فقال محمد: "ما يراد بك أشد من قبضتي"، وطعن جنبه بمشقص، ثم تعاوروا عليه بسيوفهم حتى قتلوه". وحاولت نائلة زوجة عثمان أن تمنع عنه السيف، فحز السيف أصابعها. وسيحمل النعمان بن بشير إلى معاوية في الشام قميص عثمان المضرج بالدماء وأصابع نائلة المقطوعة لينصب معاوية القميص على منبر دمشق والأصابع معلقة فيه إلى أن ينالوا من قتلة عثمان ويثأروا له.

وبلغ علي وطلحة والزبير الخبر، فدخلوا الدار، فوجدوه مذبوحاً، فقام علي ولطم الحسن وضرب بيده على صدر الحسين، وقال لهما غاضباً: "كيف قتل وأنتم على الباب؟"، وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى داره. وفيما هو في الدار، جاءه الناس ليبايعوه، فقال: ليس ذاك إليكم، إنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضوه فهو خليفة، فلم يبق أحد من البدريين إلا وبايعه. لقد أفضى مقتل عثمان إلى نتائج وخيمة لانزال نعيش تداعيتها إلى هذا اليوم على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً! ولولا مقتل عثمان لما جرت حربا الجمل وصفين، ولولا مقتل عثمان لما انشطرت الأمة إلى طوائف وفرق تلعن كل منها الأخرى. مات عثمان لكي يجعل طلّاب السلطة وأهل السياسة من دمه زيتاً

يشعلون به نيران الحروب. ومات عثمان لكي يلوح طلّاب السلطة وأهل السياسة بقميصه شعاراً يخفون وراءه طموحاتهم وأهدافهم الدنيوية.

ويتبقى لنا أن نعرج على إحدى الشخصيات التي أسرف الرواة المتأخرون في اتهامها بأنها هي أصل البلاء وفي تحميلها دم عثمان ألا وهي شخصية عبد الله بن سبأ. فبحسب الروايات المتأخرة، فإن ابن سبأ كان يهودي الأصل ومن أم سوداء، وأنه قدم من اليمن مظهراً الإسلام وهو يخفي في داخله الكيد له ولإهله. وتمضي الروايات في القول إن ابن سبأ كان يغري الناس بعثمان، ويؤلب عليه الخلق، ويدعي أن النبي محمد أحق بالرجعة من عيسى بن مريم، وأن لكل نبي وصيّاً وعلي هو وصي النبي محمد. ومن الطريف أن ابن سبأ كان يتنقل بين الأمصار الإسلامية في سرعة وسلاسة زارعاً بذور الفتنة من دون أن يفطن أحد لمقاصده ومن دون أن يجد أحد يوقفه عند حده. ولايتردد طه حسين في كتابه المذكور في التشكيك بحقيقة ابن سبأ بحجة أن المراجع الإسلامية المتقدمة لم تتضمن أي إشارة لتلك الشخصية العجائبية، وأن ميلاد تلك الشخصية يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري عندما ذكره الطبري في "تاريخ الرسل والملوك" لأول مرة نقلاً عن رجل يقال له يوسف بن عمر. وفي رأيي الشخصي، إن الرواة المتأخرين قد وجدوا في ابن سبأ حلاً ناجعاً للخروج من هذا المطب التاريخي وهذا المأزق الأخلاقي، فقاموا بتحميله وزر الفتنة، كل هذا من أجل تبييض صفحات الصحابة الذين تورطوا في خلق الفتنة!

كعب بن سور الأزدي

بالرغم من ندرة المعلومات المتاحة لنا وشحاحتها، فإن كعب يعد من أبرز رجالات الأزد وألمعهم وأوفرهم عقلاً وأرجحهم رأياً. اعتنق كعب الأزدي الإسلام زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلا أنه لم يقيض له رؤية النبي ومخالطته. وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وفد كعب إلى المدينة ليخرج منها حاملاً تكليف الخليفة له بولاية قضاء البصرة من دون ترتيب مسبق. كأن الأقدار قد ساقت كعب إلى المدينة لتكشف لعمر بن الخطاب عمّا يكنّه الرجل من ذكاء ثاقب وعلم راسخ فما كان منه إلا أن سارع بتقليده قضاء البصرة. وإليك القصة الطريفة التي جعلت عمر يعجب به فيكلفه ولاية القضاء.

كان كعب ذات يوم جالساً عند عمر بن الخطاب، فجاءت امرأة فقالت: "ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي، إنه ليبيت ليله قائماً، ويظل نهاره صائماً، في اليوم الحر ما يُفطر"، فاستغفر لها عمر وأثنى عليها، وقال: "مثلك أثنى بالخير"، فاستحيت المرأة وقامت راجعة، فقال كعب: "يا أمير المؤمنين هلا أعديت المرأة على زوجها، إذ جاءتك تستعديك"، فقال: "أكذلك أرادت؟"، فقال: "نعم يا أمير المؤمنين"، فقال عمر: "ردّوا عليّ المرأة!"، فلمّا رُدّت إليه، قال لها: "لا بأس بالحق أن تقوليه، إن هذا يزعم أنك جئت تشتكين أنه يجتنب فراشك؟"، فقالت: "أجل إني امرأة شابة وإني أبتغي ما يبتغي النساء". فأرسل عمر إلى زوجها، فجاءه، فقال لكعب: "أقض بينهما يا كعب!"، فقال: "أمير المؤمنين أحق أن يقضي بينهما"، فقال: "عزمت عليك لتقضين بينهما، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم". فقال

كعب: "إن لها يوماً من أربعة أيام، كأن زوجها له أربع نسوة، فإذا لم يكن له غيرها، فإني أقضي له بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن، ولها يوم وليلة". فقال له عمر: "والله ما رأيك الأول بأعجب من رأيك الآخر، إذهب فأنت قاض على أهل البصرة"، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بذلك. ذهب كعب إلى البصرة، فبقي فيها على عمله إلى أن قُتل عمر، ثم استمر في منصبه زمن خلافة عثمان بن عفان، فلم يزل قاضياً عليها إلى أن قُتل يوم الجمل.

وعندما قتل عثمان في داره، وقعت الفتنة الكبرى، فحميت النفوس، وزاد الهرج والمرج، وتناحر المسلمون، ورفع الأخ على أخيه السيف. في تلك الأثناء، أجمعت عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وأشياعهم على المسير إلى البصرة لقتال علي بن أبي طالب. سأل الزبير عبدالله بن عامر والي البصرة الذي كان قد هرب منها بعد قتل عثمان عن وجهاء البصرة المسموعة كلمتهم، فقال: "ثلاثة، كلهم سيد مطاع: كعب بن سور والمنذر بن ربيعة والأحنف بن قيس"، فكتب طلحة إلى كعب بن سور: "أما بعد، فإنك قاضي عمر بن الخطاب، وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى، فأغضب له من القتل، والسلام". فلمّا بلغ كعب الكتاب، ردّ على طلحة والزبير قائلاً: "أمّا بعد، فإنا غضبنا لعثمان من الأذى، والغير باللسان، فجاء أمر الغير فيه بالسيف، فإن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله؟ وإن كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل". هذه المراسلات وردت في كتاب "الإمامة والسياسة" المنسوب لأبي قتيبة الدينوري. وهناك رواية أخرى أكثر شيوعاً جاءت في "الطبقات الكبرى" لابن سعد و"الأعلام" للزركلي، ومفادها أنه قيل لعائشة "إن كعب بن سور إن خرج معك لم يتخلف من الأزد أحد"، فركبت إليه فنادته وكلمته فلم يجبها، فقالت: " يا كعب! ألست أمك ولي عليك حق؟"، فكلمها، فقالت: "إنما أريد أن أصلح بين الناس"، فخرج كعب، وأخذ المصحف فنشره، ومشى بين الصفين يدعوهم إلى ما فيه، فجاءه سهم غادر فأرداه قتيلاً. ومن المؤسف أننا لا نملك أي رصيد من المعرفة حول هوية قاتله

وإلى أي جانب ينتمي. وبغض الطرف عن أي من الروايتين أعلاه يعد مقبولاً، فإن كلا الروايتين تكشفان عن حيادية موقف كعب، وإيثاره للمصالحة وحفظ الأرواح وحقن الدماء.

غير أن من يقرأ في كتاب "الإمامة والسياسة" والمنسوب لأبي قتيبة الدينوري يجد أن كعب قد خلع ثوب الحياد، وأنه قد خاض معركة الجمل إلى جانب عائشة والزبير وطلحة، وأنه قد استبسل في الذّبّ عن هودج عائشة عندما مالت الكفة لمصلحة علي بن أبي طالب وأوشكت الهزيمة أن تطبق على جيش عائشة. وقد جاء في الكتاب ما نصه: "...فلمّا رأى كعب بن سور الهزيمة، أخذ خطام البعير، ونادى: أيها الناس، الله الله، فقاتل وقاتل الناس معه، وعطفت الأزد على الهودج، وأقبل علي وعمار والأشتر والأنصار معهم يريدون الجمل فأقتتل القوم حوله، حتى حال بينهم الليل...". ويأتي ابن أبي حديد في كتابه "شرح نهج البلاغة" وكأنه يكمل ما انتهى عنده الكتاب المنسوب لأبي قتيبة، فيقول إنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ركب علي بغلة النبي الشهباء، وكانت باقية عنده وسار في القتلى يستعرضهم، فمرّ بكعب وهو قتيل، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال له: ويلمك كعب بن سور! لقد كان لك علم لو نفعك! ولكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النار، أرسلوه.

نحن هنا أمام مشهدين متناقضين يقف أمامهما المرء في حيرة من أمره. فكما ترى، فإن هناك فارقاً شاسعاً بين صورة كعب وهو ينشر المصحف بين الصفين يدعوهم للسلام، وصورة كعب وهو يمسك بخطام بعير عائشة ويستنفر قبيلته للقتال! وفي تقديري الخاص، فإن كلا الصورتين تعكسان في جوهرهما طبيعة الميولات الإيدلوجية والأهواء المذهبية. إن وقوف كعب بين الصفين وهو ناشر للمصحف يعبر عن الموقف الوسطي الذي طبع توجهات أهل السنة والجماعة وتحفظاتها من الغرق في تفاصيل الصراع. أمّا إمساك كعب بخطام بعير عائشة ودعوته لقبيلته للدفاع عن هودج عائشة فهذا يعبر عن موقف الشيعة تجاه كل من تخلى عن مناصرة علي حتى ولو اختار الحياد طريقاً له.

الزبير بن العوام

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. أمه هي صفية بنت عبد المطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام، وعمته هي خديجة بنت خويلد زوج النبي. أسلم الزبير وهو ابن اثنتي عشرة سنة أو ثمان أو ست عشرة سنة. هاجر الزبير الهجرتين، وصلّى إلى القبلتين، وشهد بدر والمشاهد كلها، وهو أول من سلّ سيفه في سبيل الله، وثبت يوم أحد وبايع على الموت. والزبير هو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى. وأشهر زوجات الزبير هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وله من الأولاد والبنات واحد وعشرون، وأشهرهم عبد الله بن الزبير، وهو أول مولود في الإسلام بعد الهجرة.

كان الزبير رجلاً طويلاً، إذا ركب خطت رجلاه الأرض، وكان خفيف اللحية والعارضين. وروى في حياته عن النبي عليه الصلاة والسلام أحاديث يسيرة. وروي عن النبي أنه قال: "لكل نبي حواري وحواريي من أمتي الزبير"، وروي عن الزبير أنه قال: "جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه مرتين: يوم قريظة فقال: إرم فداك أبي وأمي". وشهد الزبير بدراً وكانت عليه يومئذ عمامة صفراء معتجراً بها فيقال: نزلت الملائكة يوم بدر على سيماء الزبير". وسأل رجل علي بن أبي طالب: "من أشجع الناس؟"، فأجاب: "ذاك الذي يغضب غضب النمر ويثب وثوب الأسد، وأشار إلى الزبير"، وقال عنه عمر بن الخطاب: "لو تركت تركة أو عهدت عهداً لعهدت إلى الزبير إنه ركن من أركان الإسلام".

وبعد مقتل عمر، لم يظهر الزبير ميلاً إلى أحد المتنافسين على الخلافة: عثمان أو علي، وأوكل الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف. ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان، وصل الزبير بستمائة ألف درهم، فسأل الزبير عن أحسن المال، فقيل له الأرض، فاشترى أرضاً بالكوفة والبصرة. وكان الزبير، كما ورد في "الفتنة الكبرى: عثمان" لطه حسين يكره أن يودع الناس عنده الودائع، فإن أراد أحد أن يودعه مالاً، قال له الزبير: "إنما هو قرض"، فيقوم باستثمار هذه الأموال حتى عظمت ثروته وتراكمت، وعظمت ديونه كذلك. وكان للزبير خطط في الفسطاط والإسكندرية، والعراقين، وإحدى عشرة داراً في المدينة، وكان تحت يده ألف عبد. ولمّا مات الزبير، ترك وراءه عروضاً تقدر قيمتها بخمسين ألف ألف درهم، ومن العين خمسين ألف ألف درهم، كما تقول بعض الروايات.

وخلال خلافة عثمان، كان الزبير يميل إليه، فعثمان كان يؤثره بالعطاء، ولمّا حوصر عثمان، وقف ولده عبد الله على باب الخليفة ينافح عنه، وأعطاه عثمان وصيته ليؤديها إلى أبيه الزبير. وبحسب طه حسين في كتابه المذكور، فإن الزبير في أواخر خلافة عثمان كان من الرجال الذين نقموا عليه كمثل معظم الصحابة، لكنه لم يلتحق بالمعارضة المسلحة على أي حال. ويرى الشيعة أن الزبير كان من الأشخاص الذين انقلبوا على عثمان. جاء في "شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار" للقاضي الإسماعيلي النعمان المغربي أنه قيل للزبير إن عثمان محصور وإنه قد منع الماء، فقال الزبير: "وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب". ويزعم فقهاء الشيعة أن علي عندما قابل الزبير في معركة الجمل، قال له: "أتطلب مني دم عثمان وأنت قاتله؟".

بعد أن تسلق الثوار دار عثمان وقتلوه، بويع علي بالخلافة كما جاء معنا عند تناولنا لمقتل عثمان بن عفان. وقبيل مقتل عثمان، كانت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر في مكة، ثم خرجت منها تريد المدينة. فلمّا كانت بمكان يقال له سرف، لقيها رجل من أخوالها من بني ليث فسألته، فقال: "قتل عثمان وبقوا ثمانية"، فقالت: "ثم صنعوا ماذا؟"، فقال: "اجتمعوا على بيعة علي"،

فقالت: "ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك! ردوني ردوني!"، فانصرفت إلى مكة، وهي تقول: "قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه!"، فقال لها: "ولم؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنتِ، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر"، فقالت: "إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول"، وهذه القصة أوردها ابن الأثير في "الكامل في التاريخ".

عادت عائشة إلى مكة، واجتمع حولها بنو أمية الذين فرّوا من المدينة، والتحق بهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة، وجاء عبد الله بن عامر بن كريز بأموال عظيمة من البصرة. وفيما هم كذلك، قدم مكة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، فلقيا عائشة، فقالت لهما: "ما وراءكما؟"، فقالا: "إنا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم"، فقالت: "انهضوا إلى هذه الغوغاء"، فقالوا: "نأتي الشام"، فقال ابن عامر: "قد كفاكم الشام معاوية، فأتوا البصرة فإن لي به بها صنائع ولهم في طلحة هوى"، فقالوا: "قبحك الله! فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكفى بك ثم نأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب؟"، فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً، فاستقام الرأي على البصرة، وقالوا لعائشة: "نترك المدينة فإنا خرجنا فكان معنا من لا يطيق من بها من الغوغاء ونأتي بلداً مضيعاً سيحتجون علينا ببيعة علي فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة، فإن أصلح الله الأمر كان الذي أردنا، وإلا دفعنا بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد".

يرى أهل السنة أن علي لم يكن قادراً على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان مع علمه بأعيانهم، وذلك لأنهم أطبقوا السيطرة على مفاصل السلطة في المدينة، وأصبحوا قوة لا يستهان بها. لهذا كله، ارتأى علي الانتظار حتى تحين الفرصة الملائمة للقصاص منهم، ولكن بعض الصحابة وعلى رأسهم طلحة والزبير رفضوا هذا التباطؤ في تنفيذ القصاص. ولمّا انقضت أربعة أشهر على بيعة علي من دون أن ينفذ القصاص خرج طلحة والزبير إلى مكة، والتقوا

بعائشة هناك، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة ليلتقوا بمن فيها من الخيل والرجال، وليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيداً للقبض على قتلة عثمان، وإنفاذ القصاص فيهم.

في المقابل، يرى الشيعة أن علي قد أجّل الحكم بالقصاص لسببين: أولاً، الانتظار حتى ينقشع الغبار وتسكن الفتنة. وثانياً، استكمال أخذ البيعة له من الأمصار، وعزل الولاة الذين نصّبهم عثمان، وتعيين ولاة جدد من أجل امتصاص مشاعر الاحتقان من صدور الناس الذين نقموا على ولاتهم. ويفسّر الشيعة خروج طلحة والزبير بأنهما بايعا الإمام طمعا في منصب وهو ما لم ينالاه، لذلك خرجا عليه، واتخذا من القصاص لمقتل عثمان حجة لعزله عن الخلافة أو قتله. وفي "وفيات الأعيان" لابن خلكان أن علي عندما بويع بالخلافة، بايعه طلحة والزبير، فعزم علي على تولية الزبير البصرة وتولية طلحة اليمن، فخرجت مولاة لعلي فسمعتهما يقولان: "ما بايعناه إلا بألسنتنا وما بايعناه بقلوبنا"، فأخبرت مولاها بذلك، فقال: "أبعدهما الله تعالى، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه"، فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، وإلى اليمن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب. أمّا عائشة فهي من حرّض الناس على قتل عثمان، وهي من كانت تقول: "اقتلوا نعثلاً (عثمان) فقد كفر"، وهي التي أوقدت نار الحرب ودقت طبولها، وحرّضت طلحة والزبير على محاربة علي.

ولمّا التقى الجمعان، قاتل الزبير ساعة، ثم نادى عليه علي، فخرج إليه، فقال له علي: " يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر إلي فضحك وضحكت اليه، فقلت: لا يدع ابن ابي طالب زهوه ،فقال لك رسول الله: صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت ظالم له". فسكت الزبير، ثم انصرف عن القتال نادماً يقصد المدينة. وفيما هو في طريقه، لحق به ابن جرموز عبد الله، وهو من أتباع علي، وقال: "أتى يؤرش بين الناس ثم تركهم والله لا أتركه". ولمّا رأه الزبير أنه يريده، أقبل عليه، فقال له ابن جرموز: "أذكرك الله!"، فكفّ عنه الزبير حتى فعل ذلك مراراً، فقال

الزبير: "قاتله الله يذكرنا الله وينساه!"، ثم غافله ابن جرموز فقتله بموضع يعرف بوادي السباع. وأقبل ابن جرموز بسيف الزبير إلى علي، فأخذ علي السيف، وقال: "سيف والله طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ولمّا استأذن ابن جرموز على علي، قال: "ائذنوا له وبشروه بالنار".

وهناك رواية أخرى حملها كتاب "الأخبار الطوال" لأبي حنيفة الدينوي. تقول الرواية إن الزبير أحس بالندم بعد أن ذكره علي بكلمات النبي عليه الصلاة والسلام، فانصرف من ساحة المعركة، فلحقه ابنه عبد الله وبيده الراية العظمى، فقال: "يا بني، أنا منصرف"، فقال: "وكيف يا أبت؟"، فقال: "مالي في هذا الأمر من بصيرة، وقد أذكرني علي أمراً، قد كنت غفلت عنه، فانصرف يا بني معي"، فقال عبد الله: "والله لا أرجع أو يحكم الله بيننا"، فتركه الزبير، ومضى نحو البصرة ليتحمل منها، ويمضي نحو الحجاز. وأقبل الزبير حتى دخل البصرة، وأمر غلمانه أن يتحملوا، وأن يلحقوا به، وخرج من ناحية الخريبة، فمرّ بالأحنف بن قيس، وهو جالس بفناء داره وحوله قومه، وقد كانوا اعتزلوا الحرب، فقال الأحنف: "هذا الزبير، ولقد انصرف لأمر، فهل فيكم من يأتينا بخبره؟"، فقال له عمرو بن جرموز: "أنا آتيك بخبره". فركب فرسه، وتقلد سيفه، ومضى في أثره، وذلك قبل صلاة الظهر، فلحقه، وقد خرج من دور البصرة، فقال له: "أبا عبد الله، ما الذي تركت عليه القوم؟"، فقال الزبير: "تركتهم، وبعضهم يضرب وجوه بعض بالسيف"، ثم أضاف: "أنصرف لحال بالي، فما لي في هذا الأمر من بصيرة"، فقال ابن جرموز: "وأنا أيضاً أريد الخريبة، فسر بنا". فسارا حتى دنا وقت الصلاة، فقال الزبير: "إن هذا وقت الصلاة، وأنا أريد أن أقضيها"، وقال عمرو: "وأنا أريد أن أقضيها"، فقال الزبير: "أنت مني في أمان، فهل أنا منك كذلك"، فأجاب ابن جرموز: "نعم". فنزلا جميعاً، وقام الزبير في الصلاة، فلمّا سجد حمل عليه عمرو بالسيف، فضربه حتى قتله، وأخذ درعه وسيفه وفرسه، وأقبل حتى أتى علياً، وهو واقف، والناس يجتلدون بالسيوف، فألقى السلاح بين يديه، فلما

نظر علي إلى السيف، قال: "إن هذا السيف طالما فرج به صاحبه الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبشر يا قاتل ابن صفية بالنار"، فقال عمرو متأففاً: "نقتل أعداءكم، وتبشروننا بالنار؟!".

ويقال إن شبح الزبير ظل يطارد ابن جرموز في يقظته ومنامه حتى غدا الموت له راحة والخلاص من الدنيا أمنية. وقيل أيضاً إنه ذهب إلى مصعب بن الزبير أمير آل الزبير على العراق يستجديه في أن ينفذ القصاص به، فكتب إلى أخيه الأكبر عبد الله في مكة يستأذنه، فقال له: "أنا أقتل ابن جرموز بالزبير؟! ولا بشسع(*) نعلة!"، فخلى مصعب سبيله. ويقال أخيراً، إن ابن جرموز لمّا صارت حياته قطعة من عذاب لا يطاق ولا يحتمل، وضع السيف في بطنه حتى أخرجه من ظهره فمات!

(*) الشّسع هو زمام للنعل بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

طلحة بن عبيد الله

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو، ويكنى بأبي محمد. وطلحة كان تيمياً من رهط أبي بكر الصديق. وقد تزوّج طلحة بأربع نساء، إحداهن أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق. كان طلحة رجلاً آدم، كثير الشعر، ليس بالجعد القطط، ولا بالسبط، وحسن الوجه. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وممن روى عن النبي عليه الصلاة والسلام عدد من الأحاديث. وطلحة من السابقين إلى الإسلام، وأوذي من قبل أهل مكة في الله كثيراً. شهد طلحة المشاهد كلها، وغاب عن يوم بدر بسبب تجارة له بالشام، وقيل غاب لأنّ النبي بعثه وسعيد بن زيد يستعلمان خبر العير، فضرب له النبي بسهمهما وأجرهما.

وفي يوم أحد، سطّر طلحة بدمائه صفحات البطولة، فذاد عن النبي بروحه وبدنه، وتحمّل جسده طعنات السيوف والحراب، وامتلأ جسده بأربعة وعشرين جرحاً، وقع منها في رأسه شجة مربعة، وقطع نساه - يعني العرق - وشلت إصبعه. وعلى الرغم من جراحاته البليغة فقد أمد الله في عمره، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله". وفي يوم أحد سمّاه النبي طلحة الخير، وفي غزوة ذي العشيرة سمّاه طلحة الفياض، وفي يوم خيبر سمّاه طلحة الجود. وسمع عن علي بن أبي طالب يوم الجمل يقول: "سمعت من في رسول الله يقول: طلحة والزبير جاراي في الجنة".

وفي زمن الفتوحات الإسلامية الباهرة، تنامت ثروة طلحة وعظمت، فكان يغل بالعراق أربع مائة ألف، ويغل بالسرة عشرة الآف دينار، وبالأعراض له

غلات. وكان لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه، وقضى دينه. وقد سأل معاوية بن أبي سفيان أحد أبناء طلحة، فقال: "كم ترك أبو محمد من العين؟"، فقال: "ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم، ومن الذهب مائتي ألف دينار"، فقال معاوية: "عاش حميداً، سخياً شريفاً، وقتل فقيداً رحمه الله".

وحينما قتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة فيروز الديلمي، كان طلحة في تجارة له خارج المدينة، فلم يشهد الوقعة، ولم يحضر الشورى. ولمّا دخل المدينة، كان المسلمون قد بايعوا عثمان خليفة عليهم، فغضب طلحة لأنهم لم ينتظروه حتى يرجع، فجلس في داره، وقال: "مثلي لا يفتات عليه". وقيل إن عثمان حضر إليه بنفسه، وقال له: "إن شئت أن أرد الأمر رددته"، فقال طلحة: "أو تفعل؟"، فقال عثمان: "نعم!"، فقال: "فإني لا أرد الأمر، فإن شئت بايعتك في مجلسك هذا، وإن شئت بايعتك في المسجد". ولا غرابة في ذلك فقد كان طلحة وعثمان صديقين قبل الإسلام، وكانا يخرجان معاً للتجارة، وقد أسلما في العام نفسه.

وفي عهد خلافة عثمان، كانت العلاقة بين الاثنين على أحسن ما يرام، وكانت تزداد قوة كلما زاد عثمان له الوصل والعطاء. ولمّا بدأ الخلاف على الخليفة، انحاز طلحة إلى عثمان، ولمّا ساءت الأمور، واشتد الظلام، وضرب على عثمان الحصار، انحاز طلحة إلى مطالب الثوار وشاركهم الحصار. وفي "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد أن طلحة رفض طلب علي في أن يمنع الناس عن عثمان، وألحّ في قتله، وحرّض عليه. ولمّا حُمِلَ جثمان عثمان ليدفن في مقابر المسلمين، أوقف طلحة أناساً يحصبونهم بالحجارة، فمالوا به إلى مقبرة لليهود معروفة باسم حش كوكب فدفنوه فيها! وبعد أن بويع علي بالخلافة، بايعه طلحة والزبير، ثم ما لبثا أن خرجا على علي مطالبين بالثأر من قتلة عثمان! ألم نقل من قبل، إن دم عثمان كان باباً لفتنة ملعونة، وغطاءً لغايات مستورة، ونبعاً لجراحات تاريخية مفتوحةً؟!

وكما جاء معنا في حديثنا عن الزبير بن العوام، فإن طلحة والزبير سرعان

ما انقلبا على علي بن أبي طالب بعد أن بايعاه، فخرجا إلى مكة حيث تتمركز العناصر المناوئة لعلي والتي تضم عائشة بنت أبي بكر وبني أمية، ومن مكة خرجوا إلى البصرة. وكما قلنا من قبل، فإننا أمام وجهتي نظر مختلفتين حول خروج عائشة وطلحة والزبير على علي. فأهل السنة يقولون إنهم غضبوا على علي لإنه ماطل في القصاص من قتلة عثمان، وإنهم ما خرجوا إلى البصرة بقصد القتال، وإنما بقصد القصاص ممن اشتركوا في قتل عثمان.

الشيعة، في المقابل، يرون أن الذين خرجوا على علي لم يكن قصدهم إنزال العقوبة بقتلة عثمان، وإنما استخدموا دم عثمان مطية لإغراضهم. فعائشة كانت من أشد المحرضين على قتل عثمان، وكانت تقول: "اقتلوا نعثلاً فقد كفر". أمّا السبب وراء دعوة عائشة لقتل عثمان، فيرجع بحسب ابن أبي الحديد في كتابه المذكور أن عائشة وحفصة دخلتا على عثمان أيام خلافته، وطلبتا منه أن يقسّم لهما أرثهما من رسول الله، وكان عثمان متكئاً فاستوى جالساً، وقال لعائشة: "أنت وهذه الجالسة جئتما بأعرابي يتطهر ببوله وشهدتما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نحن معشر الانبياء لا نورث فإذا كان الرسول حقيقة لا يورث فماذا تطلبان بعد هذا؟ وإذا كان الرسول يورث لماذا منعتم فاطمة حقها؟"، فخرجت من عنده غاضبة وقالت: اقتلوا نعثلا فقد كفر. وزاد على ذلك، أن الخلافة آلت إلى علي الذي ما كانت عائشة توده منذ حادثة الأفك الشهيرة، وممّا يدلل إلى أي حد كانت عائشة لا ترغب في أن تؤول الخلافة إلى علي، قولها لخالها عندما لقيته في طريقها من مكة إلى المدينة، وعلمت منه أن المسلمين في المدينة بايعوا علي بالخلافة، أن قالت في حسرة: "ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك! ردوني ردوني!"، ثم رجعت إلى مكة.

وفي يوم الجمل، دعاه علي، وقال له: "يا طلحة أجئت بعروس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت؟"، فاستحى طلحة، وترك ساحة المعركة، فلحقه مروان بن الحكم، ورماه بسهم أصابه في رقبته وخرج من فمه. وفي رواية أخرى، وهي الأشهر، أن مروان تسلل وراءه، فرماه بسهم، فوقع في ركبته، ثم التفت مروان إلى أبان بن عثمان، وقال: "قد كفيناك بعض قتلة

أبيك"، وفي رواية أخرى: "هذا أعان على عثمان، ولا أطلب ثأري بعد اليوم". ويؤكد الصفدي في "الوافي بالوفيات" أن هناك إجماعاً بين العلماء الثقات على أن مروان بن الحكم هو من قتل طلحة يوم الجمل بالرغم من أنه كان في حزبه. وظل دم طلحة ينزف من ركبته، فكان يقول: "إنا داهنا في أمر عثمان، فلا نجد اليوم أمثل من أن نبذل دماءنا فيه، اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتى يرضى". وبعد أن شربت الأرض من دماء القتلى حتى ارتوت، وأكلت من لحوم القتلى حتى شبعت، مرّ علي بطلحة، وهو في وادي ملقى، فنزل إليه،ومسح التراب عن وجهه، وقال: "عزيز علي أبا محمد بأن أراك مجندلاً في الأودية تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي (أي سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي)".

مالك الأشتر

الأشتر ليس اسماً له، وإنما لقب أشتهر به. إن سبب تلقيبه بالأشتر يعود إلى معركة اليرموك التاريخية حيث شُتِرتْ - أي شقت - إحدى عينيه. ومن ألقابه الأخرى وصفه بكبش العراق. إن قصة الكبش هذه ترجع إلى يوم صفين حيث كان مالك يحمل راية الإمام علي، وكلما تقدم إلى الأمام تراجع خصومه إلى الوراء، في مشهد ربما يحاكي منظر الكبش ذي القرنين. اسمه هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي. ولد قبل الهجرة النبوية بثلاثين عاماً على وجه التقريب وفي مدينة الكوفة. أسلم مالك زمن النبي عليه السلام على الرغم من أنه لم ينزل المدينة، ولم يجالس النبي، ولم يسمع منه.

وعندما اندفع المسلمون كالحمم من باطن جزيرة العرب، التحق الأشتر بهم، لِيُسطّرَ على أرض المعارك صفحات مشرقة، ولينقش اسمه بحروف من نور. وفي عهد عثمان بن عفان، سيبرز اسم الأشتر كأحد أكبر رؤوس المعارضة التي نقمت على سياسات عثمان المالية والإدارية. وقد بلغت به الجسارة والقوة أنه قد حال بين عامل عثمان سعيد بن العاص وبين دخوله الكوفة، ثم وضع مكانه أبا موسى الأشعري. ولمّا سئل عن سبب فعلته تلك، قال: "هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد (يقصد العراق) بستان لأغيلمة من قريش والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم وفيؤكم وفيء آبائكم...". وبمرور الوقت، ستزداد الشقة بين عثمان والمعارضة، وستتحول النقمة إلى فتنة لاتزال

تسقى إلى هذا اليوم بدماء ابناء الدين الواحد. ففي أواخر أيام عثمان، سار الأشتر على رأس جماعة من أهل الكوفة، وسارت جماعة مثلها من البصرة ومصر فنزلوا المدينة. فأرسل عثمان إلى الأشتر يسأله ما يريد الناس منه، فرد عليه الأشتر بقوله: "واحدة من ثلاث ليس عنها بد: يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم: فتقول هذا أمركم فقلّدوه من شئتم، وإمّا أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فالقوم قاتلوك"، فقال عثمان: "أمّا أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله فتكون سنة من بعدي، كلما كره القوم إمامهم خلعوه...". وكما هو معلوم، فقد تسلق بعض الثوار دار عثمان فقتلوه، فكان دمه باباً انفتح على مصراعية لدخول الفتنة. وما أن قُتل عثمان حتى طلب الأشتر من علي بن أبي طالب أن يبسط يده ليبايعه بالخلافة. ومن الجائز أن يكون الأشتر هو من شجع علي على الرحيل إلى الكوفة ليكون في منعة من شيعته وأنصاره.

كان اسم الأشتر كفيلاً ببث الرعب في صفوف الخصوم وزرع الخوف في قلوبهم. وعلى الرغم من خريف العمر وجبال السنين التي كان ينوء بها ظهر الأشتر، إلا أنه كان يضم بين أضلعه ربيع العمر الدائم وفورة الشباب المتجدد. كان جسمه هائلاً كالجمل، وصوته مدوياً كالرعد، وقلبه شجاعاً كالأسد. ففي معركة الجمل دعا عبدالله بن الزبير، والذي كانت تضرب بقوته الأمثال، إلى المبارزة، فبرز إليه الأشتر، فقالت عائشة: "من برز إلى عبدالله؟"، فقالوا: "الأشتر"، فقالت: "واثكل أسماء!". وفي "العقد الفريد" لابن عبدربه أن ابن الزبير قال يوماً: "التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل فما ضربته ضربة حتى ضربني خمساً أو ستاً، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر". وجاء في المرجع نفسه أن عائشة بنت أبي بكر أعطت الذي بشرها بحياة ابن أختها ابن الزبير ونجاته من تحت الأشتر عشرة آلاف درهم. وفي يوم صفين،

ضرب الأشتر موعداً جديداً مع النصر، فكان علي بن أبي طالب قاب قوسين أو أدنى من قطف عناقيد النصر لولا حيلة عمرو بن العاص الذكية التي أجهضت نصراً كانت معالمه تتشكل في الأفق، وأبطلت نصراً كان له أن يغير من وجه التاريخ لو تحقق. إن من سيدخل إلى ثنايا حرب صفين ليتعفر بترابها ويتلطخ بدمائها سيجد أن الأشتر كاد أن يطير صوابه لمّا جاءته الأوامر من علي بالتراجع في أعقاب خضوعه واستسلامه لمطالب جماعة القرائيين. ففي "شرح نهج البلاغة" لابن أبي حديد أن الأشتر لمّا أقبل، صاح بهم: "يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم! أمهلوني فواقاً فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا نمهلك، قال: فأمهلوني عدوة الفرس، فإني قد طمعت في النصر، فقالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك".

كانت الأمصار الإسلامية زمن خلافة علي تدور في فلكه ما عدا الشام التي كانت تحت معاوية. كانت عينا معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص على مصر لغناها أولاً ولطمع ابن العاص في تولي أمرها، ولكن كيف السبيل إلى مصر وواليها هو قيس بن سعد بن عبادة، أحد أشد المخلصين لعلي وأحد دهاة العرب؟ تفتق ذهن معاوية وابن العاص على أن يعملا الحيلة ليوقعا بين علي وعامله على مصر، ومن ثم يسهل عليهما ضم مصر إلى الشام. فكتب معاوية كتاباً من قيس إليه يذكر فيه ما أتى إلى عثمان من الأمر العظيم وأنه - أي قيس - على السمع والطاعة! ونودي بالصلاة جامعة، فخطب معاوية في الناس، وقال: "يا أهل الشام إن الله ينصر خليفته المظلوم ويخذل عدوه، فأبشروا. هذا قيس بن سعد ناب العرب قد أبصر الأمر وعرفه على نفسه ورجع إلى الطلب بدم خليفتكم - يقصد عثمان - وكتب إلي"، فأمر بالكتاب فقرئ، وقد أمر بحمل الطعام إليكم، فادعوا الله لقيس وأرفعوا أيديكم، فعجوا وعج معاوية.

تناهت الأخبار إلى علي، وكان عنده الأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذمّا قيساً، ودفعا علياً إلى عزله وتولية الأشتر مكانه.

دفع علي بكتابه إلى الأشتر ليقرأه على الناس إذا بلغ مقصده، وكان فيه: "أمّا بعد، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مدحج...". فلمّا سمع معاوية بأن الأشتر في طريقه إلى مصر، اغتم لهذا النبأ أشد الغم، فاحتال في التخلص منه ومن دون إراقة قطرة دم. ولدينا ثلاث روايات تختلف في تفاصيلها إلا أنها تجمع على أن معاوية قد دسّ له السم. فابن أبي حديد في "شرح نهج البلاغة" يذكر لنا الروايتين التاليتين:

الرواية الأولى: أن علياً لما بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها، وبلغ معاوية خبره، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر، وأمره باغتياله، فحمل معه مزودين فيهما شراب، وصحب الأشتر، فاستسقى الأشتر يوماً فسقاه من أحدهما، ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سم فشربه، فمالت عنقه، وطلب الرجل ففاتهم.

الرواية الثانية: أن معاوية دس للأشتر مولى لآل عمر، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل علي وبني هاشم، حتى اطمأن إليه، واستأنس به، فقدم الأشتر يوماً ثقله أو تقدم ثقله، فاستسقى ماء، فقال له مولى آل عمر: وهل لك في شربة سويق؛ فسقاه شربة سويق فيها سم فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دس إليه مولى آل عمر: ادعوا على الأشتر، فدعوا عليه؛ فلمّا بلغه موته، قال: ألا ترون كيف استجيب لكم!

وهناك رواية أخرى وهي الأشهر، وتقول إن معاوية قد احتال في قتله فدسّ إليه السم بواسطة الجايستار. وهو رجل من أهل الخراج، وقيل دهقان القُلْزُم. وكان معاوية قد وعد هذا ألّا يأخذ منه الخراج طيلة حياته إن نفّذ مهمته تلك، فسقاه السم وهو في الطريق إلى مصر.

ولمّا وصلت الأخبار إلى الشام بمقتل الأشتر، قال عمرو بن العاص في

حبور: " إنّ لله جنوداً من عسل!"، وقال معاوية: "إنه كان لعلي بن أبي طالب يدان يمينان: قطِعت إحداهما بصفين. يعني عمار بن ياسر. وقطعت الأُخرى اليوم. يعني مالك الأشتر". أمّا علي فقد تملكه الهم وعصره الحزن، فصار يتأسف على الأشتر، ويقول: "لله در مالك، وما مالك؟ لو كان من جبل لكان فنداً، ولو كان من حجر لكان صلداً، أما والله ليهدن موتك وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك؟!".

علي بن أبي طالب

علي بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكنى بأبي الحسن. واشتهر علي بكنية أخرى وهي "أبو تراب". أمّا القصة وراء تلك الكنية التي كان علي يفرح إذا دعي بها، أن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بيت ابنته فاطمة، فلم يجد علياً، فسأل ابنته، فقالت: "قد كان بيني وبينه شيء فغاظني، فخرج ولم يقل عندي"، فسأل النبي رجلاً لكي يبحث عنه، فرجع إلى النبي، وقال: "يا رسول الله هو راقد في المسجد"، فجاء النبي، وعلي مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، فأصابه تراب، فجعل النبي يمسح عنه التراب، ويقول: "قم أبا تراب قم أبا تراب".

وعلي هو أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، وأول من أسلم من الصبية، وشهد بدراً والمشاهد كلها. والدته هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت فيها. روى علي عن النبي عدداً من الأحاديث، وحفظ القرآن، وله مصحف معروف باسم مصحف علي. ووصف علي أنه كان أصلع، عظيم البطن، عريضاً ما بين المنكبين، ثقيل العينين، له لحية بيضاء عظيمة قد ملأت صدره، وهو إلى القصر أقرب.

وجاء على لسان النبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في فضل علي. فمن جملة ما نقل عنه قوله: "أنت مني كهارون من موسى، غير أنك لست بنبي"، وقوله: "من كنت وليه فعلي وليه"، وقوله في رجل تناول علي بالقدح: "يا بريدة لا تقعن في علي فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي"،

وقوله لابنته: "قد زوجتك أعظمهم حلماً، وأقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً"، وقوله في قوم شكوا علي: "لا تشكو علياً، فوالله إنه لا أخشن في ذات الله"، وقوله كذلك: "من آذى علي فقد آذاني".

وجاء على لسان الصحابة والتابعين العديد من الأقوال في الثناء على علي. فمن أمثلة ذلك، قول سعيد بن المسيب: "لم يكن أحد من الصحابة يقول: "سلوني" إلا علي"، وقول ابن عباس عن عمر بن الخطاب: "علي أقضانا، وأبَيُ أقرؤنا"، وقول ابن مسعود: "كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي"، وقول ابن عباس: "إذا حدثنا ثقة بفتيا(*) عن علي لم نتجاوزه"، وقول ابن المسيب عن عمر: "أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن".

بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، اختلف المسلمون فيمن يبايعوه خليفة عليهم. ففيما كان بنو هاشم مشغولين بتأبين النبي، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليولوا سعد بن عبادة خليفة، فبلغت الأخبار أبا عبيدة الجراح، فذهب إلى أبي بكر وعمر وأخبرهما بما يعمل عليه الأنصار، فانطلق ثلاثتهم إلى السقيفة ومعهم عدد من المهاجرين، وجرت محاورات بين هذا وذاك، وكل يريد الخلافة له. وكما هو معروف، فقد آلت الخلافة إلى أبي بكر الصديق، وبايعه المهاجرون وأكثر الأنصار، وتخلف علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا حتى ماتت فاطمة بنت النبي، ثم جاءوا أبا بكر وبايعوه. وقيل إن أبا سفيان عندما بويع أبو بكر بالخلافة، قال: "ما لنا ولأبي بكر؟ إنما هي لبني عبد مناف"، ثم جاء إلى علي، وقال: "ابسط إلي يدك أبا الحسن حتى أبايعك"، فيأتيه الرد من علي قاطعاً عليه الطريق: "إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك!".

كانت الخلافة في كل مرة قاب قوسين أو أدنى من علي، لكنها سرعان ما كانت تفر من بين يديه. ولمّا قتل عثمان، أقبل الناس على علي مبايعين. جاءت

(*) بفتيا، أي بفتوى، إشارة إلى أنَّ علياً بن أبي طالب كان مرجع للصحابة في ما يتعلق بالفتاوى الدينية.

الخلافة لعلي في زمن تفشت فيه العصبيات، وتغيرت فيه نفوس الناس، وسالت فيه الدماء، وتفرقت بالناس الأهواء. ورث علي عن عثمان تركة ثقيلة تنوء بها الجبال ويشفق من حملها الرجال. لم يكن طريقه لإحقاق الحق وبسط الشرع ونشر العدل مفروشاً بالأزهار، بل كان مبسوطاً بالآلام ومحفوفاً بالأشواك. كانت خلافة علي كدر وابتلاء، فما أن يخرج من مصيبة حتى تضربه أخرى، وما أن يطفئ ناراً حتى تشتعل أخرى. فما كاد علي يتسلم الخلافة حتى انشق عنه الزبير وطلحة وعائشة، فخرجوا إلى البصرة يطالبون بدم عثمان، وهم بالأمس من حرضوا عليه وشاركوا في الحصار المضروب عليه. ولمّا لمس علي فيهم التصميم على الحرب، نهد إليهم في جيش من الأنصار والمهاجرين، فالتقى الجمعان بظاهر البصرة، وجرت خطوب وحروب، وسقط الزبير وطلحة قتيلين. وأمّا عائشة فقد أحسن إليها علي غاية الإحسان، وعاملها بما يليق بأمهات المؤمنين، وجهّزها بما ينبغي التجهيز، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة لمؤانستها في الطريق، وسيّرها صحبة أخيها محمد بن أبي بكر مكرّمة محترمة.

ولمّا انقضت وقعة الجمل، نوى علي أن يعزل معاوية عن الشام، فنصحه المقربون أن يتريث حتى يبايعه الناس عامة ويتمكن قبل أن يعزله، فأبى علي أن يتأخر ولو يوماً واحداً. وورد في "تاريخ الدول الإسلامية" لابن طباطبا أنه حين بلغ معاوية ما هم به علي، أشار عليه عمرو بن العاص أن يلوّح لأهل الشام بقميص عثمان وأصابع زوجته نائلة، فأخرج معاوية للناس القميص والأصابع، وبكى واستبكى الناس معه. والتقى الفريقان في صفين، فجرت بينهما مناوشات وحروب، وكاد عسكر علي أن يغلبوا عدوهم، ولاحت في الآفاق بشائر النصر، وخاف معاوية من الهزيمة، فأشار عليه الداهية عمرو برفع المصاحف على أسنة الرماح. فلمّا رأى أكثر جند علي المصاحف مرفوعة، فترت عزائمهم، ومالوا للموادعة، فنهاهم علي، وقال لهم: "يا قوم إنها خدعة منهم وإنهم ليس فيهم من يعمل بهذه المصاحف"، فهدّدوه بقولهم: "يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل، فوالله إن لم تفعل لنحملنك كارهاً إلى معاوية، أو لنفعلن بك

كما فعلنا بابن عفان!". نزل علي مكرهاً ومغلوباً على مطالبهم، فجرت واقعة التحكيم الشهيرة، وفرّ النصر من بين يدي علي، ونجا معاوية من الهلاك بفضل دهاء عمرو بن العاص وسذاجة جند علي الذين أجبروه على القبول بالتحكيم.

وبعد أن جرى أمر التحكيم، عاد الذين أشاروا على علي بالتحكيم، فقالوا له: "لا حكم إلا لله"، فقال علي: "لا حكم إلا لله"، فقالوا: "فما لك حكّمت الرجال؟، فقال: "إني لم أرض بقضية التحكيم وأنتم الذين رضيتموها، وإني أعلمتكم أنها مكيدة من أهل الشام، وأمرتكم بقتال عدوكم منهم، فأبيتم إلا التحكيم"، فقالو: "أمّا نحن فلا ريب أنّا رضينا بالتحكيم في أول الأمر لكننا ندمنا عليه وعلمنا أنّا كنا مخطئين، فأنت إن أقررت على نفسك الكفر واستغفرت الله من خطأتك وتضييعك وتحكيمك الرجال رجعنا معك إلى قتال عدوك وعدونا وإلا فها نحن قد نابذناك". فلمّا فرغوا من قولهم، وعظهم علي بكل قول، وبصّرهم بكل وجه، فلم يلتفتوا إليه وانصرفوا عنه. فلمّا انشق الخوارج، خطب علي في الناس، وندبهم إلى قتال معاوية، فقالوا له: "يا أمير المؤمنين أين نمضي وندع هؤلاء الخوارج يخلفوننا في عيالنا وأموالنا! سِرْ بنا إليهم فإذا فرغنا من قتالهم رجعنا إلى قتال أعدائنا من أهل الشام"، فسار بهم علي إلى محاربة الخوارج على النهروان، فأبادهم، وكأنما قيل لهم موتوا فماتوا.

بعد مرور عامين من معركة النهروان، اجتمع ثلاثة رجال من الخوارج بمكة، فتذاكروا أمر المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم، وذكروا أهل النهروان وترحموا عليهم. ثم قالوا لبعضهم بعضاً لو أننا أتينا أئمة الظلال وطلبنا غرتهم فأرحنا منهم العباد والبلاد. فقال عبد الرحمن بن ملجم: "أنا أكفيكم علياً"، وقال الثاني: "وأنا أكفيكم معاوية"، وقال الثالث: "وأنا أكفيكم عمرو بن العاص"، فتعاهدوا على الوفاء بقسمهم، وضربوا فيما بينهم شهر رمضان موعدهم لقتل الثلاثة المذكورين.

دخل ابن ملجم الكوفة فلقي فيها أصحابه، فكتمهم أمره، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة لئلا يذيع النبأ بين الناس. جاء في "مقاتل

الطالبيين" لابي فرج الأصفهاني أنه وفي أحد الأيام، زار ابن ملجم رجلاً من أصحابه، فصادف في طريقه امرأة من بنات الخوارج وكانت آية في الجمال واسمها قطام بنت الأخضر من تيم الرباب، فشغف بها ابن ملجم وتملكت فؤاده، فخطبها. فقالت له قطام: "ما الذي تسمي لي من الصداق؟"، فقال لها: "احتكمي ما بدا لك"، فقالت: "أنا محتكمة عليك بثلاثة آلاف درهم ووصيف وخادم وقتل علي بن أبي طالب"، فقال لها: "لك جميع ما سألت، فأما قتل علي فأنى لي ذلك؟"، فقالت: "تلتمس غرته فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهنأك العيش معي، وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا"، فقال لها: "أمّا والله ما أقدمني هذا المصر إلا لقتله". فرحت قطام بما قطعه ابن ملجم على نفسه من عهد، فأرسلت إلى أحد أقاربها تسأله أن يعين ابن ملجم فيما ندب نفسه من أجله، فأرسل لها رجلاً يقال له شبيب بن بجرة.

ولمّا حانت الليلة الموعودة، خرج ابن ملجم وصاحبه شبيب ليكمنا لعلي في جامع الكوفة. سهرا ليلتهما في صحن الجامع ينتظران بزوغ الفجر. كانا يعلمان بأن علياً سيخرج من تلك السدة لينادي في الناس على الصلاة كعادته، فوقفا مقابل السدة يتربصان به. أقبل علي حاملاً درته التي يوقظ بها الناس للصلاة وبصحبته مؤذن الجامع وابنه الحسن. فجأة انشقت الأرض عن ابن ملجم وصاحبه، فصاحا في وجهه، وقد امتشقا سيفيهما: "إن الحكم لله لا لك يا علي". هوى سيف ابن ملجم على جبين علي وأخطأه سيف شبيب، فوقع غارقاً في دمائه. لحق الناس بابن ملجم فأمسكوه، أما صاحبه فقد انسلّ منهم. حُمل علي ودماؤه تنزف بغزارة إلى مجلسه، وقال وهو يغالب جراحه وآلامه: "أطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا أولى بدمه عفواً وقصاصاً وإن أمت فألحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين". جيء له بالأطباء لينظروا في حاله. كلما عاوده طبيب، خرج من عنده ليقول في يأس: "ليس للشفاء من حيلة"، فقالوا لعلي: "اعهد عهدك يا مولاي فإنك قريباً مفارق، فالجرح مسموم بسم ناقع لا ينفع معه دواء". بقي علي على حالته تلك ليلتين ينازع فيهما الموت حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى. وبعد أن ووري علي الثرى، أخرج ابن ملجم من

سجنه ليقتل. اجتمع الخلق وجاؤوه بالنفط والنار، فقال بعضهم: "دعونا نحرقه"، وقال آخرون: "بل دعونا نعذبه حتى تشفى أنفسنا منه". جاءوا بالسيف فقطعوا به يديه ثم رجليه، فلم يجزع ابن ملجم ولم يتأوه. ثم أخذوا بمسمار محمى، فكحّلوا به عينيه حتى سالتا على خديه، فلم يجزع ابن ملجم ولم يتأوه. ثم أخرجوا لسانه ليقطعوه، فجزع وانتفض. فقالوا له: "قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع، فلما صرنا إلى لسانك جزعت!"، فقال: "ما ذاك مني من جزع إلا أني أكره أن أكون في الدنيا فواقاً لا أذكر الله!". فما كان منهم إلا أن سحبوا لسانه فقطعوه، ثم جعلوه في قوصرة، وأحرقوه بالنار. رحل علي مطعوناً ومغدوراً ولحقه ابن ملجم محروقاً ومقتولاً. أما صاحباه فقد خاب مسعاهما فقتلا صبراً. وبموت علي، تطوى آخر صفحات الخلافة الراشدة العطرة والتي لم تستمر سوى ثلاثين عاماً.

خارجة بن حذافة

هو خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر. وهو يعد من فرسان عشيرة بني عدوة القرشية ومفاخرها. وقد غالى بعضهم في وصف قوته وشجاعته وذلك بأن جعل قوته تعادل ألف فارس. ويعد خارجة كذلك من زمرة صحابة النبي محمد عليه السلام، وقد روى عنه حديث واحد حول فضل صلاة الوتر. ولمّا كان عمرو بن العاص يقود الجيش لفتح بلاد مصر، أمدّه الخليفة عمر بن الخطاب بثلاثة آلاف مقاتل، وكان على رأسهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وخارجة بن حذافة. ولمّا وصل خارجة هناك، جعله عمرو على رأس قوة سارت إلى الفيوم فنجح في ترويضها وضمّها إلى ممتلكات المسلمين.

وبعد استكمال فتح مصر، سيمحى وجه خارجة من التاريخ ولسنوات طويلة إلى أن يطل من جديد وذلك في عام 40 هـ في تلك السنة - كما تقدم بيانه معنا - تواطأ ثلاثة رجال من الخوارج على القصاص من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. رأى هؤلاء الخوارج أن أولئك الصحابة الكبار هم من قادوا الأمة إلى دروب الفرقة ومهالك الفتنة. قال أولهم وهو عبد الرحمن بن ملجم: "أنا أكفيكم أمر علي"، وقال ثانيهم وهو البرك بن عبد الله: "وأنا أكفيكم أمر معاوية"، وقال ثالثهم وهو عمرو بن بكر: "وأنا أكفيكم أمر ابن العاص" .

سار ثالثهم وهو عمرو بن بكر إلى مصر ليفتك بأميرها ابن العاص. وتشأ الأقدار أن يصاب عمرو بن العاص ليلتها بوجع في بطنه منعه من الخروج للصلاة بالناس صلاة الفجر، فأرسل إلى خارجة ليصلي بالناس. فلمّا همّ خارجة

بدخول الجامع، انقض عليه الخارجي بسيفه فما تركه إلا صريعاً. ثم إن الناس اجتمعوا عليه، فأخذوه إلى عمرو بن العاص. فلمّا دخلوا به على ابن العاص، تساءل الخارجي في استغراب: "من هذا؟"، فقالوا: "هذا عمرو بن العاص"، فقال: "فمن قتلت؟"، قالوا: "ذاك خارجة"، فقال: "أما والله يا فاسق (يقصد ابن العاص) ما ظننته غيرك!، فقال ابن العاص: "أردتني وأراد الله خارجة". وقيل إن الخارجي هو من قال هذه العبارة التي ذهبت فيما بعد مثلاً بين العرب. وينقل عن ابن العاص أنه كان يقول بعد تلك الحادثة: "ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة". وقد جعل بعض الشعراء من تلك الحادثة مادة لنسج أشعارهم، كما أنشد أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في إحدى مرثياته:

وليتها إذا فدت عمراً بخارجة
فدت علياً بمن شاءت من البشر

أمّا ما كان من شأن الرجلين الاثنين، فإن الأول وهو عبد الرحمن بن ملجم - كما جاء في حديثنا عن علي بن أبي طالب - فقد نال من علي فقتله. وأمّا الثاني وهو البرك بن عبدالله فإنه تربّص بمعاوية كما فعل صاحباه. فلمّا خرج معاوية للصلاة، شدّ عليه بسيفه، فوقع السيف في أليته. فلمّا وضع بين يدي معاوية، قال: "إن عندي خبراً أسرك به، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك؟"، فقال معاوية: "نعم"، فقال: "إن أخاً لي قد قتل علياً هذه الليلة"، فقال: "فلعله لم يقدر على ذلك"، فقال: "بلى إن علياً ليس معه أحد يحرسه"، فأمر به معاوية فدقت عنقه.

عبد الرحمن بن عديس

هو من قبيلة بلي الحجازية، واسمه عبد الرحمن بن عديس بن عمرو بن عبيد بن كلاب. يعد عبد الرحمن من صحابة النبي محمد عليه السلام، وكان من أولئك الذين شهدوا بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة في السنة السابعة للهجرة. ولا يعرف لعبد الرحمن زمن النبوة من أفعال أو أقوال تستحق الوقوف عندها غير مبايعته تلك. وفي خلافة عمر بن الخطاب كان ابن عديس من ضمن طلائع الجيوش الإسلامية التي وطئت بخيولها أرض الكنانة. ولمّا استكمل المسلمون بسط نفوذهم على تراب مصر، طاب لعبد الرحمن العيش هناك، فاختط بها وسكنها.

وعلى ما يبدو فإن عبد الرحمن لم يكن راضياً البتّة على سلوكيات الخليفة عثمان بن عفان، ولا على سياساته المالية والإدارية التي اختصت بني أمية بالمناصب والعطايا. ولهذا فقد انضم عبد الرحمن إلى الخلايا الثورية التي كانت تتحرق للإطاحة بعثمان. ومما يقطع بدوره الفعّال والنشط في تأليب الثوار على عثمان أنه خرج على رأس ما يقرب من خمسمائة مصري تظاهروا بالمسير من أجل الحج. وفي الوقت ذاته، تدفقت جماعة من البصرة وأخرى من الكوفة تظللها راية واحدة، وهي إسقاط الخليفة عثمان ولو بالقوة.

تقاطر الثوار إلى مكان بالقرب من المدينة. كانت أهواؤهم تمزقهم وميولهم تفرقهم: فمنهم من كان هواه مع علي، ومنهم من كان هواه مع طلحة، ومنهم من كان هواه مع الزبير. لم يكن من شيء يجمعهم سوى التخلص من عثمان. علم علي وطلحة والزبير بما يخططون له، فصاحوا بهم وعنّفوهم. بدا وكأن نار

الثورة قد خمدت وأن ريح الفتنة قد سكنت، وأن الهدوء عاد ليلف مدينة الرسول.

وما هي إلا ساعات حتى كانت نواحي المدينة وجنباتها ترتج من أصوات التكبير. عاد الثوار والشرر يتقد في عيونهم والموت يسير في ركابهم. فجاءهم أهل المدينة يسألونهم ما الذي ردهم بعد أن رحلوا. فمدّ لهم أهل مصر صحيفة وجدوها مع غلام لعثمان وعليها ختم الخليفة. قرأوا الصحيفة فإذا هي أوامر من عثمان لعامل مصر بجلد ابن عديس وعدد من الرجال وبصلب عدد آخر. فلمّا رمى علي بالكتاب في حجر عثمان، حلف عثمان أنه ما فعل وما علم بأمر الكتاب. فقال آخرون هذا من تدبير مروان بن الحكم. لم تفلح محاولات علي وبقية الصحابة ولا ايمان عثمان الغليظة في انتزاع فتيل الفتنة. تسلّق بعضهم دار عثمان، فنزلوا عليه بسيوفهم وهو يقرأ القرآن. لم يرحموا كبر سنه ولا عظم منزلته ولا دموع زوجته، فهبروه بسيوفهم، ليسيل أول دم في زمن الفتنة، تلك الفتنة التي لم ينقطع خيط دمها إلى هذا اليوم.

أمّا ما كان من أمر ابن عديس، فإنه قد وقع لاحقاً في يد معاوية بن أبي سفيان، فحبسه مع جماعة من الثوار الذين تسببوا في سفك دم عثمان في فلسطين. وفي يوم ما، نجح ابن عديس في الفرار من سجنه. وبينما هو يتلمس طريقه للنجاة من قبضة معاوية، وإذ بأحد الفرسان يركض نحوه. فلمّا أدركه، صاح به ابن عديس: "ويحك! اتق الله في دمي فإني من أصحاب الشجرة"، فقال له الفارس: "الشجر في الجليل (وفي رواية الجبل) كثير"، ثم هوى عليه بسيفه فأرداه قتيلاً.

محمد بن مسلمة الأنصاري

ولد محمد بن مسلمة قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة، وامتد به العمر إلى حدود عام 43 هـ، وقيل في رواية أخرى إلى عام 47 هـ. اعتنق ابن مسلمة الإسلام حينما بعث النبي محمد عليه السلام بمصعب بن عمير إلى يثرب ليدعو أهلها إلى الإسلام ويفقههم في الدين. إن قراءة عابرة لسيرته الذاتية تشف عن رجل تشربت أعماقه حب النبي عليه الصلاة والسلام حتى النخاع. ومما يقطع بتفانيه في تلبية الدعاء، وحرصه على الانضواء تحت لواء النبي، أنه رأَسَ معظم سرايا النبي، وشهد مغازي الرسول كافة باستثناء واحدة كلّفه النبي وقتها بحراسة المدينة. وعندما خرجت طلائع الفتح الإسلامي من أعماق الصحراء لغزو العالم ودك ممالك الروم وفارس كان ابن مسلمة هناك حاملاً روحه على كفيه. وعندما تولّى عمر بن الخطاب الخلافة، استعمل ابن مسلمة عيناً له ليستطلع أحوال الولاة والعمال على الأمصار، وأذناً له ليصغي إلى شكاوى الناس وحاجاتهم، ويداً له ليوقع العقاب بمن أساء السيرة وعزل نفسه عن الرعية وسكن الدور العلية. ويخبرنا بهذا الخصوص ابن الأزرق في "بدائع السلك في طبائع الملك" أنه نما إلى مسامع عمر بن الخطاب أن سعد بن أبي الوقاص أمير الكوفة قد اتخذ قصراً وجعل عليه باباً، وقال: "انقطع عني الصويت". فأرسل إليه محمد بن مسلمة، وقال له: "أيت سعداً فأحرق عليه باباً"، فأتى ابن مسلمة الكوفة، فأخرج زنده، واستوقد ناراً، ثم أحرق الباب. فجعل سعد يعتذر، ويحلف بالله ما قال، فقال له محمد بن مسلمة: "نفعل ما أمرنا به، ويروى عنك القول. انتهى".

إن الحديث عن محمد بن مسلمة لا يكتمل ما لم نعرّج على قصته الشهيرة مع كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي المعروف. هذه القصة وردت في عدد من المراجع التاريخية، مثل "المغازي" للواقدي و"السيرة النبوية" لابن اسحاق. ونظراً لطول تلك القصة وامتلائها بالتفاصيل الصغيرة، فسوف نقوم بإيجازها. تقول القصة إن ابن الأشرف كان يهجو النبي عليه الصلاة والسلام، ويحرض عليه كفار قريش في شعره. ولمّا جاءت بشائر النصر إلى المدينة بانتصار المسلمين على قريش يوم بدر، قال ابن الأشرف لقومه: "ويلكم، والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم". ثم إن ابن الأشرف خرج إلى مكة يبكي قتلاهم ويحضهم على الثأر. فلمّا بلغ النبي عليه الصلاة والسلام ما يقوله ابن الأشرف، قال: "من لي بابن الأشرف، فقد آذاني؟"، فقال ابن مسلمة: "أنا به يا رسول الله، وأنا اقتله"، فقال له: "فافعل!". ثم إن ابن مسلمة اجتمع بنفر من الأوس منهم عباد بن بشر وأبو نائلة. فلمّا عزم الرجال على الفتك بابن الأشرف، أتوا النبي عليه الصلاة والسلام عشاء فأخبروه، فمشى معهم حتى أتى البقيع، ثم قال لهم: "امضوا على بركة الله وعونه!". مضى ابن مسلمة بصحبة الآخرين إلى حصن ابن الأشرف، فلمّا بلغوا الحصن هتف به أبو نائلة، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس، فوثب فأخذت زوجته بناحية ملحفته، وقالت: "أين تذهب؟ إنك رجل مُحَارب، ولا ينزل مثلك في هذه الساعة"، فقال: "ميعاد، إنما هو أخي أبو نائلة، والله لو وجدني نائماً ما أيقضني". ثم نزل إليهم فحياهم، ثم طلبوا منه أن يمشي معهم ليتحدثوا بقية ليلتهم. وفيما هم كذلك، أدخل أبو نائلة يده في رأس ابن الأشرف، ثم قال: "ويحك، ما أطيب عطرك هذا يا ابن الأشرف!"، ثم صاح في أصحابه: "اقتلوا عدو الله!"، فضربوه بسيوفهم فلم تغن ضرباتهم شيئاً. فتذكر ابن مسلمة أن معه مغولاً فانتزعه في سرته، ثم تحامل عليه فقططه حتى انتهى إلى عانته، فصاح ابن الأشرف صيحة مدوية إلى أن خرّ صريعاً. ثم احتزوا رأسه، وحملوه معهم حتى أقبلوا على النبي وهم يكبرون. وعندما سمع النبي تكبيرهم بالبقيع كبّر

ووقف على باب المسجد. فلمّا أقبلوا عليه، قال لهم: "أفلحت الوجوه!"، فقالوا: "ووجهك يا رسول الله!". هذه القصة وغيرها من قصص الاغتيالات التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام قامت جماعات الإرهاب المتأسلم بانتزاعها من سياقاتها التاريخية، وبتوظيفها في دناءة مكشوفة كذريعة لاستئصال خصومهم من أبناء الدين الواحد والدم الواحد ممن وقفوا في وجه أطروحاتهم العبثية وتخريجاتهم لممارساتهم الانتهازية.

وبعيداً عن قصة محمد ابن مسلمة مع ابن الأشرف، فقد أظهر ابن مسلمة في زمن الفتنة التي اشتعلت أوارها في عهد عثمان ميلاً للمهادنة والمصالحة وترجيحاً لصوت العقل والحكمة، لكنه لم يكن بقادر على التصدي لتيار الفوضى الجارف ولا على حقن دم عثمان بن عفان. لقد أدّى مقتل عثمان إلى إشعال حريق لاتزال مفاعيله تسافر عبر التاريخ وإلى يومنا هذا. لم يختر ابن مسلمة نصرة علي ومن تشيع معه ولا نصرة من احتجوا بدم عثمان. فقد جاء في "الأخبار الطوال" لأبي حنيفة الدينوري أن عليّاً لمّا همّ بالسفر إلى العراق استدعى كلّاً من سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة، فقال لهم: "قد بلغني عنكم هناة كرهتها لكم"، فقال سعد: "قد كان ما بلغك، فاعطني سيفاً يعرف المسلم من الكافر حتى أقاتل به معك"، وقال عبد الله بن عمر: "أنشدك الله أن تحملني على ما لا أعرف"، وقال محمد بن مسلمة: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون، فإن قوتل أهل الصلاة ضربت به صخر أحد حتى ينكسر، وقد كسرته بالأمس"، ثم خرجوا من عنده.

كسر محمد بن مسلمة سيفه على أقدام جبل أحد، واعتزل الفتنة، فما حضر أي من موقعتي الجمل وصفين. لم يعتزل ابن مسلمة الفتنة فحسب، بل اعتزل الناس، فاختار الربذة (منطقة تبعد عن المدينة المنورة حوالى 200 كيلو متر شرقاً وهي الآن عبارة عن خرائب) منفى له. أقام فيها ما بقي له من العمر. ترك وراءه سيفه المكسور، واتخذ سيفاً من خشب، ثم صيّره في جفن، وعلقه

في داره ليرهب به أي معتد أثيم. وذات ليلة، اقتحم داره رجل شقي من بلاد الشام، رجل لم يعجبه موقفه من الحرب، فقتله وهو نائم في فراشه. رحم الله ابن مسلمة الذي اعتزل الفتنة إلا أنها لم تعتزله. طاردته وهو يفرّ منها، ولاحقته وهو يبتعد عنها، فتسلّلت إليه أصابعها الغادرة في فراشه وتحت أجفان الظلام لتكتم أنفاسه.

خالد بن معمر السدوسي

لا تحوي كتب السير والتراجم إلا نزراً يسيراً عن هذه الشخصية. وتبتدئ الإطلالة الأولى لخالد هذا على سطح الأحداث عندما كان علي بن أبي طالب يتهيأ للسير إلى محاربة معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين التاريخية. وكان خالد حينها يتزعم قبيلة ربيعة العريقة التي كانت من أشد القبائل مناصرة لعلي. ويذكر أن علياً أثناء استعدادات الطرفين لبدء القتال مر برايات ربيعة، فسألهم بصوت جهوري: لمن هذه الرايات؟ فقالوا: رايات ربيعة، فقال علي: بل هي رايات الله، عصم الله أهلها وصبّرهم وثبت أقدامهم. ونظراً للثقل النسبي الذي احتلته ربيعة، فقد سعى معاوية جاهداً لاستمالتها لصفه أو على الأقل تحييدها إلا أن مساعيه باءت بالفشل، مما جعله يهدد بقتل رجالها وسبي نسائها إن استمروا على موقفهم الممالئ لعلي.

أما زعيم ربيعة، خالد السدوسي، فلم يكن من خلال الوقوف على نتف الأخبار المنثورة عنه هنا وهناك، يتعصب ويتحمس لعلي كبقية أفراد قبيلته. وأغلب الظن أن خالد كان يود لو أنه مال بقبيلته إلى معاوية لا عن قناعة بعدالة موقفه، ولكن لما يبذله الأخير من الأموال في استرضاء الرجال. ويقال إن خالد قال مرة للعباس بن الهيثم: "إتق الله في عشيرتك وانظر في نفسك! ماتؤمِّل من رجل سألته أن يزيد في عطاء ابنيه الحسن والحسين دريهمات لما رأيته من حالتهما فأبى عليٌّ، وغضب من سؤالي إياه ذلك!". وعلى ما يظهر من قراءة بعض الأخبار النادرة أن موقع خالد كشيخ للقبيلة لم يكن ليؤهله بالتفرد في صناعة القرار وتوجيه ولاء القبيلة وهواها لمصلحة معاوية. ومما يجعل المرء

يتشكك في صلابة ولاء خالد لعلي وعجزه في الوقت ذاته عن حمل قبيلته على الالتحاق بمعسكر معاوية ما يروى أنه قد سُرّبَ لعلي أن خالد قد كاتب معاوية، فبعث إليه وإلى رجال من أشرافهم، فقال: "يا معشر ربيعة أنتم أنصاري ومجيبو دعوتي ومن أوثق حي في العرب في نفسي وقد بلغني أن معاوية كاتب صاحبكم خالد بن المعمر"، ثم أردف علي: "يا خالد إن كان ما بلغني عنك حقاً فاني أشهد الله ومن حضرني من المسلمين أنك آمن حتى تلحق بالعراق أو بالحجاز أو أرض لا سلطان لمعاوية فيها، وإن كنت مكذوباً عليك فأبرّ صدورنا بأيمان نطمئن إليها"، فحلف له بالله ما فعل، وقال رجال من ربيعة " لو نعلم أنه فعل لقتلناه"، وقال أحدهم: "ما وفق الله خالد بن المعمر حين نصر معاوية وأهل الشام على علي وربيعة"، وقال رجل آخر: "يا أمير المؤمنين استوثق من ابن المعمر بالايمان لا يغدر"، فاستوثق منه علي.

وعندما دارت رحى معركة صفين، قال معاوية لأهل الشام : "يا أهل الشام! هذا الحي (يعني ربيعة) من أهل العراق قتلة عثمان بن عفان، وأنصار علي بن أبي طالب، وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان وهلك علي وأهل العراق". فشدّد أهل الشام هجوماتهم على قبائل ربيعة، فثبتت لهم ربيعة، وصبر رجالها صبراً جميلاً إلا قليل من الضعفاء، وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ، وقاتلوا قتالاً شديداً. فلمّا رأى خالد بن المعمر أناساً من قومه قد انهزموا، وولّوا الأدبار، انصرف بدوره. وعندما رأى أن أصحاب الرايات قد ثبتوا، ورأى قومه قد صبروا، رجع وصاح بمن انهزم بالرجوع. فقال من بقي وصمد من قومه: "أراد الانصراف، فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا!"، فرد عليهم خالد بقوله: "لمّا رأيت رجالاً منا قد انهزموا، رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إليكم، فأقبلت إليكم بمن أطاعني منهم"!

ظل خالد حليفاً لعلي، لا يجرؤ على أن يصدع برغبته في المسير إلى معاوية خوفاً من أن يفتك به أفراد قبيلته. ولعل من الجائز القول إن خالد كان ممزقاً من الداخل، ويعاني من صراع داخلي وعذاب نفسي لا ينتهي. إن المأزق الأخلاقي الذي كان يضطرم في صدره ما هو إلا مرآة للصراع الدائر في الخارج

ما بين الأخلاق والمال، وما بين الزهد والثراء، وما بين علي ومعاوية. وربما وفر اغتيال علي في رمضان من 40هـ فرصة لانعتاق خالد وتحلله من التحالف. ولا يعرف بالضبط ما إذا كان خالد قد بدأ في مكاتبة معاوية والتقرب منه قبل أو بعد بدء المراسلات ما بين معاوية والحسن بن علي بشأن تنازل الأخير عن الخلافة. والأقرب عندي أن الحسن ما فعل ذلك إلا بعد أن علم بأن وجهاء عشائر العراق باتو يهرولون سراً لمبايعة معاوية، وكان خالد بن المعمر على رأس تلك القبائل. فقد جاء في "أنساب الأشراف" للبلاذري: وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن معمر فقال أبايعك عن ربيعة كلها ففعل! وبايعه عفاق بن شرحبيل بن رهم التيمي، فلذلك يقول الشاعر موجهاً قصيدته إلى معاوية:

فــإنــك لــولا خــالــدٌ لــم تــؤمَّــرِ

مــعــاويَ أكــرم خــالــدَ بــن مــعــمَّــرِ

وفي "مقاتل الطالبيين" للأصفهاني أنه عندما بلغت الحسن هذه الأخبار قال: "يا أهل العراق، أنتم الذين أكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه، وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه، فحسبي منكم لاتغروني في ديني ونفسي".

أما خالد فيظهر أنه قد عقد صفقة سياسية مع معاوية تتلخص شروطها في منحه ولاية خراسان مقابل ضمان ولاء قبيلة ربيعة، وقد أجابه معاوية إلى ذلك. ثم إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية مقابل شروط وافق عليها، ثم تراجع عنها فيما بعد، ودسّ السم إلى الحسن فمات، كما سيتبين معنا في القادم من الصفحات. وأما خالد فقد طالب معاوية بعد أن استتبت له الخلافة بتنفيذ وعده، فاضطر إلى أن يكتب له بعهده على خراسان، ثم دس إليه رجل وكان مازال في الكوفة، فسقاه السم ومات.

ومن المؤسف أننا لا نجد في المدونات التاريخية أي محاولة لاستقصاء الأسباب التي دفعت بمعاوية إلى التخلص من خالد بهذه الكيفية. ومما يزيد الأمر غرابة أن خالد لم يقف في وجه أطماع معاوية أو يعترض محاولاته

اللاحقة فيما بعد لاستخلاف ابنه يزيد، فلماذ إذن سمّه معاوية؟! من المحتمل أن معاوية قد وجد أن لا فائدة سيجنيها من تعيين خالد والياً على خراسان بعد أن استنفد الدور المطلوب منه وهو ضمان ولاء ربيعة. ومن الجائز أن معاوية لم يكن ليطمئن لولاء هذا الرجل الذي كان يخطط أيام علي للغدر به والالتحاق بمعاوية. ومن المحتمل أيضاً أن معاوية قد قتله لأنه كان شديد الكراهية لقبيلة ربيعة التي لم تستجب لمحاولاته المستميتة في كسبها إلى صفه. ويبقى احتمال آخر رجحه الثقفي في "الغارات" وهو أن ابن معمر كان لا يتردد في أن يمدح علياً حتى أمام معاوية ولذلك قرر معاوية قتله. وقد ثبت أن خالد قد أثنى عليه في حضرة معاوية، ولكن لا نستطيع أن نراهن على أن قتله كان بسبب إعجابه بشخص علي. مهما كانت الأسباب، فقد خسر خالد كل شيء: خسر نفسه عندما خذل علي ومن بعده الحسن، وخسر دنانير معاوية ومناصبه عندما سقي السم!

عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

كان عبد الرحمن بن خالد أموي الهوى، انحاز إلى معاوية بن أبي سفيان في صراعه ضد علي بن أبي طالب، فيما انحاز أخوه المهاجر بن خالد إلى علي ضد معاوية. وبحسب ابن عبد البر في كتابه "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" فقد أدرك عبد الرحمن النبي عليه السلام، واشترك مع أبيه خالد في معركة اليرموك الشهيرة على الرغم من حداثة سنه. ونظير انخراطه في الكثير من المعارك، والتصاقه بوالده الموصوف بنبوغه العسكري وفروسيته فقد تعلم الفتى من والده فنون القيادة واكتسب منه الخبرات القتالية. وفي حرب صفين كان عبد الرحمن أحد قادة الجيش الأموي، ومن المؤيدين لمطالب معاوية في الخلافة . وبعد أن استتبت الأمور لمعاوية أمّره على حمص، فسار فيهم سيرة محمودة، فأحبه أهلها وتعلقت قلوبهم به. وكان لعبد الرحمن وقائع مشهودة مع الروم المجاورة تخومهم مدينة حمص. وقيل إنه لما ولّي العباس بن الوليد بعد زمن حمص، قال لأشراف المدينة: "يا أهل حمص، ما لكم لا تذكرون أميراً من أمرائكم مثل ما تذكرون عبد الرحمن بن خالد؟"، فقال بعضهم: "كان يدني شريفنا، ويغفر ذنبنا، ويجلس في أفنيتنا، ويمشي في أسواقنا، ويعود مرضانا، ويشهد جنائزنا، وينصف مظلومنا".

لم يشفع لعبد الرحمن ما صنعه من أفعال جليلة في خدمة معاوية وآل أمية، فقد قتله الخليفة بواسطة طبيبه السرياني ابن أثال. إن هناك ما يشبه الإجماع بين المحدثين والمؤرخين في أن معاوية هو من أمر بالتخلص من عبد الرحمن، ولكنّ هناك اختلافاً في ما بينهم حول دواعي قتله. فالطبري في

"تاريخ الرسل والملوك" وابن الأثير في "الكامل في التاريخ" يذهبان إلى أن معاوية خاف على نفسه من عبد الرحمن بعد أن ذاع صيته، ولمع نجمه، ومالت إليه قلوب أهل الشام، فأمر طبيبه ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن حمص منصرفاً من بلاد الروم، دسّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها فمات بحمص، فوفى له معاوية بما ضمن له، وولاه خراج حمص، ووضع عنه خراجه.

غير أن معظم المراجع التاريخية ترجح أن السبب في مقتل عبد الرحمن يعود إلى حرص معاوية على إزاحة الأشواك عن طريق ابنه يزيد، وكان عبد الرحمن من الأشخاص القلائل الذين قد يشكل وجودهم مستقبلاً تهديداً لمساعي معاوية في استخلاف ابنه من بعده بسبب شعبية عبد الرحمن الجارفة التي حصدها بجهوده، وزادها ما ورثه عن أبيه خالد. فالأصفهاني في "الأغاني" وابن عبد البر في "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" وابن الأثير في "أسد الغابة" والقاضي التنوخي في "الفرج بعد الشدة" تؤكد روايتهم على وجود صلة مباشرة بين اغتيال عبد الرحمن وتطلعات معاوية لاستخلاف ابنه يزيد. فقد جاء في تلك المصادر أن معاوية لما أراد أن يظهر العهد ليزيد، قال لأهل الشام: "إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه، ورق جلده، ودق عظمه، واقترب أجله، ويريد أن يستخلف عليكم، فمن ترون؟"، فقالوا: "عبد الرحمن بن خالد بن الوليد". فسكت معاوية وأضمرها، ودسّ ابن أثال الطبيب إليه، فسقاه سماً فمات. وبرأيي أن الرواية الأخيرة أقوى حجة من سابقتها على الرغم من اتفاقهما معاً في النتائج واختلافهما في الأسباب. وممّا يرجح ما جاء في الرواية الثانية أن عبد الرحمن قد اغتيل في عام 46هـ، أي بعد عام واحد أو أقل من قيام المغيرة بن شعبة والي الكوفة حينها باقناع معاوية بتنصيب يزيد خليفة على المسلمين من بعده.

ولمّا قتل عبد الرحمن، بلغ الخبر ابن أخيه خالد بن المهاجر وكان في مكة، وقيل إن الخبر بلغ ابنه خالد بن عبد الرحمن، فمرّ به عروة بن الزبير،

فقال له ساخراً ومعرضاً به: "يا خالد! أتدع ابن أثال ينقي أوصال عمك بالشام وأنت بمكة مسبل إزارك، تجره وتخطر فيه متخايلاً؟"، فحمي خالد، ودعا مولى له يدعى نافعاً، فأعلمه الخبر، وقال له: "لا بد من قتل ابن أثال". فخرجا حتى قدما دمشق، وكان ابن أثال يمسي عند معاوية، فترصّد له خالد ومولاه حتى خرج، فسار خالد بمحاذاته ثم وثب عليه فقتله بسيفه. فلما بلغ معاوية الخبر، قال: "هذا خالد بن المهاجر"، ففتشوا عنه حتى وجدوه، فأتي به. فلمّا وقف أمام معاوية، قال له: "لا جزاك الله من زائر خيراً، قتلت طبيبي"، فقال خالد: "قتلت المأمور وبقي الآمر (في إشارة إلى معاوية)". فقال له معاوية: "عليك لعنة الله لو كان تشهّد مرة واحد لقتلتك به (أي لوكان ابن أثال قد أسلم لقتلك به)". ثم إن معاوية أمر بحبسه، وألزم عشيرة خالد من بني مخزوم دية ابن أثال فكانت اثني عشر ألف درهم، أدخل بيت المال منها ستة آلاف درهم، وأخذ ستة آلاف درهم. ولما أطلق خالد من سجنه، عاد إلى المدينة. فلما رجع إليها أتى عروة فسلّم عليه، فقال له عروة: "ما فعل ابن أثال؟"، فقال: "قد كفيتك ابن أثال، ولكن ما فعل ابن جرموز (يقصد عمرو بن جرموز الذي قتل الصحابي الكبير الزبير بن العوام)؟"، فأطرق عروة وسكت خجلاً.

الحسن بن علي

هو سبط النبي محمد عليه السلام، وأول أولاد علي بن أبي طالب. والحسن والحسين هما سيدا شباب أهل الجنة كما يروى عن الرسول. ويقال إنّ ما من أحد سمي بالحسن أو الحسين بين العرب قبل ولادتهما. حملت الخلافة إلى الحسن طوعاً في أعقاب مقتل علي بن أبي طالب في شهر رمضان من عام 40 هـ. وبمبايعة الحسن، دخلت أقطار العالم الإسلامي في طاعته ماعدا الشام ومصر اللتين كانتا تحت نفوذ معاوية بن أبي سفيان. لكن خلافة الحسن لم تدم أكثر من ستة أشهر، حيث تنازل عنها بمحض إرادته لحساب معاوية بعد مكاتبات ومراسلات بين الاثنين مقابل ثلاثة شروط وضعها الحسن ووافق عليها معاوية:

1. أن تؤول الخلافة إلى الحسن بعد وفاة معاوية، أو إلى الحسين إن لم يكن الحسن على قيد الحياة.
2. أن يفي معاوية بسداد الديون المتراكمة على الحسن.
3. أن يكفل معاوية سلامة أنصار علي ولا يُساء إليهم.

ولقد اصطلح على تسمية سنة 41 للهجرة بـ"عام الجماعة". ويروى ضمن هذا السياق حديث للنبي يقول فيه : "ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين". ولا يعرف ما إذا كان النبي قد قاله حقاً أم دس عليه كما هو حال الكثير من الأحاديث النبوية التي تتعلق بالنبؤات المستقبلية. وهناك حديث آخر منسوب للنبي يقول فيه: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يعود ملكاً عضوضاً". وبظني أن هذا الحديث تحديداً من نتاجات فكر الجبرية الذي كان

يحظى بدعم وتأييد من قبل الأمويين لتبرير تحويل نظام الحكم من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض، والتسليم بهذا الواقع كما لو كان قدراً مقضياً.

لقي الصلح ما بين الحسن ومعاوية الاستحسان والرضا من كثير من الناس لما فيه من حقن لدماء المسلمين ورتق لنسيج الأمة الذي مزقته نيران الفتن والحروب الدامية. لكن بعضاً من أنصار الحسن عابوا عليه تخاذله وعيروه بالتفريط في الخلافة لمعاوية، فكان أحدهم يقول له: "يا عار المؤمنين"، فيقول له الحسن: "العار خير من النار". وقال له رجل: "السلام عليك يا مذل المؤمنين"، فقال له الحسن: "لست بمذل المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك". ثم أردف قائلاً: "إنّا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به، وإني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر، وإنه لمعاوية، وإني عرفت أن الله بالغ أمره". لا أعلم إن كان الحسن قد قال هذا الكلام أم وضع على لسانه. ولكن إذا صح ما قاله الحسن على لسان أبيه علي بن أبي طالب، فأتساءل: لماذا إذن حارب علي معاوية في معركة صفين إذا كانت الخلافة قد قدر لها كما علم علي بأنها ستنتهي إلى معاوية؟!

ومن المرجح أن هناك عاملاً آخر وراء نزول الحسن عن الخلافة لا يقل عن رغبته في حفظ دماء المسلمين ألا وهو توجسه من انفضاض أهل العراق عنه وانصرافهم عنه إذا ما جد الجد. ولعل الهزائم التي حلت فيما بعد بالحسين ومصعب بن الزبير ما كان لها أن تقع لولا تلكؤ بعض من أهل العراق ساعة الشدة وسهولة اختراق صفوفهم بشراء ذمم امرائهم وقادتهم. ولهذا عندما سئل الحسن عما حمله على التنازل لمعاوية، قال: "كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب. ليس منهم أحد يوافق آخر في رأي ولا هوى. مختلفين لا نية لهم في خير ولا في شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً فليت شعري لمن يصلحون بعدي. وهي أسرع البلاد خراباً".

بعد اتفاقه مع معاوية، انحدر الحسن بأهله من الكوفة إلى المدينة حيث ولد وترعرع فيها. وربما كان الحسن يعتقد في قرارة نفسه أن الخلافة ستعود إليه حبواً، فمعاوية كان حينها يكبره بعشرين عاماً، وهو للموت أقرب. لكن معاوية ما كان ليدع هذه الفرصة الفريدة لتمر دون أن يستثمرها في تأسيس ملك بني أمية. فمعاوية ما كان لهاثه وراء الخلافة نزوةً أو سعياً لمجد شخصي، ولكنه كان يريد بذلك أن يضع عشيرته في الصدارة ويزين رأسها بتاج الخلافة. أراد معاوية أن يورث ابنه يزيد الخلافة من بعده، ولكن وجود الحسن يعرقل طموحاته ويفسد أحلامه. لذا لم يكن ثمة وسيلة لتسهيل انتقال الخلافة من الأب لابنه سوى الإطاحة بالحسن ولو اقتضى الأمر قتله. لهذا اتفق معاوية مع إحدى زوجات الحسن، واسمها جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي على تسميم الحسن في شرابه مقابل مائة ألف درهم وتزويجها من يزيد. فلما مات الحسن، وفّى لها معاوية بالمال ولم يزوجها من ابنه خشية أن تدس له السم! إن اختيار معاوية لبنت الأشعث دون غيرها ينم عن براعته في قراءة ما تخفيه النفوس وفي دغدغة ما يحرك أهواءها. فوالد جعدة هو الأشعث من سلالة ملوك كنده، وكان قد أسلم زمن النبي كرهاً، ثم ارتد زمن أبي بكر، ثم عاد فأسلم خوفاً. أسلم الرجل ظاهراً، وما غشي الإيمان روحه وما أضاء قلبه بنوره. أما الابنة جعدة فهي كحال والدها، لايزال فيها حنين دفين لأبهة الملك وعظمة السلطان. ولا شك أنها وجدت في الزواج من يزيد سلماً تصعد به إلى ذرى المجد والملك.

هذه الواقعة مذكورة في مصادر التاريخ والحديث كابن عساكر في "تاريخ دمشق"، والسيوطي في "تاريخ الخلفاء"، والطبراني في "المعجم الكبير"، وابن الأثير في "أسد الغابة"، والبلاذري في "أنساب الأشراف"، وابن عبد البر في "الاستيعاب في معرفة الصحاب"، والمسعودي في "مروج الذهب"، والدينوري في "الأخبار الطوال"، والأصبهاني في "مقاتل الطالبيين". ومن المستبعد أن يتواطأ أصحاب هذه المؤلفات على تلفيق هذه التهمة لمعاوية وتجريمه، خصوصاً وأن الأخير كثيراً ما أزاح مناوئيه من منافسته بواسطة السم الذي برع في تركيبه طبيبه السرياني ابن آثال.

وعلى ما يبدو فإن الحسن عرف بعدما اشتد عليه المرض ودنت منه المنية أن معاوية هو من دس له السم لكنه لم يفصح عنه خوفاً من تجدد الحرب واشتعالها بين أنصاره وبني أمية. يذكر ابن عبد البر في "الاستيعاب في معرفة الصحاب" ما يلي: "ولما أشتد مرضه قال لأخيه الحسين يا أخي سقيت السم ثلاث مرات ولم اسق مثل هذه إني لأضع كبدي"، فقال الحسين: من سقاك يا أخي؟ فقال: ما سؤالك عن هذا تريد أن تقاتلهم؟ أكلهم إلى الله عز وجل".

ولما قبض الحسن، وحمل جثمانه ليدفن بجوار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، كادت أن تقع فتنة بين بني أمية وبني هاشم. واختلف الرواة في أسبابها. فمنهم من قال إن عائشة بنت أبي بكر قد أذنت بدفن الحسن مع النبي إلا أن مروان بن الحكم وبني أمية منعوا ذويه من دفنه، فكان مروان يقول: "أيدفن عثمان في أقصى البقيع، ويدفن الحسن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف"، فكادت الفتنة تقع، وأبى الحسين أن يدفنه إلا مع النبي، فقال له عبد الله بن جعفر: "عزمت عليك بحقي ألا تكلم بكلمة"، فمضى به إلى البقيع، وانصرف ابن الحكم. ومن الرواة من قال إنه لما أرادوا دفنه ركبت أم المؤمنين عائشة بغلاً، واستنفرت مروان بن الحكم وبني أمية، فقيل في ذلك: "فيوماً على بغل ويوماً على جمل". رحم الله الحسن فقد لقي العنت في حياته وفي مماته!

أبو رفاعة العدوي

هناك اختلاف واسع بين أصحاب التراجم حول اسمه واسم أبيه، لكنه مشهور بينهم بكنيته. قيل إن اسمه هو تميم بن أسد، وقيل تميم بن أسيد، وقيل تميم بن أوس، وقيل خارجة بن سود، وقيل عبد الله بن الحارث! اعتبره بعض الرواة أنه كان على دين المسيحية، ثم إنه قدم إلى المدينة المنورة، فأسلم زمن النبي محمد عليه السلام. وباعتقادي الشخصي، أنهم بهذا قد خلطوا ما بينه وبين أبي رافع القبطي الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام.

أغلب الظن أن أبي رفاعة قد اعتنق الإسلام وصحب النبي عليه السلام قبل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة. وهناك رواية ينقلها ابن حجر العسقلاني في "الإصابة في معرفة الصحابة" تزعم أنه أسلم في السنة التاسعة للهجرة. ويروى عن أبي رفاعة أنه كان يقول: "ما عزبت عني سورة البقرة منذ علمنيها رسول الله، أخذت معها ما أخذت من القرآن، وما وجع ظهري من قيام الليل قط". ولقد اشتهر هذا الصحابي بكثرة التعبد والتهجد. وكان أبو رفاعة إذا فرغ من صلاته ودعائه كان آخر ما يدعو به اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، فإذا كانت الوفاة فوفني وفاة طاهرة طيبة يغبطني بها من سمع بها من إخواني المسلمين من عفتها وطهارتها وطيبها، واجعل وفاتي قتلاً في سبيلك واخدعني عن نفسي .

وعندما أتمّ المسلمون فتح العراق، وبنوا مدينة البصرة، انتقل أبو رفاعة ليعيش فيها. وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان، خرج عبد الرحمن بن أبي سمرة من البصرة على رأس جيش ضمّ في صفوفه أبا رفاعة من أجل ترويض بلاد

سجستان التي خرجت عن طاعة الخلافة وتمردت عليها. مضى الجيش يتنقل من نصر إلى نصر حتى بلغ أسوار كابول المنيعة، فضرب عليها الحصار شهوراً إلى أن تم له تركيعها. ثم أكمل الجيش طريقه، فما من مدينة حاصرها إلا وسقطت، وما من جيش نازله إلا وكانت له الغلبة. أمّا أبو رفاعة العدوي فلم يرجع إلى البصرة، حيث فاز هناك بما كان يرجوه من الله في دعائه. ويروى أن أبا رفاعة خرج في سرية، فطافت بقلعة كان يتحصن فيها العدو، فلمّا أقبل الليل، بات أبو رفاعة يصلي حتى إذا كان آخر الليل توسد ترسه فنام، ونسيه أصحابه فركبوا وتركوه نائماً، فبصر به العدو، فأنزلوا إليه ثلاثة أعلاج منهم، فأخذوا سيفه في غفلة منه وهو نائم، وذبحوه.

عبد الله بن قيس الحارثي

كان معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام زمن خلافة عمر بن الخطاب متوجساً من جيرانه الروم في الشمال. وكان يزعم وقتها أن الناس في بعض قرى حمص يستطيعون سماع نباح كلاب الروم وصياح دجاجهم على الضفة الأخرى من البحر. ولم يكن للعرب الذين خرجوا من بطن الصحراء خبرة بالبحر وأهواله. كان معاوية على الرغم من هذا يخشى أن يتسلّل الروم إليه من نافذة البحر الذي لا تسكنه سفن المسلمين، فكتب إلى الخليفة في المدينة المنورة مراراً، ولجّ في طلبه بأن يسمح الخليفة للمسلمين بركوب البحر. والطريف أن الخليفة عمر لم ير البحر في حياته قط، ولم يكن يعرف ماهيته، فكتب إلى عمرو بن العاص ليصف له البحر وراكبه. فكتب إليه عمرو واصفاً البحر بتلك الكلمات: "إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق". فلمّا قرأ عمر وصف عمرو المخيف، كتب إلى معاوية: "والذي بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر! ووالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم. وإياك أن تعرض إلي، فقد علمت ما لقي العلاء مني".

ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان، عاد معاوية يستأذنه أكثر من مرة حتى أجابه عثمان بقوله: " لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن

اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه"، فصنع معاوية ما أمره به عثمان. وانتدب معاوية رجلاً يقال له عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة، فبنى أسطول الشام البحري، وركب البحر قاصداً جزيرة قبرص، ولحق به من مصر واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فحاصرها الاثنان حتى نزل أهلها على شروط المسلمين. وكانت شروط المسلمين هي: أن يؤدي أهلها جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار، وأن يعلم أهلها المسلمون بمسير عدوهم من الروم إليهم، وأن تكون الجزيرة طريق المسلمين إلى عدوهم من الروم. ويذكر أن سفن المسلمين في تلك الغزوة التي جرت أحداثها في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من الهجرة قد ضمت بعضاً من الصحابة المعروفين من أمثال أبي ذر الغفاري وأبي الدرداء والمقداد بن الأسود الكندي والصحابية أم حرام التي نالت الشهادة هناك.

قضى عبد الله بن قيس والذي وصف بأمير البحر نصف عمره في الماء ونصفه الآخر على الأرض. وقيل إنه خاض خمسين غزوة في الشتاء والصيف، فما عرفت الهزيمة إليه طريقاً، ولا غرق أحد في غزواته. وفي عام 53هـ، خرج عبد الله في قارب صغير وبصحبته نفر قليل من الرجال، فنزل إلى أحد مرافئ الروم، فوجد ناساً يسألون، فتصدّق عليهم، فرجعت امرأة إلى قريتها، وقالت للرجال: "هذا عبد الله بن قيس في المرفأ"، فحملوا أسلحتهم وانطلقوا إلى المرفأ، فباغتوه وقاتلوه حتى سقط قتيلاً. ثم قيل لتلك المرأة بعد مقتله: "بأي شيء عرفته؟"، فقالت: "كان كالتاجر، فلمّا سألته أعطاني كالملك فعرفته بهذا".

عبد الله بن قرط الثمالي

كان يعرف قبل الإسلام بشيطان بن قرط، إلا أن النبي عليه السلام بدّل اسمه، عندما قدم إليه ليعلن إسلامه من شيطان إلى عبد الله. وينسب عبد الله إلى قبيلة ثمالة وهي إحدى البطون الكبرى لقبيلة ثقيف. ويعد عبد الله من صحابة النبي عليه الصلاة والسلام، وله حديث عن النبي عليه السلام في فضل يوم النحر. شارك المسلمين في فتوحاتهم المظفرة لبلاد الشام، فشهد معركة اليرموك التاريخية. ولمّا استكمل المسلمون سيطرتهم على أرجاء بلاد الشام، وُلّي عبد الله ولاية حمص، ثم عزل من منصبه، ثم أعيد إليه مرة أخرى.

ويروى أن عمر بن الخطاب تصفح الناس، فمرّ به أهل حمص، فقال: "كيف أميركم؟" فقالوا: "خير أمير، إلا أنه بنى علية يكون فيها". فكتب عمر بكتاب دفعه إلى رسوله، وأمره أن يحرق دار بن قرط. فلمّا جاءها، جمع حطباً وحرق بابها، وأخبر بن قرط بذلك، فقال: "دعوه! فإنه رسول". ثم ناوله الكتاب، فلم يضعه من يده حتى ركب إلى عمر، فلمّا رآه عمر قال: "احبسوه عني في الشمس ثلاثة أيام". فلمّا مضت، قال عمر: "يا بن قرط ! الحقني إلى الحرة - وفيها إبل الصدقة - فقال: "انزع ثيابك". فألقى إليه نمرة من أوبار الإبل، ثم قال: "امتح واسقِ هذه الإبل!". فلم ينزع حتى تعب، ثم قال عمر له: "متى عهدك يا بن قرط بهذا؟"، فقال: "قريب يا أمير المؤمنين"، فقال: "فلذلك بنيت العلية وارتفعت بها على المسكين والأرملة واليتيم! ارجع إلى عملك ولا تعدا".

أمّا فيما يتصل بكيفية اغتياله، فليس لدينا غير رواية نادرة، ومؤداها أن عبد

الله خرج يعس على شاطئ البحر، وكان وقتها والياً على حمص، فنام على ظهر فرسه من التعب، فلم يشعر حتى أخذته الروم غيلة، فقتلته في موضع يقال له برج ابن قرط. ويرجح أن اغتيال ابن قرط قد وقع في سنة ست وخمسين للهجرة، وذلك زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان.

سعيد بن عثمان بن عفان

والده هو الصحابي الجليل وثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، ووالدته هي فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومي. وعندما بدأ الخليفة معاوية بن أبي سفيان في الترويج لبيعة ولده يزيد، ردّ نساء المدينة وعبيدها على مساعي معاوية بشيء من الرجز، وهو نوع من الفنون الشعبية المتداولة في الحجاز، فقالوا فيه:

والله لا ينالها يزيد حتى ينال هامة الحيد. إن الأمير بعده سعيد.

وبالرغم من أن يديّ والده عثمان كانتا غيمتين تنسكبان عطاءً وبذلاً، فإن سعيد لم يرث عن والده كرمه وجوده حيث وُصف سعيد من بين أولاد عثمان بالبخل والشح، كما جاء في "المعارف" لابن قتيبة الدينوري. وجاء في "الأوائل" لابي هلال العسكري أن ابن فتة هدّد سعيد بالهجاء، فقال سعيد: "يهجوني وأنا ابن عثمان بن عفان"، فقال: "صدق. إن الناس جميعاً ولد آدم، ذهباً وفضة ونحاساً، وهو من نحاس بني آدم"، ثم قام يهجوه:

سألت قريشاً عن سعيد فأجمعوا
عليه وقالوا معدن اللؤم والبخل
فقلت لنفسي حين أخبرت أنه
بخيل ألا ليس ابن عثمان من شكلي؟
وقالت لي النفس اللجوج طماعة
أليس ابن عثمان بن عفان ذا فضل؟

فقلت: بلى. كم من كريم مهذب
سليل لئيم عاجز خامل الأصل
وكم من فتى كن اليدين مذمم
وكان أبوه عصمة الناس في المحل

وعلى ما يظهر فإن مبايعة يزيد بولاية العهد قد أثارت سخط سعيد بن عثمان الذي سافر إلى الشام لمقابلة معاوية طمعاً في الحصول على منصب ما. ففي كتاب "الأوائل" لأبي هلال العسكري أن سعيد بن عثمان قدم من المدينة وافداً على معاوية، فسأله أن يوليه العراق، فأبى، فخرج سعيد مغضباً. فلمّا كان من الغد، صلى الغداة معه، فلما انفتل أخذ بطرف ثوبه وتمثل:

ثكلتك أمك أي سيد معشر
يضيع الكبير ولا يربي صغيرا

فدعا معاوية سعيد، فسبقه سعيد إلى الكلام، فقال: "أما والله لقد رقاك أبي، واصطنعك حتى بلغت الذي لا تجاري إليها، ولا تسامي فيها، فما شكرت بلاءه، ولا جازيت بآلائه، إنك قدمت على هذا- يعني يزيد- والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً!". فرد معاوية عليه: "أما سالف بلاء أبيك فقد يحق عليّ الجزاء به، وقد كان شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى انكشفت الأمور، ولست بلائم لنفسي في التشمير، وأما فضل أبيك على أبيه فلا ينكر، هو والله أفضل مني قدماً، وأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، وأما فضل أمك على أمه فلعمري لامرأة من قريش خير من امرأة من كلب، وأما أنت وهو، فوالله لا أحب أن الغوطة دحست- أي ملئت- ويقال: ملئت دحاس إذا كان مملوءاً ناساً رجالاً كلهم مثلك لي به"، فقال يزيد: "يا أمير المؤمنين ابن أختك، وله حق ورحم، وقد عتب فاعتبه، وسأل أمراً فسوغه"، فأجابه معاوية وولاه خراسان.

توجه سعيد بكتاب تعيينه إلى خراسان في عام 56هـ، وفتح سمرقند إحدى أكبر مدن أوزباكستان، وفقد واحدة من عينيه هناك، وعبر نهر بلخ فكان بهذا أول من عبره من العرب. وبعد عام من ولايته على خراسان أقاله معاوية، فعرّج

على الشام مصطحباً معه سبيه من رجال جلبهم من بلدة يقال لها الصغد الكائنة في طاجكستان، ثم نزل بهم إلى المدينة. فلمّا بلغها، جرّدهم من سيوفهم، وما عليهم من حرير وديباج وذهب وفضة، وألبسهم الصوف، ووضع في أيديهم المساحي، وألقاهم في أرض يعملون بها. وفي ذات يوم، دخلوا عليه الدار وأغلقوا الباب، ثم هجموا عليه فقتلوه، فعلى صراخ أهله في الدار، فأقبل أهل المدينة، فأحدثوا ثقباً في ظهر الدار. فلمّا دخلوا وجدوا سعيداً غارقاً في بركة من الدماء ووجدوا قتلته قد قتلوا أنفسهم!

من الواضح أن هؤلاء الرجال كانوا في الأصل سادة أو ميسوري الحال بدلالة الحرير والديباج والذهب والفضة التي كانوا يلبسونها. ومن شبه المؤكد أنهم ما قتلوا سعيد بن عثمان إلا بعد أن سُدت في وجوههم أبواب الخلاص وضاقت بهم الحال. لقد أستئصلوا من جذورهم، وانتزعوا من وسط أهاليهم، وجرّدوا من نعيمهم، وحملوا على أفعال ما كانوا يفعلونها في بلادهم. وزد على هذا وذاك ما يقال عن بخل سعيد وتقتيره عليهم. ولهذا كله فقد وجدوا في الموت راحة وخلاصاً لهم من حالتهم اليائسة ومكانتهم البائسة.

معاوية بن يزيد بن معاوية

بعد وفاة يزيد بن معاوية المفاجئة في عام 64هـ آلت الخلافة إلى ابنه معاوية (معاوية الثاني) والمكنى بأبي ليلى. ولما صعد معاوية المنبر، خطب خطبته المشهورة، وجاء فيها "... إني نظرت في أمركم فصعقت عنه فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم سنة الشورى مثل سنة عثمان ولم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم إنا بلينا بكم وابتليتم بنا...وإن جدي معاوية نازع الأمر من كان به أولى وأحق (يقصد علياً بن أبي طالب) فركب منه ما تعلمون حتى صار مرتهناً بعمله، ثم تقلده أبي وكان غير خليق به...ولا أحب أن ألقى الله بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، ولّوه من شئتم، فوالله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظاً وإن كانت شراً فحسب آل سفيان ما أصابوا منها". ولا شك أن هذه الخطبة المنسوبة إلى معاوية تعد سابقة فريدة من نوعها يعزّ أن تجد لها نظيراً في التاريخ السياسي للإسلام.

وبعد أن فرغ من خطبته، اعتزل معاوية الناس، وجلس في بيته منعكفاً. فمكث على هذه الحال أربعين يوماً، وقيل ثلاثة أشهر، ثم مات. وقد تضاربت الروايات في تفسيرها لموته المفاجئ. فبعضهم يتهم آل بيته بتسميمه، ويرى آخرون أنه مات بالطاعون، فيما يرى بعضهم الآخر أنه مات حتف أنفه. والأرجح عندي أنه قد اغتيل لسببين. أولهما، أنه مات وهو لايزال في مقتبل عمره وريعان شبابه، إذ لم تتجاوز سنه عندما قبض ثلاثة وعشرين سنة كأقصى تقدير. ثانيهما، أن معاوية كان يحمل فكراً مناهضاً لما هو شائع ومتبع بين

الأمويين، ولعل الخطبة المذكورة تشي ببعض من أفكاره وقناعاته الانقلابية والتي ربما، وأقول ربما، سرّعت بموته على هذا النحو!

ومما يؤكد مدى انزعاج بني أمية من خطورة توجهات معاوية الفكرية، أنهم وثبوا على معلمه عمرو المقصوص، وقالوا: "أنت أفسدته وعلمته"، ثم طمروه ودفنوه حياً. وكان عمرو لما استشاره معاوية بن يزيد في قبول منصب الخلافة، أن قال له: "إما أن تعدل وإما أن تعتزل". فما كان من معاوية إلا أن اعتزل لمعرفته المسبقة باستحالة تحقيق العدل. وعمرو هذا كان من أوائل الذين دافعوا عن عقيدة القدر وحرية الإنسان في الاختيار، هذه العقيدة التي لم تكف السلطة الأموية عن محاربتها وملاحقة أتباعها والعمل على إحلال وتكريس عقيدة الجبر مكانها. ولعل ما يعزز الشك في اغتيال معاوية الثاني أن الخليفة الأموي اللاحق يزيد الناقص والمعروف بانحيازه للقدرية - كما سيأتي معنا لاحقاً- قد مات في ظروف مشابهة لسلفه. وما بين معاوية ويزيد، تكاد تجمع الروايات على أن عمر بن عبد العزيز قد سقي السم في شربة فمات من أجل إجهاض مشروعه الإصلاحي وإنهاء سياسة العدل التي ناظل من أجلها. فإذا كان عمر قد دس إليه السم، فأي شيء سيمنع أمراء بني أمية من التخلص من معاوية ويزيد بالحبكة نفسها، خصوصاً وأنهما قد ماتا في سن مبكرة، ولم يدم حكمهما أكثر من سنة واحدة مجتمعين؟!

الوليد بن عتبة بن أبي سفيان

هو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس. ووالده هو عتبة بن أبي سفيان، وكان يكنى بأبي الوليد، وقد ولّاه الخليفة عمر بن الخطاب على الطائف. ولمّا تولى أخوه معاوية الخلافة، جعله والياً على مصر في سنة 43هـ بعد وفاة عاملها عمرو بن العاص، إلا أن مدة ولايته لم تطل فقد وافته المنية بعدها بعام. وجدة الوليد هي هند بنت عتبة التي انتدبت وحشياً(*) يوم أحد لقتل حمزة بن عبد المطلب، فانتزعت كبده ولاكتها انتقاماً لمصرع أبيها وأخيها وعمها يوم بدر.

وقبل وفاة عمه معاوية بسنوات قليلة، جعل ابن أخيه الوليد والياً على المدينة المنورة بدلاً من مروان بن الحكم، فظل والياً عليها إلى أن توفى الله معاوية. ولمّا جاء نعي معاوية من الشام ومبايعة يزيد، لم يشدّد الوليد على الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير في أخذ البيعة، فأمهلهما بعض الوقت، فانملسا منه تحت لحاف الليل، وهربا إلى مكة. ودونك بعض مما جرى بين الوليد وبين الحسين وابن الزبير في ذاك اليوم، كما سجّلها لنا ابن الأثير في "الكامل في التاريخ"، وفي شيء من الإيجاز:

فلما أتى الوليد نعي معاوية فظع به، فبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه. فلمّا قرأ مروان الكتاب بموت معاوية ترحم عليه، واستشاره الوليد كيف يصنع.

(*) وحشياً: اسمه وحشي، وهو عبد كان مملوكاً لهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وقد اشتهر بقتله عمَّ النبي حمزة بن عبد المطلب مقابل وعد من سيدته هند بنت عتبة بعتقه من العبودية.

فقال مروان: "أرى أن تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم، وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموته وثب كل رجل منهم بناحية وأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه". فأرسل الوليد بغلام في طلب الحسين وابن الزبير، فوجدهما في المسجد جالسين، وكان الغلام قد أتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، فقال لهما: "أجيبا الأمير". فقالا له: "انصرف، الآن نأتيه"، فنظر ابن الزبير للحسين، وقال: "ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟"، فقال الحسين: "أظن أن طاغيتهم قد هلك فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر"، فقال ابن الزبير: "وأنا ما أظن غيره، فما تريد أن تصنع؟"، فقال الحسين: "أجمع فتياني الساعة ثم أمشي إليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه"، فقال ابن الزبير: "فإني أخافه عليك إذا دخلت"، فقال الحسين: "لا أدخل عليه إلا وأنا قادر على الامتناع".

فقام فجمع إليه أصحابه وأهل بيته، ثم أقبل على باب الوليد، وقال لأصحابه: "إني داخل فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا علي بأجمعكم وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم". ثم دخل فسلّم وجلس، فأقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فترحم الحسين على معاوية، وقال: "أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سراً ولا يجترأ بها مني سراً، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً". فصرفه الوليد في لطف، وكان يحب العافية. فقال له مروان غاضباً: "لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبسه فإن بايع وإلا ضربت عنقه". فوثب عند ذلك الحسين وقال: "ابن الزرقاء! ألأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت"، ثم خرج إلى منزله.

فقال مروان للوليد: "عصيتني، لا والله لا يمكنكم من نفسه بمثلها أبداً"، فقال الوليد: "ونج عيرك يا مروان(*)، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه

(*) العبارة مأخوذة بالنص من المراجع التاريخية، وهي هنا مذكورة في كتاب "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير.

الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسيناً إن قال لاأبايع، والله إني لأظن أن أمرأ يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة"، فقال مروان في تهكم واضح: "قد أصبت!".

وقد يكون لرخاوة الوليد وإهماله للأخذ بالشدة كما أوصاه يزيد في كتابه سبباً لإثارة نقمة يزيد وسخطه عليه، ومن ثم إقالته من منصبه. غير أن يزيد عاد بعد عام من عزله، فأعاده إلى عمله. هذه المرة لم تستمر ولاية الوليد سوى عام، فقد أقاله يزيد من جديد من أجل تقريب ابن الزبير منه وتليين موقفه منه، وذلك لأن ابن الزبير قد ذمّ الوليد، وقال: "إنه رجل أخرق، ولا يتجه لرشد، ولا يعي لفطنة الحليم، فلو أرسلت رجلاً سهلاً لين الكف، رجوت أن تسهل من الأمر ما اتوعر". لم يكن عبد الله بن الزبير يروم من قولته تلك سوى التخلص من قبضة الوليد التي كانت تضيّق الخناق عليه، فتحول بينه وبين التمهيد للتمرد على السلطة في دمشق وشق عصا الطاعة، وهذا بالضبط ما قام به ابن الزبير بعد عزل الوليد من منصبه.

عاد الوليد إلى بلاد الشام ليشهد بعد سنة من حلوله بها حالة من الفوضى العارمة، ومن المرجح أن الوليد قد كان إحدى ضحايا هذا التخبط والانفلات السياسي الذي خلّفته وفاة يزيد المفاجئة. فبعد موت يزيد، استخلف ابنه الشاب معاوية، لكنه لم يرض بتحمل وزر المسؤولية الثقيلة على أكتافه، فنزع نفسه من الخلافة، وانعزل في بيته إلى أن مات في ملابسات غامضة، كما جاء معنا. بحث الأمويون عن رجل لسد الفراغ، فمال أهل الشام إلى الوليد، ولكن لا نعرف هل بويع بالخلافة ام أن استخلافه كان رهن الأمنيات. لم يمتد العمر بالوليد ولو لأيام قليلة كي نعرف فقد اختطفته يد الموت وإلى الأبد. تقول الرواية التاريخية إنه - أي الوليد - لمّا كبّر في الركعة الثانية وهو يصلي بالناس، طعن، فسقط ميتاً! هذه النص يضعنا أمام مفترق طرق. اعتقد أن استخدام كلمة (طعن) الواردة في النص هنا قد قصد بها أنه أصيب بالطاعون. ولكن هل يعقل أن يصاب الرجل بمرض معدٍ وقاتل كالطاعون فيأتي للمسجد ويختلط بالناس ويصلي بهم؟! أو هل يعقل تصديق أن الوليد قد أصيب بالمرض عندما دخل

المسجد فلم يمهله الطاعون سوى دقائق ليقتله وهو في الركعة الثانية كما يفهم من سياق النص؟! يبقى احتمال آخر وهو أنّ رجلاً ما قد اندس بين المصلين فانتظر اللحظة المناسبة ليجهز على الوليد بطعنة نافذة. أشك في أن الرواة قد قصدوا أن الوليد قد غدر به. ولو صح ذلك، لربما ذكروا لنا من قتله، ولماذا قتله، وماذا جرى بحق من قتله.

وبالرغم من ذلك، يبقى احتمال تصفية الوليد قائماً لاحتمالات منطقية، سآتي على ذكرها. فبعد وفاة يزيد وتنحي ابنه معاوية عن الخلافة، استبدل الضحّاك بن قيس الفهري، أمير دمشق وإحدى دعائم دولة بني أمية، هواه الأموي بهوى آل الزبير، وفعل مثله عدد من أمراء الشام. لهذا فإن تقديم الوليد كخليفة منافس للزبير وفي دمشق - مقر الضّحاك- يمثل تحدياً لتوجهات الضّحاك بإدخال الشام تحت مظلة آل الزبير. ومن الجائز أيضاً أن يكون قاتله - إن صحت هذه الفرضية - من بني أمية بالذات، وتحديداً من الفرع المرواني، الذي كان يتطلع شوقاً لتذوق عسل السلطة التي ظل الفرع السفياني ما يقرب من ربع قرن نائماً به!

مروان بن الحكم

هو ابن عم الخليفة عثمان بن عفان، ووالده هو الحكم بن العاص الملقب بطريد رسول الله. وأصل القصة أن الحكم كان جاراً للنبي في مكة، وكان لا يتورع عن إيذائه ومضايقته. وبعد فتح مكة، أقبل الحكم إلى المدينة مسلماً، ولم يكن إسلامه غير جُنّة يتقي بها الموت، ودلالة ذلك أنه كان بعد سكناه المدينة لا يكف عن كيل الشتائم للنبي، فكان يغمزه ويقلده في حركاته، فإذا صلى النبي قام خلفه فأشار بأصابعه. وفي يوم اطلع على النبي في حجرة من حجراته فخرج النبي مغضباً، فلما عرفه قال: "من عذيري من هذا الوزغ!"، ثم أمر به أن يطرد من المدينة وأهله، وقال: "لا يساكنني فيها أبداً".

وعندما تولى أبو بكر الخلافة، كلمه عثمان في عمه، فأبى الخليفة عليه، وكذلك فعل عمر، بل إنه زجر عثمان وحرّج عليه ألا يحدثه بشأن الحكم بن العاص. ولما جاءت عثمان الخلافة، أعاد الحكم وأهله، فلامه الصحابة في ذلك وعابوا عليه، لكنه زعم أن النبي قد صفح عن الحكم إلا أنه مات قبل أن يرده إلى المدينة. ويحكى أنه لما قدم الحكم المدينة، كان عليه خزر خلق ويسوق تيساً، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه حتى دخل دار الخليفة، ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان. وقد بالغ عثمان في تقريب عمه وابنيه الحارث ومروان، فمنحهم الأموال الطائلة والوظائف الرفيعة. وقد اختص عثمان بمروان، فأعطاه وحباه واتخذه لنفسه وزيراً ومشيراً، وزوجه ابنته أم أبان، ومنحه خمس غنائم افريقيا وأموالاً كثيرة كما جاء في معظم المراجع التاريخية، وأغلب الظن أن عمره - أي مروان - كان في أول العشرينيات حينما

اتخذه عثمان وزيراً له. ويذكر أن النبي في حياته قد لعن مروان وهو لايزال بعد رضيعاً. فقد جاء في "المستدرك" للحاكم عن طريق عبد الرحمن بن عوف أنه قال: كان لا يولد لأحد بالمدينة ولد إلا أتي به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا له، فأدخل عليه مروان بن الحكم عند ولادته فقال: "هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون". وحسبي أن تلك الرواية موضوعة لأنها ترجح أن مروان قد ولد بعد فتح مكة حين جاء والده المدينة معلناً إسلامه، مع العلم أن مروان قد مات في سنة 65هـ وكان له من العمر ثلاث وستين سنة، وقيل إحدى وستين سنة. وإذا صح ذلك فإن ولادة مروان أقرب ما تكون في السنة الثانية أو الرابعة للهجرة النبوية، أي قبل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة حيث كان الحكم بن العاص مقيماً فيها ولم يسلم بعد.

وعندما قتل الثوار عثمان في داره، انضم مروان إلى المطالبين بدم عثمان في حربهم ضد علي بن أبي طالب بدعوى تقاعسه عن القصاص من قتلة عثمان بعد أن بويع بالخلافة. ارتدى الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وعائشة بنت أبي بكر قميص عثمان على الرغم من أنه ما كان بينهم وبين المقتول أي مودة بالأمس، فكانت موقعة الجمل الشهيرة والتي توجت بانتصار علي. ولما أحس طلحة بالندم على مشاركته في هذه الحرب العبثية، ترك ساحة القتال، فلحق به مروان - كما يقال - ثم رماه بسهم فأرداه قتيلاً. وسمع مروان يقول بعد أن رمى طلحة بسهمه: "هذا أعان - يقصد طلحة - على قتل عثمان". وبعد أن اغتيل علي فيما بعد وآلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، أقر الأخير مروان على ولاية الحجاز، فمكث فيها سنين إلى أن قبض يزيد بن معاوية، ثم أجلي بنو أمية وفيهم مروان إلى الشام بعد أن صارت الحجاز بيد عبد الله بن الزبير. عندما قدم مروان الشام كان حبل بني أمية قد اضطرب، وكادت ريحهم أن تذهب، وأوشكت سفينتهم أن تغرق. فقد خرجت الأمصار من أيديهم، وبايع أهلها عبد الله بن الزبير، وانقسم الشام إلى قيسية هواها مع ابن الزبير ويمنية هواها مع بني أمية. وكان البيت الأموي قد انقسم على نفسه، فبعضهم مال إلى مبايعة خالد بن يزيد بن معاوية وهو الغض الصغير، وبعضهم الآخر مال إلى

مبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك الخبير. انقضى الاتفاق على مبايعة مروان بالخلافة على أن تكون ولاية العهد لخالد بن يزيد.

كان اختيار مروان بحق قراراً صائباً، فقد كان هو الرجل المناسب الذي ادخرته الأقدار ليقود سفينة بني أمية في مرحلة دقيقة ومفصلية من تاريخ الأسرة. استهل مروان خلافته بنصر مؤزر وحاسم على الضحاك بن قيس الفهري في موقعة مرج راهط، وبذلك عادت الشام مجدداً إلى أحضان بني أمية، ثم أخضع مصر وولى عليها ابنه عبد العزيز، وكاد أن يعيد العراق والحجاز لكنها تمنعت عليه، وستبقى كذلك إلى أن يخضعها ابنه من بعده عبد الملك.

لم تدم خلافة مروان لأكثر من عام، وكان قبل موته قد نزع ولاية العهد من خالد وجعلها لابنه عبد الملك. وكان سبب موته أنه حين بويع بالخلافة، تزوج بأم خالد بن يزيد ليصغر بذلك شأن الأخير فيسقط عن درجة الخلافة، فكان دائم التحقير من شأن خالد، وكان يكثر من سبه ويعيره بأمه. وفي يوم دخل خالد على مروان وعنده جماعة وهو يمشي بين صفين، فقال له مروان: "والله إنك لأحمق! تعال يا ابن الرطبة الأست!"، فرجع خالد غاضباً إلى أمه فأخبرها، فتحينت الفرصة للانتقام منه. وفي إحدى الليالي وضعت الوسادة على وجه مروان وهو مستغرق في نومه، فلم ترفعها حتى مات. وقيل إنها سقته لبناً دست فيه السم، وقيل أيضاً إنها أمرت جواريها فخنقوه وهو نائم. ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد قتلها، فقيل له: "يظهر عند الخلق أن امرأة قتلت أباك"، فتركها.

عمر بن سعد بن أبي الوقاص

ولد عمر بن سعد على أيام الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة المنورة. ويزعم بعضهم أنه ولد في اليوم الذي مات فيه ابن الخطاب متأثراً بجراحاته المسمومة. لا تزودنا المصادر التاريخية بما يكفي من المعلومات عن أبرز المحطات التي مرّ بها ابن سعد في طفولته وشبابه. لدينا فقط ما تناقلته المراجع التاريخية من مواقف صغيرة وحوارات قصيرة سبقت اشتراك عمر في كتابة مأساة كربلاء الحزينة. هذه المواقف والحوارات وإن كانت غاية في القصر إلا أنها تمنحنا بعض الضوء لإنارة الزوايا المعتمة من تلك الشخصية.

فابن كثير في كتابه "تاريخ دمشق" يورد لنا ما يلي: " وعن عمر بن سعد بن أبي وقاص: أن أباه حين رأى اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم اشترى لهم ماشية ثم خرج فاعتزل فيها بأهله على ماء يقال له: قلها . قال: وكان سعد من أحد الناس بصراً، فرأى ذات يوم شيئاً يزول، فقال لمن تبعه: هل ترون؟ قالوا: نرى شيئاً كالطير، قال: أرى راكباً على بعير، ثم قال أرى عمر بن سعد، ثم أردف بقوله: اللهم إنا نعوذ بك من شر ما جاء به، فسلم عليه ثم قال لأبيه: أرأيت أن تتبع أذناب هذه الماشية بين هذه الجبال وأصحابك يتنازعون في أمر الأمة؟ قال سعد بن أبي وقاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون بعدي فتن ـ أو قال: أمور ـ خير الناس فيها الغني الخفي التقي" فإن استطعت ـ يا بني ـ أن تكون كذلك فكن. فقال له عمر: أما عندك غير هذا؟ فقال لا يا بني. فوثب عمر

ليركب ولم يكن حط عن بعيره فقال له سعد: أمهل حتى نغديك: قال لا حاجة لي بغدائكم. قال سعد: فنحلب لك فنسقيك قال: لا حاجة لي بشرابكم ثم ركب فانصرف مكانه". ويسوق لنا ابن كثير حكاية أخرى " كان عمر بن سعد بن أبي وقاص اتخذ جعبة وجعل فيها سياطاً، نحواً من خمسين سوطاً فكتب على السوط عشرة وعشرين وثلاثين إلى خمسمائة على هذا العمل؛ وكان لسعد بن أبي وقاص غلام ربيب مثل ولده، فأمره عمر بشيء فعصاه فضرب بيده إلى الجعبة فرفع بيده سوط مائة، فجلده مائة جلدة. فأقبل الغلام إلى سعد ودمه يسيل على عينيه فقال: ما بك؟ فأخبره فقال: اللهم اقتل عمر وأسل دمه على عينيه". يمكن لي أن أستنتج من هاتين الروايتين أن العلاقة ما بين الأب والابن لم تكن على ما يرام. إن اندفاع الفتى وطموحاته الكبيرة وأحلامه السياسية كانت تصطدم بميول الأب الانعزالية وتفضيله للجلوس في الظل على خوض النزاعات السياسية.

ربما كان جائزاً القول إن طموحات عمر بن سعد قد قادته للتقرب والتودد لبني أمية فلعله يفوز بما يروم إليه وتهفو نفسه له. وهذا ما تحقق له بعد أن وصله كتاب من عبيد الله بن زياد والي العراق يعهد له بالولاية على الري. وتشاء المصادفة أن يتزامن دخول عمر على عبيد الله في الكوفة مع قدوم الأخبار باقتراب الحسين بن علي بن أبي طالب في نفر من أهله وبعض أصحابه. خاف ابن زياد أن يلتف أهل العراق حول الحسين إن هو سمح له بالمجيء. التفت عبيد الله بن زياد إلى عمر، وقال: "سر إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك"، فقال سعد: "إن رأيت أن تعفيني فافعل"، فقال عبيد الله: "نعم على أن ترد علينا عهدنا". يتحرق عمر للذهاب إلى الري، لكنه لا يريد أن يسير إليها فوق جثة الحسين. ما من أحد استشاره عمر يومها إلا وقال له إن كنوز الأرض بأسرها لا تعدل دم حفيد رسول الله، ولكن هل يدع عمر فرصة العمر تفر من بين يديه لأجل هذا؟ ليمشي ابن سعد

فوق أشواك الندم وليتصبر على وخزات القلب فطعم السلطة ورحيقها أقوى من أن يقاوم.

سار عمر متثاقلاً في جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل للقاء الحسين. قيل إنه اختلى به ثلاثاً أو أربعاً. أراد عمر أن يقنع الحسين بالعدول عن موقفه ويصرفه إلى أي مكان آخر. أراد أن لا يذهب إلى ولايته وهو مكلل بالعار وملطخ بدم سبط النبي الكريم. أراد أن ينهي القصة ويقطع دابر الفتنة ولو اضطر للكذب على عبيدالله بن زياد. فبعث بكتاب إلى ابن زياد، قال فيه: " أما بعد؛ فإن الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة؛ فهذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى أو نسيره إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه وهذا لكم رضى وللأمة صلاح". فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال: "هذا كتاب ناصح لأميره مشفق على قومه نعم قد قبلت". فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: "أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة، وإن غفرت كل ذلك لك والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل". فقال ابن زياد: "نعم ما رأيت الرأي رأيك". ثم إن عبيد الله دعا ابن ذي الجوشن فقال له: "اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على حسين وأصحابه النزول على حكمي فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً وإن هم أبوا النزول على حكمي فليقاتلهم فإن فعل ذلك فاسمع له وأطع وإن هو أبى أن يقاتلهم فأنت أمير الناس وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه".

فأقبل ابن ذي الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد فلما قدم به عليه قال له عمر: "مالك ـ ويلك ـ لا قرب الله دارك، قبح الله ما

قدمت به عليّ، والله إني لا أظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه، أفسدت علينا أمراً قد كنا رجونا أن يصلح، لا يستسلم ـ والله ـ حسين، إن نفس أبيه لبين جنبيه". لم يكن الحسين لينزل على حكم ابن زياد، ولم يكن عمر بن سعد وصحبه ليدعوه يمضي في طريقه. دارت رحى معركة غير متكافئة بين الطرفين. قاتل رفاق الحسين في شجاعة عزّ نظيرها لكنهم تساقطوا الواحد تلو الآخر. حبسوا عنهم الماء، ورشقوهم بوابل من النبال، ثم حصدوهم بالسيف. مات رجال الحسين، ثم مات الحسين في مشهد دراماتيكي تتقطع معه نياط القلب.

وبعد تلك الحادثة الشنعاء بخمس سنوات أو أكثر بقليل، اضطرب حبل بني أمية، فدخلت معظم أمصار الإسلام في طاعة عبد الله بن الزبير، واحتل المختار الثقفي الشيعي أجزاء من العراق، وانحسر نفوذ بني أمية في بلاد الشام. كان عمر ابن سعد لسوء طالعه في الكوفة عندما وقعت المدينة في قبضة المختار الثقفي. خشي عمر على نفسه من بطش المختار وانتقامه، فاستجار بأحد أصدقاء المختار، فأخذ له الأمان منه ما لم يحدث ابن سعد حدثاً. وقيل إن المختار كان يقصد بالحدث أنه ما لم يأت الخلاء، أي أنه كان عازماً على قتله. وفي ليلة قيل لعمر إن المختار قد نوى قتله، فأراد الهرب من وجهه، إلا أن أحد موالي عمر نصحه ألا يفعل. ولمّا جاء من الغد، بعث عمر بأحد الرجال ليسأل المختار إن كان على العهد مقيم، فطلب منه أن ينتظر، ثم بعث بصاحب حرسه إلى دار عمر بن سعد ليقتله. فلمّا دخل الرجل على عمر، أراد الفرار منه فعثر في جبته، فضربه بالسيف فقتله. ثم جاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار. فقال المختار لابن عمر واسمه حفص وكان جالساً عنده: "أتعرف هذا الرأس؟"، فاسترجع حفص، وقال: "نعم ولا خير في العيش بعده". ثم أمر المختار به، فدقت عنقه ووضع رأسه مع رأس أبيه. ثم قال المختار: "هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين الأكبر، ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله".

قُتل سعد، وتدحرجت رؤوس شمر بن ذي الجوشن وعبيدالله بن زياد وكل

من تواطأ على قتل الحسين وآل بيته. لم يكن عمر على الرغم مما جرى منه بميّال للإيذاء وسفّاحاً للدماء كابن زياد وابن ذي الجوشن. كان يحمل بين جنباته بذرة الخير وشيئاً من رائحة أبيه. جريرة ابن سعد أنه اختار المسير في طريق محفوفة بالظلم ومفروشة بالدم. لم يستطع عمر أن يجمع ما بين السياسة والطهارة. كان يحسب أن صعود القمة سيأتي بلا ثمن. ذهب عمر ضحية أحلامه وكان الثمن رأسه ورأس ابنه!

النعمان بن بشير بن سعد

من المتعارف عليه بين المؤرخين أن النعمان هو أول من ولد للأنصار بعد الهجرة النبوية وكان ذلك في السنة الهجرية الثانية. هذا التاريخ يثير عندي الشك والريبة، ولا أعرف كيف مرّ على الرواة هكذا بلا تمحيص. كيف يعقل أن ينقضي عام فأكثر من دون أن تنجب أي من نساء الأنصار مولوداً، خصوصاً وأننا نتحدث عن مجتمع يثرب المعروف كباقي المجتمعات في ذاك الزمان بتعدد الزيجات وكثرة الأبناء؟! إذا كان النعمان هو بحق أول من ولد للأنصار، فإن ولادته يجب أن تكون في أوائل السنة الأولى للهجرة النبوية. وينسب إلى النعمان كذلك رواية بعض الأحدايث النبوية الشريفة. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى محاصرين بعلامات الاستفهام. فالنعمان عند وفاة النبي الكريم كان له من العمر كحد أقصى إحدى عشرة سنة، مما يتعذر على المرء أن يتخيل الصبي وهو يجالس النبي ويسمع منه.

أيّاً كان الأمر، فوالد النعمان هو صحابي جليل، ومجاهد شهيد، بايع بيعة العقبة الثانية، وشهد غزوتي بدر وأحد، والمشاهد كلها مع رسول الله، وذاق طعم الشهادة سنة اثنتي عشرة في غزوة عين التمر. أمّا والدته فهي عمرة بنت رواحة، وهي صحابية كريمة، أسلمت وبايعت الرسول، وأخوها هو عبد الله بن رواحة الذي استشهد في غزوة مؤتة. وقد كان النعمان من الخطباء المفوهين. وفي يوم صفين، وقف النعمان في جند معاوية يوقد من كلماته ناراً في نفوس جند معاوية. وكان إلى جانب هذا شاعراً مشهوداً له. ولا غرو إن يمسك النعمان بناصية الشعر وهو الذي ولد في أسرة تتنفس شعراً، فوالده شاعر،

وأخوه شاعر، وجده شاعر، وعمه شاعر، وخاله شاعر. وقد ورّث النعمان أبناءه من بعده حب الشعر ونظمه.

وعندما دانت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، ابتدأ نجم النعمان في الأفق يسطع. فقد كان النعمان من حاشية معاوية المخصوصين ومن عناصر دولته المقربين. وكان معاوية يتودد للأنصار ويمنيهم بالمن والسلوى ملوحاً لهم بما أسبغه على النعمان من العطاء والكرم، فكان يقول: "يا معشر الأنصار تستبطئونني وما صحبني منكم إلا النعمان بن بشير وقد رأيتم ما صنعت به". وقد شغل النعمان في خلافة معاوية أكثر من منصب. ففي البداية، جعله على قضاء دمشق، ثم وجهه إلى اليمن والياً عليها، ومن ثم سيّره إلى الكوفة عاملاً عليها، وبقي كذلك إلى أن قبض معاوية. وعندما استخلف يزيد بن معاوية، أقرّ النعمان على منصبه كوالٍ على الكوفة.

في تلك الأثناء، بدأ أهل الكوفة في مكاتبة الحسين بن علي في المدينة المنورة سراً ليحضر إليهم ولينصّبوه خليفة عليهم. أراد الحسين أن يتحقق من صدق دعواهم فبعث إليهم بابن عمه مسلم بن عقيل. شيئاً فشيئاً، بدأ السر يتحول إلى همس، والهمس إلى خبر مذاع، فانتشر في الكوفة، وبلغت رائحة ما يطبخه الكوفيون أنف النعمان بن بشير فلم يفعل أي شيء وكأن الأمر لا يعنيه! حملت العيون التي بثها يزيد بن معاوية داخل الكوفة للخليفة ما يجري هناك، وبصّرته بالخطر القادم، فعهد إلى عبيد الله بن زياد بن أبيه أمر الكوفة. وعبيد الله هذا كان كوالده مشهوراً بالحزم والشدة والبطش والفتك. فلمّا أقبل ابن زياد على الكوفة، لبس عمامة سوداء وتلثم ودخلها في أهله وحشمه. فكان كلما مشى في دروبها جعل يسلم على أهلها، فيردون عليه: وعليك السلام يا ابن رسول الله. ثم انتهى إلى قصر الأمارة وفيه النعمان بن بشير فأطلّ عليه النعمان من شرفته، وقال: "يا ابن رسول الله ما لي ولك، وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان"، فقال ابن زياد: لقد طال نومك يا نعيم، وحسر اللثام عن فيه، فعرفه، ففتح له باب القصر، وتنادى الناس: ابن مرجانة، وحصبوه بالحصباء، ففاتهم ودخل القصر. وكما هو شائع تاريخياً، فقد قبض

ابن زياد على مسلم بن عقيل فقتله في الحال، ثم بعث بجيش يرئسه عمر بن سعد بن أبي الوقاص ففتك بالحسين وانصاره في كربلاء وهو في طريقه إلى الكوفة. أمّا النساء والأطفال الذين صحبوا الحسين فقد حملهم ابن زياد إلى يزيد في الشام. وعندما أدخلوا على يزيد، نظر إلى من حوله، وقال: "ما ترون يا أهل الشام في هؤلاء؟"، فقال رجل: "لا تتخذ من كلب سوء جرواً"، وهنا تدخل النعمان، فقال: "انظر ما كان يصنعه بهم رسول الله لو رآهم في هذه الحالة فاصنعه بهم"، فقال يزيد: "صدقت، خلوا عنهم واضربوا عليهم القباب"، ثم أمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج إليهم جوائز كثيرة.

حفظ يزيد للنعمان ما له من مكانة على الرغم مما كان عليه من تقاعس وخذلان، فأراد أن يبعده عن منابت القلاقل ومنابع المشاكل، فاختار له حمص ليكون عليها أميراً. إلا أن حياة يزيد لم تدم طويلاً، فقد مات بعد سنتين أو ثلاث بعد مقتل الحسين. أدى موت يزيد إلى تفجير أزمة طاحنة كادت أن تعصف بأركان البيت الأموي وتقتلعه من جذوره. فالخليفة الشاب معاوية بن يزيد سرعان ما خلع نفسه ولزم بيته، والأمصار تطوى الواحدة تلو الأخرى بين يدي عبد الله بن الزبير. أمّا الأخطر من هذا وذاك، فقد كان انقلاب امراء مدن الشام على بني أمية. فالنعمان بن بشير وكان على حمص أعلن عن مبايعته للزبير، ولحقه زفر بن الحارث الكلابي وكان على قنسرين، ومن ثم جاء الضّحاك بين قيس الفهري وكان على دمشق. ولمّا أحس بنو أمية أن الطريق قد سدت وأن النهاية قد أوشكت، بايعوا مروان بن الحكم خليفة ليسوسهم ورمزاً ليلتفوا حوله في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخهم. وبالفعل، فقد تمكن الأمويون من كسر الضّحاك في معركة مرج راهط، واسترجاع بلاد الشام التي كادت أن تنتصب فوق ترابها رايات آل الزبير. وبموت الضّحاك، وبزوال شبح ابن الزبير، جاء الوقت لتصفية الحساب مع من انقلبوا على آل أمية وعلى رأسهم النعمان بن بشير. علم النعمان أن الموت مطارده، ففرّ من حمص، واختبأ في قرية من أعمالها يقال لها بيرين. غير أن رجلاً لحقه ويقال له خالد بن خلي الكلاعي، فكمن له، ثم خرج عليه فقتله، وكان هذا في سنة 65 هـ.

وبعد أن قتل، قطع رأسه، ثم جيء به فألقي في حجر زوجته! وبعدها بسنتين سيلقي مصعب بن الزبير برأس المختار الثقفي في حجر زوجته وهي بنت النعمان بن بشير واسمها عمرة! وبعد أن قتل النعمان، بكته إحدى بناته ورثته بتلك الأبيات:

ليت ابن مرنة وابنه كانوا لقتلك واقية
وبنو أمية كلهم لم تبق منهم باقية
جاء البريد بقتله يا للكلاب العاوية
يستفتحون برأسه دارت عليهم فانية
فلأبكين سريرة ولا أبكين علانية
ولا أبكينك مع السباع العادية

عمرو بن سعيد بن العاص

اشتهر عمرو بن سعيد بلقب الأشدق. وقد قيل إنه سمي بهذا لكونه أفقم مائلاً إلى الذقن، والأصوب عندي أنه لقب بالأشدق لبلاغته الخطابية وبراعته الكلامية. ولهذا يقال إن أباه لمّا مات وعمرو مازال صبياً، أدخلوه على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: "إلى من أوصى بك أبوك؟"، فقال عمرو: "إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي"، فاستحسن معاوية منه ذلك، ثم قال: "إن هذا الغلام لأشدق"، فسمي منذ ذاك اليوم بالأشدق. وهذه الحكاية نقلها إلينا ابن أبي حديد في كتابه "شرح نهج البلاغة". ويعد عمرو الأشدق من أشراف الأمويين وعظام رجالها وكبار خطبائها. وينقل ابن أبي حديد كذلك في كتابه المذكور خطبة بديعة للأشدق لمّا بدأ معاوية في التمهيد لنقل الخلافة من بعده لولده يزيد، جاء فيها: " أما بعد، فإن يزيد ابن أمير المؤمنين أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، إن افتقرتم إلى حلمه وسعكم، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم، وإن اجتديتم ذات يده أغناكم وشملكم؛ جذع قارح؛ سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، وهو خلف أمير المؤمنين، ولا خلف منه"، فسّر معاوية بهذا، وقال: "أوسعت يا أبا أمية فاجلس، فإنما أردنا بعض هذا". أمّا الرواية التي تدعي بأنه دُعي بالأشدق لأنه كان يكثر من سب الإمام علي بن أبي طالب على المنبر جهاراً، فأصابه الله بالتواء في فمه عقاباً له، فهذه راوية لا وزن لها، ولو أن الله عاقب كل من تجرأ على الإمام علي بالقول لما بقي أحد من بني أمية إلا وقد أصيب بالتواء في فمه!

وقد جاء في "الأعلام" للزركلي أن الأشدق قد ولد في السنة الثالثة من الهجرة. أمّا ابن حجر العسقلاني في "تهذيب التهذيب" فيرجع مولد الأشدق إلى زمن خلافة عثمان بن عفان من دون تفصيل، وفي هذا اختلاف شاسع بين التاريخين لا يقل عن عقدين من الزمن! وإذا صدقت رواية ابن أبي حديد حول سبب تسميته بالأشدق، فإن في هذا تعزيزاً لرواية ابن حجر العسقلاني، إذ لو أنه ولد في السنة الثانية للهجرة لكان قد شبّ عن الطوق عندما أدخلوه على معاوية. بغض الطرف عن هذا، فإنه لا يعرف للأشدق صحبة مع النبي عليه السلام. غير أن أعمامه، وهم خالد وأبان وعمرو كانو قد أسلموا وحسن إسلامهم، وصحبوا النبي عليه الصلاة والسلام، واستعمل النبي اثنين منهم وهم خالد وأبان على صنعاء والبحرين، ثم استشهد الثلاثة في معركة أجنادين على الأرجح، كما أخبرنا الذهبي في "سير أعلام النبلاء".

بدأ عمرو الأشدق يشق طريقه نحو عالم السياسة بسرعة فائقة مستثمراً قربه من دوائر صنع القرارات السياسية، ومكانته وقرابته الأسرية، وقدراته وبراعته الخطابية. ففي عهد يزيد بن معاوية تولّى عمرو ولاية المدينة. وعندما بلغ المدينة، صعد منبر النبي عليه الصلاة السلام، فقعد عليه وغمّض عينيه، وعليه جبة خزّ قرمز، ومُطْرَف خز قرمز، وعمامة خز قرمز. فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها. ففتح عينيه فإذا الناس ينظرون إليه، فقال لهم في خطبة وردت في "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم! أغركم أنكم فَعلتم ما فعلتم فعفونا عنكم! أما إنّه لو أُثبتم بالأولى ما كانت الثانية. أَغرّكم أنكم قتلتم عثمان فوافقتم ثائرَنا منّا رفيقاً، قد فني غضبه، وبقي حِلْمُه! اغتنموا أنفسَكم فقد واللّه ملكناكم بالشباب المقتبل، البعيد الأمل، الطويل الأجل، حين فَرِغ من الصِّغر، ودخل في الكبر، حليم حديد، ليّن شديد؛ رقيق كثيف، رفيق عنيف، حين اشتدّ عظمه، واعتدل جسمه؛ ورمى الدهر ببصره، واستقبله بأشره؛ فهو إن

عَضّ نهس، وإن سطا فَرس؛ لا يُقَلْقل له الحصى، ولا تقرع له العصا، ولا يَمْشي السُمَّهى".

لم يطل المقام بالأشدق في بلاد الحجاز طويلاً. فعندما جاءت الأخبار من الشام بموت يزيد بن معاوية، انتفض عبد الله بن الزبير، فاستولى على الحجاز، ثم أجلى بني أمية عن المدينة ومكة، فخرجوا منها إلى بلاد الشام. في تلك الفترة العصيبة، أوشكت الشام أن تخرج عن طوع بني أمية وتسقط في يد آل الزبير، لكن بني أمية استماتوا في الدفاع عن دار ملكهم وآخر حصونهم، وتمكن الأشدق من كسر جيش مصعب بن الزبير في فلسطين، فزال الخطر، وسلمت دمشق من السقوط. ونظير مجهوداته في ضبط ملك بني أمية والحد من أطماع آل الزبير في بلاد الشام، فقد تاقت نفس الأشدق لاعتلاء سدة الحكم والجلوس على كرسي الخلافة. فلمّا علم مروان بن الحكم بما يهمس به الأشدق لمن حوله ركبه الهم والضيق. ثم إن مروان دعا حسان بن مالك فأخبره أنه يريد أن يبايع ابنيه عبد الملك وعبد العزيز من بعده، فقال حسان: "أنا أكفيك عمرو، فلمّا اجتمع الناس عند مروان عشياً، قام حسان فقال: "إنه قد بلغنا أن رجالاً يتمنون أماني، قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده"، فقام الناس فبايعوا ولدي مروان. أمّا الأشدق فتمت مراضاته وشراء سكوته بمنحه الخلافة من بعد ولدي مروان.

وفي زمن خلافة عبد الملك بن مروان، لمس الأشدق في نفس عبد الملك ميلاً لصرف الخلافة لولده الوليد من بعده، فأضمر الأشدق في نفسه الشر. وفي يوم خرج عبد الملك لمحاربة زفر بن الحارث بالعراق وبصحبته الأشدق، فلمّا أرخى الليل سدوله استراح عبد الملك بجيشه. ولمّا كان من الغد سأل عبد الملك عن صاحبه الأشدق فما وجد جواباً. كان الأشدق قد انسحب ببعض رجاله تحت أستار الظلام ليعود إلى دمشق ويستولي عليها ويتحصن فيها. وكما كان متوقعاً، فقد ارتد عبد الملك بجيشه ليضرب حصاره على دمشق من دون جدوى. وظل الأمر قائماً على هذا النحو زمناً إلى أن اتفق الطرفان على الصلح

وحقن الدماء. ولكن هل سيأمن عبد الملك على نفسه أو على ولده من بعده مما يعتمل في صدر الأشدق؟ وهل سيأمن الأشدق على نفسه من غدر سيد دمشق الذي لن يتأخر في لحس وعوده ونقض ايمانه إذا اقتضى الأمر ذلك؟

لنقرأ مع ابن عبدربه في "العقد الفريد" التفاصيل المعشّقة بالدم لما حدث فيها بعد بين الاثنين. "...فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية حتى أدبِّر معك أموراً. فقالت له امرأته: يا أبا أمية، لا تذهب إليه فإنني أتخوّف عليك منه. فقال: أبو الذباب! واللّه لو كنت نائماً ما أيقظنِي. قالت: واللّه ما آمنُه عليك، وإني لأجد ريح دم مَسْفوح. فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجَّها. فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم، مسلّحين، فأحدقوا بخَضراء دِمشق وفيها عبدُ الملك، فقالوا: يا أبا أُمية، إن رابك رَيب فأَسمعنا صوتَك. قال: فدخل، فجعلوا يصيحون: أبا أمية! أسمعنا صوتك، وكان معه غلام أسحم شُجاع، فقال له: إذهب إلى الناس! فقل لهم: ليس عليه بأس. فقال له عبد الملك: أمكراً عند الموت أبا أمية! خُذوه، فأخذوه. فقال له عبد الملك: إني أقسمتُ إن أمكنتني منك يدٌ أن أجعل في عُنقك جامعة، وهذه جامعة من فِضَّة أريد أن أبِرّ بها قَسمي. قال: فطَرح في رقبته الجامعة، ثم طَرحه إلى الأرض بيده. فانكسرت ثنيَته، فجعل عبدُ الملك ينظر إليه. فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عَظْم انكسر. قال: وجاء المُؤذنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، لصلاة الظهر، فقال لعبد العزيز بن مروان: اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة. فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو: نشدتك بالرحم يا عبد العزيز أن لا تَقْتلني من بينهم، فجاء عبد الملك فرآه جالساً، فقال: ما لك لم تقتله! لعنك اللهّ ولعن أمّاً ولدتك. ثم قال: قَدِّموه إليّ، فأخذ الحْربة بيده، فقال عمرو: فعلتها يا ابن الزرقاء! فقال له عبد الملك: إني لو علمت أنك تَبقى ويَصْلح لي ملكي لفديتُك بدم النَّاظر. ولكن قلّما اجتمع فَحلان في ذَوْد إلا عدا أحدُهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله". ثم إن عبد الملك أراد أن

يفرّق شيعة الأشدق المتجمهرين خارج القصر، فخرج إليهم من شرفة قصره، ثم رمى إليهم برأس الأشدق، ونثر فوق رؤوسهم الدنانير، فانشغلوا بجمعها وانشغلوا عن رأس الأشدق! في لحظة نسي هؤلاء ما جاءوا من أجله. كانو يتراكضون كالمجانين لالتقاط الدنانير المتناثرة فيما أقدامهم تتقاذف رأس الأشدق! لقد أصاب عبد الملك كبد الحقيقة وهو يغرس حربته في صدر الأشدق: "ولكن قلّما اجتمع فَحلان في ذَوْد إلا عدا أحدُهما على الآخر". نعم، فدمشق أيها الأشدق لم تكن لتتسع لك ولعبد الملك معاً!

عبد الله بن عمر بن الخطاب

اغتيل الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب في مكة المكرمة في عام 74هـ عن عمر يناهز السادسة والثمانين أو الرابعة والثمانين، كما تذهب بعض الروايات. المفارقة العجيبة أن والده الخليفة عمر كان قد اغتيل بخنجر أبي لؤلؤة المسموم، وبعدها بخمسين عاماً ها هو الابن يلقى مصير والده برمح مسموم وبأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي والي الحجاز وقتها أيام حكم الأمويين. يخبرنا ابن الأثير في كتابه "أسد الغابة" أن الحجاج أمر رجلاً فسمَّ زج رمحه (الحديدة في أسفل الرمح)، فلصق بابن عمر عند دفع الناس، فوضع الحربة على ظهر قدمه، فمرض منها أياماً، فأتاه الحجاج يعوده، فقال له: "من فعل بك؟"، فقال: "وما تصنع؟"، قال: "قتلني الله إن لم أقتله!"، فقال: "ما أراك فاعلاً! أنت أمرت الذي نخسني بالحربة!"، فقال: "لا تفعل يا أبا عبد الرحمن"، وخرج عنه، ولبث أياماً، ومات وصلى عليه الحجاج.

أما عن السبب الذي من أجله أمر الحجاج بقتل ابن عمر، ففي ذلك ثلاث روايات على الأقل. الأولى، تقول إنّ الحجاج أدعى أن ابن الزبير قد حرّف القرآن، فثار ابن عمر في وجه الحجاج، وقال له : "كذبت ما يستطيع ذلك ولا أنت معه"، فقال له الحجاج مهدداً : "اسكت فإنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، يوشك شيخ أن يؤخذ فتضرب عنقه فيجرّ، وقد انتفخت خصيتاه، يطوف به صبيان البقيع". والثانية، تقول إنّ ابن عمر كان يصلي خلف الحجاج، وكان من عادة الحجاج أن يؤخر الصلاة عن موعدها، خصوصاً صلاة الجمعة التى كان يعطلها أحياناً بتطويل خطبة الجمعة، فغضب ابن عمر ولم يحتمل

تضييع الصلاة فلم يعد يصلي خلف الحجاج، فاشتد عليه الحجاج وهدده قائلاً: "لقد كنت هممت أن أضرب عنق ابن عمر". والثالثة، تقول إن الحجاج حج مع ابن عمر، فأمره عبد الملك بن مروان أن يقتدي بابن عمر، الذي كان يتقدم الحجاج في المواقف بعرفة وغيرها، فكان ذلك يشق على الحجاج وهو سيد الحجاز. لا أجد في أي من الروايات المذكورة ما يكفي من الأسباب لدعوة الحجاج إلى ارتكاب هذه الفعلة الشنعاء بحق أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام إلا إذا قرأناها في ضوء شخصية الحجاج المستبدة والمهووسة بسفك الدماء وإزهاق الأرواح لأتفه الأسباب وأسخفها.

اللافت عند تحري سيرة ابن عمر أنها شخصية أميل للموادعة والمسالمة، ولم يرصد لها أي نشاط مناوئ لنفوذ بني أمية. بل إن بعضهم يأخذ على ابن عمر قعوده عن مبايعة الإمام علي بن أبي طالب في الوقت الذي سارع فيه إلى مبايعة يزيد بن معاوية ومن بعده عبد الملك بن مروان. وفي هذا السياق يحدثنا ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبرى" أن ابن عمر كان دائماً ما يرفع شعار "الصلاة وراء من غلب"، وقوله "لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب". ويضيف ابن سعد أن ابن عمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أميراً إلا وصلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله. بل إنه كان يأمر الناس بعدم خلع بيعة يزيد ويذم ويندد بمن خلعوا بيعته، وهذا ما نراه جلياً في طبقات ابن سعد: "لما قام أهل المدينة وخلعوا يزيد بن معاوية جمع عبد اللّه بن عمر أهل بيته وقال: إنّا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقول هذه غدرة فلان".

وبالرغم من كل هذه المواقف المهادنة لحكم الأمويين وطغيانهم، فإن ابن عمر لم يجد من الحجاج ما يليق به كصحابي جليل ونجل خليفة عظيم وفوق هذا شيخ كبير. ما وجد ابن عمر من بني أمية والحجاج غير الذل والمهانة وآخرها القتل غيلة. ويروى أن ابن عمر طرق على الحجاج بابه ليلاً ليبايع لعبد الملك بن مروان كي لا يبيت ليلته بلا إمام حتى لا يموت ميتة الجاهلية، فما كان من الحجاج إلا أن أخرج له رجله من الفراش، فقال: أصفق بيدك عليها!

وعلى ما يبدو فإن عبد الله بن عمر قد عصره الندم على رخاوته وموادعته لبني أمية وتقاعسه عن منافحتهم عندما كان يحتضر على فراش الموت. وينقل عنه كلماته الأخيره: ما آسي من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر ومكابدة الليل وألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التي حلت بنا. أدرك رحمه الله هذه الحقيقة المرّة، ولكن بعد فوات الآوان.

قصارى القول، القتل المجاني والعبثي لعبد الله بن عمر ليس سوى تجسيد لانفلات السلطة الغاشمة من لجامها، وتعبير عن الانحدار الأخلاقي للقوة. لا الأمويون ربحوا من تغييب ابن عمر وهو الخاضع لمعطيات الواقع واملاءاته، ولا ابن عمر استطاع بسكوته وقبوله أن يدفع عنه يد الغدر.

عبد العزيز بن موسى بن نصير

بعد أن كسب طارق بن زياد معركة شذونة التاريخية والحاسمة ضد القوط والتي دامت ثمانية أيام خلال عام 92هـ، انفتح الطريق أمامه، فسار شمالاً يجمع المدن بين يديه، ويغنم ما لايحصى ولا يعد من الكنوز والذخائر. ولمّا دق الشتاء الأبواب، وأخذ التعب من جيشه كل مأخذ، أرسل طارق في طلب قائده بافريقيا موسى بن نصير. دخل موسى الأندلس سالكاً طريقاً لم يسلكها طارق، فحصد المدن الراقدة في استسلام على طريقه إلى أن التقى بجيش طارق عند سفوح جبال البرت الشمالية. وبعد أن اكتمل الفتح الأندلسي، وثبّت المسلمون أقدامهم في البلاد، نصّب موسى ولده عبد العزيز أميراً عليها، وتوجه إلى الشام بصحبة طارق بن زياد محملاً بآلاف من الأسرى والسبايا وبكنوز الأندلس البديعة ليضعها بين يدي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

وفي طريقهما إلى دمشق، وجدا ولي العهد سليمان بن عبد الملك في انتظارهما في طبريا الفلسطينية، فطلب منهما أن يبطئا السير لأن أخاه الوليد ينازع الموت على فراشه. أراد سليمان منهما أن يتريثا حتى يموت الخليفة، وتؤول الخلافة إليه، فينال ما يصطحبانه من الكنوز والعبيد والسبايا، ولكنهما تجاهلا مطالبه، فواصلا السير إلى دمشق لرؤية الخليفة الوليد والذي لم تمتد أيامه كثيراً حتى مات، وحلّ مكانه أخوه سليمان.

لم يغفر سليمان لموسى وطارق عصيانهما له، فكان انتقامه قاسياً ومريراً. والحق أن سليمان كان يتشوق لحظة اعتلاء كرسي الخلافة حتى يصفي حساباته القديمة مع من أداروا له ظهورهم في الأمس. فكما سنذكر في حديثنا عن

يزيد بن أبي مسلم الثقفي، فإن سليمان انتقم من الحجاج بن أبي يوسف والذي توفي - لحسن حظه - قبيل وفاة الوليد من خلال تعذيب أهله وأقاربه ومصادرة أموالهم. ولعل أكثر هؤلاء الذين أنبت موته في القلب حزناً كان هو محمد بن القاسم الثقفي الذي مسه العذاب وناله الظلم على الرغم من بياض صحائفه وعظيم صنائعه. ودفع قتيبة بن مسلم الباهلي حياته ثمناً لتأييده الوليد بن عبد الملك قبل وفاته على نقل ولاية العهد من أخيه سليمان إلى ولده. وأمّا طارق بن زياد وموسى بن نصير فقد تمت تصفيتهما معنوياً، وجُردا من مناصبهما، وشُردا، وانتهيا مُعدمين.

كان انتقام سليمان بن عبد الملك كاسحاً ومدمراً ومخيفاً. لا تسكن ناره إلا بعقاب جماعي يحرق فيه عدوه وأهله وماله. فبعد أن نكب موسى بن نصير، أمر بعزل ولده عبد الله عن ولاية أفريقيا، وقتل ولده عبد العزيز والي الأندلس على الأرجح بعد أن مكث في ولايته عامين فقط. وإليك الروايتين المشهورتين حول مقتل عبد العزيز بن موسى كما وردتا في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير: "وكان سبب قتله أن أباه استعمله على الأندلس، كما ذكرنا، عند عودته إلى الشام، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح في إمارته مدائن بقيت بعد أبيه، وكان خيّراً فاضلاً، وتزوج امرأة رذريق (ملك القوط)، فحظيت عنده وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل لزوجها رذريق. فقال لها: إن ذلك ليس في ديننا. فلم تزل به حتى أمر ففتح باباً قصيراً لمجلسه الذي كان يجلس فيه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصير كالراكع، فرضيت به، فصار كالسجود عندها، فقالت له: الآن لحقت بالملوك وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي من الذهب واللؤلؤ، فأبى، فلم تزل به حتى فعل. فانكشف ذلك للمسلمين، فقيل تنصر، وفطنوا للباب فثاروا عليه فقتلوه في آخر سنة سبع وتسعين. وقيل: إن سليمان ابن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله عندما سخط على والده موسى بن نصير، فدخلوا عليه وهو في المحراب فصلى الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة

فضربوه بالسيوف ضربة واحدة وأخذوا رأسه فسيّروه إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه، فتجلّد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة فقد قتلتموه والله صواماً قواماً. وكانوا يعدونها من زلات سليمان. وكان قتله على هذه الرواية سنة ثمان وتسعين في آخرها". وجاء في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" للمراكشي ما يلي: " وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة فيهم حبيب بن أبي عبدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي فقتله بعضهم وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك، وذلك في صدر سنة 98، بعد أن أمّروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير ويقال إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره فأمرهم بما فعلوه، والله أعلم". وهذه القصة تتفق ضمناً مع محتوى الرواية الأولى من دون تصريح بالأشياء التي أنكرها عليه بعض الرجال مما جعلهم يقدمون على قتله. أمّا ابن خلدون في "تاريخ ابن خلدون" فيصف عبد العزيز بن موسى بأنه كان خيّراً وفاضلاً، وأن سليمان بن عبد الملك هو من أغرى عساكره بالأندلس بقتل عبد العزيز ففعلوا ما أمروا به.

شخصياً، أنا لا أميل إلى الرواية الأولى والتي يغلب عليها الصنعة والتلفيق. ولا أستبعد أن تكون هذه الرواية قد دسّها عليه قاتلوه بقصد تشويه صورته وإيجاد أي مبرر للتخلص منه على هذا النحو. وحتى لو أفترضنا صدق ما قيل عن مجاراته لزوجته فهذا لا يرقى بأي حال إلى أن يرفع السيف عليه ويقتل غيلة. والأصوب في رأيي أن سليمان هو من أمر أتباعه بالفتك بعبد العزيز كجزء من سياسته الانتقامية الجماعية التي مارسها مع خصومه. ولكن يبقى السؤال: لماذا لجأ سليمان إلى السيف مع عبد العزيز فيما اكتفى بعزل أخيه عبد الله عن أفريقيا وبالتضييق على والده موسى؟! الجواب عن هذا السؤال المفخخ قد يتطلب قبول كلا الروايتين واعتبارهما مكملتين لبعضهما بعضاً. كيف؟ من المحتمل أن يكون عبد العزيز قد نزل عند رغبة زوجته، فصنع باباً قصيراً، ووضع التاج على رأسه لا عن نيّة منه للتحول إلى المسيحية - كما

افترضها السذج - ولكن إرضاء لزوجته التي تملّكت قلبه. ومن الجائز أن تكون هذه الأفعال - إن صح حدوثها - قد أثارت امتعاض رجاله فحسبوها ميلاً منه للتحول إلى دين المسيحية. وكأن بسليمان بن عبد الملك قد وجد في تلك الممارسات غير المألوفة وفي انزعاج الناس وتململهم منها مدخلاً شرعياً لإزاحة عبد العزيز بالسيف.

أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية

لا يستقيم الحديث عن أبي هاشم عبد الله قبل الوقوف على والده وفرقة الكيسانية. والده هو محمد بن علي بن أبي طالب، واشتهر بمحمد بن الحنفية، وذلك أن علياً تزوج بامرأة من بني حنيفة وأنجب منها محمداً هذا. ولد محمد زمن خلافة عمر بن الخطاب وتوفي زمن خلافة عبد الملك بن مروان، وتحديداً عام 81 هـ على الأرجح. عرف محمد بفضله وعلمه وفصاحته وقوته. وقد غالى الإخباريون في وصف قوته الجسمانية الهائلة، وذهبوا في هذا شوطاً بعيداً لا يقره عقل.

أما فيما يتصل بالكيسانية وعلاقة محمد بن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم بها، فالكيسانية أولى بواكير حركات التمرد التي برزت على مسرح التاريخ إبّان الصراع الدامي بين آل أمية وآل الزبير خلال القرن الهجري الأول. ظاهرياً، تمسحت الحركة بمسوح الدين، ولكنها في جوهرها كانت تعبيراً موجعاً عن حالة من التململ الاجتماعي إزاء الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي والتمايز الاجتماعي. ولهذا فلا عجب أن تجتذب أفكار الحركة أطيافاً من الموالي والأعراب والحرفيين لما حاق بهم من ضيم ونالهم من تهميش. أما سبب تسميتها بالكيسانية فهذا يرجع إلى كيسان الذي لعب دور المنظر الفكري للحركة. ولا يعرف بالدقة ما إذا كان كيسان هذا هو مولى علي بن أبي طالب أو قائد شرطة المختار الثقفي. والأخير هو من تولى زعامة الحركة وقيادتها ميدانياً ضد مناوئيه. ولكي تضمن الحركة تسويق شعاراتها وتستميل التعاطف الشعبي فقد كان لازماً عليها دغدغة النوازع الدينية بتتويج محمد بن الحنفية

إماماً للكيسانية خصوصاً بعد أن فرغت الساحة من الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب. ويذكر أن ابن الحنفية على الرغم من تعاطفه مع أفكار الحركة ومطالبها الشرعية إلا أنه لم يكن متحمساً للإنخراط في حلقة الصراع إيثاراً للسلامة وطلباً للعافية.

وعلى الرغم من النجاحات المبدئية التي حققها المختار إلا أن الكيسانية لم تصمد كثيراً فقد تم قمعها والإطاحة بقائدها لأسباب عديدة ليس هذا مجال الخوض فيها. ما يهمنا أن الكيسانية سرعان ما تحللت بعد مقتل المختار ووفاة كلّ من ابن الحنفية وكيسان لتنقسم إلى فريقين. الجزء الأعظم تحول إلى الدعوة السرية لآل البيت والتي ما لبثت أن اختطفت من قبل العباسيين كما سيأتي معنا لاحقاً. أما الجزء الأصغر فلم يزل يؤمن بأن ابن الحنفية أقام في جبل رضوى بالحجاز ما بين عينين من عسل وماء، وأنه سيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً!

وعندما غيب الموت ابن الحنفية، انتقلت الإمامة - كما يؤمن معظم الكيسانية - إلى ولده عبد الله والمكنى بأبي هاشم. عرف أبو هاشم برجاحة العقل وسعة العلم وحسن التدبير. ومنذ وفاة والده كرّس أبو هاشم جهوده لخدمة الدعوة وبث الدعاة في الأمصار. بقي أبو هاشم على هذه الحال سنوات إلى أن قدم دمشق في عام 98 هـ، ونزل ضيفاً على الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي أكرمه وأجازه. وعندما خرج من عنده قاصداً فلسطين وقيل الحجاز، شعر بالمرض وأحس بقرب منيته، فسار إلى الحميمة في الأردن، حيث ينزل ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فأوصى له بالإمامة، وسلم له كتب الدعاة، وصرف له شيعته، وأخبره أنَّ الخلافة في ولده، أي في أولاد محمد بن علي.

الرواية أعلاه وردت في "تاريخ ابن خلدون" لابن خلدون و"الطبقات الكبرى" لابن سعد. ولكن ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" وابن خلكان في "وفيات الأعيان" ينقلان عن الطبري في "تاريخ الرسل والملوك" رواية مقاربة مؤداها أن الخليفة سليمان بعد أن انصرف من عنده أبو هاشم دس عليه من

سمّه في الطريق إلى فلسطين أو الحجاز، فلما شعر أبو هاشم أنه ميت لا محالة، مال إلى ابن عمه محمد بن علي، فكان معه مثل ما جاء في الرواية السابقة. وقد سبق الطبري في توجيه تهمة القتل إلى الخليفة الأموي المؤرخ اليعقوبي في "تاريخ اليعقوبي" حيث يذكر"...أن سليمان قال: ما كلمت قرشياً قط يشبه هذا، وما أظنه إلا الذي كنا نحدث عنه، فأجازه، وقضى حوائجه وحوائج من معه، ثم شخص عبد الله بن محمد، وهو يريد فلسطين، فبعث سليمان قوماً إلى بلاد لخم وجذام، ومعهم اللبن المسموم، فضربوا أخبية نزلوا فيها، فمر بهم، فقالوا: يا عبد الله! هل لك في الشراب؟ فقال: جزيتم خيراً. ثم مر بآخرين فقالوا مثل ذلك، فجزاهم خيراً، ثم بآخرين، فاستسقى فسقوه، فلما استقر اللبن في جوفه، قال لمن معه: أنا والله ميت، فانظروا من هؤلاء، فنظروا فإذا القوم قد قوضوا، فقال: ميلوا بي إلى ابن عمي...".

وبالمناسبة، فإنه لم يرد أي ذكر لأبي هاشم أو تسميمه في كتاب "مقاتل الطالبيين" للأصفهاني، الأمر الذي يلقي بظلال من الشك على واقعة اغتياله. بناء على ما تقدم، فإنه يتعذر الجزم بمسألة قتله على الرغم من أن هذا الاحتمال يبقى وارداً، فسليمان لن يتأخر في التخلص من أي خصم محتمل قد تشكل حياته خطراً منتظراً على الدولة الأموية. وبغض النظر عن الكيفية التي مات بها أبو هاشم، فإن أبناء العمومة من بني العباس، الفرع الآخر لبني هاشم، هم من حصدوا ما زرعه أبو هاشم طيلة كل تلك السنين. لقد ورث محمد بن علي ونسله عن أبي هاشم دولة مستترة بكل ما فيها من دعاة وشبكات اتصال معقدة ورجال وعقيدة وانتماء. استثمر العباسيون هذه الفرصة غير المنتظرة في الإطاحة بدولة الأمويين ومن ثم الاستبداد بالخلافة دون أبناء عمومتهم ممن كانت الدعوة تؤخذ لهم. وهكذا وجد بنو طالب أنفسهم يتجرعون من الكأس ذاتها التي أسقاهم إياها بنو أمية بالأمس.

عمر بن عبد العزيز

يخيل لي أنه ما من خليفة حظي بمحبة المسلمين كافة، سنة وشيعة، ونال تقديرهم وتبجيلهم كمثل عمر بن عبد العزيز. اشتهر عمر بالعدل والزهد والتواضع والورع فاستحق أن يوصف بأنه هو خامس الخلفاء الراشدين. وقد نقل عن الخليفة العباسي المهتدي الذي كان يتأسى بسيرة عمر في مسلكه ومعاشه قوله: "إني استحيي أن يكون في بني أمية مثل عمر بن عبد العزيز وألا يكون في بني عباس مثله". لم يلهث عمر وراء الخلافة، ولم يطرب ويفرح بها كغيره عندما جاءته، فما كانت الخلافة عنده إلا عبئاً ثقيلاً وهمّاً مقيماً. ولسوء الطالع، لم تدم خلافة عمر إلا قليلاً، فرحل سريعاً، كما لو كان شهاباً عابراً أضاء لثوان ليالي الاستبداد الطويلة ثم ما لبث أن انطفأ.

ولد عمر في المدينة، وقيل في حلوان بمصر، والأقرب أنه أبصر النور في المدينة وذلك في سنة 61هـ، أي قبل أن يتولى والده عبد العزيز بن مروان بن الحكم ولاية مصر سنة 65هـ. ومن الجدير بالذكر أن جد عمر من جهة أبيه هو الخليفة الأموي مروان بن الحكم، وأما جده من جهة أمه فهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وقد لقب عمر بأشج بني أمية، وذلك أن دابة من دواب أبيه كانت شجته وهو صغير فقيل له أشج بني أمية. وقد حاول بعض الرواة - كعادتهم في أسطرة الشخصيات العظيمة وتفخيمها - استثمار هذه الحادثة في توظيف العلامة المحفورة في وجه عمر بنبوءة تتحدث عن رجل أشج سيأتي فيما بعد ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً! وهذا بالتأكيد لا يقلل في شيء من مكانة عمر الذي لا تكاد تجد نداً له في علمه وزهده وعدله.

بعث به والده عبد العزيز وهو لايزال فتى بعد إلى مدينة الرسول ليتعلم علوم الدين وليتأدب على يد فقهائها. ثم كتب إليه عمه الخليفة عبد الملك بن مروان يستدعيه إلى الشام بعد وفاة والده عبد العزيز، فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، ثم زوجه بابنته فاطمة. ولما بلغ الفتى سن الرشد، وخطا في مدارج العلم والاجتهاد، أمّره عبد الملك على أحد أقاليم الشام الصغيرة ليعمّق من تجاربه وليكسبه المعارف، فأقام بها حتى وافت المنية عبد الملك واستخلف الوليد، فوجهه الأخير إلى المدينة والياً عليها. ومكث عمر في المدينة ما يقرب من سبعة أعوام، ثم استعفاه الوليد، فقدم الشام وأقام فيها. ولما زيّن الحجاج الثقفي للوليد خلع أخيه سليمان من العهد وجعلها في ابن الوليد، أطاعه كثير من الأشراف طمعاً أو خوفاً، إلا أن عمر أبى، وقال: "لسليمان في أعناقنا بيعة"، فطيّن عليه الوليد (أدخله في حجرة سدت نوافذها بالطين بقصد أن يميته جوعاً واختناقاً)، ثم شفع فيه بعد ثلاثة أيام، فأدركوه وقد مالت عنقه، فحفظها سليمان له. ولم تدم خلافة سليمان كثيراً، فلما ثقل عليه المرض، قال لمستشاره: "يا رجاء أستخلف ابني؟"، قال: "ابنك غائب ولا تدري أحي هو أم ميت"، قال: "فالآخر؟"، قال: "هو صغير"، قال: "فمن ترى؟"، قال: "عمر بن عبد العزيز"، قال: "أتخوف بني عبد الملك أن لا يرضوا"، قال: "فوله، ومن بعده يزيد بن عبد الملك"، وهذا ما كان.

ومنذ أول يوم من خلافته، اختط عمر طريق الاصلاح، فمضى عاقداً عزمه على إعلاء الحق والعدل وإسقاط الجور والظلم على الرغم مما اعترض طريقه من أشواك. بدأ عمر ببيته، فأخذ ما عند زوجته من حلي وجواهر، فرده إلى بيت مال المسلمين. ثم شدّد على آل أمية، فأوقف عطاياهم وصادر ما ملكته أيديهم بغير وجه حق، فلم تثنه احتجاجاتهم ولم توقفه مناصحات شيوخهم. ودقق عمر تدقيقاً شديداً في اختيار ولاته على الأمصار، فكان لا يعين إلا من استشعر أمانته، ولمس فيه مخافة الله، ووجد فيه الكفاءة والدراية. وأوقف عمر الجزية التي كانت تؤخذ من الأعاجم حتى بعد إسلامهم، فقال في ذلك: "إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً". وأوقف عمر كذلك ما يعرف

بالفتوحات الإسلامية بدعوى اكتفاء المسلمين بما أفاء الله عليهم من أراض وممتلكات، فأمر القائد مسلمة بن عبد الملك بوقف طلعاته المتكررة التي طالما دوخت الأمبراطورية البيزنطية. وتقرب عمر من آل البيت ومد إليهم جسور الوصل التي أحرقها أسلافه من بني أميه، فأبطل سب الإمام علي كرم الله وجهه على المنابر واستبدلها بالآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فاستمرت قراءتها إلى هذا اليوم، ورد قرية فدك إلى أولاد فاطمة الزهراء، وأجزل لبني هاشم العطاء. واستعمل السياسة واللين مع حركات الخوارج الثورية، ودعاهم إلى مناظرته فألجمهم بالحجة.

أسهم برنامج عمر الإصلاحي في إشاعة الرخاء وبسط العدل، إلا أن بني أمية كانو شديدي التأفف منه بعد أن ضيّق عليهم، وشحت الأموال في أيديهم. ولو أنهم نظروا إلى ما هو أبعد من أقدامهم، لآزروه في سياسته لما فيها من تخفيف لمشاعر الكراهية والاحتقان في صدور الناس، ومن تقليل لضربات المعارضة التي شغلت السلطة الأموية بكبحها زمناً طويلاً إلى أن سقطت بعد ثلاثين عاماً من وفاة عمر.

لم يمكث عمر في الخلافة أكثر من عامين ونصف فقد مات متأثراً بسم دسّه إليه امراء بني أمية بعد أن ملوه واستيأسوا منه. جاء في كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي أن عمر بعد أن سقي السم، سأل أحد اصحابه: "ما يقول فيَّ الناس؟"، قال: "يقولون إنك مسحور"، فقال: "ما أنا بمسحور"، ثم دعا غلاماً له، فقال: "ويحك! ما حملك على أن سقيتني السم؟"، فقال الغلام: "ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق"، فقال: "هاتها"، فجاء بها، فألقاها في بيت المال، وقال له: "إذهب حيث لا يراك أحد".

إن ترجيح وفاة عمر بالسم يغلب أي احتمال آخر، وذلك للأسباب التالية:

- هناك ما يقترب من الاجماع بين المؤرخين على تسميم عمر.
- وفاة الخليفة في سن مبكرة نسبياً (لم يكمل الأربعين بعد) ولم يشتك علة من قبل.

● تململ أمراء بني أمية من سياسات عمر الإصلاحية التي ضيقت عليهم وحدت من نفوذهم.

● مخافتهم قيام عمر بنزع يزيد بن عبد الملك المعروف بمجونه واستهتاره من ولاية العهد.

● وفاة كل من عبدالملك (ابن عمر) وسهل (أخو عمر) ومزاحم (مولى عمر) في أوقات متقاربة وفي ملابسات غامضة قبل وفاة عمر نفسه، وقد عرف هؤلاء الثلاثة بأنهم كعمر أو أشد منه في استعجال تطبيق سياسات الإصلاح.

وقيد قيل مرة لعمر في حياته: "لو جعلت على طعامك أميناً لا تغتال وحرسياً إذا صليت وتنح عن الطاعون". إلا أن عمر رد عليهم قائلاً: "اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي". وفي رأيي أن عمر قد أخطأ بعدم أخذه الحيطة والحذر مع علمه بكراهية آل أمية لممارساته السياسية، ومعرفته بشيوع استخدامهم للسم في تصفية معارضيهم. لم يقرأ عمر التاريخ القريب جيداً، فقد اغتيل جده ابن الخطاب الذي لم يتخذ حرساً عندما صلى وطعن. وها هو الحفيد الآن يموت ببطء لأنه لم يجعل على طعامه أميناً! رحم الله العمرين... فمن لنا بمثلهما؟!

يزيد بن أبي مسلم

عندما حُمِلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، عمد إلى تصفية حساباته مع من زيّنوا لأخيه المتوفى الوليد خلعه من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد. كان سليمان يتحرّق الفرصة ويتحين الخلافة لينكّل بكل من الحجاج بن أبي يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي اللذين أشارا على الوليد بعزل سليمان. ولعله كان من حسن طالع الحجاج أنه توفي قبيل موت الوليد بأشهر قليلة وإلا فإن سليمان كان سيذيقه ألوان العذاب. غير أن سليمان لم يكن ليدع أهل الحجاج، وهم من بني عقيل، أن يفلتوا من قبضته بلا ثمن، فصادر أموالهم وبسط العذاب عليهم. ولم يسلم أحد من بني عقيل من نقمة الخليفة حتى الفتى العبقري محمد بن القاسم الثقفي الذي روّض بلاد السند ونشر الإسلام فيها. حُمِل محمد من بلاد السند وهو يرسف في أغلاله، فتمثل بقول الشاعر الذي كان يقول

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم وضع بسجن في مدينة واسط بالعراق مع جملة من بني عقيل، وظل في العذاب شهوراً إلى أن فارقته الروح. ولم يكن لهذا الشاب من ذنب سوى قرابته للحجاج الثقفي!

وكان هناك رجل آخر من بني عقيل واسمه أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم الثقفي. استخدمه الحجاج على حياته كاتباً ومستشاراً له. ولمّا اقترب الحجاج من حافة الموت، جعله على أموال الخراج، فضبط عمله وأقره الوليد. وينسب

للوليد أنه كان يقول: "مثلي ومثل الحجاج وأبي العلاء كمن ضاع منه درهم فوجد ديناراً". لم يمهل القدر الوليد طويلاً، إذ سرعان ما توفاه الله، فبويع سليمان بالخلافة، وابتدأ أمره باستئصال بني عقيل. ثم إنّ سليمان طلب من صالح بن عبد الرحمن والي الخليفة على العراق أن يُسيّر إليه يزيد وهو في الأغلال. فلمّا أدخل يزيد على الخليفة، وجده دميماً كبير البطن مشوهاً، فنظر إليه سليمان في اشمئزاز، وقال: " لعن الله من ولاك"، فقال يزيد: "لا تفعل يا أمير المؤمنين إنك رأيتني والأمر مدبر عني، ولو رأيتني والأمر مقبل عليّ لعظُم في عينك ما استصغرت مني"، ثم قال له سليمان ساخراً: "أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟"، فقال يزيد: "يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه من النار حيث شئت". أعجب سليمان على الرغم من مقته ليزيد بفصاحته وشجاعته، فعفى عنه وأمر بفك قيده.

أفلت يزيد بفضل حكمته وشجاعته من الموت المحدق، لكنه بقي طيلة خلافتي سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز بلا عمل على الرغم مما برهن عليه خلال مدة خدمته من عظم أمانته وحسن تدبيره. ولمّا ارتقى يزيد بن عبد الملك سدة الخلافة قرّب منه القبائل القيسية، فعهد إلى يزيد بولاية أفريقيا. سار يزيد إلى هناك وهو يحلم باستنبات نموذج الحجاج القمعي في بلاد البربر. سار يزيد في البربر كما فعل الحجاج بفرضه الجزية على رقاب من أسلم من أهل الذمة وذلك بقصد ضمان تدفق الأموال على خزينة الدولة. لم يطق البربر صبراً بما ينوي يزيد صنعه بهم، فعقدوا العزم على الفتك به، فترصدوا له وقتلوه. وقد جاء في "فتوح البلدان" للبلاذري أنهم قتلوه في مصلاه وهو يصلي المغرب، ثم أعادوا عاملهم السابق محمد بن يزيد، فولّوه عليهم. ثم كتبوا إلى يزيد بن عبد الملك في دمشق: "إنّا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يراه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك". فرد عليهم يزيد بن عبد الملك بقوله: "إني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم"، وأقر محمد ابن يزيد على عمله، وهذا ما ورد إلينا في "الكامل في التاريخ" لابن

الأثير. غير أن البلاذري في كتابه المذكور "فتوح البلدان" قد أشار إلى أن الخليفة يزيد بن عبد الملك ولّى أمر أفريقيا بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم لبشر بن صفوان الكلبي وأمره بقطع رأس عبد الله بن موسى بن نصير لأنه اتهم بتأليب الناس هناك على قتل يزيد.

لقد أخطأ يزيد بحمله أهل بلاد البربر على دفع الجزية وهم صاغرون. إن أهل تلك المراعي والقفار ليسوا كالنبط من أهل السواد في الطباع والصبر على المذلة. ولو أن يزيد سأل كم احتاج العرب من السنين ومن الأرواح لترويض بلاد البربر لأحجم عن فعلته تلك. ولو سأل يزيد رفات عقبة بن نافع أو المهاجر بن أبي دينار أو قيس بن زهير لما أقدم على فعلته تلك. لقد نجح الحجاج في فرض نظامه القهري لأنّ النبطي معروف بالتصاقه بالأرض وبصبره واحتماله على الاستبداد والتسلط. أمّا البربري فهو يشبه البدوي في شدة البأس وصعوبة المراس والتمرد على القوانين خصوصاً تلك التي تحط من كرامته وتسلبه حريته.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

اشتهر تاريخياً بيزيد الناقص. وقد لقب بالناقص لأنه قد أنقص من أعطيات الجند التي زادها سلفه، خليع بني أميه، الوليد بن يزيد بن عبد الملك. تتقاطع شخصية يزيد وسيرته مع شخصية وسيرة الأشج عمر بن عبد العزيز (الشجة في رأسه) في أكثر من نقطة. كلاهما عرف بالورع والزهد والتقى، وكلاهما تبنى فكراً إصلاحياً ورغبة جارفة في التغيير، وكلاهما قضى في الحكم زمناً قصيراً. لهذا لا غرو أن يقال: الناقص والأشج أعدل بني مروان. وعلى الرغم مما بين الاثنين من تشابهات، إلا أن المؤرخين قد منحوا عمر ما يستحقه من الشهرة والأضواء والمديح، فيما أنقصوا يزيد قدره، وما وفوه حقه.

من المؤسف ألا يصلنا من يزيد سوى نتف من أخبار قليلة. أخبار لا تشبع من جوع ولا تروي من ضمأ. ضاع جل تاريخ يزيد في فضاء التاريخ. لم يبق منه إلا نزر يسير. لكنه لايزال على الرغم من شحاحته كافياً لرسم ملامح مصلح رائع لم يمهله القدر طويلاً. من الجائز أننا لا نملك الكثير عنه لأنه وصل في الزمن الضائع، ولم يدم حكمه غير ستة شهور. لقد جاء يزيد في زمن كانت فيه سفينة بني أمية قد امتلأت بالثقوب. فشعارات الدعوة العباسية البرّاقة في كل يوم تجتذب مزيداً من الأتباع، والتباغض والتحاسد ما بين جناحي دولة الأمويين من قبائل قيسية ويمنية في تزايد واضطراد، والانشقاقات والخلافات تهدد نسيج الأسرة الأموية بالتمزق وتعرضها للضياع.

عرف يزيد بميوله القدرية. والقدرية هي تيار فكري يقوم على الإيمان بحرية الإنسان في الاختيار، وأنه المسؤول المباشر عن اختيار أفعاله وأقواله. وقد

شكّل القدريون أمثال عمرو المقصوص والجعد بن درهم وغيلان الدمشقي الإرهاصات الأولى لفكر المعتزلة. لم تحتمل السلطة الأموية ما يحمله الفكر القدري من محرضات على العصيان والتمرد. لهذا فقد ابتدعت السلطة الأموية عقيدة الجبرية من أجل مناوئة القدرية وتكريس التبعية، فساندت الجبريين من أجل إخصاء ثورة المعارضة، واسكات احتجاجاتها. وعلى الرغم مما قوبلت به القدرية من قمع ومطاردة لاجتثاثها إلا أنها قد استطاعت أن تتسلل إلى داخل قصور بني أمية فتجتذب إلى صفوفها يزيد بن الوليد وكذلك أخيه إبراهيم بن الوليد. ومما يذكر أنه قد سبق للقدرية بواسطة عمرو المقصوص استصباء(*) الخليفة الأموي الثالث معاوية بن يزيد كما تقدم معنا.

وإذا كانت القدرية قد نجحت في استقطاب يزيد المتحمس لاقتلاع الظلم ونشر العدل، فإن القبائل اليمنية هي الأخرى قد وجدت في يزيد الناقم على الخليفة الشاب النزق الوليد بن يزيد مدخلاً لاسترداد مكانتها المسلوبة والانتقام لها من القيسية. كان الخليفة آنذاك هو الوليد بن يزيد. وقد عرف الوليد باستحلاله لكل حرمة، وارتكابه لكل بدعة، واقترافه لكل موبقة. وقد قيل إنه تجرأ على كتاب الله فرماه بالسهام، وإنه كان يشرب الخمر جهاراً، ويصنع القبائح التي يأباها الذوق ويعف عنها اللسان. تعاهد يزيد المثقل بعبء التغيير مع القبائل اليمنية الباحثة عن الثأر في الإطاحة بالوليد. وتصادف حينها أن لفّ الطاعون دمشق، ففرّ الوليد إلى قصره ببادية الأردن. انتهز يزيد الفرصة فاستولى على دمشق، ثم سيرّ جيشاً لمحاربة الوليد. تمكن جند يزيد من كسر جيش الوليد الذي قتل داخل قصره وحزّت رأسه.

بويع يزيد بالخلافة، ثم وقف وخطب في الناس خطبة طويلة، ضمّن فيها برنامجه السياسي. ومما جاء فيها: "أما بعد أيها الناس أما والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء

(*) استصباء: استمالة واجتذاب.

نفسي إني لظلوم لنفسي، إن لم يرحمني ربي فإني هالك، ولكني خرجت غضباً لله ورسوله ولدينه... إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكرى نهراً، ولا أكثر مالاً ولا أعطية زوجة، ولا ولداً ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فضل عن ذلك فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم، فيأكل قويكم ضعيفكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم، ويقطع سبلهم وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعوني وإلا أن تستتيبوني فإن تبت قبلتم مني، وإن علمتم أحداً من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه ما مثل ما أعطيكم، فأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه، ويدخل في طاعته...".

لم يسعف الوقت يزيد للمضي ولو لنصف خطوة في تنفيذ برنامجه الإصلاحي. لقد سدت فيه وجهه المنافذ ونثرت الأشواك في طريقه. صرف وقته كله في حل الخلافات وإطفاء الصراعات ما بين أركان البيت الأموي. لم يستمر يزيد سوى نصف عام أو ربما أقل ليغادر مأسوفاً عليه. أكثر الروايات شيوعاً بين المؤرخين أنه مات بالطاعون. هذا الاحتمال لا تعوزه الوجاهة على الإطلاق، خصوصاً وأن بلاد الشام قد ابتليت بالطاعون كما تبين معنا أعلاه. هذه الرواية على الرغم مما تحظى به من قبول واسع بين المؤرخين إلا أنني أميل إلى التشكيك بها وذلك للأسباب التالية:

● لم نقرأ أن أحداً من أمراء بني أمية أو كبار موظفي الدولة أو قادة الجيش قد قضى بالطاعون. أليس من العجب أن يمسك الطاعون بتلابيب الخليفة ويدع كل المحيطين به؟!

● لا توجد أي رواية تشير من قريب أو بعيد أن يزيد قد ألمّ به عارض

أقعده الفراش. ما لدينا من روايات - على الرغم من ندرتها - تتحدث عن رجل كان وإلى ما قبل موته يتمتع بصحة طيبة قبل أن يخطفه الطاعون في لمح البصر!

● وفاته في سن مبكرة نسبية. يرجح أنه كان ما بين الثلاثين إلى الخامسة والأربعين عندما قبض. بالإضافة إلى هذا، فإن فترة حكمه لم تدم سوى ستة أشهر على الأكثر.

● التهديدات العلنية التي أطلقها مروان بن محمد والملقب بالحمار بضرورة أخذ الثأر للوليد وتحريضه لأخ الوليد واسمه الغمر بالانتقام من قاتله.

● تشكيك بعض المصادر بأن يزيد ربما يكون قد مات بفعل السم. فاليعقوبي في "تاريخ اليعقوبي" يضع بين أيدينا رواية مقتضبة تقول بأن إبراهيم بن الوليد قد سقى أخيه يزيد السم.

من المؤكد أن موت يزيد سيظل لغزاً لا يعلم سره إلا الله. كل ما نستطيع قوله إن الأمة قد خسرت رجلاً رائعاً كما خسرت من قبل معاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز. ولعلنا لا نملك هنا إلا أن نردد مع يزيد آخر كلمتين نطق بهما قبل موته: واحسرتاه واسفاه!

يوسف بن عمر الثقفي

هو أبو عبد الله يوسف بن عمر الثقفي، وهو ابن عم والد الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق الشهير على أيام الخليفة عبد الملك بن مروان وولده الوليد بن عبد الملك. وكان يوسف يسلك طرائق الحجاج في الفتك والطغيان والشدة والظلم وأخذ الناس بالمشاق. وعلى الرغم من دموية يوسف بن عمر وساديته المفرطة إلا أن سلفه الحجاج قد اختطف منه الأضواء، فجاوزه شهرة، وفاقه صيتاً. كان يوسف بن عمر أول أمره عاملاً على اليمن أيام الخليفة هشام بن عبد الملك، فبقي فيها يضبط أمورها ويسوس شؤونها ما يقرب من خمس عشرة سنة إلى أن كتب إليه الخليفة هشام يأمره باستلام زمام العراق بدلاً من واليها خالد بن عبد الله القسري. وكان هشام، كما حدثنا ابن خلكان في "وفيات الأعيان" قد تغير على خالد القسري لأمور نقلت عنه، فحقد عليه هشام وعزم على عزله، ومنها: كثرة أمواله وأملاكه، وأنه كان يطلق لسانه بحق هشام بما يكرهه، وغير ذلك من الأسباب. وعندما وصل يوسف العراق، جاء بخالد فضربه ثلاثين سوطاً، وكتب هشام إلى يوسف: "أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة لأضربن عنقك، فخلّ سبيله بثقله وعياله"، فأتى خالد الشام، وسكن بلدة يقال لها القرية وهي من أعمال الرصافة. وقيل إن يوسف استأذن هشام في بسط العذاب على خالد فلم يأذن له، فألح عليه بالرسل، فأذن له فيه مرة واحدة، وحلف لئن أتى على خالد أجله ليقتلنه به. وكان يوسف متلهفاً لتعذيب خالد والتنكيل به، ولا يمل البحث عن أي سبب للإيقاع به وتعذيبه، فكتب يوسف إلى هشام: "إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا

جوعاً، حتى كانت همة أحدهم قوت يومه، فلما ولي خالد العراق قوّاهم بالأموال حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة، وما خرج زيد (يقصد زيد بن علي بن الحسين) إلا بإذن خالد، وما مقامه بالقرية إلا لأنها مدرجة الطريق، فهو يسأل عن أخباره"، فقال هشام للرسول: "كذبت وكذب صاحبك، ومهما اتهمنا به خالداً فإنا لا نتهمه في طاعته".

ولمّا تولى يوسف أمر العراق، كان أمر زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد اشتد وعظم، وإلى زيد هذا تنتسب الزيدية وهي أحد الانشقاقات داخل المذهب الشيعي. وكان أهل الكوفة قد أغروا زيد بالخروج على الخليفة هشام، وهوّنوا عليه أمر يوسف الثقفي. وعندما وقعت المعركة، دانت الكفة إلى زيد وأتباعه، ثم مالت لبني أمية بعد أن نكث الكوفيون بوعودهم لزيد. وقيل إن زيد عندما بدأ بعض الجند يتفرقون عنه، التفت إلى أحد رجاله المخلصين، ويقال له نصر بن خزيمة، فقال: " يا نصر أخاف أهل الكوفة أن يكونوا قد فعلوها حسينية!". وبعد ساعات من القتال المحتدم، سقط زيد مضرجاً بدمائه بعد أن انغرس سهم قاتل في جبينه. وخاف أصحاب زيد من أن يمثّل يوسف الثقفي بجثة صاحبهم، فدفنوه سراً، لكن يوسف وجد قبره ونبشه، ثم أخرج جسده وحزّ رأسه، وبعث بها إلى هشام بالشام، ثم صلب بدنه عارياً من الثياب على جذع نخلة، وبقي مصلوباً بضع سنين. ولمّا ثار ولده يحيى بن زيد وخرج، أمر يوسف بإنزال زيد من على جذع النخلة، فأحرقه بالنار، ونثر رماد جسده في الفرات!

وكما جاء في "وفيات الأعيان" لابن خلكان فإن يوسف الثقفي كان من أعظم الناس لحية، وأصغرهم قامة، وكانت لحيته تجوز سرته. وكان يضرب به المثل في التيه والحمق، وقيل إنه كان أتيه وأحمق عربي أمر ونهى في دولة الإسلام، ويقال في الأمثال: أتيه من أحمق ثقيف، يقصدون به يوسف الثقفي. ومن الأمثلة على حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده، فقال لحاجبه: "قل لهذا البائس، لا تخف!"، وما رضي أن يقول له بنفسه. وكان الخياط إذا

أراد أن يفصل ثيابه، وقال: "يحتاج إلى زيادة ثوب آخر"، أكرمه وحباه، وإن فضل شيء أهانه وأقصاه، لأنه يكون قد نبهه إلى قصره.

بقي يوسف على العراق بقية خلافة هشام، فلمّا توفي هشام، تولى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده، فأقرّ يوسف الثقفي على عمله. وقيل إن الوليد قد عزم على عزل يوسف وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج الثقفي لقرابة تجمعه به عن طريق أم الوليد، فكتب الوليد إلى يوسف: "إنك قد كنت كتبت إليّ تذكر أن خالد بن عبد الله القسري أخرب العراق، وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل، وينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها إلى ما كانت عليه، فاشخص إلينا وصّدِق ظننا بك في ما تحمله إلينا بعمارتك البلاد حتى نعرف فضلك على غيرك لما بيننا وبينك من القرابة، فإنك خالنا وأحق الناس بالتوفير علينا، وقد علمت ما زدنا لأهل الشام في العطاء، وما وصلنا أهل بيتنا به لجفوة هشام إياهم، حتى أضر ذلك ببيوت الأموال"، فخاف يوسف أن يفقد مكانه، فخرج بنفسه إلى الوليد، وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله. قدم يوسف إلى الشام، فلقيه رجل ليلاً، وأخبره بما عزم عليه الوليد من تولية عبد الملك بن الحجاج، وأنه لا بد له من إصلاح أمر وزرائه (يقصد شراء ذممهم بالأموال)، فقال يوسف: "ليس عندي شيء"، فقال له الرجل: "عندي خمسمائة ألف درهم فإن شئت فهي لك، وإن شئت فارددها إذا تيسرت"، فقال له يوسف: "أنت أعلم بالقوم ومنازلهم من الوليد، ففرّقها على قدر علمك فيهم"، ففعل ما أوصاه به، فقدم يوسف الشام والقوم يعظمونه عند الوليد. لم تمسح السنوات ما في قلب يوسف من حقد على خالد القسري المحبوس عند الوليد، وأراد أن يشفي غليله منه، فعرض على الوليد خمسين ألف ألف درهم، فدفعه إليه، وحمله في محمل بغير وطاء، ثم قدم به إلى العراق ليذيقه ألوان العذاب. وقيل إن يوسف وضع قدمي خالد بين خشبتين وعصرهما حتى انقصفا، ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصفا، ثم إلى وركيه، ثم إلى صلبه، فلما انقصف صلبه مات وهو في ذلك كله لا يتأوه ولا ينطق!

وبعد شهور قليلة، وثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك، والملقب بيزيد الناقص، بابن عمه الخليفة الوليد فقتله، وجلس على كرسي الخلافة. كان يزيد الناقص ناقماً على يوسف الثقفي، فأمر منصور بن جمهور أن يمضي إلى العراق ليتولى أمرها ويقبض على عاملها يوسف. وما أن علم يوسف بالخبر، حتى فرّ إلى منطقة يقال لها البلقاء حيث يقيم فيها أهله، فلبس زي النساء وجلس بينهن، وبلغ يزيد الناقص خبره، فأرسل إليه من يحضره، فوصلوا إليه فوجدوه بعد أن فتشوا عليه كثيراً جالساً على تلك الهيئة بين نسائه وبناته، فجاءوا به في وثاق إلى الخليفة، فأمر بحبسه بجوار الحكم وعثمان ابني الخليفة المقتول الوليد. ولبث يوسف في السجن مدة خلافة يزيد والتي دامت ستة أشهر، وكذلك مدة خلافة أخيه إبراهيم بن الوليد والتي بلغت أربعة أشهر أو شهرين. ولمّا انهزم جيش إبراهيم خارج دمشق على يد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، والملقب بالحمار، خاف أتباع إبراهيم أن يخرج مروان ولدي الوليد من السجن فيقتلان كل من اشترك في قتل والدهما الوليد، فدخل يزيد بن خالد القسري السجن، وكان من أتباع يزيد الناقص وأخيه إبراهيم، وشدخ الغلامين بالعمد حتى ماتا، ثم أخذ بيوسف الذي عذّب أبيه وقتله شر قتلة، فدق عنقه بالسيف، ورمى بجثته إلى الشارع. ولمّا قتل يوسف، شدوا في رجليه حبلاً، فكان الصبيان يجرونه في طرقات دمشق، فتمر بهم امرأة وترى جسداً صغيراً يعبثون به، فتقول في أسف: "في أي شيء قتل هذا الصبي المسكين؟!"، وهي لا تعلم أن هذا الجسد الصغير كان لرجل أخضع في يوم العراق، وداس على رقاب العباد، وأذاق من عصاه وعاداه مرّ العذاب.

الإمام إبراهيم بن محمد بن علي

اسمه إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. ولد في الحميمة والتي سبق لجده علي أن سكنها وابتنى فيها قصراً. من تلك البلدة الراقدة على حافة الصحراء في جنوب الأردن خرجت بروق الدعوة العباسية لتضيء ليل خراسان في المشرق. وفي تلك البلدة التي تقف على ملتقى العابرين نسج محمد العباسي وأولاده في صبر ولمدة ثلاثين سنة خيوط عهد جديد. منذ اللحظة التي افترق فيها عبد الله بن عباس عن ابن عمه علي بن أبي طالب ونسله يقفون على بعد من الصراع الدائر بين بني عمومتهم من بني هاشم وبين بني أمية. وكأن الأقدار تأبى إلا أن تضعهم على مفترق التاريخ. فبعد أن غادر أبو عبد الله هاشم بن محمد الحنفية مجلس الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق متجهاً إلى فلسطين أوعز الخليفة لجماعة له فدسوا لأبي عبد الله السم في شربة لبن. وعندما استشعر أبو عبد الله بالسم يسري في بدنه - كما تقدم معنا في شرحنا لاغتياله - انحرف إلى بني عمومته في الحميمة. وقبل أن تفارقه الروح كان أبو عبد الله قد أفضى بأسرار الدعوة لمحمد بن علي.

ورث محمد الدعوة برجالها ودعاتها وشبكاتها ووعودها. ومنذ تلك اللحظة المفصلية أصبح محمد وصياً لأبي عبد الله وإمام الوقت. ومنذ تلك اللحظة تهوّس محمد بالدعوة على حد تعبير ابن طباطبا في "تاريخ الدول الإسلامية". أدرك محمد بعقل راجح أن الدعوة لبني العباس ليس لها في النفس وقعاً كمثل الدعوة لبني طالب، فرفع شعاراً ضبابياً وهو الدعوة للرضا من آل محمد. وأدرك

محمد ببصيرة نافذة أن أرض خراسان هي أكثر أراضي الإسلام التي يمكن للدعوة فيها أن تنمو وتثمر. اختار محمد خراسان دون غيرها لما يعتمل في نفوس أهلها من كره لبني أمية ولسياساتهم المالية والاجتماعية التعسفية. وجد أهل خراسان في الدعوة العباسية كوة أمل للخلاص مما هم فيه، ووجد بنو العباس في أهل خراسان ذخيرة للتقوي بهم في حربهم ضد بني أمية.

وبعد أن توفي محمد بن علي عام 124هـ آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم. خلق إبراهيم للدعوة أفقاً جديداً، وأعاد ترتيب أوراقها، وغذّاها بعناصر دعوية بارزة أمثال أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال. وواصلت الدعوة العباسية في عهد الإمام إبراهيم تحقيق نجاحات متتالية مستفيدة من حالة الانقسام داخل البيت الأموي ومن حالة تصاعد درجة الغليان في منطقة خراسان. لم يكن خلفاء بني أمية المتأخرون على علم بهوية الإمام إبراهيم لانشغالهم في حل صراعاتهم البينية ولقدرة الإمام إبراهيم وأتباعه على ستر تحركاتهم عن العيون.

ظلت الأحوال على ما هي عليه إلى أن عثر آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد على كتاب بعث به الإمام إبراهيم إلى كبير الدعاة في خراسان يأمره فيه بقتل كل من يجده في ذاك الصقع يتحدث اللغة العربية. ولمّا سأل مروان عن صاحب الكتاب أخبروه عن مكانه فأمر به وسيق إلى سجن في مدينة حرّان وكان هذا في عام 129هـ. وقيل أيضاً إن الإمام إبراهيم حضر موسم الحج عام 131هـ في أبهة عظيمة، فأنتهى أمره إلى مروان، وقيل له هذا هو الذي يأخذ له أبو مسلم الخلافة، فأمر به فأقتيد إلى السجن. ويعتقد أن الرواية الثانية هي الأصح حيث يميل إليها أغلب المؤرخين. وعندما أمسك مروان بالإمام فرّ أعمامه وأخوته وأبناؤه إلى الكوفة حيث تكفل أبو سلمة الخلال بإخفاء أمرهم حتى سقطت دولة الأمويين.

لم تطل أيام إبراهيم في السجن فقد أمر مروان باغتياله فقتلوه قبل أن تشرق شمس دولة العباسيين. أختلف الرواة حول كيفية مقتله. قيل إنهم دسوا له السم في لبن، وقيل إنهم هدموا عليه الحبس، وقيل إنهم غموه بمرقعة حتى لفظ أنفاسه. مات الإمام إبراهيم عن ثمانية وأربعين سنة أو إحدى وخمسين سنة كما

تذهب بعض الروايات. وقبل أن يموت الإمام إبراهيم عهد بالخلافة من بعده لإخيه أبي العباس على الرغم من أنه أصغر سناً من أبي جعفر. وبعد موته لبس أقاربه السواد حزناً عليه ولبس كل الأنصار هذا اللون فعرفوا بالمسودة. وبزعمي لو أن مروان بن محمد قد أمسك بالإمام إبراهيم وبقية أهله لزال الخطر ولأمن على نفسه وعلى ملك أجداده. فلو أنه أمر جنده فقبضوا على كل أفراد الأسرة العباسية لأصبحت الدعوة بلا رأس ولماتت من ساعتها، ولكنه اكتفى بقتل رئيسها وفات مروان أن الإمام وإن مات فسوف يأتي إمام غيره.

يزيد بن عمر بن هبيرة

والده هو عمر بن هبيرة الفزاري الذي عيّنه الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك والياً على العراق. فلمّا آلت الخلافة لأخيه هشام بن عبد الملك، أقال ابن هبيرة من منصبه، وسيّر خالد القسري إلى هناك، فقبض على ابن هبيرة وحبسه. وبقي عمر محبوساً إلى أن قام بعض أتباعه بنقب سرب، فأخرجوه من سجنه، ليفرّ إلى مسلمة بن عبد الملك فأجاره، وظل ابن هبيرة ملازماً له سنوات قليلة ثم مات. أمّا يزيد هذا فقد كان أميراً على حلب أيام خلافة الوليد بن يزيد، ثم عندما تولى مروان بن محمد، والملقب بالحمار، الخلافة أمره بالتوجه إلى العراق لمحاربة الخوارج الذين قويت شوكتهم وزادت سطوتهم، فكسرهم بعد معارك عظيمة. وبعد أن سكنت أحوال العراق واستتبت أمورها، عهد مروان ليزيد بولاية العراق. ومن طريف ما يحكى عن يزيد أنه كان رجلاً أكولاً، وله في كثرة الأكل أخبار. وينقل اليافعي عن ابن عساكر في كتابه "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان" أن يزيد إذا أصبح أتى بقدح كبير من لبن مخلوط بعسل أو بسكر فيشربه بعد طلوع الشمس، ثم يدعو بالغداء فيأكل دجاجتين وفرخي حمام ونصف جدي وألواناً أخرى من اللحم، ثم يخرج لينظر في أحوال الناس إلى نصف النهار، ثم يدخل فيدعو بالغداء فيأكل ويعظم اللقم ومعه جماعة من الأعيان، فإذا فرغوا من الأكل تفرقوا، ثم دخل إلى نسائه، ثم يخرج إلى صلاة الظهر، وينظر في أحوال الناس، فإذا صلى العصر، وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس، ثم أتوهم

بأقداح اللبن والعسل وأنواع الأشربة، ثم يوضع الطعام فيأكل ومعه وجوه المدينة إلى المغرب.

وُلِيَ يزيد أمر العراق في وقت أوشكت شمس بني أمية على المغيب، وأصبحت أيامها في الرمق الأخير. انطلقت الشرارة الأولى من قلب خراسان. لقد أحسن العباسيون صنعاً باختيار خراسان رحماً لاحتضان بيوض الدعوة لأن أهلها قد ضجوا بعنصرية الأمويين وسئموا استعلاء خلفائها وولاتها بعرقهم العربي. لم يكن ما يجري هناك بخاف على واليها نصر بن سيّار. كان يعلم أن ناراً عظيمة وراء هذا الدخان الكثيف الذي يلف خراسان. كتب ابن سيّار إلى الخليفة مروان كتاباً ضمنه أبياتاً من الشعر يستجديه فيها بأن يبعث إليه بمدد لاستنقاذ خراسان قبل أن تسقط، فقال فيها:

أرى بين الرماد وميض نارٍ
وأخشى أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكى
وإن الحرب مبدأها كلام

فقلت من التعجب ليت شعري
أأيقاظ أمية أم نيام

وصلت مروان المنهمك في مطاردة الخوارج صرخة ابن سيّار، لكنه لا يملك من الجند ما يكفي لنصرة واليه هناك، فرد عليه بالقول: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فاحسم الثؤلول قبلك. فلمّا بلغه رد الخليفة، كتب إلى يزيد في العراق أبيات شعر أخرى يستحلفه بالله فيها ألا يترك خراسان تضيع منه:

أبلغ يزيد وخير القول صدقه
وقد تيقنت أن لا خير في كذب

أن خراسان أرض قد رأيت بها
بيضاً لو أفرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت
لما يطرن وقد سربلن بالزغب

ألا تــدارك بـــخـــيـــل الـــلـــه مـــعـــلـــمـــة
ألـــهـــبـــن نـــيـــران حـــرب إيـــمـــا لـــهـــب

فرد عليه يزيد بكلمتين: لا تكثر فليس له عندي رجل.

وفي اليوم المحدد، سالت من الكور والقرى والمدن حشود غفيرة كأنها خرجت من بطن الأرض، قد تلفعت بالسواد وحملت السلاح، فالتفت حول قائدها أبي مسلم الخراساني في منظر مهيب. فلمّا علم نصر بن سيار بخروج أبي مسلم، أسقط في يده، وخاف على نفسه، فانسحب بأهله وحاشيته إلى العراق. إلا أن قدمي ابن سيّار الهزيلتين لم تعودا قادرتين على حمل جسد هذا الرجل الموغل في العمر، فسقط ميتاً في منتصف الطريق.

انحدر العباسيون، أو ما كان يُعرف وقتها بالمسودة، من خراسان في جموع كثيفة وكأنها السيل. فلمّا جاءت أبا مسلم الأخبار بخروج مروان من الشام إلى شمال العراق، قسّم جنده إلى نصفين: أحدهما يذهب للتصدي لمروان، والآخر يذهب لمنازلة ابن هبيرة. نجح الجيش الأول بقيادة عبد الله بن علي في كسر مروان في معركة الزاب الكبرى، ونجح الجيش الآخر بقيادة قحطبة بن شبيب في تشتيت جيش يزيد بن هبيرة. فلمّا دارت على يزيد الدوائر، وأوصدت الأبواب في وجهه، ارتد بفلول جيشه إلى مدينة واسط مقر حكمه، فتحصن فيها.

بدت مدينة واسط كما لو كانت جزيرة أموية بيضاء اللون عائمة في بحر عباسي أسود اللون. حلّ الحسن بن قحطبة مكان والده قحطبة بن شبيب الذي هلك أثناء محاربته ليزيد، فسار بجيشه ليضرب حصاراً طويلاً على مدينة واسط دون جدوى. ولمّا طال الانتظار، بعث أبو العباس السفاح بأخيه أبي جعفر المنصور ليتولى محاصرة المدينة. أدرك أبو جعفر أن تفكيك مقاومة المدينة وإرخاء معنوياتها لا يأتي إلا من خلال استقطاب قادة جيش يزيد واستمالتهم بالأطماع، وتذكيرهم بأن لا جدوى من المقاومة بعد فناء دولة بني أمية وانقراضها. شيئاً فشيئاً، بدأ قادتها بمفارقة صاحبهم يزيد والانضواء تحت جناح أبي جعفر، ويزيد صامد في مكانه لا يتزحزح. بقي الأمر على هذه الحال مدة

من الزمن، ثم بعث ابن هبيرة لأبي جعفر يسأله الأمان فأجابه إلى ذلك، وأشهد على نفسه بذلك القواد. فتحت واسط أبوابها، وعادت الحياة لتدب في جنباتها كما كانت قبل زوال دولة بني أمية. وثق ابن هبيرة بأيمان أبي جعفر الغليظة، ولو كان يملك مفاتيح الغيب لعلم أن أبا جعفر سيحلف فيما بعد لعمه عبد الله بن علي ثم يقتله، وسيحلف لأبي مسلم الخراساني ثم يقتله. والحقيقة أن أبا جعفر لم يكن ينوي قتله لولا أن أبا مسلم الخراساني قال لأخيه أبي العباس: "إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة تفسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة". وقد كان أبو العباس لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فظل الخليفة يلح على أبي جعفر بضرورة الخلاص من ابن هبيرة إلى أن عزم أبو جعفر على الفتك به.

كانت خطة أبي جعفر أن يقبض على أفراد حاشية ابن هبيرة ويجردهم من السلاح، فأرسل إليهم، فكان كلما دخل رجل منهم، نُزِعَ سيفه وكُتِّفَ. فلمّا انتهى من أمرهم، بعث بأكثر من مائة رجل إلى دار ابن هبيرة بحجة حمل ما عنده من مال. فلمّا أقبلوا عليه، قال ابن هبيرة لحاجبه: "دلهم على الخزائن"، ففعل ما أمره به، وحملوا الأموال. ثم عادوا إليه بعد أن فرغوا من حمل المال شاهرين سيوفهم، وكان عند ابن هبيرة حينها ابنه داؤود وبعض من مواليه وطفل صغير في حجره. فقام حاجبه في وجوههم، فضربوه بالسيف حتى مات، وقاتل ابنه داؤود والموالي إلا أنهم قتلوا أجمعين. فلمّا رأى ابن هبيرة ما حلّ بابنه وحاجبه ومواليه، نحّى الصبي، وقال: "دونكم هذا الصبي"، ثم خرّ ساجداً، فمزقوه بسيوفهم!

أبو سلمة الخلال

اسمه الحقيقي هو حفص بن سليمان، وكنيته أبو سلمة الكوفي. عُرف تاريخياً بأبي سلمة الخلال، واحتمال التسمية يرجع بحسب ابن طباطبا في كتابه "تاريخ الدول الإسلامية" إلى ثلاثة أوجه: أولها أن منزله بالكوفة كان قريباً من محلة الخلّالين فنُسب إليهم، وثانيها أنه كانت له حوانيت يعُمل فيها الخل فنسب إلى ذلك، وثالثها أنها نسبة إلى خِلَل السيوف وهي أغمادها. وهو أول من أستوزر في الإسلام ونودي عليه بوزير آل محمد. ويعد أبا سلمة الخلال من مياسير أهل الكوفة، وقد وظّف أمواله في سبيل الدعوة العباسية ونصرتها. أمّا سبب اتصاله بالدعوة لبني العباس فهذا لكونه صهراً لبكير بن ماهان أحد أكبر الدعاة. وعندما أحس ابن ماهان بالوفاة، قال لإمام الدعوة إبراهيم بن محمد بن علي والذي كان مقيماً بالحميمة في بادية الأردن: "إن لي صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضي في القيام بأمر دعوتكم"، فلمّا مات، كتب إليه إبراهيم بكتاب يعهد فيه إليه بأمر الدعوة ولا يعتقد أن قيام أبي سلمة بالدعوة جاء لكونه صهر بكير بن ماهان فقط، بل لأنه قد أعتنق مبادئ الثورة وصدّق بها وأخلص لها. لقد التف اسم أبي سلمة الخلال مع الخيوط الأولى لفجر دولة بني العباس لما سخّره من مال، وكرّسه من جهد، وصرفه من وقت، حتى قامت على أنقاض دولة بني أمية.

وبعد أن انسلخت دولة بني أمية، وابتدأت دولة بني العباس، عزم أبو سلمة على صرف الخلافة إلى بني علي. ولا يُعرف حقاً ما الذي جعل أبا سلمة يتحول دراميتيكياً من التفاني في نصرة بني العباس إلى الانجذاب إلى الفرع

الآخر من بني هاشم. ليس العجب أن ينقلب هوى ابن سلمة، ولكن العجب أن يفكر في نقل الخلافة إلى نسل علي بن أبي طالب والثورة العباسية في تمام وهجها واكتمال عنفوانها. ويخبرنا ابن طباطبا في كتابه المذكور أن أبا سلمة أعطى رسوله ثلاثة كتب لثلاثة من أعيان بني علي، وهم: جعفر الصادق، عبد الله المحض بن حسن، وعمر الأشرف بن زين العابدين. ثم قال لرسوله: "اقصد أولاً جعفر الصادق فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالق عمر". فذهب الرسول إلى جعفر، ودفع إليه الكتاب، فقال: "ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري"، ثم طلب من خادمه أن يدني السراج منه، فلمّا أدناه وضع الكتاب على النار حتى احترق، وقال للرسول: "قد رأيت الجواب". فذهب الرسول إلى عبد الله المحض، ودفع الكتاب إليه، فقرأه وقبله، وركب إلى جعفر الصادق، فأخبره بالأمر وأن الكتاب قد وصل من شيعة آل البيت في خراسان، فقال جعفر: "ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟ فخرج من عنده عبد الله المحض غير راض. وأما عمر فإنه ردّ الكتاب، وقال: "أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه".

ومن المؤكد أن بني العباس قد علموا بما يعتمل في صدر أبي سلمة وما يصبو إليه، فأضمروها في أنفسهم لريثما يفرغون من أعدائهم من بني أمية. مضت الأيام الأولى من خلافة أبي العباس السفاح في شيء من الهدوء، فقد فوّض الخليفة إلى أبي سلمة تصريف الأمور، وسلّم إليه الدواوين، ولُقب بوزير آل محمد إلى أن حانت ساعة الحساب. تتفق الروايات التاريخية حول كل شيء ما عدا موقف الخليفة أبي العباس والذي يبدو مائعاً وغير جازم بشأن أبي سلمة. ففي "الوافي بالوفيات" للصفدي و"فوات الوفيات" لابن خلكان نجد أن أبا مسلم الخراساني قد أشار على الخليفة بقتل أبي سلمة، وأن الخليفة قال: "هذا الرجل بذل ماله في خدمتنا ونصحنا، وقد صدرت منه زلة، فنحن نغفرها له". بينما نجد في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير أن الخليفة أبي العباس قد

تنكّر لأبي مسلم، وكتب إلى أبي مسلم في خراسان يطلعه على ما كان من أمر أبي سلمة. ولا يبدو لي أن هذا الأخير سيتجرأ وسيبعث برجاله من خراسان لاغتيال أبي سلمة لو لم يكن الخليفة قد أعطاه الضوء الأخضر.

أمّا الكيفية التي تمت بها العملية فقد كانت في غاية اليسر والبساطة. لقد كان أبو سلمة معتاداً على أن يسمر عند الخليفة في الأنبار كل مساء. فلمّا خرج من عنده ليمضي إلى بيته ولم يكن معه أحد يحرسه، وثب عليه مراد بن أنس ورجاله الذين بعثهم أبو مسلم من خراسان، فخبطوه بسيوفهم إلى أن مات، ثم أشاعوا بين الناس أن الخوارج هم من قتلوه غيلة. وبمقتل ابن سلمة تكون الثورة قد أكلت أول أبناءها. وقد كان ما بين مقتل أبي سلمة وبيعة أبي العباس بالخلافة أربعة أشهر فقط. وقيل إن أبا العباس عندما جاءه خبر مقتل أبي سلمه أنشد قائلاً:

إلى النار فليذهب ومن كان مثله
على أي شيء فاتنا منه نأسف

أبو مسلم الخراساني

اختلف في اسمه، فقيل هو عبد الرحمن بن مسلم، وقيل عبد الرحمن بن عثمان، وقيل عثمان بن مسلم، وقيل أشياء أخرى. وحكي أن الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قال له يوماً: "غيّر اسمك فما يتم لنا الأمر حتى تغير اسمك"، فسمّى نفسه عبد الرحمن. وقد اختلف الناس في نسب أبي مسلم، فقيل إنه من العرب، وقيل بل من العجم، وقال بعضهم أنه من الأكراد. والأصح عندي أنه من موالي الفرس، وأنه قد اصطنع نسباً عربياً لمآرب في نفسه، وكان هذا من جملة الأسباب التي جعلت الخليفة أبا جعفر المنصور ينقم عليه ويصمم على قتله.

جاء في "وفيات الأعيان" لابن خلكان أن أبا مسلم كان قصيراً، أسمر جميلاً، حلواً نقي البشرة، أحور العين، عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها، طويل الشعر، طويل الظهر، قصير الساق والفخذ، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلو المنطق، راوية للشعر، عالماً بالأمور، لم ير ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته، ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً، وإذا غضب لم يستفزه الغضب، ولا يأتي النساء في السنة إلا مرة واحدة، ويقول: "الجماع جنون ويكفي الإنسان أن يجن في السنة مرة!"، وكان من أشد الناس غيرة، لا يدخل قصره غيره، وكان في القصر كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه، وقالوا: "وليلة زفت إليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها!".

اتصل أبو مسلم بنقباء الدعوة العباسية، فاستمالته شعارات الدعوة، ودغدغته أحلامها، وأعجب الرجال بكلامه وعقله وعلمه وأدبه، فأخذوه معهم إلى كبيرهم إبراهيم الإمام، فسحره بعقله ومنطقه، وقال: "هذا عضلة من العضل"، وأقام أبو مسلم عند الإمام إبراهيم يخدمه حضراً وسفراً، وليلاً ونهاراً. وبعد زمن، عاد النقباء، فسألوا الإمام رجلاً يتولى أمر خراسان، فأشار عليهم بأبي مسلم. كان لأبي مسلم حينها ثمانية عشر ربيعاً. وعلى الرغم من صغر سنه، وتواضع تجربته، إلا أنه استطاع بفضل عزيمته، وذكاء تخطيطه، وعلو طموحه، أن يسحب في هدوء بساط خراسان من تحت أقدام بني أمية.
كان واليها القوي نصر بن سيار يشعر بأن خراسان تكاد أن تضيع منه وتفلت من بين يديه، لكنه لم يعثر بعد على ذلك الرجل الذي يزرع بذور العاصفة تحت التراب. كتب نصر إلى آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد يستنصره بمدد قبل أن تضيع خراسان، وتصبح في خبر كان:

أرى خلل الرماد وميض نارٍ
ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالزندين تورى
وإن الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري
أأيقاظٌ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً
فقل قوموا فقد حان القيام

لم تجد صيحة نصر صدى لدى مروان المنهمك في إخماد فتن الخوارج التي تفجرت هنا وهناك. ولمّا استشعر أبو مسلم في نفسه القوة، ورأى بعينيه ملامح النصر تتشكل في الأفق، أعلن الثورة، فهرب نصر قاصداً العراق، ولكنه لم يكمل الرحلة فقد مات في الطريق.

وبعد أن صفت لأبي مسلم خراسان، ورفرفت فوقها رايات بني العباس، وزالت من عليها دولة بني مروان، سيّر أبو مسلم جيوشاً عظيمة إلى العراق فأنهت حكم بني أمية فيها، وظهر أبو العباس السفاح في العراق وبويع بالخلافة، ثم سار الجيش وعلى رأسه عبد الله بن علي، فهزم مروان بن محمد في موقعة الزاب الفاصلة، فهرب مروان بفلول عسكره إلى الشام ومن ثم إلى مصر، وجيوش المسودة تلحق به ولو كان حتى آخر الأرض. وفي صعيد مصر، حاصر العباسيون مروان، فقتلوه وقطعوا رأسه، فانقطعت معه دولة بني أمية في المشرق.

كان طريق أبي مسلم محكوماً بالصعاب، ومفروشاً بالدماء، وكان هو نفسه ميالاً للقتل، ومتعطشاً للدم، حتى قيل إنه قتل في دولته ستمائة ألف صبراً(*). وأغلب الظن أن هذا الرقم كغيره من الأرقام التي تطالعنا به المراجع التاريخية مغالى فيه، ولكنه يشير بوضوح إلى أن أبا مسلم قد خاض بحوراً من الدم لكي يرسي دعائم دولة بني العباس. وقيل لرجل: " أبو مسلم خير أو الحجاج؟ "، فقال: "لا أقول إن أبا مسلم خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه". وعلى ما يبدو فإن منجزات أبي مسلم قد أثارت إعجاب الذهبي في "سير أعلام النبلاء" فكتب يمتدحه: " الأمير صاحب الدعوة وهازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية. كان من أكبر الملوك في الإسلام، كان ذا شأن عجيب ونبأ غريب من رجل يذهب على حمار بإكاف من الشام حتى يدخل خراسان ثم يملك خراسان بعد تسعة أعوام ويعود بكتائب أمثال الجبال ويقلب الدولة ويقيم دولة أخرى". وبالرغم من كل شيء، فلا يجب أن نغفل أن الحظ كان حليفاً لأبي مسلم فقد تواجد في زمن كانت دولة بني أمية تعاني سكرات الموت، فالتنافس بين القبائل المضرية واليمينة كان على أشده، والخصام بين أمراء بني أمية كان بلغ حده .

كان أبو العباس السفاح كثير التعظيم والتقدير لأبي مسلم لما صنعه من

(*) هو أن يربط الإنسان أو الحيوان ويقتل.

أعمال جليلة، وكان أخوه أبو جعفر متوجساً من أبي مسلم ومرتاباً من طموحاته، فكان لا يكف عن إغراء أخيه بقتله، ويقول له: " أطعني واقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة"، فيرد عليه أبو العباس: "يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه". ولمّا آلت الخلافة إلى أبي جعفر، ثار عمه عبد الله بن علي في الشام، ودعا إلى نفسه بالخلافة، فسيّر إليه أبو جعفر أبا مسلم. كان المنصور يدرك أن لا أحد يقدر على التصدي لعبد الله بن علي إلا أبا مسلم، وكان يدرك أن جيش عمه يحوي عدداً كبيراً من الخراسانيين الذين قد ينحازون إلى أبي مسلم. ولمّا خاف عبد الله بن علي من أن ينقلب عليه الخراسانيون قام بقتلهم ممّا أدى إلى إضعاف جيشه وتقليل فرصه. استمرت الحرب بينهما ستة أشهر، ودان النصر في الختام إلى أبي مسلم، ففرّ عبد الله إلى البصرة متخفياً، ثم قبض عليه أبو جعفر وقتله بعد حين كما تقدم معنا من قبل.

وبعد أن تخلّص أبو جعفر من أحد أبرز منافسيه، انصرف جل تفكيره إلى التخلص من منافسه الأقوى وهو أبو مسلم. وجاء في "تاريخ الرسل والملوك" للطبري أن أبا مسلم قد عظم أمره وازداد طغيانه بعد أن هزم عبد الله بن علي لدرجة أنه كان يلوي شدقه بعد أن يقرأ كتب أبي جعفر ساخراً. وكان أبو جعفر لا يكف عن تذكير أبي مسلم على نحو غير مباشر بأنه لايزال عاملاً له مهما كبر أمره وبعد صيته. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، أرسل إليه أبو جعفر برسول ليحصي عليه الغنائم، فغضب أبو مسلم أشد الغضب، وقال: "أؤتمن على الأرواح ولا أؤتمن على الأموال؟!"، فعزم على الرحيل إلى خراسان، فخاف أبو جعفر أن يشق عصا الطاعة متى اعتصم بأهله الخراسانيين. حاول أبو جعفر أن يستبقيه ويحول بينه وبين خراسان، فأرسل إليه بكتاب يقول فيه: "قد وليتك الشام ومصر، فهي خير لك من خراسان، فارسل إلى مصر من أحببت، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين". فطن أبو مسلم لغرض المنصور، فقال متعجباً: "هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي!"، فأكمل طريقه إلى خراسان، والمنصور لا يكف عن التلويح له بالجزرة مرة، وبالعصا مرة أخرى. وقال أبو جعفر لرسوله: "كلم أبا مسلم بألين ما تقدر عليه ومَنّهِ وعَرّفه أني

مضمر له كل خير فإن أيست منه فقل له قال والله لو خضت البحر لخضته وراءك ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك".

ولو أن أبا مسلم واصل طريقه إلى خراسان لصار في منعة من أبي جعفر، لكنه خاف العواقب، فأقبل على أبي جعفر في المدائن، فأحسن الخليفة وبطانته استقباله، وقام إليه مرحباً ومهللاً. ولمّا كان من الغد، دخل أبو مسلم على أبي جعفر في مجلسه، فتبسم أبو جعفر في وجهه، ولمّا استوى أبو مسلم جالساً، بدأ أبو جعفر يلاطفه بعذب الحديث، ثم أخذ يعاتبه على ما جرى، ثم صار يصيح ويصرخ في وجهه. أخذ أبو جعفر يعدد على أبي مسلم أفعاله، فيقول له أنت فعلت وفعلت، وأبو مسلم يرد بقوله: "ما يقال هذا لي بعد سعيي واجتهادي وما كان مني!"، فيقول له أبو جعفر: "يا ابن الخبيثة إنما فعلت ذلك بجدنا وحظنا، ولو كان مكانك أمة سوداء لعملت عملك، ألست الكاتب الذي تبدأ بنفسك قبلي؟ ألست الكاتب تخطب عمتي آسيا وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقىً صعباً". فانكب أبو مسلم على يد أبي جعفر يعركها ويقبلها ويعتذر إليه، فقال له المنصور وهو آخر كلامه: "قتلني الله إن لم أقتلك"، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه رجال أوقفهم أبو جعفر وراء الستار، فدخلوا وخبطوه بسيوفهم، وأبو جعفر يصيح: "اضربوا قطع الله أيديكم"، وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة: "استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك"، فأجابه: "لا أبقاني الله أبداً إذاً، وأي عدو أعدى منك؟".

ولمّا قتل أبو مسلم، جاء ابن أخي الخليفة عيسى بن موسى معاتباً أبي جعفر على ما صدر منه، فقال له أبو جعفر: "والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم ملك في حياته؟!". وبعد أن شاع خبر مقتل أبي مسلم، ارتجت له خراسان واضطربت، وأطلت من بعده فرق وجماعات دينية عجيبة غلفت عقائدها بدماء أبي مسلم. فمن ضمن تلك الحركات نذكر حركة يقال لها المسلمية (نسبة إلى أبي مسلم)، وتزعّم قيادتها رجل يقال له سنباذ، ادعى بأن أبا مسلم حي لم يمت، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً ورحمةً بعد

أن ملئت جوراً وظلماً، وأنه سيعيد إحياء دولة فارس ويمحو ملك العرب الغاصبين. لم تدم تلك الحركة طويلاً، فقد أرسل أبو جعفر بجيش تمكن من هزيمة أتباعه، وأمّا سنباذ فقد انتحر هو وأهله. وبعدها بزمن وجيز، برزت حركة أخرى يقال لها الراوندية (نسبة إلى قرية يقال لها راوند بالقرب من أصفهان)، ويعتقد أتباع تلك الحركة بتناسخ الأرواح، وأن روح آدم ظلت تتنقل من جسد نبي إلى آخر حتى حلت في أبي مسلم، وأن روح الله حلت في أبي جعفر المنصور. وقد سافر عدد من الراونديين إلى هاشمية الكوفة حيث يقيم أبو جعفر، فطافوا بقصره، ونادوه بقولهم أنت ربنا، لكن أبا جعفر حاربهم بشدة، فسجن منهم من سجن، وقتل منهم من قتل.

عبد الله بن علي

اسمه بالكامل عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، وهو عم أول وثاني خليفتين عبّاسيين: أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور. يعد عبد الله من أبرز قادة ومؤسسي الدولة العباسية، فبسيفه استطاع أن يقهر ويذل بني أمية، وأن ينسج من دمائهم خيوط فجر دولة بني العباس. وعندما انحدر مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين والملقب بالحمار، بجيشه إلى نهر الزاب شمالي العراق، خرج له عبد الله على رأس جيش المسودة، وكان هذا لقب بني العباس بسبب لبسهم السواد. وكما كان متوقعاً، دحر عبد الله بجيشه المتدفق حماسة ورغبة في النصر على جيش مروان الذي مزقته العصبيات القبلية. لم يكتف عبد الله بالنصر، بل لجّ في طلب مروان وملاحقته من مكان إلى مكان. وعندما بلغ عبد الله دمشق، عاصمة الملك الأموي، طوقها بجيشه، ثم انتدب أخيه لمطاردة مروان إلى أن نجح أخيراً في الإمساك به وقتله في بو صير بأرض مصر. تمكن عبد الله من كسر صمود المدينة، فاجتاحها بجيشه، ثم عمل السيف في رقاب أهلها، حتى قيل إنه قتل في يوم واحد ما يربو على خمسين ألفاً!

وقد بلغ الحقد والكراهية لكل ما هو أموي بعبد الله أن يأمر رجاله بنبش قبور الخلفاء الأمويين. يخبرنا المسعودي في كتابه "مروج الذهب" نقلاً عن أحد الرواة: "خرجنا أيام السفاح مع علي بن عبد الله العباسي لنبش قبور بني أمية، فلما بلغنا قبر هشام أخرجناه من قبره فرأينا أن جسده لم يتلاش بعد وأن أعضاءه بقيت صحيحة سوى ما رق من أنفه، فجلده عبد الله ثمانين سوطاً، ثم

أحرقوه، ثم قصدنا أرض وابق فنبشنا قبر سليمان، وكان لم يتبق منه سوى صلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا مثل ذلك بسائر موتى بني أمية المدفونين في قنسرين، ثم اتجهنا الى دمشق فنبشنا قبر الوليد بن عبد الملك فلم نعثر فيه على شي، ثم نبشنا قبر عبد الملك فلم نعثر فيه سوى على شؤون من رأسه، ونبشنا قبر يزيد بن معاويه فلم نر فيه سوى قطعه عظم، ورأينا في لحده خطاً أسود طولانياً كما لو أن تراباً صب في طول لحده، ثم قمنا بالبحث في سائر البلدان وأحرقنا ما عثرنا عليه فيها". إن هذه الممارسات الوحشية والجنونية تشف عن روح متشربة بالعنف والانتقام لدرجة الجنون، لهذا يميل بعضهم إلى الاعتقاد أن لقب السفاح الذي يحمله الخليفة العباسي الأول قد أطلق في الأصل على عمه عبد الله وليس على الخليفة نفسه الذي اتصف بالحلم وكرم الأخلاق!

بقي عبد الله بن علي والياً على الشام ولمدة أربعة أعوام إلى أن جاءت الأخبار من العراق بموت الخليفة أبي العباس وتولي أخيه أبي جعفر الخلافة من بعده. جنّ جنون عبد الله وثارت ثائرته، فقد عاش زمن يحلم بالخلافة لوعد قديم قطعه الخليفة المتوفى بأن من يخرج لقتال مروان بن محمد سيكون هو الخليفة من بعده. دعا عبد الله الناس لبيعته وأبطل بيعة ابن أخيه أبي جعفر المنصور، فكان لا مفر من الصدام بين الطرفين. ولعلم الخليفة بأن معظم قوات عبد الله كانت مؤلفة من الخراسانيين فقد رأى أن ينتدب أبي مسلم الخراساني لقتاله، وكان هدفه من ذلك أن يضعف قوات عبد الله بانضمام الخراسانيين في جيشه إلى صاحبهم أبي مسلم عند اللقاء الأول. وقيل إن عبد الله قد فطن إلى حيلة أبي جعفر، فسارع إلى التخلص من العناصر الخراسانية في جيشه فقتلهم مما أدى إلى إضعاف مركزه. دامت الحرب بين الرجلين القويين حوالى ستة أشهر إلى أن تمكن أبو مسلم من تحقيق الانتصار النهائي على خصمه سنة 137هـ. وعندما تيقن عبد الله من هزيمته، فرّ بجلده إلى البصرة التي كان واليها أخوه سليمان. بقي عبد الله مختبئاً عنده حوالى سنتين، ثم اضطر الوالي لتسليمه إلى الخليفة بعد أن أعطى العهود والأمان، إلا أنه أمر بحبسه بعد أن

احضر له. ويذكر أن المنصور لطالما منح خصومه الوعود والأمان حتى إذا ما وثقوا بوعوده، انقلب عليهم وتخلص منهم، ونذكر منهم ابن هبيرة وعمه عبد الله وأبي مسلم الخراساني! بقي عبد الله محبوساً لمدة سبع سنوات، ثم قرر أبو جعفر التخلص منه، فأمر أن يوضع في بيت أساسه ملح، ثم أمر أن يجرى الماء في أساسه فسقط البيت عليه فمات من ساعتها، وكان له من العمر اثنتين وخمسين سنة، وكان ذلك في سنة 147هـ.

عيسى بن يزيد المكناسي

بعد أن قُتل عامل العباسيين على أفريقيا عبد الرحمن بن حبيب الفهري عام 140هـ بدأت بلاد المغرب في الانزلاق من أيدي الخلفاء في بغداد. هيأ هذا الفراغ السياسي لإحدى فرق الخوارج والمعروفة بالصفرية الاستقلال عن الخلافة العباسية. وينتسب مؤيدو الصفرية إلى زياد بن الأصفر، وقيل إلى عبد الله بن الأصفر، وقيل كذلك النعمان بن الأصفر. وتعود إرهاصات تلك الحركة إلى زمن الأمويين وإلى فترات الصراع الدموي بين الأمويين وفرق الخوارج. ومن الجدير بالذكر أن الصفرية والأباضية تعدان من أكثر فرق الخوارج انتشاراً وقبولاً في بلاد المغرب، وتعدان كذلك الأكثر تسامحاً واعتدالاً مع مخالفيهم بالمقارنة مع فرق خارجية أخرى متطرفة كالأزارقة والحرورية في مشرق العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، لا يبيح الصفرية سفك دماء مخالفيهم من المسلمين، ولا يجيزون قتل وسبي نساء وذراري مخالفيهم، ولا يعتبرون مرتكب الكبيرة كافراً إلا في حدود ضيقة، ولا يكفرون القعدة عن القتال.

لم يتخذ الصفريون لعقود مديدة شكلاً سياسياً مستقلاً. كانوا أقرب إلى جماعة توفر لأتباعها مظلة فكرية واحدة، وتجمعهم حول رؤية مذهبية مشتركة من دون أن تتبلور في إطار تنظيمي محدد الملامح. وفي العام الذي قُتل فيه عبد الرحمن بن حبيب، تطلع الصفريون إلى بناء دولة لهم، واختاروا عليهم رجلاً يقال له عيسى بن يزيد المكناسي. وكان عيسى هذا أسود اللون، ولكنه في الوقت ذاته كان يملك مالاً وماشية. جسّد هذا الاختيار التوجه المساواتي

لدى الصفريين خاصة والخوارج عامة والذي يقوم على إلغاء الفوارق العرقية والأثنية بين عناصرها. اختار عيسى لجماعته واحة غنية بمياهها العذبة وأرضها الخصبة في بلاد المغرب الأقصى واسمها سجلماسة.

بدأ عيسى منذ لحظة تنصيبه أميراً على جماعته في تخطيط مدينة سجلماسة، فأكمل بناءها، وأتقن أسوارها، وقسّم مياهها، وأكثر من غرس نخيلها وأشجارها حتى بدت وكأنها قطعة من الجنة في طيب أرضها ووفرة مائها وكثرة غروسها. ظل عيسى أميراً على جماعة الصفريين لمدة خمس عشرة سنة. وجاء في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير أن الصفرية الخوارجية بدأت تستنكر بعض الأشياء على أميرها عيسى، ولكن ابن الأثير لا يبين لنا ما هي الأشياء التي أخذها الصفريون على أميرهم عيسى. غير أن أحمد مختار العبادي في مؤلفه "في التاريخ العباسي والأندلسي" أماط اللثام عن تلك الأشياء بقوله إن عيسى قد أخذ في أواخر أيام حكمه يستأثر بالأموال ممّا أثار سخط جماعته. وينقل العبادي عن زعيم المعارضة وقتها واسمه أبو الخطاب الصفري أنه قال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد: "السودان كلهم سُرّاق، حتى هذا"، مشيراً إلى عيسى، فأخذوه وشدوا وثاقه إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوا جسده بالعسل وتركوه حتى قتله البعوض والنمل والنحل.

ولا نملك برهاناً حول ما إذا كان عيسى بالفعل قد مدّ يده لسرقة المال العام، ولكنني أشم من عبارة أبي الخطاب انحرافاً في مزاج الفكر الصفري وبروزاً لنزعات عنصرية بغيضة ومتعفنة كان الصفريون حريصين منذ البدايات على شطبها، وذلك عندما قال أبو الخطاب في لهجة لا تخلو من التحقير "السودان كلهم سُرّاق". وفي مرحلة لاحقة من عمر الدولة الصفرية، سيتم إسقاط مبدأ اختيار الأمير، وسيتحول نظام الحكم فيها إلى نظام وراثي وملك عضوض كمثل معارضيهم من الدول والممالك والتي لم يتوقف الخوارج عن محاربتها بدعوى رفضهم لنظام التوريث! فبعد وفاة أبي الخطاب استلم الحكم رجل من أهل الربض بالأندلس يقال له أبو القاسم بن واسول والملقب بالمدرار (عرفت الدولة الصفرية بالدولة المدرارية أو دولة بني واسول) فكرّس الحكم في

ذريته إلى أن قضى الفاطميون على دولتهم في عام 349هـ. وهذا مثال آخر على أن الجماعة الصفرية قد تخلت في مرحلة ما من عمرها السياسي عن خطوطها الفكرية، وانقلبت على معاييرها الاجتماعية، وتملصت من وعودها السياسية. والحقيقة المرة أن التاريخ مفعم بنماذج كثيرة على دول رفعت عند تأسيسها قيم العدل والمساواة والرخاء، ولكنها سرعان ما سيستسلم حكامها عند تثبيت أقدامهم إلى لذة الملك وشهوة الكرسي، فتصبح الشعارات البراقة التي دغدغوا بها أحلام البسطاء بالأمس نسياً منسياً!

معن بن زائدة

اسمه معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني وكنيته أبو الوليد. وصفه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" بأنه واحد من أمراء العرب، وأبطال الإسلام، وعين الأجواد. ووُصف في مواضع أخرى بأنه واحد من أوسع الناس حلماً وصفحاً وعفواً عن زلات الناس. وقيل في حلمه وكرمه القصة الطريفة التالية:

تراهن أعرابيان على إغضابه لقاء مائة بعير، فلبس أحدهم جلد ناقة ونعلاً أيضاً من جلد ناقة، فأصبح قبيح المنظر جداً، ودخل على معن بن زائدة وقال الأعرابي دون أن يسلم:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإذا نعلاك من جلد بعير؟

فقال معن: نعم أذكره ولا أنساه.

فقال الأعرابي: فسبحان الذي سواك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير.

فقال معن: إن الله قادر على كل شيء.

فقال الإعرابي: فلست مسلماً ما عشت يوماً على معن بتسليم الأمور.

فقال معن: السلام سنة وشأنك في الأمر.

فقال الأعرابي: سأرحل من بلاد أنت فيها وإن جار الزمان على الفقير.

فقال معن: إن جاورتنا فمرحبا بك وإن فارقتنا مصحوب السلامة.

فقال الأعرابي: فجد لي يا ابن ناقص بشيء فاني قد عزمت على المسير.

فأمر له معن بألف درهم.

فقال الأعرابي: قليل ما أتيت به وأني لا أطمع منك بالمال الوفير.

فأمر له معن بألف درهم أخرى. فانخلع قلب الأعرابي، وأقبل على معن

يقبل يديه معتذراً، وقال: سألت الله أن يبقيك ذخراً فما لك في البرية من نظير
فمنك الجود والإحسان حقاً وفيض يديك كالبحر الغزير.

فقال معن: يا غلام! لقد أعطيناه ألفين على هجونا فليعط أربعة على مدحنا. والتفت إلى الأعرابي قائلاً: ما حملك على هجونا؟ فأجابه: ذلك الأعرابي اللعين الذي راهنني لإغضابك لقاء مائة ناقة.

فقال معن: إذن خسرت الرهان؟ ثم أمر له بمائتي ناقة، مائة له، ومائة للرهان.

عاصر معن غروب دولة بني أمية وشروق دولة بني العباس، فكانت له في كلا الدولتين مكانة مرموقة بفضل شجاعته وقوته. وكان معن قبيل سقوط دولة الأمويين واحداً من قادة الجيوش الأموية لدى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري والي الأمويين على العراق. ولمّا زحف قحطبة بن شبيب بجيوشه منحدراً من خراسان إلى العراق خرج له يزيد برفقة ابن زائدة فدارت معركة انتصر فيها المسودة العباسيون وقتل فيها قحطبة. وقيل إن معن بن زائدة ضرب قحطبة لمّا عبر الفرات على حبل عاتقه فسقط في الماء فأخرجوه، فقال قحطبة: "شدّوا يديّ إذا أنا متُّ وألقوني في الماء لئلا يعلم الناس بقتلي". وبعدما أن آلت الغلبة للجيوش الخراسانية عاد ابن هبيرة فيمن بقي معه من القادة والجند وأغلق عليه أبواب مدينة واسط. وكما قلنا عند تناولنا لمقتل يزيد بن هبيرة من قبل إن ابن هبيرة بقي زمناً تحت الحصار حتى بعد زوال دولة الأمويين. وعلى ما يبدو فإن ابن زائدة قد خاف على نفسه من العاقبة، فتسلّل إلى خارج المدينة، وتوارى عن الأنظار. وكما جاء معنا، فقد سلّم ابن هبيرة المدينة بعد أن أخذ الأمان من أبي جعفر المنصور قبل أن ينقلب عليه ويفتك به فيما بعد.

أمّا معن بن زائدة فلا يعرف منذ هروبه من واسط أي أرض تقله وأي سماء تظله. وعلى الرغم من تلاشي أثره وانمحاء ذكره فإن المنصور كان شديد الطلب له. مضت ثمان سنوات أو أكثر، مات خلالها الخليفة أبو العباس، وقاتل المنصور عمه عبد الله بن علي، وقتل المنصور أبا مسلم الخراساني، وأعاد عبد الرحمن الداخل ملك أجداده الأمويين في الأندلس، وجرى غيرها

من أحداث كثيرة وابن زائدة لايزال متخفّياً عن الأنظار. وفي عام 141هـ، أقبل ناس يقال لهم الراوندية (نسبة إلى قرية راوندا في خراسان) وهم من أتباع أبي مسلم الخراساني. وينسب المؤرخون المسلمون إليهم القول بتناسخ الأرواح، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. ويقص ابن الأثير علينا في "الكامل في التاريخ" أنهم أتوا قصر المنصور، فقالوا: "هذا قصر ربنا"، فأخذ المنصور رؤوساءهم فحبسهم، فأخذ أصحابهم نعشاً فارغاً، فساروا إلى السجن وكأنهم يقصدون الذهاب إلى المقبرة، فلمّا مرّوا بالسجن، رموا بالنعش، وحملوا على حرس السجن، وخلّصوا رؤوساءهم من الحبس. وبعدها ساروا إلى قصر المنصور ولم يكن لديه عدد كاف من الجند، فخرج المنصور وجيء له بدابة فركبها وهو يريدهم حتى تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه. وبينما كان أبو جعفر يجاهد جموعهم التي تدافعت عليه وإذا بفارس ملثم قد وقف بين يدي المنصور، فقاتل بين يديه قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسناً. وكان المنصور على بغلته ولجامها في يد حاجبه الربيع، فقال الفارس الملثم للربيع: "تنح فأنا أحق بك بهذا اللجام في هذا الوقت"، فقال المنصور: "صدق، ادفع اللجام إليه"، فلم يزل هذ الفارس المجهول يقاتل ببسالة نادرة حتى تفرقت جموعهم وتشتّتت حشودهم. فلمّا زال الخطر، قال المنصور له: "من أنت؟"، فقال الفارس: "طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة"، فقال المنصور: "قد آمنك الله على نفسك وأهلك ومالك، ومثلك يصطنع".

برّ المنصور بوعده، فخلع على معن وقرّبه منه وأكرمه، ثم اصطنعه على اليمن والياً له من أجل قمع حركات الخوارج والتي عجز والي اليمن السابق عبد الله بن الربيع عن مقاومتها، فلاذ بالفرار منها. وكأن ابن زائدة أراد أن يكشف للمنصور عن براعته وكفاءته، فطارد خوارج اليمن، وأعمل السيف في رقابهم، وقتل منهم خمسة عشر ألف ثائر. وبالرغم من نجاح ابن زائدة في تطويع اليمن وإطفاء نيرانه المشتعلة، إلا أن المنصور سرعان ما سخط عليه بعدما سمع عن تدافع الناس على باب ابن زائدة مستغلين كرمه المشهور وجوده اللامحدود، ولا عجب أن يغضب المنصور لذلك وهو المعروف بشحه حتى أنه

ضُرب ببخله الأمثال. ولمّا عرف ابن زائدة بغضب المنصور عليه، بعث إليه ببعض من قومه ليطيبوا خاطره ويعتذروا له، فرضي المنصور عليه. وبعد قرابة تسعة أعوام قضاها ابن زائدة والياً على اليمن، انتدبه المنصور والياً على سجستان لمحاربة الخوارج فيها، فصنع فيها مثل ما صنع في اليمن. وبعد أن أشتد في قتالهم وألح في محاربتهم، وأفنى منهم خلقاً كثيراً، اتفقوا على التخلص منه.

ورد في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير تفصيلاً لواقعة الاغتيال المحكمة. تقول الرواية إن بعض الخوارج قد انتهزوا انشغال ابن زائدة في بناء منزله، فتظاهروا أنهم فعلة واندسوا مع باقي العمال. ولمّا بلغوا التسقيف، أخفوا سيوفهم في القصب، ثم دخلوا عليه البيت وهو يحتجم، ففتكوا به، وشق بعضهم بطنه بخنجر كان معه، وقال أحدهم عندما ضربه: "أنا الغلام الطاقي" نسبة إلى قرية في سجستان تسمى الطاق. وبالرغم من مقتل ابن زائدة - آخر من بقي من قادة العصر الأموي - إلا أن ابن أخيه يزيد قد تكفل بالمهمة من بعده، ففاق عمه تقتيلاً وتنكيلاً بالخوارج، فقد قتل المتآمرين على عمه، ثم ألحق بهم جموعاً غفيرة من الخوارج. ويناقض محمد عبد القادر بامطرف في "المختصر في تاريخ حضرموت العام" الروايات التاريخية حول مقتل معن بن زائدة ناسباً مصرعه إلى جماعة من الحضارم لحقوا به في سجستان، لكنه لا يورد لنا المراجع التي اعتمد عليها، ولا الدوافع التي حرضتهم على قطع تلك المسافات البعيدة من أجل قتله، وهو ما يجعلني متشككاً في الأخذ بها، خصوصاً وأن معن قبل أن يرحل عن اليمن ترك عليها ولده زائدة والياً. ولو أراد هؤلاء الانتقام من معن وحرق قلبه لكان من الأهون عليهم اغتيال ولده زائدة دون أن يتجشموا كل هذا العناء!

عبد الرحمن بن حبيب الفهري

نجح عبد الرحمن الداخل، والملقب بصقر قريش، في الهرب من قبضة بني العباس، والفرار إلى بلاد الأندلس بعد انقراض دولة بني أمية في المشرق، وليبعث ملك أجداده من الرماد. وبعد أن استتبت الأمور للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، اتجهت أنظاره إلى شبه الجزيرة الأيبيرية لضمها إلى أملاك دولة بني العباس. ونظراً لتعذر تسيير جيش من بغداد إلى هناك، فقد كاتب أبو جعفر أحد أمراء الأندلس ووجهاء اليمنية فيها واسمه العلاء بن المغيث الجذامي. وعده المنصور إن هو ظفر بالداخل أن يجعل له الأندلس. وجدت دعوة المنصور صدى لدى العلاء لنقمته على عبد الرحمن الداخل لأنه تنكر لتضحيات القبائل اليمنية والتي لولاها لما ملك الأندلس ولما أحيا عظام الدولة الأموية. وعلى الرغم من أن بشائر النصر لاحت للعلاء، إلا أن عبد الرحمن الذي لا يعرف اليأس له مسلكاً، خرج على خصمه خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع، فانتصر عليه وقتله، وطيف برأسه، ثم حشاه ملحاً وكافوراً، وبعثه مع أحد الحجاج، فوضعه أمام باب سرداق المنصور. فلمّا رأى المنصور رأس العلاء خاف واضطرب، وقال: "الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرا".

ولمّا آلت الخلافة إلى المهدي، سار على سياسة والده المنصور في العمل على استرداد الأندلس. وعلى الرغم من تشكيكات بعض الباحثين المعاصرين، فهناك حديث عن مؤامرة-سياسية كبرى رسمها الخليفة العباسي المهدي وملك الفرنجة وإمبراطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم، بالإضافة إلى اثنين من القادة المحليين: أولهما، ويسمى عبد الرحمن بن حبيب الفهري والملقب

بالصقلبي لطوله وشقرته مثل الصقالبة، وثانيهما، يدعى سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي حاكم سرقسطه أو برشلونه. كانت الخطة المتفق عليها تنص على أن يعبر شارلمان بجيوشه شمال الأندلس ويتجه إلى سرقسطه ليستلمها من ابن الأعرابي، وبهذا يؤمن خاصرته الجنوبية من تهديدات عبد الرحمن الداخل. وفي الوقت ذاته يتسلّل ابن حبيب من بلاد المغرب في أسطول بحري وبجيش مؤلف من عناصر بربرية لمهاجمة الأطراف الشرقية من البلاد، وبهذا يتم تطويق عبد الرحمن والقضاء عليه، ومن ثم تدخل البلاد في طاعة العباسيين.

علم عبد الرحمن بتلك التحركات المريبة، فأخذ حيطته وحذره، وتجهز لمنازلة خصومه. ولحسن حظه، فقد رست مراكب ابن حبيب على ساحل تدمير الشرقية وذلك قبل أن يعبر شارلمان الجبال الشمالية. انتهز الداخل تلك الفرصة الثمينة، فهاجم ابن حبيب قبل أن يتهيأ لبدء المعركة، فأحرق مراكبه حتى يقطع عليه أمل العودة وخط الرجعة. فلمّا حلت بابن حبيب الهزيمة، فرّ بجلده ليختبئ بجبل قرب بلنسية. وتشاء الأقدار أن يصل شارلمان إلى مشارف سرقسطة، فيخرج له واليها ابن الأعرابي لاستقباله خارج المدينة. لم يكن أهل المدينة بالداخل ليقبلوا بتسليم مدينتهم إلى شارلمان، فاندلعت ثورة في قلب المدينة بقيادة رجل يقال له الحسين بن يحيى، وأوصدوا الأبواب في وجه شارلمان وواليها ابن الأعرابي. فلمّا استعصت سرقسطة على شارلمان وعاندته، عاد أدراجه إلى بلاده مدحوراً، واصطحب معه ابن الأعرابي أسيراً!

أمّا ما كان من أمر ابن حبيب، فقد ظل مختبئاً بالجبل يتحرّى فرصة للهرب من الموت المتربص به. وعلى الرغم من انزواء خطره وانطواء ذكره فإن الداخل كان مصمماً على الفتك بابن حبيب مهما كلّف الأمر. كان من المتعذر أن يجيّش الجيوش لصعود الجبال الشاهقة وتفتيش كهوفها بحثاً عنه، لهذا بذل مكافأة مجزية قدرها ألف دينار لمن يجلب له رأس ابن حبيب. وبالفعل، فقد سال لعاب أحد رجال البربر، فتربص بابن حبيب وهو في غفلة من أمره فقتله، ثم جاء برأسه ووضعه بين يدي الداخل الذي وفّى له بوعده.

لا توفر المصادر التاريخية لنا أي معلومات تذكر حول هوية قاتله أوالكيفية

التي تمت بها عملية الاغتيال. وبما أن القاتل كان من البربر، والبربر هم بطانة جيش ابن حبيب الذي أبحر من المغرب فهذا يدفعنا لترجيح أن يكون قاتله أحد رجاله الذين فرّوا معه إلى الجبال للاعتصام بها. إذ إنه من الصعب تخيل أن يصعد ابن حبيب الجبل ولوحده دون أن يكون بمعيته عدد من الرجال المهزومين. ومن الجائز أن اليأس قد تسرب إلى قلب أحدهم، فأيقن بانسداد أبواب النجاة في وجهه، ولهذا فقد عزم على قتل قائده لكي ينجو بحياته ويظفر بالمكافأة الجزيلة.

الخليفة الهادي

لم يدم حكم موسى الهادي - رابع خلفاء بني العباس - لأكثر من عام ونيف (169-170). مات الخليفة عن ستة وعشرين عاماً، وقيل بل أقل من ذلك. مات الهادي وهو لايزال في ريعان شبابه بعد حكم قصير للغاية، تاركاً وراءه خيوطاً عالقة من الشكوك والتساؤلات. تتداول كتب السّير ثلاث روايات على الأقل حول وفاته. الرواية الأولى، تقول إنه دفع بعض جلسائه من جرف على سبيل اللعب فتعلق المدفوع به فماتا جميعاً لأن الهادي وقع على أصول قصب قد قطع فدخل في مخرجه فكان سبب موته. والرواية الثانية، تقول إنه مات بسبب شكواه من قرحة كانت في جوفه. والرواية الأخيرة، تقول إن وفاته كانت من قبل جواري لأمه الخيزران كانت قد أمرتهن بقتله بالجلوس عليه أثناء مرضه حتى الموت. أما السبب في تواطؤ الخيزران على قتله، فقد قيل إن الهادي كان قد كفّ يد الخيزران عن التدخل في شؤون الحكم مما أثار غضبها، وقيل كذلك إنها أقدمت على ذلك لأن الهادي قد قرر خلع هارون (الرشيد لاحقاً) - الابن المدلل والمقرب لقلب الخيزران - من ولاية العهد وجعلها في ابنه جعفر.

لا نملك من الأدلة ما ينفي أو يثبت الرواية الأولى. أما الروايتان الثانية والثالثة - ففي رأيي - تتكاملان معاً في كتابة آخر فصول الهادي. فلولا اعتلال صحته وعجزه عن المقاومة لما قدرت بعض الجواري من الجلوس عليه حتى كتمن أنفاسه. أدرك أن الغالبية لا تميل - عاطفياً - لاعتناق الرواية الثالثة لسببين: أولهما لأنّ قلب الأم مهما انحرف وقسى فلن يصل بها إلى أن تقتل

فلذة كبدها، وثانيهما لأنّ القبول بهذا الرأي فيه مساس بجلالة ومكانة الخلافة العباسية وتشويه لرموزها المرموقة خصوصاً في عهودها الأولى قبل أن تتردى الخلافة وتتفسخ وتضيع مهابتها. غير أن ذاكرة التاريخ - من حسن الطالع - لا تعدم من العديد من الحوادث الشنيعة، قديمها وحديثها، والتي سفكت فيها دماء الآباء والأبناء من أجل احتكار السلطة والاستئثار بها.

لقد أورد أبو جعفر الطبري في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" بعضاً من المواقف ما بين الأم وابنها ما يكشف عن استفحال الخصومة في ما بينهما. فمن ذلك أن الخيزران كانت في أول خلافة موسى تفتات عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه (الخليفة المهدي) من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها قائلاً: "ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل؛ فإنه ليس من قدر النياء(*) الاعتراض في أمر الملك؛ وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك؛ ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك". وكانت السيدة الخيزران تكثر من الطلبات والحوائج على الهادي إلى أن مضى أربعة أشهر على خلافته وهو لا يرد لها طلباً، حتى زاد الناس على بابها يطلبون منها ويرجونها ويغشون بابها حتى تقضي لهم حوائجهم عند الهادي، حتى جاء يوم وطلبت من الهادي فغضب، فقالت: "إذا والله لا أسألك حاجة أبداً"، فقال: "إذا والله لا أبالي"، وحمي وغضب، وحلف الهادي أنه يبرأ من قرابته من رسول الله عليه الصلاة والسلام إن جاء لها أحد قواده أو خاصته أو خدمه ليضربن عنقه وليقبضن ماله، ثم أسمعها كلاماً شديداً. ومن ذلك قولته: "ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم! أما لك مشغل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك! إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي"، فانصرفت الخيزران ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة.

وينقل الطبري عن أحد الرواة حكاية أخرى مفادها أن الهادي بعث إلى أمه الخيزران بأرزة، وقال: "استطبتها فأكلت منها، فكلي منها". إلا أن إحدى جواريها قالت لها محذرة: "أمسكي حتى تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها

(*) النياء: النساء.

شيء تكرهينه"، فجاءوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه. ثم إن الهادي أرسل إليها بعد ذلك قائلاً: "كيف رأيت الأرزة؟"، فقالت: "وجدتها طيبة"، فقال: "لم تأكلي، ولو أكلت لكنت استرحت منك، متى أفلح خليفة له أم!". شخصياً، لا أميل إلى تصديق هذه الحكاية لما فيها من اصطناع مفتعل. فحتى لو قبلنا أن الهادي قد سعى حقاً في تسميم والدته، إلا أنه لم يكن بحاجة إلى أن يبعث لها بالسؤال إن كانت قد أكلت من الأرزه أم لا. فلو أنها قد ماتت بالسم، فإن الخبر سرعان ما سيعرف من فوره دون الحاجة أن يرسل لها، فضلاً عن أن هذه الطريقة تبدو مكشوفة، ولا يظن أن الخليفة مهما بلغت كراهيته لأمه أن يتخلص منها وبهذه الكيفية الساذجة والمستهجنة على حد سواء!

ويذكر الطبري أنه سمع من أحد الرواة أيضاً أن الخيزران كانت قد حلفت ألا تكلم الهادي، وانتقلت عنه، فلما حضرته الوفاة، وأتاها الرسول، قالت: "وما أصنع به؟"، فقالت لها خالصة: "قومي إلى ابنك أيتها الحرة، فليس هذا وقت تعتب ولا تغضب"، فقالت: "أعطوني ماء أتوضأ للصلاة"، ثم قالت: "أما إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويولد خليفة". وبالفعل، مات في تلك الليلة الهادي، وملك الرشيد، وولد المأمون. وينقل الطبري كذلك أنه لمّا مات الهادي وكانت الخيزران بصحبة ثلاث نسوة، جاءت خالصة، فقالت: "يا سيدتي، مات موسى ودفنوه"، فقالت: "إن كان مات موسى، فقد بقي هارون، هات لي سويقا"، فجاءت بسويق، فشربت وسقتنا، ثم قالت: "هات لسادتي أربع مائة ألف دينار"، ثم قالت: "ما فعل ابني هارون؟ قالت: حلف ألا يصلي الظهر إلا ببغداد"، فقالت: "هاتوا الرحائل، فما جلوسي هنا"، فلحقته إلى بغداد.

ما مضى أعلاه لا يعني أننا نقطع بضلوع الخيزران في قتل ابنها، ولكن ما تحت أيدينا من قرائن وشبهات يجعلنا نشكك في دورها. عموماً، يبقى السؤال مفتوحاً للأبد: هل دفع الهادي حياته ثمناً لشهوة الخيزران في مقاسمته السلطة أم لتفضيلها لأخيه الصغير هارون أم ترى كان لشيء آخر لا يعلمه سوى الله؟ هل سنعثر على الإجابة في القادم من الأيام؟ لا أظن أبداً.

إدريس بن عبد الله بن الحسن

هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. انخرط منذ نعومة أظفاره مع بقية أخوته الخمسة وعدد كبير من الفرع الحسني في مقاومة مسلحة استهدفت الإطاحة بالخلافة العباسية. لقد شعر العلويون منذ الإعلان التأسيسي للدولة العباسية بأنهم ذهبوا ضحية خديعة تاريخية كبرى. ظلوا عشرات السنين خلال الخلافة الأموية يكافحون من أجل أن تؤوب الخلافة إليهم إلا أن بني عمومتهم من بني العباس استأثروا بها دونهم. لم يسجل التاريخ على الرغم من إحساسهم بالحرقة وبخيبة الأمل أي تمرد ميداني يذكر لهم طيلة حكم أول الخلفاء العباسيين أبي العباس السفاح. ثم اكتفوا بالفرجة على الثورة وهي تلتهم أبناءها على خلفية قيام أبي جعفر المنصور بتصفية أبرز رجالات الدولة العباسية، وهما عبد الله بن علي وأبو مسلم الخراساني.

منذ ذاك الحين، ستتحول حالة الاحتقان والسخط في نفوس العلويين، وتحديداً الفرع الحسني منهم، إلى سلسلة من المناكفات والمشاغبات بزعامة محمد بن عبد الله - الأخ الأكبر لإدريس- والمعروف بالنفس الزكية. عمل المنصور منذ البداية على الإيقاع به إلا أن محمداً استطاع في كل مرة الإفلات من الفخاخ التي نصبت له باتقان. بقي المنصور زمناً يترصد له إلى أن استولى محمد النفس الزكية على المدينة المنورة في غفلة من واليها. نصّب محمد من هناك نفسه خليفة للمسلمين، ثم بدأ بتسيير البعوث إلى الأمصار لأخذ البيعة له. كان أدريس أحد الذين انتدبهم محمد إلى بلاد المغرب للدعوة له بالخلافة. كان هذا هو الظهور الأول لإدريس على مسرح التاريخ قبل أن يبتلعه النسيان ولمدة

خمسة وعشرين عاماً. وبالعودة إلى الثورة، فإن الجيش العباسي الذي سيّره أبو جعفر المنصور إلى المدينة لم يجد مشقة كبيرة في سحقها وقتل النفس الزكية.

أدت هذه النهاية المأسوية إلى امتناع العلويين عن ممارسة أي نشاط علني خصوصاً وأن سياسة القمع التي انتهجتها السلطة العباسية قد استنزفت ما للخصم من رصيد معنوي ومادي. وبقيت الأمور على تلك الشاكلة إلى أن أعلن حسين بن علي بن الحسن والملقب بالمثلث بعد ربع قرن الثورة مجدداً زمن الخليفة الهادي. وكما آل إليه مصير الثورة الأولى فقد لقيت الثانية مصيراً يفوق بشاعة ما جرى للأولى حيث قام جيش الهادي بالتنكيل بقيادات الثورة تنكيلاً. أمّا إدريس بن عبد الله، وقد كان أحد العناصر الفاعلة في الثورة، فقد أفلت بجلده من السقوط في بحر الدم، ولاذ بالفرار إلى بلاد المغرب الأقصى.

لقد كشف اختياره لبلاد المغرب عن ذكاء خططي ووعي استراتيجي لسببين على الأقل. أولهما، أن الخليفة في بغداد لن يغامر بتسيير جيشه ليقطع كل تلك الفيافي قبل أن يصل إلى هناك وهو في غاية الأنهاك. وثانيهما، أن بلاد المغرب كانت على الدوام خير موئل لحركات التمرد والعصيان. لم يتأخر إدريس منذ أن وطئت أقدامه بلاد المغرب في الاتصال بزعامات قبائل البربر وشيوخهم لنشر الدعوة بينهم. لقد عزّز انتماءه لآل البيت من فرصته في كسب تعاطف وولاء الناس هناك، إلى جانب رغبة المغاربة في التخلص من القبضة العباسية وتحقيق الاستقلال السياسي. وكما كان متوقعاً، فقد لقيت دعوة إدريس نجاحاً فائقاً، فدانت له بالطاعة القبائل المغربية.

استطاع إدريس بفضل جده ومثابرته خلال أقل من عامين من الاستقلال ببلاد المغرب الأقصى وتأسيس أول دولة علوية عرفت بدولة الأدارسة. هذه التطورات الدراماتيكية أثارت مخاوف هارون الرشيد ببغداد، خصوصاً مع توجه مملكة الأدارسة للتمدد التدريجي باتجاه الشرق. كان الرشيد على علم باستحالة تحريك جيوشه إلى هناك وكذلك تعذر الاعتماد على واليه على أفريقيا إبراهيم بن الأغلب. لهذا تفتق ذهنه عن الوسيلة الأقل كلفة والأقل مخاطرة ألا وهي السم. تحميل الرشيد مسؤولية تسميم إدريس بن عبد الله قد وردت بلا لبس في أكثر

من مرجع تاريخي، مثل "تاريخ الرسل والملوك" للطبري و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير و"تاريخ الإسلام" للذهبي و"مقاتل الطالبيين" للأصفهاني. غير أن البيهقي في كتابه "لباب الأنساب والألقاب والأعقاب" قد اكتفى بالقول إن إدريس قد سمّه رجل من العراق دون أن يورد اسم المحرض على تسميمه والدوافع من وراء ذلك. والطريف أن اليعقوبي في "تاريخ اليعقوبي" يعزو تسميم إدريس إلى الخليفة العباسي الهادي على الرغم من أن الأخير قد توفى قبل الأول بمدة لا تقل عن خمسة أعوام!

أمّا عن طريقة التنفيذ وهوية المنفذ فلا يوجد اتفاق حولهما. وعلى العموم، فإن الأصفهاني في كتابه "مقاتل الطالبيين" يورد لنا الروايتين المتداولتين ضمن هذا السياق. الرواية الأولى تقول إن الرشيد دسّ إليه برجل اسمه سليمان بن جرير. فلمّا وصل إلى بلاد المغرب ادعى التشيع، فمال إليه إدريس وقرّبه منه. وفي يوم أخرج من جيبه قارورة طيب مسمومة، وأهداها إلى إدريس الذي أخذها فشمّها، ثم سقط مغشياً عليه من شدة السم. لم يحتمل إدريس السم، فمات قبل أن ينقضي النهار. أمّا سليمان فقد فرّ بفرسه إلى خارج البلاد. أمّا الرواية الثانية فتقول إن الرشيد وجّه إليه الشماخ، وكان طبيباً، فأظهر لإدريس التشيع، فاستوثقه وقرّبه منه. فلمّا وثق به، أعطاه سنوناً مسموماً، فلما استن به إدريس بدأ لحمه ينتثر ويتساقط، فيما لاذ الشماخ بالهرب حتى ورد مصر.

بالرغم من نجاح الخطة المثير في كتم أنفاس أحد ألد أعداء الرشيد غير أن دولة الأدراسة، وهذا هو الأهم، لم تتهاوَ مع رحيل مؤسسها. بقيت الدولة قائمة إلى ما يقرب قرنين من الزمان قبل أن تطيح بها -ويالِلمفارقة - دولة الفاطميين الشيعية!

جعفر بن يحيى البرمكي

ما هي الأسباب التي أفضت إلى نكبة البرامكة؟ لغز عالق وسؤال حائر محكوم عليه بالسفر عبر الزمان وربما للأبد. لا أحد يعرف لماذا آل نجم أسرة البرامكة إلى رماد غير هارون الرشيد، ولكن الموتى لا ينطقون! لا يستقيم الحديث هنا عن جعفر بن يحيى البرمكي قبل أن نرجع إلى الوراء وإلى بدايات التكوين ولحظات التأسيس الأولى. تعد عائلة برمك من العوائل الفارسية العريقة ذات النسب العريق والمركز الفخيم. ويرجح أن كلمة برمك لا تشير إلى اسم علم، وإنما تشير إلى لقب ديني وراثي. ويقال إن كلمة برمك مكونة من شقين: (بر) وتعني حارساً أو سادناً، (ومك) وتعني البيت المقدس أو البيت الأصيل. ويقول في هذا الصدد أحمد العبادي في "في التاريخ العباسي والأندلسي" إن كلمة برمك تعني سادناً أو كاهناً لمعبد شهير في مدينة بلخ كانت تمارس فيه طقوس العبادة البوذية، والأصوب في رأيي الديانة الزرادشتية. ومن المعلوم أن تولي هذا المنصب الديني لا يتحقق إلا إذا كانت العائلة كريمة الأصل وشريفة الأرومة. غير أن القاضي والمؤرخ الشهير ابن خلكان في "وفيات الأعيان" يرجع أصول هذا الأسرة إلى قبيلة زرزارة الكردية والتي ينتمي إليها أيضاً ابن خلكان. هل يعني هذا بطلان دعوى انتسابهم إلى العرق الفارسي؟ ليس بالضرورة، فابن خلكان نفسه يطلق على البرامكة أنهم كانوا فرساً مجوساً. إن تعبير فارسي هنا لا يعني حصراً الانتماء العرقي، بل يتسع ليشمل الانتماء الديني والثقافي والسياسي.

ويذكر مختار العبادي في كتابه السالف أن أسرة البرامكة قد اعتنقت

الإسلام وعلى المذهب الشيعي زمن الفتوحات الإسلامية على أيام الدولة الأموية، وأن الجد برمك قد أسلم زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وأنه عالج الأمير مسلمة بن عبدالملك من مرض ألمّ به. وعندما قامت الدعوة العباسية في خراسان كان خالد بن برمك أحد أبرز الدعاة المنافحين عن الدعوة السرية ضد التجاوزات الأموية وسياساتها القمعية. وبعد أن اكتملت فصول النصر للعباسيين، خلع أبو العباس السفاح الوزارة على خالد بن برمك بعد اغتيال أبي سلمة الخلال، واستمر خالد وزيراً طيلة خلافة أبي جعفر المنصور، وجزء من خلافة المهدي إلى أن توفي عام 163هـ.

ورث خالد ولده يحيى، ويحيى هو الاسم الأكثر لمعاناً بين آل برمك لما عرف به من حسن إدارة، وهي سمة اتصف بها الفرس. وقد عهد الخليفة المهدي ليحيى مسؤولية تأديب ولده هارون الرشيد وتهذيبه لدرجة أن هارون كان لا يناديه إلا بقولة "يا أبتي". وقد كان ليحيى دور مؤثر في استخلاف الرشيد بعد وفاة أخيه الهادي. وعندما تقلّد الرشيد الخلافة حفظ الجميل لمعلمه يحيى فاستوزره ورفع من شأن ولدي يحيى: الأفضل وجعفر. فأما الأفضل فقد كان أخاً للرشيد من الرضاعة. ولّاه الرشيد بلاد المشرق فأدارها على أحسن ما يجب، فبنى المساجد وحفر الترع. وإليه يعود الفضل في نزع فتيل ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن دون إراقة قطرة دم. أما جعفر، فقد ولّاه الرشيد بلاد المغرب، وكان مقرباً للرشيد لدرجة أنه استبقاه عنده في بغداد ليأنس به ويزجي الوقت معه. لقد حظي البرامكة زمن الرشيد بمكانة رفيعة ما نالها أحد من قبلهم ولا من بعدهم. كانت لديهم المناصب الرفيعة، والأموال الوفيرة، والمزارع والدواب والدور العظيمة. كانوا في كلمتين ملوكاً بلا تيجان وسلاطين بلا صولجان.

وكما يقال فإن دوام الحال من المحال. فمثل ما كان صعود نجم آل برمك سريعاً ولافتاً كان سقوطهم مدوياً واحتراق نجمهم مفاجئاً. وكما ذكرنا في البداية، فإن لا أحد يعلم على وجه اليقين لماذا نكبهم الرشيد وحولهم في غمضة عين من نجوم متلألئة في سماء بغداد إلى أشباح ذاوية وراء قضبان

السجون. تعددت الأقوال، وتباينت الآراء، وتضاربت الأسباب، فتاهت الحقيقة، وضاعت ما بين هذا الاحتمال وذاك. ويلخص لنا مختار العبادي في كتابه المذكور ما ذهب إليه المؤرخون في تفسيرهم لنكبة البرامكة على يد الرشيد.

هناك من يقول إن سبب نكبتهم هو أن الأموال كانت تتدفق من بين أصابعهم بلا انقطاع. كان البرامكة يعيشون في ترف لا حد له ونعيم لا نظير له. قيل إن جدران وسقوف وأرضيات قصورهم الفارهة كانت مطلية بالذهب والفضة، وإن جعفر البرمكي كان له قصر في كل إقليم وكور وقرية. ويقال إن إسراف البرامكة في صرف الأموال وتبذيرها على ملذاتهم أثارت نقمة الرشيد عليهم فنكبهم. إلا أن هذا السبب لا يبدو كافياً لتبرير انقلاب الرشيد عليهم، فالخليفة كان يعيش حياة لا تقل ترفاً عن البرامكة، وكان بمقدوره أن يسلبهم أموالهم دون أن يوقع بهم.

وهناك من يقول إن الرشيد نكبهم بسبب أخته العباسة. وأصل القصة أن العباسة كانت شغوفة بالأدب والشعر، وأن الرشيد كان يحب مجالستها كما يحب مجالسة جعفر البرمكي. وقيل إنه لكي يجمع بينهما في مجلس واحد عقد بينهما زواجاً صورياً. وفي مرة، وفي غفلة من الرشيد اتصل جعفر بالعباسة، فحملت منه، وولدت غلاماً، فخافت عليه من بطش أخيها، فأرسلته إلى مكة وعهدت به من يتولى أمره. وبعد أن دبّ خلاف بين العباسة وإحدى جواريها قامت الأخيرة بتسريب الخبر للرشيد. فلمّا حج في تلك السنة، أرسل في طلب الصبي، فلمّا جيء به، أخبرته الحاضنة بصحة القصة، فكاد أن يقتله لولا أنه عدل عن ذلك. والحقيقة أنه من الصعب تصديق هذه الحكاية إذ كيف لم يفطن الرشيد أو أحد من أهله لحمل العباسة كل شهور الحمل؟!

وهناك من يعزو نكبة البرامكة إلى اتهامهم بالزندقة. فمن ضمن ما يشاع عنهم أن يحيى البرمكي قد فتح أبوابه لأهل الملل والنحل للمناظرات الفلسفية في الكون والأديان والإلهيات والماورائيات والإمامة. ويحكى أيضاً أن البرامكة جلبوا إلى البيت الحرام مبخرة عظيمة يقف الوصف دونها من جمالها وسعتها،

فاقترحوا على الرشيد أن يزيّنوا بها الكعبة ويضعوها داخلها ليطيبوا بها الكعبة والطائفين بها، وأوهموا الرشيد أن المحمدة في ذلك ستكتب له ولدولة بني العباس. فأقنعوه وأخذت المبخرة مكانها من البيت الحرام وطاف الناس بالكعبة والمبخرة تتربع داخلها متقدة بجمر كالجمال. إلا أن أحد وزراء الرشيد فطن لمكيدة البرامكة وكان فقيهاً، فذهب إلى الرشيد، وأخبره أن أصول البرامكة مجوسية، وأنهم بهذا الصنيع جعلوا الناس يطوفون حول النار لا حول الكعبة. والواقع أن تهمة الزندقة كانت منذ أيام الخليفة المهدي سلاحاً للتصفيات السياسية وذريعة واهية للتخلص من الخصوم، ولو صحت تلك التهمة لوجدها الرشيد حجة عليهم وإثارة الرأي العام ضدهم.

وهناك فريق يرجع سبب النكبة إلى ما تكشف للرشيد من مساعٍ للبرامكة لنقل الخلافة سراً إلى الفرع العلوي لميولهم الشيعية، وحجتهم في ذلك أن الأفضل البرمكي قد أطلق سراح يحيى بن عبد الله بن الحسن من دون الرجوع إلى الخليفة. ولو صح أن البرامكة قد سعوا لنقل الخلافة إلى العلويين، فهل سينالون معهم مجداً أو نفوذاً أكبر مما في أيديهم.

وهناك من يرجع نكبتهم إلى أعداء البرامكة من أمثال الفضل بن الربيع والذي كان يسعى بهم إلى الرشيد، ويذكر له استبدادهم بالملك واحتجانهم(*) للأموال حتى نفخوا النار في صدره عليهم فنكبهم لذلك.

أمّا عن مقتل جعفر البرمكي، فنجد تفصيل قصة اغتياله في "تاريخ الدول الإسلامية" لابن طباطبا. تذكر القصة بشيء من الإيجاز، أن الرشيد عاد من الحج، فسار إلى الأنبار في السفن من الحيرة. وكان جعفر في رحلة صيد، يشرب تارة، ويلهو تارة. فلمّا أظل المساء، دعا الرشيد خادمه مسرور، وقال له: "اذهب فجئني برأس جعفر ولا تراجعني". فدخل مسرور على جعفر وعنده نديمه يغنيه، وقال له: "أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد منك"، فوقع جعفر على رجلي مسرور يقبلهما! فقال جعفر: "دعني أدخل داري فأوصي"، فقال

(*) احتجانهم: تجميعهم.

مسرور: "الدخول لا سبيل له، وأما الوصية فأوص بما بدا لك"، فأوصى جعفر. ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد وببدنه في نطع. ثم أمر الرشيد جنده فقبضوا على أبي جعفر وأهله وأصحابه وحبسهم، وسامهم سوء العذاب، وأبدل نعيمهم بؤساً، فتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة الواحد تلو الآخر، فمات يحيى ولحقه ولده الأفضل. ولمّا استخلف الأمين والده، أطلق من بقي منهم على قيد الحياة، فخرجوا من العتمة إلى النور، ومن الضيق إلى الوسع، ولكن بقلوب مفتتة، وبأجساد محطمة، فقد سقطوا من مراتبهم العالية، ولم تقم لهم بعدها قائمة.

راشد المغربي

بعد أن سحق أبو جعفر المنصور بعنف تمرد محمد بن عبد الله بن الحسن - المعروف بالنفس الزكية - في بلاد الحجاز، مال العلويون إلى المساكنة والموادعة، خصوصاً وأن المنصور قد نكل بالعلويين، وزجّ بكثير من رجالاتهم في السجون. وبعد ما يقرب من ربع قرن من التئام جروح الفرع الحسني من آل البيت، قام حسين بن علي بن الحسن - الملقب بالمثلث - بتجديد شباب الثورة وبث الروح في مفاصلها، فأعلن الثورة على حفيد المنصور الخليفة العباسي الهادي. ولم يكن نصيب هذا التمرد بأفضل حال من سابقه، فقد أطاحت السيوف العباسية القاطعة برؤوس الثائرين، ولم ينج من تلك المذبحة سوى قلة من الرجال كالأخوين أدريس ويحيى وولدي عبد الله بن الحسن.

افترق الأخوان، فذهب يحيى إلى سجستان في المشرق ليوقد من حطب الأنصار المنتظرين هناك ناراً لثورته، وذهب إدريس إلى المغرب البعيد حتى لا تمتد له يد الخليفة هارون الرشيد في بغداد. غادر أدريس بلاد الحجاز برفقة مولى له اسمه راشد إلى مصر. لم يكن الطريق مفروشاً بالورد، فعيون الرشيد مبثوثة في كل مكان لاصطياد أولئك الذين يحملون معهم أينما ذهبوا أعواد ثقاب لاشعال النار هنا وهناك. ولحسن حظ إدريس وتابعه المخلص الأمين راشد فقد كان على بريد مصر يومها رجل يقال له واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان هذا الرجل يضمر في قلبه التشيع لآل البيت. ولمّا تناهى إلى مسامعه مجيء إدريس ومولاه إلى مصر متخفيين من العيون، مد إليهما يد العون، فحملهما إلى المغرب. وكما ذكرنا من قبل عند تناولنا لاغتيال

إدريس بن عبد الله، فإنه كان موفقاً في اختيار بلاد المغرب دون غيرها من الأصقاع. فبلاد المغرب تقع بعيداً عن مناطق النفوذ العباسي مما يصعّب على الخليفة في بغداد تسيير جيوشه لكي تقطع كل تلك المسافات البعيدة. أضف إلى هذا، أن بلاد المغرب كانت دوماً موطناً لنمو حركات التمرد ودعوات الانشقاق.

لم يجد أدريس ومولاه راشد عناء في استنبات بذور الدعوة في أرض تتطلع شوقاً إلى الاستقلال عن دولة بني العباس، وناس يحملون في صدورهم حباً لآل البيت. وفي خلال زمن وجيز، قامت دولة الأدارسة على سواعد قبائل البربر، فضمت بلاد المغرب الأقصى وتلمسان. أثارت تلك الدولة الناشئة وطموحاتها التي تسبق عمرها الصغير مخاوف الرشيد في بغداد. وبما أنه كان يعلم بصعوبة تحريك الجيوش إليه أو الاعتماد على واليه على أفريقيا إبراهيم بن الأغلب في احتواء طموحات إدريس والقضاء عليها، فقد احتال عليه بأن أرسل إليه رجلاً ليسمه ويخلص منه. وكما أوضحنا سابقاً، ففي أيدينا روايتان حول مقتل إدريس. الأولى تدعي أن رجلاً اسمه سليمان بن جرير جاء إليه مظهراً أنه شيعي متحرق، فانطلت الحيلة على إدريس الذي قرّبه منه وخصّه إلى أن أهداه قارورة عطر مسمومة. والثانية تقول إن رجلاً يقال له الشماخ قد تظاهر بأنه طبيب شيعي. وفي إحدى الأيام، اشتكى إدريس من وجع في أسنانه، فقدّم الشماخ إليه سنوناً فيه سم قاتل.

أكمل ابن خلدون في "تاريخ ابن خلدون" الرواية الثانية أعلاه، فقال إن الشماخ بعد أن سمّم إدريس، قفز على ظهر جواده، وانطلق بأقصى سرعة يطوي الأرض طياً، قاصداً إبراهيم بن الأغلب في القيروان، فلحق به المولى راشد بوادي ملوية، فضربه راشد بسيفه حتى بتر يده، لكن الشماخ واصل طريقه تاركاً وراءه يده التي دست السم إلى مولى راشد. وعندما عاد راشد إلى القصر وجد إدريس قد فارق الحياة، فبحث بين نسائه، فوجد جارية اسمها كنزة تحمل في بطنها بذرة إدريس، فبايعوه وهو لايزال جنيناً في بطنها. ولمّا ولدته أمه، سمّاه راشد على اسم والده إدريس، فكانت الإمارة للرضيع اسماً ولراشد رسماً.

ظل راشد على وفائه، فطوّق الصغير بحنوه واهتمامه، لكن ابن الأغلب كان وراءه يبحث عن وسيلة ما لأنهاء تلك الدولة. واستمر ابن الأغلب يلوّح لجماعة من البربر بالمال حتى غدروا براشد فقتلوه، وحملوا رأسه إليه في القيروان. لم يؤد اغتيال راشد إلى تفتيت الدولة، فظلت قائمة قرابة مائة وخمسين سنة، فيما تصدعت دولة الأغالبة إلى أن ورثتها دولة الفاطميين الشيعية!

هرثمة بن أعين

اسمه هرثمة بن أعين المروزي، وهو واحد من أكفأ القيادات العسكرية التي حظيت بها الخلافة العباسية. سطع نجم هرثمة أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد. ففي عهد هذا الأخِير، عقد لهرثمة ولاية مصر، فذهب إليها، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى أمره الرشيد بالذهاب إلى إفريقيا لاحتواء تمرد وقع فيها. سار هرثمة إلى القيروان، وقضى على العصيان، ونشر السلم والهدوء فيها. وبعد زمن وجيز، لملم الثوار قواهم، ونظّموا صفوفهم، فبادرهم هرثمة، فوضع السيف فيهم، وفرق شملهم وشتت جمعهم. لم يطب لهرثمة المقام في إفريقيا لكثرة حروبها وانفلات زمامها، فكتب إلى الرشيد يستعفيه بعد عامين ونصف، فأجابه ووجهه إلى خراسان والياً عليها.

كان على خراسان وقتها علي بن عيسى بن هامان. كادت سياسة ابن عيسى أن تجر البلاد إلى الحرب بعد أن خرج رافع بن نصر بن سيار على الطاعة، فجاء الرشيد بهرثمة، وقال له: "إن عليّاً بن عيسى قد كتب إلي يستمدني بالعساكر والأموال، فأظهر للناس أنك تسير نجدة له"، وكان الرشيد يقصد بذلك أن يعزل ابن عيسى من مركزه ويقيم هرثمة محله. ولمّا دخل هرثمة مرو عاصمة خراسان، أمر بالقبض على ابن عيسى وأهله وخاصته، وصادر ما تحت يده من أموال، وجمعت أمواله فبلغت حمل ألف وخمسمائة بعير، وسارت إلى بغداد.

وعندما توفي الرشيد، ووقعت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز هرثمة إلى المأمون، فسار على رأس جيش كبير ليلتحق بجيش طاهر بن الحسين قائد

المأمون. زحف كل من طاهر وهرثمة إلى بغداد مكتسحين دفاعات الأمين التي لم تغنها كثرتها، ثم طوّقا بغداد إلى أن دخلاها. ولمّا أسقط في يد الأمين، أشار عليه بعض أصحابه أن يسلم نفسه إلى طاهر فقال: "أنا أكره طاهر لأني رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء عريض الأساس، لم أر مثله في الطول والعرض، وعليّ سوادي، ومنطقي، وسيفي، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضربه حتى سقط، وسقطت، وطارت قلنسوتي عن رأسي، فأنا أتطير منه وأكرهه"، وزاد الأمين: "وهرثمة مولانا وهو بمنزلة الوالد، وأنا أشد أنساً به وثقة إليه"، فأرسل يطلب الأمان، فأجابه هرثمة إلى ذلك، وحلف له أنه يقاتل دونه إن همَّ المأمون بقتله، فلما علم ذلك طاهر اشتد عليه، وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة، وقال: "هو في جندي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أخرجته بالحصار، حتى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون له الفتح دوني". وسيظل طاهر يلح في طلب الأمين، وهرثمة يذود عنه ولا يقبل بتسليمه إلى أن يقع الأمين في يد أحد رجال طاهر فيقوم بقطع رأسه.

وبعد أن سكنت الفتنة، وانقشعت الغمة، قام رجل من آل البيت يقال له أبو السرايا فثار على هرثمة لأنه أنقص من أرزاقه وأرزاق جنده، فخرج أبو السرايا إلى الكوفة، وكسر جيش الخلافة الذي بعثه وزير المأمون على العراق الحسن بن سهل. وانتشر الطالبيّون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وسيّر جيوشه إلى البصرة وواسط، فاستدعى الحسن بن سهل هرثمة بن أعين لمحاربة أبي السرايا، فالتقى جيشاهما قرب المدائن فانهزم عسكر أبي السرايا، ثمّ حاصر هرثمة أبا السرايا في الكوفة حتى تفرّق عنه أصحابه، فهرب أبو السرايا من الكوفة وأتى القادسية، ثم قبض على أبي السرايا، فأرسل به إلى الحسن بن سهل فقتله وصلبه.

كان الخليفة المأمون مقيماً حينها في مرو، وكان وزيره الفضل بن سهل قد حجب عنه ما كان يجري في بغداد. لم يكن المأمون يعلم أن أهله من بني العباس قد خلعوه، وأنهم بايعوا عمه إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك، بعدما

بلغهم أن المأمون قد طرح السواد ولبس الخضرة، وبايع علي الرضا بولاية العهد. ولمّا ساءت الأحوال، وأوشكت الفتنة أن تطل برأسها، خرج هرثمة من العراق قاصداً مرو ليبصّر المأمون بما يجري بعيداً عنه، وأن يحيطه علماً بما يكتمه وزيره الفضل من أخبار، وأن لا يدعه حتى يرده إلى بغداد ليتوسط سلطانه. وفيما هو في الطريق، علم الفضل بمسير هرثمة، فخاف أن ينفضح أمره ويبطل تدبيره، فقال للمأمون: "إن هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعباد، ودسّ أبا السرايا وهو من جنده، ولو أراد لم يفعل ذلك، وقد كتب إليه أمير المؤمنين عدة كتب ليرجع إلى الشام والحجاز، فلم يفعل وقد جاء مشاقاً(*) يظهر القول الشديد فإن أطلق هذا كان مفسدة لغيره"، فتغير المأمون على قائده، وتملك قلبه حقد عليه. ولمّا اقترب هرثمة في رجاله من مرو، أمر بدق الطبول لكي يسمعها المأمون فلا يقال إنه دخل البلاد خلسة، فسمع المأمون صوت الطبول، وقال متسائلاً: "ما هذا؟"، فقالوا يقصدون تأليب الخليفة عليه: "هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق". وحينما مثل هرثمة بين يدي الخليفة، قال له المأمون معنفاً: "مالأت أهل الكوفة العلويين، وواضعت أبا السرايا ولو شئت أن تأخذهم جميعاً لفعلت"، فذهب هرثمة يتكلم ويعتذر، فلم يقبل منه، فأمر به فديس بطنه، وضرب أنفه، وسحب من بين يديه، وقد أمر الفضل الأعوان بالتشديد عليه، ثم أودعوه الحبس. كان الفضل يتخوف مع هذا من أن يكون لهرثمة إلى الخليفة سبيل، فأمر رجاله بقتله سراً في حبسه، فقتلوه إمّا سماً أو خنقاً، وقالوا إن الرجل مات حتف أنفه! وستدور على الفضل الدوائر فيما بعد، وسيدفع حياته ثمناً لما قام به من كتم للأخبار، وسيندم المأمون على تصديقه للفضل وتسرعه في قتل هرثمة الذي ما جاءه من العراق إلا ناصحاً أميناً ولكن بعد فوات الآوان.

(*) أي جاء مظهراً الخلاف وباحثاً عن الشقاق.

الفضل بن سهل

خشي هارون الرشيد أن تدبّ الفتنة بعد وفاته بين أبنائه على منصب الخلافة. فبايع للأمين - من أم عربية - بولاية العهد وللمأمون - من أم فارسية - بعد أخيه. كتب الرشيد الكتب بذلك، وأشهد فيها الشهود، وأرسل نسخها إلى الأمصار، وعلقت نسخة منها على أستار الكعبة. مات الرشيد فيما بعد، وماتت من بعده الأيمان الغليظة، وتبخرت العهود الوثيقة، وذابت الحروف على أستار الكعبة الشريفة، وأطلت الفتنة برأسها. كان وراء الأمين وزيره الفضل بن ربيع، ووراء المأمون وزيره الفضل بن سهل. الأول يزين للخليفة عزل أخيه، والثاني يزين لولي العهد الوقوف في وجه أخيه. كان المأمون مقيماً حينها في خراسان، فيما كان الأمين يسكن بغداد. فلمّا أعيت الحيل الأمين، بعث بجيش جرّار لانتزاع خراسان والقبض على المأمون. أشفق المأمون على حاله وهو الذي لا يملك حتى عشر هذا الجيش الكثيف القادم من بغداد. ولحسن حظه فقد كان لديه وزير عُرف بحسن التدبير وبذكاء التصريف. كان يسمى بذي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. أسلم والده في زمن الخليفة المهدي، وقيل بل في زمن الرشيد. أمّا الابن الفضل فقد أسلم على يد المأمون، واختار التشيع مذهباً له.

اشتهر الفضل بعلم النجامة، وكان أكثر الناس إصابة في أحكامه. ولمّا اقتربت طلائع جيش الأمين، نظر الفضل في ما تخبئه النجوم من أسرار، ثم جاء بطاهر بن الحسين، وعقد له اللواء، وقال له: "قد عقدت لك لواء لا يحل خمساً وستين سنة". فلم يزل طاهر وذريته من بعده يخرجون من نصر إلى

نصر إلى أن هُزم أحد أحفاد طاهر أمام يعقوب بن الليث الصفار وذلك بعد خمسة وستين عاماً بالتمام والكمال! ولا نعلم هل قال الفضل بهذا الكلام أم أن الأمر ليس إلا من اختراعات أهل السير وتخيلاتهم. أيّاً كان الأمر، فلايزال الأمين يُسيّر جيوشه لحرب أخيه فلا تعود إليه إلا وهي ملطخة بعار الهزيمة. واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن دخل طاهر بن الحسين بجيشه إلى بغداد فاستولى عليها، وقتل الأمين، وحُمل رأسه إلى أخيه المأمون في خراسان. اختار المأمون البقاء في خراسان، وانتدب الحسن بن سهل - الأخ الأصغر للفضل - ليتولى أمر بغداد.

وبعد أن دخل الشرق والغرب في طاعة المأمون، أوحى الفضل للمأمون أن يعهد بولاية العهد من بعده لعلي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو الإمام الثامن عند الشيعية الإمامية. وقد قيل إن الفضل ما فعل ذلك إلا بقصد تحويل الدولة من بعد المأمون إلى دولة علوية، ومن ثم يسهل عليه التحكم بها. وبالفعل، فقد استدعى المأمون الإمام علي الرضا، فخلع عليه ولاية العهد، وطرح السواد وهو شعار بني العباس، ولبس الخضرة وهو شعار الشيعة الإمامية. ومن ثم بعث المأمون إلى الحسن بن سهل يأمره بأخذ البيعة لعلي الرضا من أهل بغداد ولبس الخضرة. لم تلق دعوة المأمون المفاجئة أي قبول لدى بني العباس ومعهم أنصارهم في بغداد، فرفضوا أن تخرج الخلافة من أولاد العباس لبني عمومتهم من آل البيت، وعلموا أن هذا التدبير ما هو إلا دسيسة من الفضل بن سهل، فخلعوا المأمون، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي، وكان معروفاً بالشعر والأدب والغناء، ولقبوه بالمبارك.

اضطربت الأحوال في بغداد، وانقسمت ما بين موافق ومعارض. ولم يكن المأمون في خراسان على علم بما يجري هناك، فالفضل حبس عنه الأخبار، وحذر بمعاقبة من يحمل للمأمون أي أخبار من بغداد. ولمّا أشتدت الفتنة في بغداد وزاد سعيرها، دخل الإمام علي الرضا على المأمون، وقال له: "يا أمير المؤمنين إن الناس في بغداد قد أنكروا عليك مبايعتي بولاية العهد، وتغيير لباس السواد، وقد خلعوك، وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدي". ثم أحضر إليه

جماعة من القواد ليخبروه بذلك. فلمّا سألهم المأمون أمسكوا، وقالوا: "نخاف من الفضل، فإن كنت تؤمننا من شره أخبرناك". فلمّا آمنهم، أخبروه بصورة الحال، وعرّفوه خيانة الفضل له، وتعمية الأمور عليه، وستره الأخبار عنه.

عزم المأمون من ساعتها أن يسير بنفسه إلى بغداد لإطفاء الفتنة في بغداد، فخرج إلى هناك وبرفقته الفضل وولي عهده الإمام علي الرضا. وفي طريقه إلى بغداد، نزل المأمون مدينة سرخس، وهي المدينة التي يرجع إليها الفضل بن سهل. ولمّا دخل الفضل إلى الحمام ليغتسل من وعثاء السفر، شدّ عليه جماعة، فتناولوه بسيوفهم حتى أردوه قتيلاً. ثم إن المأمون أمر بالقبض عليهم، فلمّا مثلوا بين يديه، قالوا له: "أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا!"، فقال لهم: "أنا أقتلكم بإقراركم، وأما ما أدعيتموه عليّ من أني أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة"، ثم أمر بضرب أعناقهم، وحمل رؤوسهم إلى الحسن بن سهل، وكتب إليه يعزيه ويوليه مكانه.

إن غالبية المصادر التاريخية لا تتردد في تحميل المأمون دم الفضل، وهذا ما نجده في كثير من المصادر، مثل "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي. وهي وإن كانت تتفق في كيفية التنفيذ وهوية المحرض على القتل إلا أنها تختلف جزئياً في هوية قائد العملية، فبعضهم يذكر اسم خال المأمون وهو غالب المسعودي الأسود، وبعضهم الآخر يذكر اسم غالب الرومي. أمّا ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" فيذكر اسماء الرجال الأربعة الذين قتلوا الفضل، وهم: غالب المسعودي، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلي، وأن المأمون قد قتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل. ولدينا مصادر أخرى تنفي تقريباً صلة المأمون بمقتل الفضل، مثل "شذرات الذهب" لابن العماد، و"تاريخ اليعقوبي" لليعقوبي.

وباعتقادي الشخصي، فإنه لا أحد له مصلحة مباشرة في تغييب الفضل بن سهل سوى المأمون الذي كان يحتاج لكي يحافظ على عرشه أن يقدم رأس الفضل قرباناً له، خصوصاً وأن بني العباس في بغداد كانوا شديدي النقمة على الفضل لدوره في توريط المأمون في اتخاذ الإمام علي الرضا ولياً للعهد. ومما

يعزز من استماتة المأمون في المحافظة على منصب الخلافة أنه وقبل أن يبلغ بغداد قام بدس السم إلى الإمام علي الرضا حتى يسكت احتجاجات بني العباس هناك ويضمن ولاءهم له. لقد كشفت تصرفات المأمون عن سياسي محنك، استطاع في دهاء أن يزيح من طريقه أكبر عقبتين من دون أن تتسخ ثيابه بدمائهما. وفوق هذا، فقد نجح المأمون في أن يستحوذ على الحسن بن سهل وأنصاره بعد أن بعث له برؤوس القتلة، وكتاب يبكي فيه أخاه المغدور، وتوّج هذا كله بزواجه من أخت الحسن بوران في حفل زفاف أسطوري.

طاهر بن الحسين

هو طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق، ويكنى بأبي الطيب، وهو فارسي الأصل، وجدّه من موالي قبيلة خزاعة العربية. ويعد طاهر واحداً من أشهر قواد الخليفة العباسى المأمون، وكان موصوفاً بحب الأدب والشعر وبالجود والكرم المفرط، وكان يعرف بذى اليمنين، وفيه قال أحد الشعراء:

يـــا ذا الـــيـــمـــنـــيـــن وعـــيـــن واحـــده
نـــقـــصـــان عـــيـــن ويـــمـــيـــن زائـــدة

اكتسب طاهر شهرته الواسعة منذ اللحظة التي كلّفه المأمون فيها بقيادة جيش هزيل لا يتجاوز الأربعة آلاف مقاتل لمواجهة القائد عيسى بن ماهان الذي بعث به الخليفة الأمين من بغداد على رأس جيش كبير. وعلى الرغم من التفوق العددي لجيش الأمين إلا أن طاهر استطاع أن يمرغ أنف عدوه المنتشي بكثرته في التراب وأن يجهز على قائده عيسى بن هامان. بثّ هذا النصر في نفس طاهر وأتباعه الحماس وأوقد في قلوبهم الأمل، فانحدر بجنده كالسيل الجارف كاسحاً دفاعات الأمين التي لم تنفعها الكثرة والعتاد إلى أن وصل إلى أسوار بغداد فحاصرها. لم تقو بغداد أن تصبر تحت وطأة الحصار والغلاء والجوع، فاستسلم الأمين، وقُطع رأسه، فبعث به طاهر مع القضيب والبردة إلى المأمون في خراسان. وقيل إن طاهر أرسل إلى المأمون يستأذنه في أمر الأمين إن هو ظفر به، فأرسل إليه المأمون قميصاً غير مقور، فعلم طاهر أنه يقصد قتله. وبعد مقتل الأمين، أرسل المأمون إلى طاهر بن الحسين يأمره بتسليم

العراق وفارس واليمن والحجاز لوزيره الحسن بن سهل، وأن يتوجه إلى الرقّة ليستلم الموصل والشام ومصر والمغرب.

وبعد سبعة أعوام من مقتل الأمين وعودة المأمون إلى عشه في بغداد، دخل طاهر على الخليفة يوماً فوجده يبكي بحرقة، فسأله عن سبب بكائه، فأبى المأمون أن يكشف له عن السر، فاحتال طاهر على خادم المأمون، فأخبره أن طيف أخيه الأمين زاره، فخاف طاهر على نفسه من انتقام الخليفة، فسأل الوزير أن يقنع الخليفة بأن يوليه خراسان التي كانت تعصف بها آنذاك الاضطرابات، فوافق المأمون على ذلك، وعيّنه والياً على خراسان، وجعل عليه عيناً تنقل له كل يوم ما يصدر من طاهر. ذهب طاهر إلى خراسان، واتخذ من نيسابور عاصمة لدولته والتي كانت قمراً يلتف حول بغداد مثلها مثل دولة الأغالبة في أفريقيا. وسيرث طاهر من بعده ولداه وأحفاده، وسيمتد بساط العمر بالدولة الطاهرية إلى ما يقرب من مائة عام. ولعل من نافلة القول التنويه هنا أن الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين ليست هي الدولة الطاهرية التي قامت في اليمن عند منتصف القرن التاسع الهجري واستمرت زهاء ثمانين عاماً.

وبعد عامين من ولاية طاهر بن حسين على بلاد خراسان، خطب طاهر بالناس يوم الجمعة، ثم أكمل باقي يومه، وفي المساء ذهب ليخلد إلى النوم، فأبطأ في الخروج إلى صلاة الفجر، فلمّا دخلوا عليه وجدوا روحه قد فارقته. وتوجد روايتان حول سبب وفاة طاهر المفاجئة والمريبة: الأولى ترجعها إلى اصابته بالحمى، والثانية ترجعها إلى تسميمه بواسطة أحد الخدم. وبالرغم من أن الرواية الأولى هي الأكثر شهرةً وتداولاً إلا أن الرواية الثانية هي الأقرب للعقل والمنطق، كما سوف نرى.

الرواية الأولى، وردت على لسان كلثوم بن ثابت متولي بريد خراسان، وقد نقلتها أكثر المراجع التاريخية. وسنتجاوز كل التفاصيل الصغيرة التي وردت على لسان كلثوم تجنباً للإطالة والاستفاضة. تتلخص الرواية في أن طاهر صعد المنبر يوم الجمعة وخطب في الناس، فلمّا بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، فقال: " اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك، واكفها

مؤنة من بغى فيها، وحشد عليها، بلم الشعث، وحقن الدماء، وإصلاح ذات البين". كانت هذه الخطبة إعلاناً مباشراً على تمرد طاهر وخروجه وعصيانه للخليفة. والعجيب أنه عندما ذهب إلى النوم في تلك الليلة وجدوه من الغد في فراشه ميتاً من أثر الحمى! إن موت طاهر بهذا الشكل المفاجئ وبمجرد إعلانه الانفصال عن الخلافة في بغداد وبهذه السرعة الفائقة لا يملك العقل أن يصدقها. لا يمكن لطاهر أن يموت هكذا وبهذه السرعة ومن دون أن يعلم خدمه بمرضه المفاجئ. من شبه المؤكد أن هناك يداً خفية امتدت إليه في الظلام جزاء له على تمرده على الخليفة في بغداد، وخصوصاً وأن ابن خلكان في "وفيات الأعيان"، وابن العماد في "شذرات الذهب"، واليافعي في "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان" كانوا يتحدثون عن دور خفي مارسه أحد الخدم الذين جنّدهم المأمون عيناً له ترصد له أفعال طاهر وأقواله، ويداً له تنقل إليه ما يصدر منه كل يوم عبر البريد الممتد من نيسابور إلى بغداد، وسيفاً له يقطع رأس من يتجاسر عليه. ويذهب ابن العماد واليافعي إلى القول إن الخليفة كلّف خادمه حينما سيّره مع طاهر إلى خراسان بأن يفتك به متى ما رأى منه ما يريبه. وفي رأيي إنّ هذا التفسير هو الأقرب إلى الصواب وإلى احترام المنطق، خصوصاً وأن المأمون قد سبق له الإطاحة بخصومه من أمثال الفضل بن سهل والإمام علي الرضا بهدوء ومن دون أن يفتعل حوله أي ضجة وتتلطخ يديه بدمهم!

المتوكل على الله

هو جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولقبه هو المتوكل على الله، وكنيته أبو الفضل. ترتيبه العاشر من بين خلفاء بني العباس. عقدت له الخلافة بعد مائة عام من تولية أبي العباس السفاح، وبعد مائتي عام من وفاة العباس بن عبد المطلب. تولى الخلافة وهو في سن السابعة والعشرين من عام 233هـ، وبقي في منصبه إلى أن قتل سنة 247هـ بعد أن دامت خلافته أربع عشرة سنة. انتقلت الخلافة إلى المتوكل بعد وفاة أخيه الواثق. وكان هذا الأخير قد عزم خلال خلافته على إقصاء أخيه المتوكل من ولاية العهد واستخلاف ابنه من بعده. فلمّا قبض الواثق، جيء بابنه الصبي، وألبسوه زي الخلافة الأسود، فإذا هو قصير، فقال أحدهم: "ألا تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة، ولا تجوز الصلاة وراءه"، ثم عادوا فتشاوروا في ما بينهم، فاتفق رأيهم على مبايعة المتوكل خليفة للمسلمين.

ورث المتوكل مملكة عظيمة غير أن علائم الوهن كانت قد بدأت تتسلل إليها، ودلائل الهرم قد بدأت تغزوها. فمنذ الخليفة المعتصم، بدأ عساكر الترك الذين جلبهم الخليفة وبكثرة في التغلغل إلى دهاليز السلطة وفي محاصرة الخلفاء تدريجياً، تمهيداً لتحويلهم إلى دمى يسهل التلاعب بها وتوجيهها من وراء الستار. وعموماً، لم تشهد خلافة المتوكل تطورات سياسية هامة تستحق الذكر، خصوصاً على الصعيد الخارجي. إن ذكر اسم الخليفة المتوكل يكفي لاستحضار قضيتين وعلى مستوى عال من الأهمية. الأولى، أمره بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، وبهدم ما حوله من المباني، وأن يبذر ويسقى موضع قبره،

وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى عامل صاحب الشرطة بالناس في تلك الناحية: "من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق". وهذه الحادثة وردت في أكثر من موضع ومنها "تاريخ الرسل والملوك" للطبري، و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"البداية والنهاية" لابن كثير. وقد دفع تخريب المتوكل لقبر الحسين بالشاعر البسامي للقول:

بالله إن كانت أمية قد أتت
قتل ابن بنت نبيِّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله
هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا
في قتله، فتتبعوه رميما

ولهذا فإن شيعة علي لا تكن للمتوكل أي شعور ودي بالمرة. ويقال إن المتوكل من شدة بغضه للشيعة أنه جعل أئمتهم موضع سخرية وتندر. فمن ذلك ما جاء في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير من أنه كان من جملة ندمائه رجل اسمه عبادة، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهاً بالإمام علي، ويرقص ويقول: "قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين" يعرض بعلي، والمتوكل يشرب ويضحك.

والثانية، أنه لما أفضت إليه الخلافة أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال كما كان عليه الناس زمن المأمون والمعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السلف والجماعة. ولهذا فإن المتوكل ينظر إليه كما لو كان فاصلة تاريخية ما بين الابتداع والاتباع، وما بين الاجتهاد والانغلاق، وما بين التفكير والتقليد. إن انصار العقلانية والفكر الحر يرون في المتوكل بداية لتدشين عصور طويلة من الظلام والخمول الفكري والركود الحضاري والتي لاتزال مفاعيلها ممتدة إلى هذا اليوم. أمّا أنصار السلفية فيوقرون المتوكل ويبالغون في الثناء عليه لأنه أطفأ فتنة "خلق القرآن"، وأطلق أحمد بن حنبل من محبسه وقرّبه وكرّمه، وتصدى للمعتزلة، وأحيا السنة

النبوية، وأذل الشيعة الإمامية. ولهذا فلا غرو عندما يرفعه أهل السنة إلى مرتبة عالية ويضعونه بجوار أبي بكر الصديق وعمر بن عبد العزيز، فيقال: " الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في ردة المظالم، والمتوكل في إحياء السنة".

كان للمتوكل ثلاثة أبناء أخذ لهم البيعة على حياته، وهم من الأكبر للأصغر: المنتصر بالله والمؤيد بالله والمعتز بالله. وكما يتبين من الوقوف على الأيام الأخيرة للمتوكل فإن علاقته بابنه الأكبر المنتصر بالله قد بلغت حد القطيعة. وأغلب الظن أن السبب في ذلك يرجع إلى قيام قبيحة - إحدى محظيات المتوكل - وأم ولده المعتز بالله بإيغار صدر المتوكل على ابنه الأكبر المنتصر بالله وتحريضها له بنزع المنتصر من ولاية العهد. وعلى ما يبدو فإن المتوكل قد استسلم كليةً لإغواءات قبيحة مما أدى إلى وقوع مصادمات مؤسفة بين الأب وابنه. فمن ذلك أن المتوكل شعر على أواخر أيامه بوعكة، فأمر ابنه المنتصر ليخطب بالناس في يوم الجمعة بدلاً منه، إلا أن بعضاً من خاصة المتوكل اقترحوا على الخليفة أن يعهد للمعتز بالله أن يخطب بالناس، فأداها أداء عظيماً بليغاً، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ، وحنق على أبيه وأخيه. وقبل مصرع المتوكل بقليل، جاء بابنه بالمنتصر بالله فأهانه وصفعه أمام ندمائه ورجاله. وإليك بعض مما ورد في "تاريخ الرسل والملوك" للطبري من أمر المتوكل وابنه المنتصر في تلك الليلة: "...فكثر عبثه بابنه المنتصر مرة يشتمه، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمر بصفعه، ومرة يتهدده بالقتل...والتفت المتوكل إلى وزيره الفتح بن خاقان، فقال له: برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم تلطمه - يعني المنتصر - فقام الفتح ولطمه مرتين، يمر يده على قفاه، ثم قال المتوكل لمن حضر: اشهدوا جميعاً أني قد خلعت المستعجل - المنتصر - ثم التفت إليه، فقال: سميتك المنتصر، فسماك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي...".

لم يكن المنتصر بالله وحده من تمنى الخلاص من والده الذي سحق

كرامته وألغى آدميته وسقاه المر في كؤوس، بل كان هناك عدد من كبار الضباط الأتراك، مثل وصيف وبغا الشرابي وباغر الذين خافوا مما قد يحفره المتوكل لهم، خصوصاً بعد قيامه بمصادرة بعض أملاك أحد كبار قادته وهو وصيف التركي وإقطاعها للفتح بن خاقان المقرب من المتوكل. وعلى ما يبدو من قراءة عبارة وردت في "تاريخ الرسل والملوك" أن المنتصر بالله والضباط الأتراك كانو قد أمسكوا بخيوط مؤامرة خطط لها المتوكل وساعده الفتح بن خاقان كانت تستهدف الإطاحة برؤوسهم، لهذا فقد قرروا أن يتغدوا بالمتوكل قبل أن يتعشى بهم.

ونظراً لما تكتنزه قصة اغتيال المتوكل من تفاصيل مثيرة تستحق القراءة، فسأضع بين يديك ما رواه الشاعر البحتري، ودوّنه الأصبهاني في كتابه "الأغاني" بشأن تلك الليلة الدامية، "...لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجباً، وذلك أننا تذاكرنا أمر الكِبْرِ...ثم حَوَّلَ وجهه إلى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعاً لله، ثم أخذ من ذلك التراب فنثره في لحيته ورأسه، وقال: إنما انا عبد الله، وأن من صار إلى التراب لحقيق أنْ يتواضع ولا يتكبر، فقال البحتري: فتطيرت له من ذلك... ثم قعد للشراب، فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتاً استحسنه، ثم التفت إلى الفتح فقال: يا فتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك، ثم أقبل على البكاء، فقال البحتري: فتطيرت من بكائه... ثم أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فيها دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومُطْرَفُ خز أحمر، فلبس الخلعة والتحف بالمطرف... ولمّا تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه، فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة، وقال: قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي، فقلت في نفسي: إنا للّه وأنا إليه راجعون، انقضت واللّه المدة. وسكر المتوكل سكراً شديداً، وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه. فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة أنفار من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم

تبرق في ضوء تلك الشمع، فهجموا علينا، وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر ومعه آخر من الأتراك على السرير، فصاح بهم الفتح: ويلكم! مولاكم؟ فلما رآهم الغلمان ومَنْ كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم. قال البحتري: فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن، فَقَمَّه إلى خاصرته، ثم ثنّاه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك، وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه منِ متنه، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول، قال البحتري: فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه، ثم طرح بنفسه على المتوكل، فماتا جميعاً، فلفا في البساط الذي قتلا فيه، وطرحا ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر، فأمر بهما فدفنا جميعاً...».

المنتصر بالله

اسمه محمد، وقيل الزبير، وفي كنيته ثلاثة أقوال: أبو عبد الله، أبو جعفر، وأبو العباس. وصفه ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" بأنه عظيم الحلم، راجح العقل، غزير المعروف، راغب في الخير، جواد كثير الأنصاف، وحسن العشرة. أمّا ابن طباطبا في "تاريخ الدول الإسلامية" فقال عنه إنه كان شهماً فاتكاً سفاكاً للدم، لكن سيرة المنتصر على قصرها لا تشير إلى أنه كان مولعاً بالدم وميالاً للسفك كما يذهب ابن طباطبا. ومن العجب أن يقول مؤرخ شيعي كابن طباطبا مثل هذا القول على الرغم من حنو المنتصر بالله على الطائفة الشيعية وعطفه عليها!

وكما تقدم معنا في الصفحات السابقة، فإن العلاقة بين الخليفة المتوكل وابنه المنتصر قد بلغت حداً لا يحتمل. فالأب يتربص بولده، والابن يحفر لابيه، والأب يرسم مع وزيره الفتح بن خاقان خطة للإطاحة برؤوس المنتصر ووصيف وبغا، والابن يضع يده في يد وصيف وبغا لقتل المتوكل ووزيره الفتح، فمن من الفريقين سينال من الآخر؟ وصدق من قال: إن الملك عقيم! كان المنتصر يكره والده المتوكل لأن الأخير أسرف في امتهانه، وبالغ في إذلاله، وسعى إلى خلعه من ولاية العهد. ومن المرجح أن المتوكل ما انحرف عن ابنه إلا بسبب جاريته وزوجته المسماة قبيحة والتي استمرت تشحن قلبه ضد أكبر أبنائه المنتصر من أجل أن يفوز ابنهما المعتز بولاية العهد عوضاً عن أخيه الأكبر. ومما زاد ما بين الابن وأبيه من وحشة وكراهية أن المتوكل قد آذى الشيعة كثيراً، وأمر بهدم ضريح الحسين بن علي، وجعل من سيرة علي وآله

مادة للسخرية ومصدراً للتسلية في مجالس السكر والعربدة. جاء في "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري حكاية ذات صلة: "...وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث، وكان أصلع فيشد تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه ويرقص، والمغنون يغنون قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين، يحكي بذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمتوكل يشرب ويضحك، فرآه المنتصر فتهدده فسكت خوفاً منه، فقال له المتوكل: ما حالك! فأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين - إن هذا الذي يحكيه - هذا الكلب - ويضحك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت، ولا تطمع هذا الكلب وأمثاله فيه.

وبعد أن جلس المنتصر على العرش، خاف القادة الترك من أن يثأر ولدا المتوكل المعتز بالله والمؤيد بالله منهم فيما لو آلت الخلافة لأحدهما بعد رحيل المنتصر، فجدّ الأتراك في هذا، وألحوا على المنتصر، وقالوا له كما أخبرنا ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ": تخلعهما وتبايع لابنك هذا عبد الوهاب، فأحضرهما وجعلا في دار، فقال المعتز للمؤيد: يا أخي لما أحضرنا؟، فقال المؤيد: يا شقي، للخلع، فقال: ما أظنه يفعل. فجاءتهم الرسل بالخلع، فقال المؤيد: السمع والطاعة، فقال المعتز: ما كنت لأفعل، فإن أردتم قتلي فشأنكم. فرجعوا ثم عادوا بغلظة شديدة، فأخذوا المعتز بعنف وأدخلوه إلى بيت وأغلقوا عليه الباب. فقال له المؤيد: يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك ما نالوا ثم تمتنع عليهم! إخلع ويلك ولا تراجعهم، فقال: إفعل، فقال لهم المؤيد: قد أجاب. فكتبا خطوطهما بالخلع، وأنهما عجزة عن الخلافة: وقد خلعناها من أعناقنا. ثم دخلا على المنتصر فقال: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له! والله ما طمعت في ذلك، ولأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي؛ ولكن هؤلاء - وأومأ إلى الموالي- ألحوا عليّ في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة، فيأتي عليكما، فلو قتلته ما كان دمه يفي دماكما. فقبّلا يده ثم انصرفا.

وبعد انقضاء ستة أشهر، توفي المنتصر وهو في ريعان شبابه، وكان له من العمر وقتها خمساً وعشرين سنة. وقد تعددت الروايات حول سبب الوفاة، فمنهم من يرجعها إلى مرض ألم به، وبعضهم يرجعها إلى سم دس إليه. فهناك رواية تقول أنه أصيب بعلة الذبحة في حلقه ثم مات. ورواية أخرى تقول إنه أصيب بورم في المعدة فصعد إلى فؤاده ثم مات. ورواية ثالثة تقول إنه وجد في رأسه علة فقطر الطبيب في أذنه دهناً فورم رأسه، فعولج ثم مات. ورواية رابعة تقول إنه وجد حرارة، فدعا بعض أطبائه، فقصده بمبضع مسموم فمات، وانصرف الطبيب إلى منزله وقد وجد حرارة، فدعا تلميذاً له ليفصده، ووضع مباضعه بين يديه ليتخير أجودها، فأخذ ذلك المبضع المسموم - وقد نسيه الطبيب - ففصده به، فلما فرغ نظر إليه فعرفه، فأيقن الهلاك ووصى من ساعته ومات. ورواية خامسة تقول إن الأتراك خافوا من المنتصر فجعلوا لخادم له ثلاثين ألف دينار على أن يحتال في سمه، وجعلوا للطبيب جملة، وكان المنتصر يحب الكمثرى، فعمد الطبيب إلى كمثراة كبيرة نضيجة فأدخل في رأسها خلالاً ثقبها به إلى ذنبها، ثم سقاها سماً، وجعلها الخادم في أعلى الكمثرى الذي قدمها له، فلما رآها أمره أن يقشرها له ويطعمه إياها، فأطعمه إياها، فوجد فترة، فقال للطبيب: أجد حرارة، فقال: احتجم، فهذا من غلبة الدم. وقدر أنه إذا احتجم قوي عليه السم، فحجم فحمّ وقويت عليه، فخافوا أن يطول مرضه، فقال الطبيب: يحتاج إلى الفصد، ففصده بمبضع مسموم، ثم ألقاه الطبيب في مباضعه واحتاج الطبيب إلى الفصد ففصد به فمات. وباعتقادي، أن شباب المنتصر يقلل من احتمال وفاته نتيجة عارض صحي. والأقرب في رأيي أن القادة الترك هم من أغروا الطبيب به خوفاً من انقلاب المنتصر عليهم وتنكيله بهم.

خفاجة بن سفيان الصقلي

تقع جزيرة صقلية إلى الجنوب من إيطاليا، وهي تعد من أكبر جزر حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن أكبر الأقاليم الإيطالية مساحة، ولا يفصلها عن شبه الجزيرة الإيطالية غير مضيق بحري رفيع. وترجع أولى محاولات المسلمين لضم جزيرة صقلية إلى زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان عندما سيّر أسطولاً بحرياً قوامه مائتا مركب وبقيادة معاوية بن حديج، فاكتفى بما غنمه من أسلاب. ومنذ ذلك العهد، والأساطيل الإسلامية تغزو تلك الجزيرة من وقت لآخر، ولكن من دون أن تتوج أي من تلك المحاولات بنصر مبين. واستمر الحال على هذه الشاكلة إلى زمن الخليفة العباسي المأمون، حينما عزم والي أفريقيا والحليف المخلص للخلافة في بغداد والمسمى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (ثالث وأشهر ولاة الأغالبة) على فتحها عنوة وذلك في عام 212هـ.

ويقال إن رجلاً ثرياً من أهل الجزيرة ويقال له إيوفيموس كان قد حقد على حاكم الجزيرة البيزنطي، فكاتب زيادة الله عارضاً عليه غزو الجزيرة. وهذه القصة، إن صحت، فإنها تذكرنا بما قيل عن فتح بلاد الأندلس بتحريض من حاكم سبتة الكونت لوليان لموسى بن نصير والي أفريقيا حينها وذلك بسبب اعتداء ملك البلاد لذريق على شرف ابنة لوليان هذا. فكما ترى هنا، فالروايات الإسلامية تعزو فتح كل من الأندلس وصقلية إلى دوافع شخصية انتقامية. مهما يكن الأمر، فإنه يقال إن زيادة الله قد تردّد في الاستجابة للإغراءات التي زينت له غزو الجزيرة بسبب حالة السلم التي تؤطر علاقات دولته بصقلية، إلا أن

قاضي القيروان الشهير أسد بن الفرات بن سنان - الخراساني الأصل - شدّ من عزم الوالي، وحفّزه على تحريك الجيش لفتحها، فكان له ما أراد.

حملت سبعون أو مائة سفينة عشرة آلاف مقاتل، وسبعمائة فارس من سوسة إلى صقلية. كان أغلب العناصر القتالية ذوي أصول خراسانية فيما البقية من العرب والبربر. احتل المسلمون مدينة مازرا الجنوبية بسهولة، ولكنهم بعد مدة أصابتهم مجاعة شديدة حتى أكل الجند خيولهم ودوابهم. فلمّا أوشكت المجاعة أن تهلك الجيش، صاح أحدهم في ابن الفرات لكي يرجع بهم إلى أفريقيا، فتناوله ابن الفرات ثلاثة أسواط، وكأنه يجلد في جنوده مشاعر التردد والخذلان، فتم له ما أراد، فعادت العزيمة لنفوسهم، وقاتلوا عدوهم حتى ظفروا به. وبعد عام من نزول المسلمين صقلية، توفي ابن الفرات قرب أسوار مدينة سرقوسة بمرض الطاعون. وبقيت أجزاء من الجزيرة في يد البيزنطيين، ولم يكتمل فتح صقلية بالكامل إلا في زمن الفاطميين.

تعاقب على ولاية صقلية عدد من الولاة الذين واصلوا سياستهم في قضم أراضي الجزيرة وضمها إلى الممتلكات الإسلامية. وكان أشهرهم رجل يقال له العباس بن الفضل بن جعفر. كرّس العباس حياته على الجزيرة في توسيع الأراضي الإسلامية، فكانت له صولات وجولات موفقة. وبعد وفاة العباس، آلت صقلية لولده عبد الله، ومن بعده إلى خفاجة بن سفيان بن سواده. وخفاجة هو من أبناء الجيل الثاني الذين ولدوا وعاشوا في صقلية. قضى سفيان فترة ولايته والتي امتدت إلى ثمانية أعوام في محاربة الروم الذين كانت لهم تقريباً نصف الجزيرة. وبالرغم من توجهه شبه الكامل لمقاتلة الروم إلا أنه لم يحقق انتصارات عريضة باستثناء الفوز بعدد من الحصون والظفر بالغنائم والأسلاب. ويقدم لنا ابن عذاري في "البيان المغرب في أخبار مراكش والمغرب" توصيفاً موجزاً للمعارك التي كان لخفاجة فيها اليد العليا على أعدائه. وخلال فترة ولايته، قام خفاجة في أكثر من مرة بمحاصرة سرقوسة العصية من دون أن ينجح في تفتيت مقاومتها المنيعة. وفي آخر مرة، وبينما كان خفاجة عائداً من سرقوسة قاصداً عاصمة الجزيرة بليرمو ليلاً، قام أحد جنوده بتسديد طعنة قاتلة

أردت سفيان قتيلاً، فيما فرّ قاتله إلى سرقوسة. ولا نملك من استقصاء المصادر التاريخية دليلاً نستضيء به في تحليل دوافع الاغتيال وتتبعها، فنحن لا نعرف - مثلاً - هوية قاتله، أو مكانته في الجيش، أو طبيعة العلاقة التي تربطه بخفاجة. وبما أن القاتل كان مجرد شخص واحد فهذا يشجع على الاعتقاد أن الجريمة ربما تمت لدوافع شخصية صرفة، ولكن هروبه إلى سرقوسه والتي كانت في يد الروم يثير الشبهة حول ما إذا كان الرجل قد قام بفعلته تلك بموجب اتفاق سري عقده مع الروم على أن ينال بعدها الحماية والمكافآة!

خمارويه بن أحمد بن طولون

ورث خمارويه بعد وفاة أبيه أحمد بن طولون دولة مستقرة الأحوال ثابتة الأركان غنية الموارد. استلم الشاب ابن العشرين ربيعاً بلاداً تمتد من العراق شرقاً إلى برقة غرباً ومن تركيا شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً. عاش خمارويه في حياة أبيه وبعد مماته حياة مرفهة منعمة، لا يعكر مزاجها ولا يكدر صفوها شيء. واستطاع بما يملكه من الثروات الحصول على كل ما تتوق له نفسه ويهفو له قلبه. كان لدى خمارويه قصر منيف عدّه المؤرخون أعجوبة من أعاجيب الدنيا لما حواه من إبداع خلاب. وكان قصره الرائع يضم بيتاً للسباع مقسّماً إلى حجرات حيث يعيش في كل حجرة أسد وأنثاه. وقد اصطفى خمارويه من جملة السباع أسداً أزرق العينين اسمه زريق، وكان يحرس سيده عندما يهجع للنوم، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب من حجرته. وبجوار قصره زرع له بستاناً كان آية في الروعة، وجلب إليه النوادر من الأشجار والورود من أقطار الأرض، وشحنه بطيور الزينة لتنشر البهجة في النفوس ولتسكب في الآذان أحلى الألحان.

بعد وفاة أبيه، تحركت الخلافة العباسية في بغداد لاسترداد أمجادها القديمة، فسيّرت إليه جيشاً كاد أن يحقق المراد لولا براعة أحد قادة خمارويه الذي تمكن من قلب مجريات المعركة وإفشال الحملة العباسية. وعندما آلت الخلافة إلى المعتضد العباسي المعروف بقوته وبطشه، سارع خمارويه بالكتابة إليه مقترحاً تزويج ابنته قطر الندى من ولي العهد المكتفي، لكن المعتضد أرادها لنفسه ليحول دون التفاف خمارويه وابنته على ابنه المكتفي من بعده. قبل خمارويه طلب الخليفة، وشرع في تجهيز ابنته لحفل زفاف اسطوري باذخ، ربما

لم يعرف التاريخ له نداً في طوله الذي استغرق شهوراً وفي تكلفته الباهضة التي تسببت في استنزاف موارد الدولة الطولونية وربما عجلت بنهايتها. فمما ذكره المؤرخون عندما وصفوا قافلة العروس ـ قطر الندى ـ وكيف حمّلت هذه القافلة ما لم تره عين أو تسمع به أذن: أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا تعرف لها قيمة، ودكة من الذهب تضع عليها قدمها كلما دخلت الى حجرتها، مائة هاون من الذهب يدق فيها العود والطيب، وألف مبخرة من الذهب. ناهيك عن مئات الصناديق المحتوية على الملابس، والاقراط، والسلاسل الذهبية، وفصوص من الاحجار الكريمة. وفوق هذا وذاك، أمر خمارويه والي مصر أن يبني لابنته قطر الندى على رأس كل مرحلة من مراحل الطريق الطويل، فيما بين مصر وبغداد، قصراً تنزل فيه، معداً بكل ما تحتاجه العروس في سفرها من الراحة وأسباب الرفاهية، فتشعر وكأنها في كل قصر تنزل فيه بأنها لم تفارق قصرها في مصر. وحين وصل موكب العروس الى بغداد ليلاً بين آلاف الشموع والمشاعل، دخل موكب قطر الندى قصر الخليفة المعتضد زوجها، فكانت هناك احتفالات أخرى لم تر بغداد مثلها على امتداد تاريخها!

وبعد انقضاء مراسم الزفاف، خرج خمارويه إلى قصره في دير مرّان خارج دمشق. وفي إحدى الليالي، وبعد أن شرب وثمل، ذهب إلى غرفته للنوم، فتسلل بعض الخدم في غفلة من الحراس وذبحوه وهو في فراشه، ثم لاذوا بالفرار. إلا أن جند خمارويه أمسكوا بهم، ثم أعدموهم عن آخرهم، وكان عددهم يزيد عن العشرين. ولقد تأرجح المؤرخون بين روايتين في استقصائهم للدواعي وراء مقتل خمارويه. وحسبنا أن نكتفي بما جاء في كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري وذلك أنه جمع كلا الروايتين. الرواية الأولى تقول: كان خمارويه كثير الفساد بالخدم، دخل الحمام مع جماعة منهم فطلب من بعضهم الفاحشة فامتنع الخادم حياء من الخدم؛ فأمر خمارويه أن يضرب، فلم يزل يصيح حتى مات في الحمام، فأبغضه الخدم. وكان قد بنى قصراً بسفح قاسيون أسفل من دير مران يشرب فيه الخمر، فدخل

تلك الليلة الحمام فذبحه خدمه. وقيل: ذبحوه على فراشه وهربوا. أما الرواية الثانية فتقول: إن بعض خدمه يولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل، فاتفقت مع الخادم على قتله. وكان ذبحه في منتصف ذي الحجة، وقيل: لثلاث خلون منه من سنة اثنين وثمانين ومائتين. وباعتقادي أن الرواية الثانية يعوزها الدقة، وإلا كيف نفسر إعدام ما يزيد عن العشرين خادماً؟ إذ لا يعقل أن يتواطأ كل هذا العدد الكبير مع شخص واحد في توريط أنفسهم في اغتيال سيدهم، مع ملاحظة أن نفي هذه الرواية لا يعني بالضرورة الاطمئنان للرواية الأولى! بقي أن نقول إن خمارويه لم يصطحب في رحلته إلى الشام، حيث قتل، حارسه الأمين زريق. ترى هل كان خمارويه سيجنب نفسه هذا المصير المأسوي فيما لو جلب معه زريق؟!

أبو العساكر جيش بن خمارويه

بعد مقتل خمارويه بن أحمد بن طولون - كما ورد بيانه سابقاً - في دمشق وعلى يد بعض غلمانه غيلة، قام قادة الجيش بمبايعة ولده جيش والملقب بأبي العساكر. عاد أبو العساكر برفقة رجال الدولة وقادة الجيش إلى عاصمة ملكه في مصر. ومنذ اللحظة التي وطئت قدماه أرض الكنانة، وهو يقدم البرهان تلو البرهان على ضعف شخصيته، وقلة درايته، وضحالة تجربته. أحاط أبو العساكر نفسه ببطانة من الأوباش والرعاع، وأدار ظهره لقادة العسكر وصفوة القوم وعلية الناس. كان أقرب الناس إلى قلبه ثلاثة وهم: غلام رومي لا وزن له ولا قيمة واسمه بندقوش، ورجلان من العامة كانا يحملان الحجارة الثقال والعمد الحديد واسمهما خضر وابن البواش. أخذ هؤلاء الثلاثة يشحنون قلبه ضد عمه الملقب بأبي العشائر، ويخوفونه من مطامعه في الملك، ويذكرونه بمواقفه القديمة مع والده. أذكت كلماتهم نار الحقد في صدر أبي العساكر، فدسّ إليه من قتله، ثم أشاع بين الناس أنه مات حتف أنفه.

لم يصدق الناس ما أشيع، فنفرت منه القلوب لقتله عمه ظلماً وعدواناً، ولانشغاله بالتفاهات من خمر ولعب ولهو عوضاً عن انصرافه لإدارة البلاد والنظر في حقوق الرعية. وكان أبو العساكر إذا ما استبدت الخمر برأسه، قال لبطانة السوء من حوله: "غداً أقلدك موضع فلان، وأهب لك داره، وأسوغك نعمته، فأنت أحق من هؤلاء الكلاب". كان لحيطان مجلسه آذان تسمع وتنقل إلى قادة جيشه ما يصدر من أبي العساكر. زادت تهديدات أبو العساكر لقادة الجيش من نقمتهم عليه وكراهيتهم له، فعزموا على أن يتغدوا به قبل أن يتعشى

بهم. فلمّا بلغه ما عقدوا الأمر عليه توعّدهم جهرة، وقال: "لأطلقن الرجالة عليهم ولأفعلن بهم". فلمّا نمى إلى مسامعهم ما توعّدهم به في مجلسه، فرّ كبار قواده من البلاد وبصحبة غلمانهم قاصدين الخليفة العباسي المعتضد والذي سبق له الزواج من أخت أبي العساكر قطر الندى. وفي طريقهم إلى بغداد نالهم كد شديد ومشقة عظيمة حتى أوشكوا على الهلاك من فرط الجوع وشدة العطش. وبعد أن وصلوا بغداد بشق الأنفس تلقاهم المعتضد أحسن لقاء، فأجزل جوائزهم، وضاعف أرزاقهم.

ونظراً لفشل أبي العساكر الذريع في الحفاظ على ملكه، واستعماله للعنف في غير موضعه، وانغماسه في السخافات، وإهماله شؤون الحكم ورسم السياسات، أعلن أمير دمشق عن شقه لعصا الطاعة، ولحقه بعدها أمير الثغور. وعندما بلغت أبا العساكر تلك الأنباء لم يكترث ولم ينقبض، وكأن الأمر لا يخصه لا من قريب ولا من بعيد! أثارت تلك التطورات سخط الجند وامتعاضهم، فقرروا الوقوف في وجهه، فقد بلغ السيل الزبى. وهنا يضعنا ابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" بين روايتين لما صار من أمر الجند مع سلطان البلاد أبي العساكر.

الرواية الأولى تقول إن القادة اجتمعوا مع وجهاء البلاد وكبارها، فتذاكروا أفعال أبي العساكر، وقالوا: "لا نستخلف غيره حتى يحضر ونسمع قوله، فإن وعد برجوع وتاب من فعله أمهلناه وجربناه، وإن أقرّ بعجزه عن حمل ما حمل وجعلنا في حل من بيعته، بايعنا غيره على يقين وعلى غير أثم". فلمّا جاءوا به اعترف لهم بعجزه عن القيام بتدبير الدولة، وأنه قد جعل من له في عنقه بيعة في حِل، وعُمِلَ بذلك محضر شهد فيه عدول البلد ووجوهه ومن حضر من القواد والغلمان، ثم صرفوه، وبايعوا أخاه هارون أميراً على البلاد.

الرواية الثانية تقول إنَّ الجند لمّا ضاقوا به ذرعاً وطفح بهم منه الكيل، وثبوا عليه وقالوا له: "لا نرضى بك أبداً فتنح عنا حتى نولي عمك نصر بن أحمد بن طولون"، فأخبرهم كاتب أبي العساكر أن يحضروا في الغد، فدخل أبو العساكر على عمه نصر وكان محبوساً عنده فضرب عنقه وعنق عمه الآخر،

ورمى برأسيهما إلى الجند، وقال: "خذوا أميركم!"، فلمّا رأوا ذلك هجموا عليه، فقتلوه وقتلوا أمه معه، ونهبوا داره وأحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون بن خمارويه مكانه، فكانت مدة حكم أبي العساكر جيش حوالى ستة أشهر.

وينقل ابن تغري في كتابه شهادة لأحد أعمام أبي العساكر جيش واسمه ربيعة بن أحمد بن طولون تشتبك مع الرواية الثانية في خاتمتها، لكنها تختلف عنها في تفاصيلها. يقول ربيعة هذا إن أبا العساكر جيش عندما دخل مصر أمر بالقبض عليه وعلى عميه نصر وشيبان، وحبسهما في غرفة، وكان يرسل إليهم كل يوم بمائدة عامرة بالأكل والشراب. وذات يوم، دخل أحد الخدم فسار بنصر إلى غرفة أخرى، فحبسه فيها خمسة أيام بلا طعام ولا شراب. وفي اليوم السادس دخل ثلاثة من الخدم، فسألونا إن كان أخونا نصر لايزال على قيد الحياة فأخبرناهم أننا لا نعلم عنه شيئاً، فدخلوا عليه غرفته وكان فيه رمق من حياة، فرماه كل منهم بسهم في مقتل فقتلوه. وبعدها مكثنا يومين بلا طعام ولا شراب، فعلمنا أنهم سيفعلون بنا ما فعلوه بأخينا نصر. فلمّا كان اليوم الثالث، سمعنا جلبة في الدار، ففتح باب الغرفة علينا، وأدخلوا أبا العساكر جيش، فسألناه: "ما حالك؟"، فقال: "غلبني أخي هارون على البلد وتولى الإمارة". وبعدها دخل علينا أحد الخدم، فقال: "الأمير هارون قد بعث إليكما بهذه المائدة، وكان في عزم جيش أن يلحقكما بأخيكما نصر، فقوما إليه فاقتلاه، وخذا بثأركما منه، وانصرفا على أمان". ويكمل ربيعة شهادته بقوله: "فلم نقتله وأنصرفنا إلى منازلنا، وبعث هارون خدما فقتلوه وكفينا أمر عدونا".

الرواية الأولى كما تقدم معنا لم تذكر لنا ما كان من مصير أبي العساكر جيش بعد خلعه من منصبه مما يجعلها تبدو لي مبتورة بعض الشيء. وبما أن سيرة أبي العساكر قد انقطعت بالكامل بعد عزله فهذا يرجح أنه قد قُتل بشكل أو بآخر، خصوصاً وأن التاريخ لا يقدم لنا أمثلة على أمراء أو ملوك تنازلوا عن الحكم، ثم انصرفوا في حال سبيلهم من دون أن يقطف السيف رؤوسهم! وهناك رواية للكندي في "ولاة مصر" تقول إن الجند بعد أن خلعوا أبا العساكر من منصبه أودعوه السجن، ثم أنه مات بعد أيام. رواية الكندي توحي لنا بأن

أبا العساكر قد مات حتف أنفه، وهذا مستبعد، خصوصاً وأنه - أي أبا العساكر - لم يكن مسناً ولم يكن يشتكي علة من قبل. ومن الجائز أن رواية الكندي تتقاطع بعض الشيء مع شهادة ربيعة بن أحمد بن طولون حينما ذكر أن الخدم رموا بجيش في الحبس حتى أمر أخوه هارون بقتله فقتلوه. وبناء على ما سبق، نستطيع أن نقول في شيء من الثقة والاطمئنان إن أبا العساكر جيش قد مات مقتولاً، وهو ما نجد دعماً له في عدد من المصادر التاريخية، مثل "الوافي بالوفيات" للصفدي و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير.

عبد الله الثاني بن إبراهيم الأغلبي

منذ أن استقل إبراهيم بن الأغلب بولاية المغرب الأدنى أو ما يعرف بأفريقيا وذلك برضا الخليفة هارون الرشيد ومباركته، ودولة الأغالبة تمارس دور شرطي المنطقة المسؤول عن إخماد ثورات الخوارج، وإجهاض المشاريع الانفصالية عن الخلافة، والوقوف كحارس للبوابة الغربية من أجل الحؤول دون تمدد دولة مناوئة من جهة الغرب. ومما يدلّل على وجود شراكة سياسية بين الخلافة في بغداد ودولة الأغالبة ذلك التواطؤ بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب على تسميم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن من أجل احتواء دولة الأدارسة الناشئة وخنقها في المهد. عاشت دولة الأغالبة أكثر من مائة عام بقليل، وتناوب على كرسي الحكم فيها أحد عشر أميراً، وانقرضت دولتهم في أواخر القرن الثالث الهجري على يد الفاطميين. وقد شهدت دولتهم أزهى أيامها في عهد أميرها زيادة الله بن إبراهيم والذي تم في أيامه غزو جزيرة صقلية واحتلال أجزاء منها على يد القائد والفقيه أسد بن الفرات.

ورث عبد الله الثاني، عاشر أمراء الأغالبة، الحكم بعد والده إبراهيم بن أحمد. حكم والده إبراهيم ما يقرب من سبعة وعشرين عاماً. كانت الأعوام السبعة الأخيرة مسلسلاً مشحوناً بالرعب وملطخاً بالدم. عانى الناس، عامتهم وخاصتهم، من مزاج إبراهيم الدموي وساديته المفرطة. كان قاسياً مع الأعداء والأصدقاء، فنكّل بالمعارضة والخارجين على حكمه، وقتل ولده أبا عقال وبناته، فخافه الناس وتمنوا هلاكه. ولمّا زاد ولغه في بحور الدم، كتبوا إلى الخليفة المعتضد في بغداد شاكين ومستجيرين، فأرسل إليه الخليفة يأمره بالتنحي

عن الحكم، فلبس الخشن من الثياب، وأعفى عن المساجين، وأزال المكوس، ورد المظالم، ووزع الأموال، ثم خرج إلى صقلية يطلب الجهاد فمات بعد عام.

كان عبد الله موصوفاً بالعدل والخير، وبالشجاعة والشهامة، وبالعلم والأدب. وكان خلال حياة والده الساعد الأيمن والسيف المتحكّم برقاب الأعداء. وكما انقلب الحال بوالده في أواخر الأيام، فقد لبس عبد الله الصوف، ومال إلى التقشف، وجالس أهل العلم وخالطهم، وأظهر العدل والإحسان، وترك قصره المنيف في رقاده وسكن داراً من الطوب. وفي أيامه تنامت دعوة أبي عبد الله الشيعي الفاطمي، فتكاثر أتباعها، وزاد نشاطها، وعلا صوتها. وفي أيامه أصبحت عروش الدويلات الممتدة عبر بلاد المغرب مهددة بالضياع والزوال أمام تلك الدعوة التي بدا وكأن لا شيء يمكنه الصمود أمامها.

كان لعبد الله ولد اسمه زيادة الله. عرف عبد الله أن ولده يخطط للخروج عليه والإطاحة به، فسجنه في داره. وفي إحدى الليالي، وبينما كان عبد الله نائماً، قفز عليه ثلاثة من خدمه الصقالبة فذبحوه وحزّوا رأسه وحملوه إلى ولده زيادة الله الذي واطأهم على قتل والده. وبعد مقتل عبد الله، بويع زيادة الله بالخلافة، فكان أول ما صنع أن ذبح الصقالبة الثلاثة، ثم غدر بأعمامه وأخوته، وقتل بعض فتيانه وقادته. استفتح زيادة الله حكمه بشلالات الدم، ثم مال إلى حياة الدعة والبطالة واللعب واللهو ولستة أعوام إلى أن وضع الفاطميون آخر نقطة في مسيرة دولة الأغالبة.

هارون بن خمارويه الطولوني

أشرنا من قبل إلى أن الجند قد ثاروا على أبي العساكر جيش بن خمارويه، فخلعوه وحبسوه، ثم لم يلبثوا أن قتلوه بعد أن مكث يحكم مصر والشام ما يقرب من نصف عام. وكما ذكرنا، فإن الجند قد نقموا عليه بسبب تقريبه الأوباش، وانشغاله باللعب واللهو عن إدارة البلاد، وتقصيره في دفع رواتب القادة والجند. وبعد خلع أبي العساكر جيش، بويع أخوه الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه بالملك، وكان لهارون حينما تقلد حكم البلاد عشرون عاماً أو ما دون. وعندما جلس هارون فوق عرش مصر والشام، جعلوا إلى جانبه رجل يقال إنه أبو جعفر بن أبيّ، فكان الأمر كله مردوداً إلى أبي جعفر هذا. وبعد أيام من تنصيب هارون، كاتب بعض القادة والجند عم هارون واسمه ربيعة بن أحمد بن طولون يدعونه إلى الثورة وانتزاع الحكم من يد ابن أخيه الصغير، فأقبل من الإسكندرية تسابقه الأحلام، فلمّا صعد جبل المقطم، لم يجد أحداً في الانتظار، وما جاء إليه أحد ممن كاتبوه. ولمّا علم أبو جعفر بن أبيّ، أرسل له ببعض الرجال، فهزمهم ربيعة بسيفه، حتى تجمعوا عليه ورموا أنفسهم عليه واعتقلوه. ولمّا كان من الغد، أخرج ربيعة، فضرب بالسياط ألف ومائتي سوط حتى مات.

وخلال سنوات حكمه التسعة، عانى هارون من تدهور الحال وانفلات الزمام. وفي أواخر أيامه، عاث القرامطة في بلاد الشام، فهزموا جنود هارون، وأغاروا على مدن الشام، فقتلوا وسبوا ونهبوا. ولولا أن الخليفة المكتفي العباسي أرسل وراء القرامطة بجيش لما صمدت جيوش هارون في وجوه

القرامطة ساعة. وبعد أن تمكن العباسيون من تجريع القرامطة مرارة الهزيمة، ومن القبض على قادة الجيش وقتلهم في بغداد، وجد الخليفة المكتفي أن الطريق لاسترجاع مصر والشام من يد بني طولون قد صار معبداً. فبعد أن فرغ العباسيون من إزالة الخطر القرمطي، سار الجيش بقيادة محمد بن سليمان الكاتب قاصداً مصر، فالتحق به قادة الجيش الطولوني والمقيمون في بلاد الشام بعد أن صمّوا آذانهم عن سماع توسلات هارون بالعودة إليه.

وبعد أن اقترب جند محمد بن سليمان من مصر، خرج هارون إلى مدينة العباسة مصطحباً معه كل بني طولون ليكونوا تحت ناظريه خوفاً من أن يطعنه أحدهم في ظهره وينقلب عليه . وفي إحدى الليالي، شرب هارون كثيراً، ثم غط في نومه من شدة السكر. وفيما هو نائم، دخل عليه عمه شيبان بن أحمد، فذبحه بسكين، ثم خرج إلى الناس يدعوهم إلى مبايعته أميراً عليهم. وقيل إن أحد غلمانه هو من ذبحه في فراشه بمساعدة من بعض عمومته. ولمّا كان من الغد، دعا شيبان أهل مصر لمبايعته. وقيل أيضاً إن عمَّيه شيبان وعدي هما من طمعا بالملك، فدخلا عليه وهو نائم من فرط السكر، فذبحاه ذبح النعاج في فراشه، وتولى الحكم شيبان من بعده. وقيل كذلك إن هارون لم يثمل، ولم يقتل في فراشه كما يشاع، بل قتله أحد الجنود المغاربة بسهم غادر بعد أن وقف هارون في الجند يجاهد لإسكات العصبية وإطفاء الفتنة التي دبّت بين طوائف جنده وهم على وشك منازلة الجيش العباسي.

وكما ترى، فلدينا على الأقل أربع روايات، ثلاث منها تتشابه في سيناريوهاتها، فيما تفترق الرابعة عنهم في تفصيلها. ومما يدعو للعجب، أن شيبان طلب من الناس أن يبايعوه أميراً عليهم، وهو لا يدري أن الدولة التي بناها على أكتافه والده أحمد بن طولون قد تقوضت بعد أن صار محمد بن سليمان ورجاله داخل الديار المصرية. وبعد أيام قليلة من جلوس شيبان على أنقاض دولتهم الزائلة، استسلم هو وبقية أهله إلى محمد بن سليمان، فصاروا في قبضته، ثم حملهم إلى الخليفة المكتفي في بغداد. وبعد أن فرغت مصر من

بني طولون، أمر الكاتب، فأحرقت مدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون حتى صارت رماداً، وهدم قصر الميدان الذي بناه المؤسس، وخرّب منازل الطولونيين، فاستمرّ يمحو الذكريات، ويطمس الآثار، ويخرب الديار، وينقل ما يقع في يده من ذخائر وكنوز بني طولون إلى العراق.

الحسن بن بهرام الجنابي

قبل أن نتكلم عن الحسن بن بهرام يجدر بنا أن نسلط بعض الضوء على الحركة القرمطية والتي ينتمي إليها الحسن كأحد أبرز رجالاتها. إن الحركة القرمطية كما حدثنا عنها عارف تامر في "القرامطة بين الالتزام والأنكار" هي حركة ثورية فكرية انقلابية فلسفية ذات تعاليم اشتراكية جديدة على المجتمع الإسلامي. لقد تبنت الحركة الفكر الاشتراكي بين الطبقات، وإقامة الحرية والشورى، ومحاربة السيطرة والتحكم والإقطاع. ويرجع محمود إسماعيل في "المهمشون في التاريخ الإسلامي" بروز دولة القرامطة في جنوب العراق والبحرين إلى تطور حركات المهمشين بعد الإخفاقات المتلاحقة لانتفاضتهم السابقة (مثل: الثورة الخشبية، ثورة الربض، وثورة الزنج). ويرجع محمود إسماعيل هذا التطور إلى نضوج الوعي الطبقي لتلك الحركة، وتبنيها إيدلوجية مذهبية (المذهب الشيعي الإسماعيلي)، وصعود النقابات الحرفية التي عانقت طموحات المستضعفين، فضلاً عن ترهل النظام الإقطاعي العسكريتاري ممثلاً بالخلافة العباسية ببغداد وعجزها عن مواجهة الإشكالات الداخلية والخارجية.

ولقد تعرضت الحركة بسبب نزعتها الثورية والانقلابية وعلى مر التاريخ لحملات تهييجية وتشنيعية من قبل مؤرخي السنة والشيعة. فقد نُعت مؤسسها حمدان بن الأشعث (قرمط) بصفات دونية وتحقيرية مثل الخبيث، ونُسب إلى أتباعها التخلي عن التكاليف الشرعية وإشاعة الإباحية الجنسية بين أفرادها. هذه التهم المبرمجة غالباً ما يتم استعمالها بواسطة خصومها من أجل تلطيخ وجه تلك الحركات الاجتماعية ذات المنحى التحرري للتنفير منها والتأليب عليها.

ويرجع محمود إسماعيل تهمة الإباحية إلى ما تبوأته المرأة من مكانة سامية في المجتمع القرمطي، حيث شاركت في العمل وفي الحروب، فضلاً عن ارتفاع مستوى تعليمها وثقافتها، وهي أمور غير مألوفة في المجتمعات الإقطاعية العسكريتارية.

ميدانياً، حوّل القرامطة أفكار الحركة النظرية إلى واقع معاش وملموس. فحمدان قرمط قام بوضع نظام ضريبي متدرج على عناصر الحركة كافة لحشد الأموال من أجل إلغاء الفقر تماماً، وشراء السلاح لمحاربة أعداء الحركة، وبناء دار للهجرة. تحت سماء الدولة القرمطية كان كل فرد، كبيراً كان أم صغيراً، ذكراً أم أنثى، ترساً صغيراً في ألة إنتاجية ضخمة لا تكف عن الدوران والعمل. فالمرأة تجمع كسبها من المغزل، والصبي يجمع أجره من حراسته للبساتين والغلال. وعندما تملّك القرامطة البحرين أقاموا نظاماً اقتصادياً منغلقاً ذا نزعة اشتراكية متطرفة. فمن جملة ما صنعوا هناك، أنهم أسسوا مصرفاً زراعياً لتسليف الزرّاع والصناع لتوفير التمويل اللازم، ومنعوا الربا لحماية الناس من جشع المرابين، واحتكرت الحكومة التجارة الخارجية، وفتحت لها أسواقاً بالخارج، ونظمت شؤون التصدير والاستيراد، وضربت نقوداً من رصاص غير قابلة للصرف خارج البلاد حتى لا تتسرب النقود إلى الخارج، وأنشأت المزارع النموذجية والتي تدار من قبل الحكومة. وبالرغم مما سجلته الحركة من إنجازات اقتصادية واجتماعية تقدمية بمقاييس ذلك العصر إلا أن الحركة تورطت في ارتكاب مجازر ومذابح تسببت في تشويه تاريخها، وطمس مبادئها، وتأليب الناس عليها. ولعل أشهر مثال على شهوة الدم التي كانت تجري في عروق تلك الحركة قيامها بمهاجمة الحجيج أيام خلافة المقتدر العباسي، وانتزاعها الحجر الأسود في سابقة تاريخية أضرت بسمعة الحركة، ووصمت جبينها بعار لا يمحى.

وكما أوضحت أعلاه، فالقرامطة هم من الشيعة الإسماعيلية كمثل الفواطم في شمال إفريقيا ومصر. وتاريخياً، كان الفواطم والقرامطة كتلة واحدة في الأصل، إلا أن ظروفاً أدت إلى إحداث شرخ حاد تسبب في انقسامها إلى

طرفين. كان الإسماعيليون (نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق) يدعون لإمام مستور من ولد جعفر الصادق يعتقدون بظهوره عن قريب. وكانت سلمية، وهي بلدة صغيرة في بادية الشام، مركزاً سرياً للدعوة، وفيها يقيم زعيم الدعوة ومرجعيتها تحت صفة الاستيداع لغاية ظهور الإمام. إلى هذه اللحظة كانت الأمور تسير كما هو مخطط لها، ولكن عندما أعلن عبيدالله المهدي عن إمامته، أعلن الطرف الإسماعيلي في جنوب العراق والبحرين والأحساء عن رفضه لإمامة عبيد الله. ولم يكتف هؤلاء بالرفض والاحتجاج، بل سيّروا الجيوش لقتال عبيد الله في السلمية لولا أنه فرّ إلى أفريقيا ليتولى إعلان قيام الدولة الفاطمية هناك.

ما كتبناه من سطور أعلاه يعتبر مقدمة تاريخية ضرورية حتى نفهم أبعاد تلك الحركة قبل تناول سيرة أحد أهم زعمائها والمسمى بالحسن بن بهرام الجنابي. يكنى الحسن بن بهرام بأبي سعيد الجنابي. قدم الحسن من البحرين إلى الكوفة ليلتقي بأحد كبار دعاتها هناك واسمه الداعي عبدان. وبعد أن تعلم أبو سعيد أصول الحركة وفهم مبادئها، توجه إلى القطيف لدعوة الناس إليها، فاستجاب له خلق كثير. وبعدها قام أبو سعيد بتأسيس جيش تمكن به من الاستيلاء على البحرين والأحساء. وكان أبو سعيد كشأن كثير من القرامطة مسرفاً في سفك الدماء، فقتل كل من عصي أمره، ووقف في وجهه. وبعد أن نجح أبو سعيد من تصفية المقاومة، وأذعن الناس له بالطاعة، شرع في تنظيم أحوال البلاد الزراعية والتجارية والعمرانية وفق معطيات اشتراكية مساواتية.

وبعد أن استقرت الأمور في البحرين والأحساء، سار أبو سعيد إلى عمان ففتحها عنوة. أمّا الخليفة العباسي المعتضد في بغداد فقد ظل زمناً يراقب نمو تلك الحركة وتمددها دون فعل يذكر. وعلى ما يبدو فإن تلك الانتصارات المتلاحقة التي نالها أبو سعيد قد زرعت الرعب في قلب المعتضد، فبعث بجيش قوامه ألفا رجل فقط. وبعد معركة ضارية انتصر أبو سعيد، وأسر منهم سبعمائة رجل، فقتلهم حرقاً في وحشية نادرة، وألقى بقائد الجيش وكبار القادة

في الصحراء، فمات بعضهم تحت سياط الحر والعطش، ووصل بعضهم إلى البصرة في حالة يرثى لها، فتملّك الناس الخوف من مصير رهيب ينتظرهم.

وعندما عاد أبو سعيد إلى مقر حكمه، اصطحب معه أحد الخدم الأسراء ليخدمه، ولم يكن بحسبان أبي سعيد أنه عاد متأبطاً الموت. ففي أحد الأيام، قتل الخادم أبا سعيد في الحمام، ثم خرج الخادم فاستدعى رجلاً من كبار القادة موهماً أياه أن أبا سعيد يطلبه، فلمّا دخل الرجل، أرداه الخادم قتيلاً. وتكررت الحيلة هذه مع أربعة رجال، فلمّا دخل الخامس فطن للمكيدة، فأمسك به، ونادى الناس، فقبضوا عليه، ثم قتلوه. يرجع ابن العماد في "شذرات الذهب" مقتل أبي سعيد إلى أنه قد راود الخادم عن نفسه. وأنا هنا أتساءل: من أين استقى ابن العماد هذه المعلومات، خاصة وأن كلاً من أبي سعيد والخادم قد قتلا. لا تثير عملية القتل وتفصيلاتها أي مشكلة، ولكن ما يثير الحيرة هي الدواعي التي جعلت الخادم يقدم على هذا العمل وهو يعلم أنه لن يخرج منه حياً. وإذا كنت غير متحمسٍ لاقتراح ابن العماد، فأنا أيضاً لا أميل إلى ما ذكره الهادي العلوي في" الاغتيال السياسي في الإسلام" من احتمال تواطؤ بين الخادم والسلطة العباسية في بغداد، وذلك للأسباب التالية: كيف علمت الخلافة في بغداد بوجود الخادم حياً وهو مجرد خادم وليس بقائد جيش ذي شأن؟! كيف استطاع الخادم وهو في قبضة عدو وفي بلاد منغلقة على ذاتها أن يتواصل مع السلطة السياسية في بغداد؟! ثم، ما الذي سيغري الخادم بالاقدام على قتل زعيم القرامطة وهو يعلم أنه لن يفلت من العقاب ولو صعد إلى السماء أو نزل إلى الأرض؟! ويبقى الاحتمال الآخر الذي اقترحه الهادي العلوي في كتابه مقبولاً ومنطقياً، حيث يقول إن الاغتيال ربما وقع بدافع شخصي من خادم تجاه مخدومه، وأن الخادم قد أصيب بلوثة مما يرتكس أحياناً في أعمال قتل جماعي يرتكبها المصابون بمثل هذه الحالة المرضية.

حامد بن عباس العراقي

تعاقب على كرسي الوزارة أيام خلافة المقتدر العباسي والتي دامت ربع قرن أحد عشر وزيراً. ومن الطريف أن بعضهم كان يتردد على منصب الوزارة مرتين وأحياناً ثلاث مرات. لقد عكس هذا العدد الكبير من الوزراء حالة من الفوضى والتخبط واللاستقرار التي كانت الخلافة العباسية تمر بها في تلك الفترة. ومن أشهر الوزراء الذين تقلدوا الوزارة زمن المقتدر رجل يقال له حامد بن عباس العراقي. وقد امتدحه ابن طقاطقا في "تاريخ الدول الإسلامية" بإنه كان كريماً مفضالاً، متجملاً جميل الحاشية، رئيساً في نفسه، غزير المروءة. غير أنه وبحسب ابن طقاطقا فقد كان قاسي القلب في استخراج المال، قليل التثبت، وسريع البطش والحدة. ومن جميل ما يحكى عن كرمه أنه رأى في طريقه شيخاً يولول وحوله عائلته، وقد احترق بيته، فرق قلب حامد لحال الشيخ، فقال لوكيله: "أريد منك أن تضمن لي ألا أرجع عشية من النزهة إلا وداره كما كانت مجصصة، وبها المتاع والقماش والنحاس كما كانت، وتبتاع له ولعياله كسوة الشتاء والصيف مثل ما كانوا، فأسرع في طلب الصناع"، فلمّا رد حامد وقت العتمة شاهدها مفروغًا منها بالاتها وأمتعتها الجدد، وازدحم الناس يتفرجون، وضجوا لحامد بالدعاء له.

وقبل أن يتولى حامد منصب الوزارة كان يعمل مشرفاً على أعمال الخراج في جنوب العراق. وقد جنى حامد من موقعه هذا أموالاً طائلة كانت هي مفتاحه للوزارة وبطاقة عبوره للرئاسة. ففي عام 306هـ، حبس الخليفة المقتدر وزيره أبي الحسن بن الفرات أثناء وزارته الثانية وذلك بسبب عجز الأخير عن

سداد مرتبات الجند، والتماسه من الخليفة أموالاً إضافية من بيت المال الخاص. انتهز حامد فراغ كرسي الوزارة، فبعث إلى حاجب الخليفة نصر وإلى أم الخليفة المعروفة باسم شغب يعرض عليهما من الأموال مقابل أن يمهدا له الطريق للوزارة، فذكراه عند الخليفة، وعدّدا على أسماعه ما عند حامد من سعة الحال ووفرة المال، فدعاه الخليفة ليحضر من واسط إلى بغداد ليستلم موقعه. أقبل حامد إلى بغداد، فأقام في دار الخليفة، فكان يجالس الناس، ويضحك لهم، ويقوم إليهم، ففطن كبار الدولة إلى قلة درايته بالوزارة. فجاءه حاجب الخليفة، وقال له: "يا مولانا! الوزير يحتاج إلى لبسه وجلسه وعبسه"، فرد عليه حامد بقوله: "إن الله أعطاني وجهاً طلقاً، وخلقاً حسناً، وما كنت بالذي أعبس وجهي، وأقبح خلقي لأجل الوزارة". فما كان منهم إلا أن عابوه عند المقتدر، وكشفوا له عن قلة خبرته، فأمر المقتدر بتعيين علي بن عيسى ليكون لحامد عوناً له في وظيفته. وشيئاً فشيئاً، استبد علي بن عيسى بالوزارة، فصار كل ما يعقده ينعقد، وكل ما يحله ينحل، فكان حامد الوزير اسماً وابن عيسى الوزير رسماً. وكان حامد يلبس السواد ويجلس في دست الوزارة، وعلي بن عيسى يجلس بين يديه كالنائب وليس عليه سواد، فقال في ذلك أحد الشعراء متندراً:

أعـــجـــب مـــن كـــل مـــا رأيـــنـــا
أن وزيـــريـــن فـــي بـــلاد
هـــذا ســـواد بـــلا وزيـــر
وذا وزيـــر بـــلا ســـواد

وكأن بحامد أراد أن يثبت للخليفة ولرجاله أنه أهل للوزارة، وأنه خير من يعيد لبيت المال ما ضاعت منه من أموال على يد الوزير السابق، فأمر باحضار أبي الحسن بن الفرات، فلمّا أدخل عليه، تهجم عليه حامد، فأفحش في كلامه، وشد لحيته، ولكمه على وجهه، وعذّبه وعذّب أصحابه. فلمّا صرفه، قال لحامد كل من الحاجب نصر وعلي بن عيسى: "قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلته بابن الفرات، وأيقظت منه شيطاناً لا ينام".

وبالفعل سوف تثبت الأيام صدق ما قاله نصر وابن عيسى، فقد أيقظ حامد بسوء فعلته شيطاناً في نفس ابن الفرات لن تنطفئ ناره ولن تنام أجفانه إلا بعد أن ينال من حامد ويشفي غليله منه.

ولا يذكر اسم حامد هذا إلا ويذكر معه اسم المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج. ففي ذاك الزمان صار اسم الحلاج على كل لسان، ومن اسمه كانت تعجن الغرائب والحكايات. ذهب الناس في سيرته مذاهب شتى، فاختلطت الحقيقة بالخيال، وتماهى الواقع مع السراب. فمنهم من قال إنه كان يخبر الناس بما أكلوه، وما صنعوه في بيوتهم، وما يكتمونه في صدورهم. وقالوا إنه كان يخرج لهم فاكهة الشتاء بالصيف، وفاكهة الصيف بالشتاء، وإنه كان يمد يده الفارغة في الهواء فتعود مملوءة بدراهم! اختلف الجميع فيه، فمنهم من قال إنه إله، ونصف إله، وولي، وساحر، ومشعوذ، وكذاب...الخ. فلمّا عظم أمره وعلا شأنه، جاء به الوزير حامد أمام الفقهاء والقضاة، فأنكر أنه ادعى الألوهية وقال: "أعوذ بالله أن ادعي الربوبية، أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله عز وجل!"، فتركه يذهب إلى حال سبيله. إلا أنّ الوزير كان مصراً على الإيقاع به، فظل وراءه زمناً يتصيد له زلة حتى وقع في يده كتاب منسوب إلى الحلاج يحكي فيه أن المرء إذا لم يقدر على الحج، جاز له أن يفرد داراً لا يلحقها نجاسة، ثم يطوف حولها كما يفعل الحاج. فإذا فرغ من طوافه، جمع ثلاثين مسكيناً، فيطعمهم ويكسيهم، ويضع في يد كل منهم سبعة دراهم، فإن فعل ذلك كان كمن حج البيت العتيق. ولمّا جيء بالحلاج، أنكر أنه صاحب الكتاب، فأصدر القضاة حكمهم عليه بالقتل. فلمّا جاء اليوم الموعود، ضربوه ألف سوط فما تأوه، ثم قُطعت يده، ثم رجله، ثم يده، ثم رجله، ثم قتل وأحرق بالنار، وصلب رأسه ببغداد، ونثر رماده في ماء دجلة.

وبعد وزارة عمرها خمس سنوات، دارت الدوائر على الوزير حامد. فكما كانت احتجاجات الجند سبباً في توزيره مكان ابن الفرات، صارت اليوم احتجاجاتهم سبباً في الإطاحة به وبعلي بن عيسى. وكما انتهز حامد قبل خمس سنوات عجز ابن الفرات عن تسديد رواتب الجند، قام المحسن ابن الفرات -

ولد الوزير أبي الحسن بن الفرات - بالتعهد بدفع الأموال، فأطلق المقتدر وزيره المحبوس ابن الفرات، وأعاده إلى منصبه للمرة الثالثة! وكان الوزير حامد وقتها عائداً من واسط إلى بغداد، فلمّا بلغته الأخبار دخل بغداد متخفياً، وارتدى زي راهب، وذهب إلى قصر الخليفة المقتدر، فوجد أحد الخدم الذين كان بينه وبينه عداوة بالأمس، فقال له حامد: "قل للخليفة أن يكون محبسي عنده وألا يسلمني إلى ابن الفرات"، فدخل الخادم، وقال للخليفة عكس ما قاله حامد، فأمر الخليفة بتسليمه إلى ابن الفرات. فأخذه ابن الفرات، وسلّمه إلى ولده المحسن، فعذّبه أشد العذاب، وألبسه جلد قرد، وفعل به من الأفعال ما يُستحى من ذكرها، وحامد على ألوان العذاب متجلد وصابر. وبعدها سيّره إلى واسط لبيع أملاك له هناك، فلمّا تم البيع، أمر المحسن اصحابه فدسوا له السم في بيض مشوي، فأصابه إسهال منه، ثم مات. لقد جنى حامد على نفسه بركضه وراء حتفه. لقد كان يحيا حياة رغيدة وأياماً سعيدة، فدخل بقدميه إلى الوزارة التي ما دخلها أحد إلا وكان مفقوداً وما خرج أحد منها إلا وكان مولوداً. رمى حامد نفسه في بحر الوزارة اللجي وهو لا يعرف العوم فيه، فانتهى المطاف به محبوساً ومعذباً وفي الآخر مقتولاً.

المقتدر بالله

وُلّيَ الخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي بالله بن المعتضد بالله. وكان عمر جعفر والملقب بالمقتدر بالله يوم سيقت إليه الخلافة إحدى عشرة سنة. ولم يُعرف قبله خليفة استلم زمام الخلافة وهو في هذا العمر الصغير. أدى تنصيب المقتدر بالله أميراً للمؤمنين وهو لايزال غضاً صغيراً وجاهلاً غراً إلى هرج ومرج وصخب ونصب، فثار القضاة وبعض القواد، وجاءوا بعبد الله بن المعتز خليفة بديلاً للمقتدر، فلم يمكث في الخلافة غير يوم وليلة. فبعد ساعات معدودة حصدت سيوف رجال المقتدر رقاب أنصار ابن المعتز، ففرّ الأخير بجلده، لكنهم أمسكوا به وقتلوه. حكم المقتدر بالله البلاد ولمدة خمس وعشرين سنة. كانت سنوات حكمه عنواناً للفوضى والاضطرابات والقلاقل. فنظراً لطراوة عوده وانكبابه على اللعب واللهو صارت والدته شغب - الصقلبية الأصل - وغلمانها متحكمين بالخلافة وشؤونها. وخلال فترة حكمه المديدة مرّ على منصب الوزارة أسماء ووجوه كثيرة حتى أن بعضهم كان يذهب ويأتي ثلاث مرات.

وقد وُصم المقتدر بالإسراف والتبذير الشديد، فقال عنه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" إنه كان سمحاً متلفاً للأموال ومحق ما لا يعد ولا يحصى. وقال عنه نقلاً عن بعض الرواة إنه كان يفرق يوم عرفة من الضحايا تسعين ألف رأس، وأنه أهدر من الأموال ثمانين ألف ألف دينارا! ونتيجة لاستهتار الخليفة وحاشيته، وصرفهم للأموال من غير حساب، ثار عليه بعض القادة، فأجبروه على التنحي عن الخلافة، ثم أخرجوا أخاه القاهر من الحبس وبايعوه بالخلافة.

وبعدها بأيام ثلاثة، ثار الجند مرة أخرى، وصاحوا مطالبين بالمقتدر، فدفع مؤنس الخادم بالمقتدر إليهم، فحملوه على أعناقهم وهو خائف مما ينتظره منهم، فأجلسوه على كرسيه وهو غير مصدق، ثم جيء بأخيه إليه. فدنا المقتدر من أخيه، وطبع على جبينه قبلة، ونظر إليه بإشفاق، وقال له ملاطفاً: "يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك قهرت"، والقاهر يقول "الله الله، نفسي نفسي يا أمير المؤمنين".

وخلال أيام خلافته التي بلغت ربع قرن، تراجع وقار دولة بني العباس، وشاخ شبابها، وانطفأ بريقها، فطمع بها الخصوم والأعداء. ففي أيام المقتدر عاث الروم فساداً في الثغور، وفعلوا من العظائم والشرور، ولم ينفع أهلها البكاء والصوت، فاضطروا إلى دفع الأتاوة لحماية أرواحهم من السبي والموت. وفي أيام المقتدر نما شأن القرامطة في البحرين والأحساء وعلا نجمهم، ومرّغوا أنف جيوش الخلافة في الوحل أكثر من مرة على الرغم من قلة عددهم. وجاءت الطامة الكبرى عندما استباح القرامطة الحرم المكي موسم الحج فقتلوا الحجيج، وأشاعوا الرعب، وانتزعوا الحجر الأسود، وحملوه معهم إلى البحرين. وفي أيام المقتدر أبصرت دولة الفواطم النور على أراضي البربر، وطرقت جيوش الخلافة الفاطمية باب مصر أكثر من مرة. وفي أيام المقتدر كذلك تلقّب الأمير الأموي بالأندلس عبد الرحمن الناصر بلقب الخليفة، فأصبح للمسلمين بدلاً من خليفة واحد ثلاثة خلفاء: الأول في بغداد، والثاني في المهدية، والثالث في قرطبة!

وفي عام 320هـ، وبعد حوالى خمسة وعشرين سنة خليفة على بغداد، وقع خلاف بين قائد الجيش مؤنس الخادم وحاجب الخليفة ابن ياقوت، فمال الخليفة إلى جانب ابن ياقوت، فغضب مؤنس وخرج من بغداد بعساكره، فاحتل الموصل زمناً، وناصب الخليفة في بغداد العداء. وبعدها التفت العساكر على مؤنس بالموصل، وقالوا له: "اذهب بنا إلى الخليفة، فإن أنصفنا وأجرى أرزاقنا، وإلّا قاتلناه". فانحدر مؤنس بهم من الموصل قاصداً بغداد. فلمّا بلغ

خبره جند المقتدر، شاغبوا وطالبوا بأرزاقهم، ففرق فيهم أموالاً كثيرة حتى لم يبق له شيء.

أراد المقتدر أن يترك بغداد إلى واسط، فقال له كبار رجال دولته: "اتق الله، ولا تسلم بغداد بلا حرب"، فتجلّد وركب في الأمراء والخاصة والقراء، والمصاحف منشورة، فشقّ بغداد في حلة بهية، وخرج إلى لقاء عدوه والخلق يدعون له. لبس المقتدر البردة، وسار بخطوات متثاقلة حتى صعد تلة تطل على أرض المعركة، ونادى في جنده: "من جاء بأسير فله عشرة دنانير، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير". لم تنجح اغراءات الخليفة في رفع همة جنده، فانهزموا أمام مؤنس ورجاله. أراد المقتدر أن يفرّ إلى بغداد بعدما أدركته الهزيمة، لكن رجال مؤنس لحقوا به وأحاطوه. ثم أقبل أحد أمراء الجيش، فلمّا رآه ترجل وقبّل الأرض بين يديه، وقال: "لعن الله من أشار عليك بالخروج في هذا اليوم"، ثم أمر رجاله وكانوا مغاربة بحراسة الخليفة وانصرف. فلمّا غاب عن أنظارهم، التفتوا على الخليفة وسيوفهم مشهورة، فصاح فيهم المقتدر: "ويحكم أنا الخليفة!"، فقالوا: "قد عرفناك يا سفلة، أنت خليفة إبليس، تبذل في كل رأس خمسة دنانير، وفي كل أسير عشرة دنانير!". ثم تقدم أحدهم منه، فضربه بسيفه فسقط على الأرض، فذبحوه وقطعوا رأسه، وسلبوه ملابسه حتى سراويله، وتركوه في العراء مجندلاً، ومضوا إلى مؤنس الخادم. فلمّا رأى مؤنس رأس الخليفة محمولاً على خشبة فزع ولطم وجهه وبكى، وقال لهم: "ويلكم، والله لم آمركم بهذا، لعنكم الله، والله لنقتلن كلنا". أمّا جسد الخليفة فقد ظل مسجياً على الأرض إلى أن مرّ به رجل عابر، فستر عورته بحشيش، ثم دفنه في مكانه، وعفى أثره!

مرداويج بن زيار الجرجاني

هو فارسي الأصل من بلاد الديلم، جرجاني الإقامة والوفاة، وجرجان هي أحد أقاليم بلاد فارس الواقعة جنوب شرقي بحر قزوين، وهو شيعي على المذهب الزيدي. ويعود لمرداويج الفضل في تأسيس الدولة الزيارية في جرجان والتي تعاقب على حكمها عشرة أمراء، وظلت قائمة مدة قرن ونصف. لم يكن لمرداويج أمر يذكر قبل أن يلتحق بخدمة أحد أمراء الديلم ويدعى أسفار بن شيرويه والذي صيّره قائداً لجيشه. وبعد زمن قصير من انضمامه إلى أسفار، قام مرداويج بتأليب جماعة من قوّاد الجيش ضد أميرهم مستثمراً ما امتلأت به قلوبهم من كره لأسفار بسبب سوء سيرته وظلمه وجوره. فلمّا ثار الجند عليه، فرّ أسفار في نفر قليل من غلمانه، واستمر مرداويج يتقصى أخباره إلى أن قبض عليه وقتله.

وبعد أن أزاح مرداويج خصمه عن طريقه، انطلق بجيشه متنقلاً في البلاد يملكها مدينة مدينة، وولاية ولاية، فملك قزوين، وسار إلى الري فضمها، ثم ألحق بهما طبرستان وقم وأصبهان ومدناً كثيرة، فذاع أمره بين الناس، وبعد صيته. والتقى مرداويج بجيوش الخليفة العباسي المقتدر في نواحي همذان فكسرهم واستقل بالبلاد، فأقره المقتدر ومن بعده أخوه القاهر على ما بيده من البلاد. ولمّا اتسع ملكه، وكثر أتباعه، وعظمت جيوشه، استبد به الغرور، فأخذ الأموال، وهتك المحارم، وظلم وتجبّر، وطغى وتكبّر. قال ابن كثير عنه في كتابه "البداية والنهاية" إنه كان سيء السيرة والسريرة، وإنه كان يسيء معاملة جنده، ويحتقرهم غاية الاحتقار، وإنه كان يزعم أن روح سليمان بن داود قد

حلت فيه، فاتخذ سريراً من ذهب يجلس عليه ومماليكه الأتراك منشورون بين يديه، فيزعم أنه سليمان وأن خدمه من الأتراك هم الجن والشياطين.

وبعد أن طاف اسم مرداويج الآفاق، التحق بخدمته بويه وأولاده الثلاثة: علي (عماد الدولة) وحسن (ركن الدولة) وأحمد (معز الدولة)، فأحسن إليهم مرداويج ورحب بهم، وقلّد عماد الدولة إقليم الكرج. سار عماد الدولة إلى الكرج فأحسن إلى الناس، وضبط أمور البلاد، واستمال إليه الأتباع والرجال، فلمّا تناهى الخبر إلى مرداويج، استوحش منه وندم على تعيينه له. كان مرداويج محقاً في التوجس من عامله على الكرج، فقد طمع عماد الدولة في ما هو أكثر من الكرج، فأرسل مرداويج بجيوشه إليه، فخافه عماد الدولة، وكتب إليه يعرض عليه الدخول في طاعته والدعاء له على المنابر، فأجابه مرداويج واستقر بينهما الحال. وستأتي الفرصة مرة أخرى لعماد الدولة وأخويه بعد مقتل مرداويج للاستيلاء على فارس بأكملها ومن ثم العراق لتدخل الخلافة العباسية تحت سيطرة بني بويه لما يقرب من مائة عام.

وبالرجوع إلى مرداويج، فإنه وبعد أن تربع على العرش بلا منازع طيلة سبعة أعوام، قام بعض غلمانه الأتراك بقتله انتقاماً منه لقسوته عليهم وتحقيره لهم. ولقد وردت قصة اغتياله في أكثر من مرجع تاريخي مع الاعتراف بوجود اختلافات طفيفة على مستوى التفاصيل. وإليك ما نقله أبو الفداء في "المختصر في أخبار البشر" أنه لمّا كان ليلة الميلاد من سنة 323هـ، أمر مرداويج بأن تجمع الأحطاب وتلبس الجبال والتلال، وخرج إلى ظاهر أصفهان لذلك، وجمع ما يزيد عن ألفي طائر من الغربان، ليعمل في أرجلها النفط ليشعل ذلك كله ليلة الميلاد، وأمر بعمل سماط عظيم، فيه ألف فرس، وألفا رأس بقر، ومن الغنم والحلوى شيء كثير، فلما استوى ذلك ورآه، استحقره وغضب على أهل دولته، وكان كثير الإساءة إلى الأتراك الذين في خدمته، فلمّا انقضى السماط وإيقاد النيران، وأصبح ليدخل إلى أصفهان، اجتمعت الجند المخدمة، وكثرت الخيل حول خيمته، فصار للخيل صهيل وغلبة حتى سمعها فاغتاظ، وقال: "لمن هذه الخيل القريبة؟"، فقيل له إنها للأتراك. فأمر أن توضع

سروجها على ظهور الأتراك، وأن يدخلوا البلد على هذه الشاكلة، ففعل بهم ذلك فكان المنظر قبيحاً استقبحه الديلم والأتراك، فازداد حنق الأتراك عليه. ورحل مرداويج إلى أصفهان وهو غضبان، فأمر صاحب حرسه أن لا يتبعه في ذلك اليوم، ولم يأمر أحداً غيره ليجمع الحرس، ودخل الحمام فانتهز الأتراك الفرصة، وقتلوه في الحمام. ولمن أراد الاطلاع على مزيد من التفصيلات الدقيقة حول اغتيال مرداويج فعليه بقراءة أحداث سنة 323هـ في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير.

برجوان

ترك الخليفة الفاطمي العزيز بالله لابنه الحاكم بأمر الله بلاداً شاسعة تمتد من المغرب إلى الشام. غير أن الوقت كان مبكراً لابن الحادية عشرة سنة لكي يمسك بزمام الأمور ويدير دفة البلاد. كان الصبي محاطاً بأقوى ثلاثة رجال في الدولة: الوزير الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة المغربية، وبرجوان الصقلبي كبير الصقالبة خدم الدولة وزينتها، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة.

قبض ابن عمار على مفاتيح السلطة بين يديه، وتلقب بأمين الدولة، وأصبح هو الآمر الناهي والسلطان الفعلي. وبلغ به اعتزازه بنفسه أنه ألزم الناس بالترجل له، وتقبيل ركابه، وأغلق بابه إلا على الخاصة والأكابر من شيعته. ولمّا نما أمره، وعلا شأنه، أشار عليه أصحابه بخلع الخليفة الصغير والجلوس مكانه، إلا أنه لم يحفل بالفكرة استخفافاً بشأن الخليفة المحجور عليه.

أدرك برجوان ما يتهدده من خطر إن هو لم يوقف تنامي نفوذ ابن عمار. فبدأ بإرسال الكتب سراً إلى منجوتكين قائد الجيش التركي في الشام. بذل له برجوان الوعود، وزيّن له القدوم إلى مصر، فاستهوت الدعوة لب منجوتكين. وبعدها قام في الناس خطيباً، فأسهب في وصف ما يلقاه الخليفة الصغير من الذل والمهانة على يد الوزير. وفي منتصف الكلام، تحشرجت الكلمات في حلقه فاختلطت بدموعه. وعلى ما يبدو، فقد انطلت التمثيلية على الحاضرين، فما بقي أحد منهم إلا وبكى.

نجح القائد التركي في تعبئة الناس، فخرج في جيش كثيف باتجاه البوابة الشرقية لمصر. وعندما علم ابن عمار باقتراب منجوتكين، أرسل له بجيش كبير،

فتمزّق جمعه وتشتّت شمله، ثم أمسك بمنجوتكين أسيراً. وعندما وُضع منجوتكين بين يدي ابن عمار، عفا عنه وأكرمه، وأعاد إليه اعتباره لئلا يثير عليه المشارقة. لم تضعف الهزيمة من طموحات برجوان فجرابه لايزال مليئاً بحيل أخرى. انتهز برجوان خلو مصر من الجنود المغاربة الموجودين في الشام، فبدأ يوغر صدور الأتراك والمشارقة والسود، ويؤلبهم على المغاربة المتقلبين في النعيم. سكب برجوان الزيت على النار المدفونة تحت الرماد، فاشتعلت الفتنة، وانكسرت شوكة كتامة، وسقط ابن عمار، ونهبت داره، ثم لاذ بالفرار. ولمّا انقشع خطر ابن عمار، أمر برجوان أتباعه بكف اليد عن كتامة، ونودي لابن عمار بالأمان، فعاد إلى داره مكسور الجبين ومهيض الجناح.

عُرف برجوان بالدهاء وحسن الإدارة. استهل وزارته على أتم وجه وأحسن تدبير. نظر في شكاوى الناس، وبتّ في حاجاتهم بلا كلل أو ملل. وبمرور الوقت، اكتسى وجه برجوان ملامح الوزير ابن عمار، فاستسلم لإغراء السلطة وإغواء المال، وانحرفت سياسته وساءت سيرته. ولكي يحكم قبضته على البلاد بثّ فيها جيشاً من العيون تأتيه بكل كبيرة وصغيرة. وصار قصره يعج بالآلاف من العبيد والجواري. وبسرعة فائقة، تنامت ثروته وتراكمت أمواله، وصار له ما لا يحصى عده من ذهب وفضة وخيول وأطيان.

وفيما كان برجوان يغرق في بحر ملذاته ومسراته، كان الخليفة الصغير يكبر كل يوم وينضج. أصبح للحاكم بالله من العمر الآن خمس عشرة سنة. كبر الخليفة الشاب وكبرت في دواخله نوازع التمرد على الأغلال. كان يعلم أن الخلافة ليست بألقاب ونياشين وطقوس. زادت كراهيته لبرجوان السادر في غيه ومجونه واستهتاره بالخليفة الصغير. وفي يوم همست أخته الكبرى ست الملك في أذنه: "اقتله قبل أن يفعل بك ما فعله كافور بأولاد الأخشيدي". وعلى الرغم من تحذيرات بعضهم لبرجوان من العصفور الصغير الذي صارت له أنياب، إلا أن تحذيراتهم له قد ذهبت أدراج الرياح.

وذات مساء، استدعى الخليفة برجوان للتنزه معاً. وعندما دخل برجوان فناء قصر اللؤلؤ، تقدم منه أحد الخدم يقال له ريدان الصقلبي بوجه يتوشح بابتسامة

كاذبة، فقبل يديه وركبتيه، ثم اعتذر له عن انشغاله عنه. كانت يدا الخادم تتحسسان صدر برجوان وسط الكلمات والضحكات. أراد الاطمئنان أنه لا يضع على صدره سترة حديدية. وفجأة، باغته الخادم بلكمة على صدره فأسقطت برجوان أرضاً. وقبل أن ينهض على قدميه، اندفع من جوف الظلام رجال شاهرين سيوفهم، فانقضوا عليه كالصاعقة فهبروه بسيوفهم، ثم دفنوه في مكانه.

لفّ خبر مقتل برجوان كل مكان في القاهرة، فثارت جموع من المغاربة والأتراك، وتجمّعوا حول القصر. فخرج لهم الحاكم ممتطياً صهوة جواد أشقر، فخاطبهم قائلاً: "إن برجوان عبدي، استخدمته فنصح، فأحسنت إليه، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته"، وتوجه بعدها إلى المغاربة، فقال: "أنتم شيوخ دولتي وأنتم الآن عندي أفضل مما كنتم فيه مما تقدم"، ثم التفت إلى المشارقة، فقال: "أنتم تربية العزيز بالله ومقام الأولاد، وما لكل أحد منكم عندي إلى ما يؤثره ويحبه، فكونوا على رسومكم، وامضوا إلى منازلكم"، فدعوا له جميعاً، وقبلوا الأرض بين يديه وانصرفوا.

الحسن بن عمار

جاء معنا في حديثنا عن برجوان أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله عندما وافته المنية أوصى بولي عهده الحاكم بأمر الله ثلاثة من أكابر رجال الدولة وهم: الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة المغربية، وبرجوان الصقلبي خادمه وكبير خزّانه، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة. تحينت قبيلة كتامة رحيل العزيز بالله لاسترداد دورها المسلوب واسترجاع بريقها المفقود طيلة مدة خلافته على الرغم من أفضالها التاريخية في احتضان بذور الدعوة الفاطمية والدفاع عنها ضد أعدائها. ولمّا مات العزيز بالله، وثب وجهاء كتامة وشيوخهم بالخليفة الصغير، وهددوه بخلع ثوب الولاء وشق عصا الطاعة إن هو لم يرجع لهم الصدارة. وكان من ضمن ما طالبوا به أن يُعين الحسن بن عمار وزيراً له ووسيطاً بينه وبين الشعب، فما كان من الخليفة الصغير إلا أن خضع لهم حتى يحفظ ملكه ويصون عرشه.

تولّى ابن عمار الوزارة، وتلقب بأمين الدولة، وصار هو رجل مصر الأول. اغتر ابن عمار بما في يده من سلطة، وبما يتكئ عليه من عصبة، فطغى في الأرض وتكبر. وقد رسم المقريزي في "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" صورة لما كان عليه حال ابن عمار مع الناس. فقد ألزم الناس بالترجل له، فترجَّل الناس بأسرهم له من أهل الدولة، وصار يدخل القصر راكبًا. وكان الناس من الشيوخ والرؤساء على طبقاتهم يبكرون إلى داره فيجلسون في الدهاليز والباب مغلق، ثم يفتح فيدخل إليه جماعة من الوجوه ويجلسون في قاعة الدار على حصير وهو جالس في مجلسه ولا يدخل له أحد ساعة، ثم يأذن لوجوه

من حضر كالقاضي ووجوه شيوخ كتامة والقوّاد فتدخل أعيانهم، ثم يأذن لسائر الناس فيزدحمون عليه بحيث لا يقدر أحد أن يصل إليه، فمنهم من يقبّل الأرض ولا يردّ السلام على أحد، ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم، وأجلّ الناس هو من يقبل ركبته. وقرّب ابن عمار قبيلته كتامة، وأغدق على أفرادها الأموال، واصطنع أحداث المغاربة، فكثر عتيهم، وامتدّت أيديهم إلى الحرام في الطرقات، وشلّحوا الناس ثيابهم، فضج الناس بهم، واستغاثوا به فلم يبد منه كبير نكير.

لم تخل مصر من حسّاد لابن عمار وقبيلته كتامه لما في إيديهم من سلطات ولما في حوزتهم من ثروات. وكان أشدهم نقمة عليه وكرهاً له هو برجوان الصقلبي. وكما تبيّن لنا سابقاً، فإن برجوان قد كاتب منجوتكين القائد التركي في الشام يؤلبه على ابن عمار، ويزيّن له القدوم إلى مصر، لكن ابن عمار نجح في صد جيشه وإيقاع منجوتكين في أسره. ولمّا خاب مسعى برجوان، عمد إلى تحريض الأتراك والمشارقة والسودان في مصر، فاندلعت في قلب القاهرة فتنة أحرقت معها كتامة، ونهبت فيها دار ابن عمار، فتوارى عن الأبصار. وعندما أستتب الأمر لبرجوان، وصار هو السيد المطاع، أمر أتباعه بكف اليد، ونادى بالأمان لابن عمار، فعاد إلى داره منكسراً.

جرّد برجوان عدوه ابن عمار من مجده وعزه، وأعاده إلى داره ظلاً شاحباً. فبعد أن كان ملء السمع والبصر، والكل يتبارى ليلثم ركبته، أصبح الآن حبيس الدار لا يدخل عليه إلا خدمه وأتباعه. وبعد أن كان له من المال والمتاع والخيل ما لا يعد ولا يحصى، صار الآن يدخل عليه كل يوم سلة فاكهة بقيمة دينار وكل شهر لحوم وتوابل بقيمة خمسمائة دينار، فانظر كيف كانت عاقبة المتكبرين!

وفيما كان ابن عمار محبوساً بين جدران داره، كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد طوى مرحلة الصبا، وصار له من العمر خمسة عشر ربيعاً. كان الحاكم يشعر كما لو أنه كان عصفوراً محبوساً في قفص ذهبي ومفتاحه بيد برجوان المتسلط. ولمّا ضاق بما هو فيه، أوحت له اخته ست الملك بقتل برجوان،

فقتله على النحو الذي وصفناه عند كلامنا عن برجوان. وبعد مصرع برجوان بستة أشهر استدعى الحاكم وزيره السابق ابن عمار لتناول طعام العشاء في قصره. وبعد العشاء أذِنَ له الحاكم بالانصراف. وفي طريقه إلى داره، أوقفته جماعة من الأتراك، فقتلوه واحتزوا رأسه، ثم جاءوا به إلى الحاكم.

وبالرغم من أن ابن عمار طيلة مدة إقامته الجبرية لم يسجل له نشاط سياسي ملحوظ، إلا أنه من المؤكد أن الحاكم بأمر الله لم يقدم على تصفيته إلا بناء على معلومات تم تسريبها إليه عن مساعٍ لابن عمار من أجل استعادة مجده القديم الذي جرّده أياه برجوان. ومن المحتمل أن يكون ابن عمار قد انتهز رحيل برجوان عنَ الساحة ليهيء نفسه لكسر العزلة والعودة لتبؤ القمة. ومما قد يدعم هذا التصور أن الكتاميين عندما علموا بمقتل صاحبهم دبّ الرعب في قلوبهم، فتجمّعوا وذهبوا لقصر الحاكم بأمر الله ليرجونه أن يغمرهم بالعفو والسماح، وليعلنوا براءتهم مما اقترفته يدا ابن عمار، فأظلهم الحاكم بعفوه وأمّنهم على أنفسهم. وهكذا استطاع الحاكم بأمر الله وبضربتي سيف خاطفتين أن يزيح عن طريقه أعتى منافسيه، وأن ينفرد بالخلافة وحده من دون شراكة.

المقلد بن المسيب العقيلي

يُنسب العقيليون إلى عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة، وهم من بني عدنان. وبعد الإسلام، خرج بنو عقيل من البحرين فاستوطنوا الجزيرة، وأصبحوا رعايا لبني حمدان الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على الموصل. وبعد زوال دولة بني حمدان في الموصل في أواخر القرن الرابع الهجري، حلّ بنو عقيل مكانهم، وأقاموا دولتهم لأول مرة مستفيدين من تراخي قبضة سلطة البويهيين في بغداد. ويعود الفضل في تأسيس الدولة العقيلية إلى محمد بن المسيب والملقب بأبي الذواد. ولقد ظل بنو عقيل حكاماً على الموصل لمدة تزيد عن مائة عام إلى أن سدّد السلاجقة إليهم الضربة القاضية. وبنو عقيل كانوا كأسلافهم من بني حمدان على مذهب الشيعة الإمامية الأثني عشرية.

قلنا إن محمداً بن المسيب هو أول من أقام دولة بني حمدان، لكن ولاية محمد على الموصل لم تدم أكثر من عامين. وبعد وفاته، قفز أخوه المقلد والملقب بحسام الدولة على الحكم. ويعد المقلد بن المسيب هو المؤسس الحقيقي لدولة بني عقيل حيث قام بتوسيع أطراف دولته لتضم الأنبار وسقي الفرات والجزيرة الفراتية. وكما هو مدون في كتب التاريخ، فإن المقلد قد اغتصب السلطة من أخيه الأكبر سناً علي بن المسيب، وقبض عليه وهو سكران وسجنه، ثم نصّب نفسه حاكماً على الموصل. أثار صنيع المقلد هذا استياء واسعاً من قبل بني عقيل فانحازوا لأخيه الأكبر علي ممّا تسبب في تفجير الخلافات داخل الأسرة وفي إسالة أنهار من الدم. وقد ظل هذا الوضع قائماً فترة من الزمن إلى أن تمكنت أختهما رهيلة بنت المسيب من سكب الماء على

الحريق بعد أن توسطت لدى أخيها المقلد، فقام وأطلق سراح أخيه علي، وردّ إليه ماله، وأنزله في خيام ضربها له، وتعاهدا وتصالحا. وبعد زمن وجيز، دبّ النزاع مجدداً بين الأخوين، وانضم الأخ الثالث الحسن إلى علي، فعادت الحرب من جديد، ولم يسكنها سوى موت علي وفرار الحسن. وبعد أن خلت الساحة للمقلد، بدأ في توسيع أطراف مملكته حتى عُد بحق المؤسس الحقيقي لدولة بني عقيل. ولقد وصفه ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" بأنه كان فيه عقل وسياسة وحسن تدبير، وكان ينظم الشعر، وقرّب إليه أهل العلم والأدب. وقال عنه ابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" إنه كان فيه رفض فاحش، يقصد أنه كان شيعياً متعصباً.

وبعد أن مكث المقلد في الحكم ما بين أربعة إلى خمسة أعوام، قام أحد غلمانه الأتراك، وقيل جماعة من الغلمان الأتراك بقتله غيلة في مجلسه. ولدينا روايتان تختلفان في الأسباب وفي عدد القتلة. الرواية الأولى قدمها لنا ابن الأثير في كتابه الكامل. تقول الرواية "...إن ابن المسيب العقيلي قتل غيلةً، قتله مماليك له ترك. وكان سبب قتله أن هؤلاء الغلمان كانوا قد هربوا منه، فتبعهم وظفر بهم، وقتل منهم وقطع، وأعاد الباقين، فخافوه على نفوسهم، فاغتنم بعضهم غفلته وقتله بالأنبار، وكان قد عظم أمره، وراسل وجوه العساكر ببغداد، وأراد التغلب على الملك، فأتاه الله من حيث لا يشعر". أمّا الرواية الثانية فنجدها عند ابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة". تقول رواية ابن تغري العجيبة "...قتله غلام له تركي في صفر.. يقال: إنه قتله لأنه سمعه يوصي رجلاً من الحاج أن يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له: لولا صاحباك لزرتك (يقصد أبي بكر وعمر). وذكر الذهبي هذه الحكاية بإسناد إلى جماعة إلى أن قال عن الرجل الذي قال له المقلد هذا بالسلام إنه قال: فأتيت المدينة ولم أقل ذلك إجلالاً؟ فنمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي، فقال: يا فلان لِمَ لم تؤد الرسالة؟ فقلت: يا رسول الله أجللتك، فرفع رأسه إلى رجل قائم فقال له: خذ هذا الموسى واذبحه به يعني المقلد. ثم رجعنا فوافينا العراق، فسمعت أن الأمير المقلد ذبح على

فراشه ووجد الموسى عند رأسه، فذكرت للناس الرؤيا فشاعت، فأحضرني ابنه يعني ابن المقلد الذي ولي بعده، واسمه قرواش، فحدثته، فقال: أتعرف الموسى؟ فقلت نعم، فأحضر طبقاً مملوءاً مواسي فأخرجته منها، فقال: صدقت، هذا وجدته عند رأسه وهو مذبوح. قلت: هذا ما جوزي به في الدنيا، وأما في الأخرى فجهنم وبئس المصير، هو وكل من يعتقد معتقده إن شاء الله تعالى".

لا أزعم أن الرواية الأولى هي الصحيحة، ولكني أجدها أكثر قبولاً ومنطقيةً من الرواية الثانية. إن رواية ابن تغري هي أقرب إلى الخرافة أو إلى الفكاهة. ولا شك عندي أن من وضعها كان يريد التعريض بالمقلد بن المسيب، والادعاء بأن موته كان بتدخل إلهي، عقاباً له على تطاوله على شخصية النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ميولاته الشيعية الفاقعة التي ذكرها ابن تغري في معرض وصفه للمقلد. والطريف هنا أن ابن تغري قد تخلى عن رزانته التاريخية المعهودة، فقال في حماسة بعد أن أخذته النشوة فرحاً بمقتل المقلد ممتدحاً الغلام التركي: لا شلت يداه!

طاهر بن خلف الصفار

كان يعقوب بن الليث الصفار يشتغل عاملاً في صناعة الأواني النحاسية. استطاع يعقوب بفضل شخصيته القيادية وأفكاره الخلاصية وتطلعاته الاجتماعية أن يجمع حوله أطيافاً شتى من أصحاب الحرف والفلاحين والعاطلين والعيارين الناقمين على الأوضاع السياسية والسياسات الاقتصادية والممارسات الاجتماعية. استطاع يعقوب أن يؤسس من تلك الجماعات المسحوقة في سجستان جيشاً متمرداً على الخلافة في بغداد ومتحالفاً مع العناصر الخوارجية المتواجدة بكثرة في تلك المناطق. وشيئاً فشيئاً، استشعر يعقوب في نفسه القدرة على العمل مستقلاً عن الخوارج، فانقلب عليهم وهزمهم، ثم بدأ في احتلال المدن والأقاليم تباعاً حتى صار ذكره يثير القشعريرة في نفس الخليفة المستضعف في بغداد المعتمد على الله.

استطاع يعقوب أن يهدم الهياكل الاقتصادية البائسة والبنى الاجتماعية الظالمة. فقد رفع الظلم عن الطبقات التحتية، وقدم لهم المعونات العينية والمالية لتحسين أحوالهم، وأزال عنهم الضرائب والمكوس، وصادر الفوائض المالية لدى الطبقات الارستقراطية، فانتعش اقتصاد البلاد، ونمت الطبقة الوسطى، وتعاظم الأنتاج، وتراجعت الأسعار. وفضلاً عن تحسن الأحوال الاقتصادية بشكل ملحوظ، فقد تبنى الصفار سياسة دينية متسامحة، فنعمت الطوائف الدينية والفرق المذهبية على السواء بأجواء هادئة بعيدة عن النزاعات الدينية والتكتلات الطائفية والسخائم العنصرية.

حاولت الخلافة العباسية الغارقة في وحل ثورة الزنج منذ سنوات أن تغازل

يعقوب وأن تسترضي طموحاته، لكنه رفض كل عروض الخلافة، وأبى إلا أن يسير بجيوشه لاسقاطها. ولولا تواطؤ بعض العناصر الخراسانية داخل جيشه في اللحظات الأخيرة والتحاقها بجيش الخليفة لربما تغير مجرى التاريخ. منذ تلك اللحظة المفصلية انقشع الخطر الصفاري، والتقطت الخلافة أنفاسها المحبوسة. وبعد وفاة يعقوب بسنوات قليلة، ورثه أخوه عمرو، فاستبدل سياسة أخيه العدائية مع الخلافة بسياسة ودية تصالحية. ومن سوء حظ عمرو أنه أراد توسيع رقعة مملكته فاصطدم مع القوة الفتية الصاعدة للسامانيين الذين هزموه، وساقوه مكبلاً بالأغلال إلى بغداد التي لم تمح من ذاكرتها ما فعله أخوه منذ حوالى ربع قرن، فوضع عمرو في السجن إلى أن مات فيه.

لم تكن أعمار أحلام الفقراء والمستضعفين في دولة الصفارين بأطول من أعمار الفراشات وزهور الربيع فقد ماتت مع موت يعقوب. ومنذ هزيمة أخيه عمرو، ووقار الدولة في تراجع إلى أن قضى السامانيون على تلك الدولة في سنة 298هـ. وعلى الرغم من انقضائها إلا أن بذرة الحياة كانت لاتزال حية فيها. تشبث أحفاد يعقوب بأهداب الأمل في إعادة الملك الذي زال من بين أيديهم، فبدأت دولتهم تعود إلى الحياة تدريجياً وتحت ظلال دولة السامانيين، ولكنها كانت هشة ورخوة وليس فيها شيء من سيرتها الأولى. ففي أواخر أيام الدولة الصفارية الثانية، انشق طاهر بن خلف عن والده خلف بن أحمد بن محمد، فخرج في جمع بسيط ليستولي على عدد من القرى والكور والمدن، مما اضطر والده على محاربته أكثر من مرة. وعلى الرغم من محاولات والده لحث الناس على الوقوف إلى جانبه وثنيهم عن مناصرة ابنه إلا أنها لم تغن شيئاً فقد مال الناس إلى طاهر لحسن سياسته وطيب معاملته. وبمرور الوقت، علا ذكر طاهر في البلاد، وسطع نجمه بين العباد، وهزم والده في معركة حاسمة، ففرّ الأخير إلى حصن منيع واحتمى به. ولمّا شعر والده بأن الهزيمة تحيط به من كل جانب، لجأ إلى آخر أوراقه، فأرسل إلى ولده طاهر متظاهراً بالندم والحسرة، ومذكراً أياه بما بينهما من صلة ومودة، فابتلع طاهر الطعم، وما حسب أن والده سيحفر له حفرة، فتواعدا على اللقاء بجوار الحصن. وفي

الساعة الموعودة، خرج والده من باب الحصن، وترجل طاهر من على ظهر جواده، وسار باتجاه والده، فتعانق الاثنان، وسكب خلف الدمع الغزير، ثم صاح في بكائه، وكانت تلك هي الإشارة، فخرج الكمين من مكمنه، وأمسكوا بطاهر، فقتله والده خلف بيده، ثم غسله وصلى عليه ودفنه. ولم يهنأ خلف بخلو الساحة له، فقد تفرّق الناس عنه، ثم ما لبث أن هزمه السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، وبهذا زالت الدولة الصفارية من الوجود للمرة الثانية وإلى الأبد.

سعيد الدولة أبو الفضائل

الحمدانيون أسرة عربية عريقة تنتسب إلى بني تغلب، ومن عباءة تلك الأسرة خرج عدد من الأمراء على الموصل والجزيرة وحلب، والحمدانيون كانوا على مذهب الإمامية الأثنى عشرية. ولقد عُرف الحمدانيون بالشجاعة والفروسية والكرم والفصاحة والشعر، فمنهم لمع نجم أبي فراس الحمداني، ابن عم سيف الدولة وغريم الشاعر المتنبي، في سماء الشعر المخملية. ويعد سيف الدولة الحمداني الشخصية الأكثر شهرة بين أفراد تلك الأسرة. ويدين سيف الدولة بشهرته إلى عاملين اثنين: أولهما، أنه وبحكم موقعه في حلب الواقعة على خطوط التماس مع الإمبراطورية البيزنطية قد اضطر لخوض حروب طويلة معهم، كتب له النصر في بعضها وكتبت عليه الهزيمة في بعضها الآخر. وثانيهما، أن بلاطه عُد في ذلك الوقت محجاً للأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء من أمثال المتنبي والفارابي لما عُرف عن سيف الدولة من ميول أدبية وذوق فنّي.

وبعد أكثر من عشرين عاماً ما بين غبار المعارك وندى الشعر توفي سيف الدولة ليخلفه ولده أبو المعالي شريف والملقب بسعد الدولة. وفي أول أيام حكم أبي المعالي نازعه خاله ابو فراس الحمداني على الإمارة فتحاربا إلى أن قُتل أبو فراس وحُزّ رأسه. ولم يكن سعد الدولة بحزم وقوة والده، فقد تسلّط عليه حاجبه قرعويه، فطرده من حلب، فعاش خارجها عشرة أعوام. وبعد مدة، انقلب الأمير بكجور على سيده قرعويه فحبسه إلى أن مات في سجنه. ولمّا علم أبو المعالي بما جرى في حلب حاصرها حتى خضعت له، فدخلها عنوة،

وجلس على سرير الملك. ثم إن أبا المعالي خاف على نفسه من بكجور، فجعله أميراً على حمص، لكن الخلاف اشتد فيما بينهما، فجرت الحرب، وقُتل فيها بكجور، وصادر أبو المعالي ما في يد أولاد بكجور من الأموال العظيمة بعد أن غدر بهم ونكث عهده لهم. وبعد أيام من رجوعه إلى حلب أصابه الفالج ومات.

وبعد أن توفي سعد الدولة، أقام غلمانه ولده أبا الفضائل سعيد أميراً عليهم، ولقّبوه سعيد الدولة، ونصّب لؤلؤ الكبير السيفي نفسه مدبراً للحاكم، وزوّجه ابنته حتى يطبق الخناق عليه من كل جهة. ولمّا عرف العزيز بالله الفاطمي في مصر بالخبر، سال لعابه وطمع فيها لصغر عمر أبي الفضائل سعيد، فأمر واليه على دمشق بنجوتكين أن يأخذ حلب، فسار إليها بجيوشه، وحاصرها حتى ضاقت الأحوال بأهل المدينة، فبعث أبو الفضائل إلى أمير انطاكية البيزنطي يستغيث به، فجاء في جموع كبيرة، والتحم بالجيش الفاطمي، فانتصر منجوتكين وقتل وسبى وغنم، ثم عاد إلى دمشق.

وبعدها بعام، عاد منجوتكين وحاصر حلب ما يقرب من عام إلى أن عصر الجوع أهلها حتى أكلوا الحمير والخيول، فكتب أبو الفضائل ولؤلؤ إلى ملك الروم بالقسطنطينية باسيل يستصرخانه أن يحرك جيوشه لكي يخيف منجوتكين دون أن يقاتله، فنجحت الخطة، ورفع منجوتكين يده عن حلب. ولمّا رحل منجوتكين، خرج أبو الفضائل ولؤلؤ يشكران الملك باسيل، فقيل للملك: "خذ حلب، والشام ما يمتنع منك"، فقال: "ما تسمع الملوك أني خرجت أعين قوماً فغدرت بهم"، فقال له بعض أصحابه: "ليست حلب غالية بغدرة"، فقال الملك: "بلى ولو أنها الدنيا".

زال الخطر الفاطمي بوفاة العزيز بالله، فعاد الهدوء ليلف حلب المتعبة من شدة الكرب وطول الحصار. لم يكن يُعرف ماذا كان يدور وراء أسوار القصر العالية ما بين أبي الفضائل ولؤلؤ الكبير منذ ذاك التاريخ. لم تذكر المصادر أن خلافاً وقع بين الاثنين. كل ما نعرفه أن أبا الفضائل كان نصف أمير لأنّ لؤلؤ قد سلبه نصفه الآخر. وفي ليلة من الليالي من عام 392هـ سقط أبو الفضائل

ميتاً من أثر السم. هناك روايتان حول من دسّ إليه السم. الأولى تقول إن جارية سقته السم، والثانية تقول إن لؤلؤ هو من دسّ السم إليه وإلى ابنته زوجة أبي الفضائل. ليس لدينا ما هو أكثر مما قيل في "زبدة الحلب في تاريخ حلب" لابن العديم و"اليواقيت والضرب في تاريخ حلب" لأبي الفدا. إن أول ما سيثير العجب عند الوقوف على هاتين الروايتين هو لماذا غابت زوجة أبي الفضائل في الرواية الأولى فيما ظهرت في الرواية الثانية! وعلى العموم، فإن الرواية الأولى تثير التساؤل حول دوافع الجارية لقتل سيدها، فيما تثير الرواية الثانية التساؤل حول جرأة لؤلؤ وجسارته على قتل ابنته هذا إن صح أنه هو من وضع السم لأبي الفضائل. ومن الجائز أن تكون كلا الروايتين مكملتين لبعضهما بعضاً، بمعنى أن يكون لؤلؤ هو من أغرى الجارية بوضع السم لأبي الفضائل. ومن الجائز أن نفترض كذلك أن زوجة أبي الفضائل قد شربت السم عن طريق الخطأ فلحقت بزوجها. وفي رأيي، إن أكثر الأجزاء إقناعاً في تلك الروايتين هو قيام لؤلؤ بالتخلص من أبي الفضائل بدلالة أنه استبد بتدبير الأمر بعده، وقام بنفي ولدي أبي الفضائل الصغيرين وهما أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف إلى مصر، فصفى الجو له وخلا الملك له ولولده مرتضى الدولة من بعده.

عبد الملك بن محمد العامري

عندما مات آخر خلفاء بني أمية الأقوياء في الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله في عام 366هـ، نشب صراع بين رجال الدولة وعناصر الجيش حول الخليفة القادم. ترك الحكم من بعده صبي صغير اسمه هشام ولقبه المؤيد بالله. أراد الجيش رجلاً مكتمل الصفات وتام الرجولة ليدير البلاد، فقدّموا عم الخليفة الصبي واسمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر. أمّا وزراء الدولة أمثال الحاجب أبي عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر المعافري فكانوا يريدون استخلاف الصبي هشام حتى يكون الأمر في أيديهم. نجح حزب الوزراء في تجريد الجيش من ورقته الرابحة وذلك بعد أن أزاحوا المغيرة غيلة، فخلت الساحة لهم ولمرشحهم الصبي هشام.

لم يكن في هشام شيء من رائحة والده أو جده. كان إلى صغر سنه، قليل الفهم، وسريع الانقياد، وسهل الخداع. وكانت أمه واسمها صبح هي من تملك زمامه في البداية، ثم تقرّب إليها محمد بن أبي عامر المعافري والملقب بالحاجب المنصور، فصار زمام صبح وولدها هشام في يد أبي عامر. نقل أحمد بن مختار العبادي في "في التاريخ العباسي والأندلسي" عن لسان الدين بن الخطيب في كتابه "أعمال الأعلام" ما يلي عن هشام: "أمّا الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله فكان مندرجاً في كنف كافله الحاجب المنصور، بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مُضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب

البركات والآلات المنسوبات، فكم ألفى بخزانته من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عزير، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح...بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطي، ملتقاه من أيدي المخابث".

كان محمد بن أبي عامر يتطلع إلى القمة مدفوعاً بطموحات لا حد لها. كان منذ شبابه وهو يحلم بأن يمتلك الأندلس، وأن يطيعه العسكر، وأن تنقاد له الرعية. استطاع أن يتخلص من منافسيه بالذكاء والحيلة، فضرب بعضهم ببعض حتى خلصت له البلاد، ودانت له الرقاب. ولخّص ابن الخطيب في كتابه السالف سياسة ابن أبي عامر بالقول: "كان المنصور آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصاحفة (يقصد الحاجب أبي عثمان المصحفي وأتباعه) على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب (قائد جيش الثغور) على المصاحفة حتى قتلهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي (قائد جند الحضرة) على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه. ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟ فلمّا لم يجده، حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره".

كان عصر أبي عامر المنصور واحداً من أزهى وأجمل الفترات التي عاشها المسلمون في الأندلس. ففي سنوات حكمه التي دامت خمساً وعشرين سنة، تجرعت الممالك المسيحية على يديه الكؤوس المريرة، وذاقت على يديه طعم الهزيمة، فقد ألحق بهم الخسائر الكبيرة، وانتزع من أيديهم الحصون الكثيرة. وفي عهده الزاهر، تراجعت الجريمة، وشاع الأمن، وساد النظام، وظهر العدل، وانتعشت الأسواق، واغتنى الناس. واعتنى المنصور بالعمران والبناء، فبنى مدينة الزاهرة، وأقام القناطر، ومدّ الجسور، وأنشأ المساجد. وبعد أن قضى أبو عامر في الحكم ما يقرب من ربع قرن أسلم الروح بعد حياة حافلة بالانجازات والانتصارات.

وبعد وفاته، تسنّم ابنه عبد الملك سدة الحكم، فمسح سحابة الحزن

القاتمة عن وجوه الناس التي بكت رحيل أبي عامر، وأدخل البهجة والسرور في نفوسهم. كان عبد الملك قطعة من والده، وامتداداً لسيرته العظيمة. لم يغرق عبد الملك، والملقب بالمظفر، في حياة اللهو واللعب مثل كثير من أنجال الملوك والأمراء. استفتح المظفر حكمه بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، وأظهر حرصه على إقامة العدل، وحماية الشرع، ونصرة المظلوم، وردع الظالم، فالتف الناس حوله، واجتمعوا على حبه. وفي عهده، لم تهنأ ممالك الشمال المسيحية بموت أبي عامر، فقد أكثر ابنه من غزو أراضيهم ومن قضم أملاكهم حتى أجبرهم على الاعتراف بسلطانه عليهم والاحتكام إليه فيما شجر(*) بينهم من خلافات. وواصل عبد الملك سياسة والده التعميرية، فاستصلح الأراضي، ومدّ القناطر والجسور، وأقام البنايات، وجعل من بلاد الأندلس أرض الأحلام والمسرات.

كانت أيام حكمه والتي دامت سبع سنوات فقط آخر سبع سنوات سمان في تاريخ العرب والإسلام في الأندلس. بموت عبد الملك، كرّت سبحة الأندلس، وانفرطت حبات عقدها، وأطلت الفتنة برأسها، وتفككت أوصالها، وتوزعت أجزاؤها ما بين ملوك الطوائف. لا أحد يعلم على وجه الدقة كيف رحل عبد الملك المظفر بهذه السرعة. قيل إنه أصيب بعلة الذبحة في إحدى غزواته، فحمل في محفة إلى قرطبة، ولكنه مات في الطريق وذلك في عام 399هـ. وقيل كذلك إن أخاه عبد الرحمن قد سمّه في تفاحة.

وقد كانت العامة تسمي عبد الرحمن هذا شنجولاً، وذلك لأن والده المنصور أبا عامر تزوج من ابنة ملك بنبلونة شانجة، لذلك لقبه الناس شنجولاً أي شانجة الصغير. وكان شنجول مثال الشاب الطائش الأهوج المغرور. جلبت سلوكيات شنجول المشينة وتصرفاته البذيئة عليه كره الناس له وحقدهم عليه. وكان أشد الكارهين والثائرين على شنجول امرأة يقال لها الذلفاء. والذلفاء هي

(*) شجر: من الشجار أي الخلاف. يقول القرآن الكريم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

أم المظفر عبد الملك، وأرملة الحاجب المنصور، وقد اتهمت شنجولاً بتسميم أخيه غير الشقيق بتفاحة. وقد بلغ بالذلفاء الحقد على شنجولاً أن اتصلت سراً بالأمويين عن طريق أحد الصقالبة عارضة عليهم استرداد ملكهم المسلوب مقابل الثأر لها ولولدها من شنجول والذي كان حينها خارج قرطبة. كان الجمر لايزال مستعراً تحت رماد بني أمية، فانتفض فيهم رجل يقال له محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، والملقب بالمهدي بالله، فأعلن الثورة على شنجول والذي كان على رأس قوة في الشمال. فلمّا جاءته الأخبار بأن قرطبة قد خرجت من يده ارتد بقواته مسرعاً. وكان شنجول كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه، فقبض عليه رجال المهدي بالله، وحزّوا رأسه، وحملوه إلى المهدي. وبموت شنجول بعد شهور قليلة من الحكم، تطوى آخر صفحات دولة بني عامر بعد أن ملكت الأندلس ثلاثة عقود ونصف.

عبد الرحمن الرابع بن محمد الأموي

استشرت النزعات الانفصالية، وانفجرت الصراعات البينية بعد زوال الدولة العامرية عند مشارف القرن الخامس الهجري. دخلت الأندلس منذ ذاك الوقت في ما يعرف بعصر ملوك الطوائف. كانت الأسرة الأموية في تلك الفترة، ولمدة زمنية قصيرة، طرفاً من أطراف المعادلة السياسية البالغة التعقيد، ولوناً من ألوان الطيف السياسي الذي امتد قوسه فوق التراب الأندلسي. كانت الدولة الأموية حاضرة غائبة، وحية ميتة في الوقت ذاته. كانت موجودة كقيمة رمزية أكثر من كونها قيمة فعلية لها رصيدها من القوة والحضور السياسي. فمنذ مطلع القرن الخامس الهجري، ولمدة خمسة وعشرين عاماً أو ما دون، تعاقب على سرير الخلافة عشرة خلفاء أمويون، وانتهى أكثرهم مقتولين! والعجيب أن أيام الخلافة الأموية على الرغم من قصرها كانت متقطعة وغير منتظمة. فهي لا تظهر إلا إذا خلت قرطبة من بني حمود، فإذا عاد إليها بنو حمود توارى بنو أمية!

تعود أصل القصة كما قصّها ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" إلى أن رجلاً يقال له خيران العامري كان من المناصرين للخليفة الأموي هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر. فلمّا استولى سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر على الخلافة في قرطبة، نابذه خيران مع جماعته فهزمه سليمان وأتباعه من البربر، فأصيب خيران بجراحات كثيرة حتى ظنوا أنه هلك. قام خيران يمشي متحاملاً على جراحاته، فآواه بربري وعالجه، ثم أعطاه مالاً، فتسلّل خيران سراً إلى شرق الأندلس. وهناك، أعاد

خيران جمع الأتباع، فهزم بهم خصومه من البربر، وأزاحهم من البلاد، فغلظ أمره وعظم شأنه.

اتصل خيران بعلي بن حمود صاحب سبتة، وحرّضه على سليمان في قرطبة، فوجد علي في دعوة خيران فرصة لتملك الأندلس. ولكي يصبغ علي الشرعية على نفسه، تظاهر بأن الخليفة هشام المؤيد قد بعث إليه بكتاب يستنجد فيه به ويعده بولاية العهد إن هو فك أسره وأنقذه من سليمان بن الحكم. سار علي وخيران على رأس جيشهما قاصدين قرطبة، فخرج إليهما سليمان مع جماعته من البربر، فبدّدا جمعه وأوقعاه في الأسر. وعندما دخل علي وخيران قرطبة، بحثا عن هشام فلم يجداه، ووجد علي في فناء القصر قبراً، فنبشه وأخرج من فيه فقيل له هذا هشام المؤيد. والحقيقة إن غلمان هشام خافوا إن انكروا أن الجثة لهشام أن يفتك بهم علي بن حمود. فلمّا حصل علي منهم على ما يشتهيه من جواب، جاء بسليمان وأخيه ووالده المسن فقتلهم صبرا. وبعدها دعا الناس إلى مبايعته خليفة، وملك البلاد. وما هي إلا أيام قليلة حتى دبّت الوحشة بين علي وخيران، فخاف خيران على نفسه من غدر علي فخرج عن قرطبة، وناجز ابن حمود العداء.

بحث خيران عن رجل كفء من آل أمية، فدلّوه على واحد منهم يقال له عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، فجاء به خيران وبايعه بالخلافة، وخلع عليه لقب المرتضى بالله، وأرسل إلى أمراء شاطبة وبلنسية وسرقسطة وغيرها يدعوهم إلى مبايعته فأجابوه وبايعوه. سار المرتضى بالله على رأس جيشه فوصل غرناطة وكان عليها زاوي بن زيري الصنهاجي، فبعث إليه بكتاب يدعوه فيه إلى طاعته، فكتب زاوي على ظهر الكتاب "قل يا أيها الكافرون...السورة". فلمّا وصل المرتضى بالله رد زاوي استشاط غضباً، فبعث إليه بكتاب آخر يتوعده فيه ويتهدده، فكتب زاوي على ظهر الكتاب "ألهاكم التكاثر...السورة"، فرمى المرتضى بالله بالكتاب، ورفع السيف في وجه زاوي. في تلك الأثناء، تخلى عنه خيران ورفاقه لما وجدوه في المرتضى بالله من صلف وجفاء، فانسحبوا برجالهم إلى ديارهم. أبى المرتضى إلا أن

يكمل الحرب حتى النهاية، فحمل زاوي عليه برجاله من البربر، فتفرق جمع المرتضى بالله عنه، ونهب عدوه ما في أيديهم من سلاح وعتاد، فانسحب المرتضى بالله في نفر قليل من أصحابه. وفي الطريق، نزل المرتضى بالله ليستريح وينفض عنه غبار الهزيمة، فوثب به رجل من البربر فقتله غدراً. قضى مقتل المرتضى بالله ربما على آخر فرصة بقيت لبني أمية في استرداد ربيع قرطبة الضائع ومجدهم الغابر. انتظر الأمويون من بعد المرتضى بالله خمسة أعوام حتى يرحل بنو حمود من قرطبة، ويأتي آخر ثلاثة خلفاء من نسل بني أمية، فيحكمون قرطبة اسم بلا رسم وصورة بلا معنى ولمدة ثمانية أعوام فقط كانت آخر ما بقي لأحفاد عبد الرحمن الداخل على أرض الأندلس.

علي بن حمود الحمودي

منذ أن توفي الخليفة الأموي الثاني الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، وعقد دولة بني أمية في الأندلس في انتثار، وأيام دولتهم في انحسار. فمنذ وفاة الخليفة المذكور، تعاقب عدد كبير على الخلافة وفي زمن قصير، ولكنهم كانوا على السواء غاية في الضعف والتردي. كان خلفاء بني أمية في حالة يرثى لها من الضعف والهزال كحال أخوتهم في بغداد، بل هم أشد ضعفاً. كان أول من أعقب الخليفة المستنصر هو ابنه هشام. ولسوء الحظ، فقد كان هشام صبياً لا يفقه شيئاً، فاستبد به حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، وطوى الأندلس بين يديه. وبقي هشام ما يزيد على ثلاثة عقود منزوياً في ظل حاجبه أبي عامر وأولاده من بعده. فلمّا انقرضت الدولة العامرية، تفسّخت الأندلس، وتفشت الفتن، وأطل عصر ملوك الطوائف برأسه.

بعد ما يقرب من ثمانية أعوام من زوال الدولة العامرية، وفي مرحلة تعد هي الأكثر في التاريخ الإسلامي بالأندلس اضطراباً، بدأ بروز عدد من الدويلات والممالك بنزعاتها الانشقاقية. ولعل أكثر ما يشير إلى سوء الأحوال وترديها أنه وخلال تلك المدة الوجيزة تعاقب على كرسي الخلافة الأموية ثلاثة خلفاء انتهوا مقتولين. وفي عهد الخليفة الأموي سليمان بن الحكم، والملقب بالمستعين، كان أحد أتباعه عاملاً على سبتة وطنجة، ويدعى علي بن حمود بن ميمون. وينتهي نسب علي بن محمود هذا إلى أسرة الأدارسة التي حكمت أجزاء من بلاد المغرب الأقصى قبل انقضائها.

وعندما اطمئن ابن حمود على ما في يده من عوامل القوة والغلبة، تحركت

نفسه لإقامة دولة بني حمود على أنقاض دولة بني أميه، وتاقت نفسه للخلافة. ولكي يضفي بعضاً من المشروعية على مقاصده السياسية، أظهر كتاباً ادعى فيه أن الخليفة الأموي المحجور عليه هشام المؤيد بن الحكم قد كتبه إليه يستصرخه فيه، بأن يهبّ لتحريره من الخليفة المستعين، ويتعهد فيه أن يمنحه ولاية العهد إن هو حرّره من أسره وأخذ له بثأره من المستعين. زحف ابن حمود بجمعه فخرج له المستعين والبربر، فالتحم الفريقان خارج أسوار قرطبة، فكان النصر لابن حمود. ويقول ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" إنّ ابن حمود دخل قصر الإمارة باحثاً عن هشام المؤيد بن الحكم، فما وجده ولكنه عثر على قبر في القصر. فأمر بنبشه، وجاء بأحد غلمان هشام المؤيد للتعرف على الجثة. وحسب ابن الأثير فإن الغلام كان يعرف أن هشام حي ولكنه خاف على نفسه إن هو أنكر، فادعى أنها لهشام. فلمّا أشهد ابن حمود الشهود، جاء بالمستعين، فدق عنقه بيده. ثم جيء بشقيقه عبد الرحمن فقتل، وبوالدهما وكان شيخاً كبيراً فألحقه بولديه. وبعد أن استتب له الأمر، تسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالناصر لدين الله، فكان بذلك أول ملوك بني هاشم في الأندلس بعد أكثر من ثلاثة قرون من استقرار المسلمين فيها. ومن طريف ما يحكى عنه، كما جاء في "أعمال الأعلام" لابن خطيب، أنه كان لابن حمود على حد زعم الناس عين تصيب أي شيء تستحسنه نفسه بالآفة.

وبعد عام ونصف من تربعه، تأهب ابن حمود للخروج يوماً بجنده لمحاربة صاحب مدينة جيان. وقبل أن ينطلق بجيشه، دخل الحمام لكي يتجهز، فتسلّل إلى الداخل ثلاثة من خدمه الصقالبة، فقتلوه بخنجره من دون أن يشعر بهم أحد. فلمّا استطال نساؤه بقاءه في الحمام، دخلن عليه، فوجدنه مضرجاً بدمائه. ولمّا شاع خبر مقتله، أقبل أخوه القاسم، وكان أميراً على أشبيلية، فتولّى الحكم من بعد أخيه، ثم جيء باثنين من قاتليه، فعذبا بأنواع العذاب حتى قتلا وصلبا.

تضرب المصادر التاريخية صفحاً عن ذكر الدواعي التي أفضت إلى مقتل

ابن حمود على يد خدمه. هذا السكوت يدفعنا إلى التساؤل عمّا إذا كان هناك من دور لبقايا الأمويين بغرض الأخذ بالثأر، أو ما إذا كان قتله قد جرى بتحريض من جماعة البربر بعد أن ضيّق عليهم، أو ما إذا كان لحاكم مدينة جيان والذي كان يتخوف الحرب قد دسّ إليه من يقتله فيأمن شره، أو ما إذا كان هناك سبب آخر يخفى علينا.

علي بن جعفر الكتامي

لقب علي بن جعفر بألقاب عديدة، وهي: ذو الرياستين، الآمر المظفر، قطب الدولة، وزير الوزراء، وسيف الدولة. أمّا كنيته فهي ابو الحسن. كان والده جعفر بن فلاح الكتامي قائداً عظيماً يلي في مرتبته جوهر الصقلي القائد الفاطمي الشهير. وقد كان لجعفر صولات وجولات أيام كانت قاعدة ملك دولة الفواطم في شمال إفريقيا. ولمّا سيّر الخليفة الرابع المعز لدين الله قائده جوهر إلى مصر، طلب من جعفر أن يكون رفيقاً لجوهر لمعرفة المعز بأن قبيلة كتامة البربرية تأتمر بأمر جعفر وتطيعه طاعة عمياء. وعندما تم لجوهر الاستيلاء بسهولة على مصر، بعث بجعفر إلى بلاد الشام لفتحها. وبالفعل، فقد حقق جعفر انتصارات متتالية منهياً بذلك وجود الأخشيديين على مسرح الأحداث. وبالرغم من أن جعفر قد أتم السيطرة على بلاد الشام إلا أنه وجد مقاومة ضارية خاصة في دمشق ممّا أدى إلى سفك دماء غزيرة. ولسوء حظ هذا القائد فأنه اصطدم بالقرامطة الذين قدموا لينجدوا أهل دمشق الذين استغاثوا بهم، فدارت الدوائر على جعفر، وسقط في أرض المعركة قتيلاً، ثم أخذ فحّز رأسه وصلب.

وبعد سنوات من استقرار الفاطميين في مصر، وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حفيد المعز لدين الله وولد العزيز بالله، عهد وزير الحاكم الحسن بن عمار الكتامي إلى نجلي جعفر بن فلاح الكتامي، وهما: علي وسليمان محاربة القائد التركي الأصل منجوتكين والذي سار إلى مصر بتحريض من خادم الخليفة

الحاكم برجوان من أجل محاربة الحسن بن عمار، فهزماه وأوقعا به أسيراً. وبعد أن دان لهما النصر، ظلا في الشام يديران أمورها.

وبعد أن كبر الخليفة الحاكم، وتخلص من برجوان وابن عمار غيلة، نصّب أبا الحسن علي وزيراً له، وخلع عليه الألقاب الفخيمة. ومن الجدير بالإشارة أن عدد الوزراء الذين تعاقبوا على خدمة الخليفة الحاكم خلال سنوات حكمه والتي دامت خمساً وعشرين سنة كان عددهم أربعة عشر وزيراً.

وبعد عام من وزارته، ركب أبو الحسن علي. فلمّا وصل قرب البرك التي قبل الخليج، خرج عليه فارسان ملثمان، فرماه أحدهما برمح فأصابه، ثم لاذا بالفرار. حُمل الوزير علي إلى داره وجرحه ينزف، ثم مات في اليوم التالي متأثراً بجراحه وذلك في عام 409هـ. لم يقدر المؤرخون على إماطة اللثام حول هوية قاتله ولا استكناه الدوافع وراء العملية الغادرة. أغلب الظن أن الخيال سينصرف تلقائياً بالمرء إلى التشكيك في دور الخليفة الحاكم، خصوصاً وأنه قد سبق له الإيقاع بعدد من رجاله ووزرائه من أمثال برجوان والحسن بن عمار وقاضي القضاة مالك بن سعيد، لكننا في المقابل لا نجد في المراجع التاريخية ما يثار حول وجود خلافات من أي نوع بين الخليفة ووزيره الأمر الذي يضعّف من احتمال تواطؤ الحاكم على قتل وزيره. من الجائز أن نقرأ عملية الاغتيال في ضوء الصراعات المكتومة بين عناصر السلطة والمكونات الفئوية للدولة والتي يهيمن على مفاصلها كل من الصقالبة والأتراك والمغاربة. تلك النزاعات سبق أن أشعل فتيلها برجوان في بدايات حكم الخليفة الحاكم وسالت على جوانبها دماء كثيرة. وسوف تتجدد أكثر من مرة وتتخذ صوراً أكثر دموية وشراسة في مراحل لاحقة من حكم الفاطميين في مصر. وبناء على ما سبق، فإنه من المحتمل جداً أن يكون الوزير علي قد دفع حياته ثمناً لصراعات الأجنحة من أجل الاستئثار بالمناصب والسلطات.

الحاكم بأمر الله

سيبقى لغزاً وهو حي، وسيبقى كذلك لغزاً وهو ميت. لا تملك أمام هذه الشخصية العجائبية إلا أن تعجب بها، أو تكرهها، أن ترفعها لأعلى، أو تنزلها لأسفل، أن تحبها، أو تكرهها. تشعر وأنت تتأمل هذه الشخصية أنك تقف أمام فيلسوف، أو راهب، أو عاقل، أو مجنون، أو معتوه. من المؤسف أنك لا تستطيع أن تقرأه بجلاء لسببين: أولهما أن طبقات من الأساطير والخرافات والأكاذيب قد تراكمت فوق تلك الشخصية، وثانيهما أن تكوينك المذهبي وموقفك الأيدولوجي قد يملي عليك إلى أي فريق ستنضم!

اسمه هو الحاكم بأمر الله، ولقبه هو المنصور، وكنيته هي أبو علي. هو سادس الخلفاء الفواطم. تولى الخلافة والإمامة بعد وفاة والده العزيز بالله عام 386هـ وكان له من العمر أحد عشر ربيعاً، وظل خليفة على مصر والشام والمغرب حتى عام 411هـ بعد أن حكم ربع قرن من الزمان. والدته هي أم ولد، وتنتمي إلى أسرة مصرية قبطية عريقة، وقد أنجبت والدته من العزيز ثلاثة ابناء: محمد، وست الملك، والحاكم بأمر الله. مات محمد أثناء حياة والده، فبويع الحاكم بولاية العهد. أمّا ست الملك فهي أكثر نساء العصر الفاطمي شهرة لما عرفت به من الحزم والعقل والنباهة والدهاء. كان والدها العزيز بالله يستأنس برأيها ويستمع إلى مشورتها. ولمّا دانت الخلافة للحاكم بأمر الله، وقفت إلى جواره، وكانت له نعم السند في طفولته وشبابه ورجولته. ثم لمّا مات أخوها الحاكم، صانت الملك لابن أخيها الصغير الظاهر وأحاطته بعطفها ورعايتها إلى أن ماتت.

وعندما بويع الحاكم الصغير بالخلافة، كان محاصراً بثلاثة أوصياء: الوزير الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة المغربية، وبرجوان الصقلبي كبير الصقالبة خدم الدولة وزينتها، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة. كان العداء على أشده بين برجوان وابن عمار. كان الصراع بينهما عنواناً للصراع المستتر بين القوى المغربية والتي يمثلها ابن عمار والقوى المشرقية التي يمثلها برجوان. في البداية، نال المغاربة بقيادة ابن عمار كل شيء، فطغوا في الأرض وتكبروا، وداسوا على رقاب الناس وتسلطوا. أمّا برجوان فكان يحفر بهدوء لابن عمار، وينصب له الكمائن، ويوغر عليه صدور المشارقة، ويشحن النفوس ضد كتامة، إلى أن وقعت فتنة عارمة، فانهزمت كتامة، وانكسر شيخها ابن عمار، وصودرت أمواله، ونهبت داره. وبعد أن ركدت الفتنة وزالت الغمة، خرج برجوان طاوياً مصر والخليفة تحت جناحيه، فاستبد بكل شيء، وبالغ في حجب الخليفة وإبعاده، وانكب على ملاهيه وملذاته، وفاته أن الصغير لا بد له في يوم أن يكبر، وأن القيد لا بد له في يوم أن يكسر. وفي يوم، دعا الحاكم برجوان للنزهة، فلمّا دخل برجوان فناء القصر، قتله خادم الخليفة في لمح البصر ودفنه في مكانه. وبعد أقل من عام، مزقت سيوف الأتراك تحت ستار العتمة جسد ابن عمار وتركته غارقاً في بركة من الدماء. وهكذا استطاع الحاكم أن يزيح عن طريقه أقوى رجلين، فخلا له الجو، وصفا له الزمان.

يحفظ التاريخ للحاكم بأمر الله أنه أولى الحركة العلمية والثقافية عظيم اهتمامه ورعايته، فأنشأ دار الحكمة وشحنها بآلاف العناوين من حقول المعرفة وبساتين العلم، وجعل منها منارة سامقة تضيء سماء مصر بنور المعرفة. ويحسب للحاكم أنه نهى الناس عن تقبيل الأرض بين يديه، والسجود إلى الأرض بين يديه، ونهاهم عن مناداته بكلمة مولانا. ويذكر له أنه كان متأففاً من المظاهر والرسوم والألقاب، وكان ميالاً إلى التقشف والزهد، وحريصاً على الصلاة والتأمل. ويدين له التاريخ بأنه كان يركب من غير زينة وأبهة، وأنه خفّف عن الناس الضرائب، وحرص على نصرة العدل، وتحقيق الشرع، ومنع الظلم.

ولا يذكر اسم الحاكم بأمر الله إلا وتذكر معه جملة القوانين والأحكام العجيبة والمثيرة التي أصدرها وأمر الناس باتباعها. كانت تلك القوانين محل سخرية واستهزاء كثير من المؤرخين ومحل إعجاب وتقدير قلة منهم. فمن جملة القوانين التي اشتهر الحاكم بوضعها أنه نهى الناس عن أكل الجرجير والملوخية، ومنع الناس من ذبح الأبقار إلا في أيام عيد الأضحى، وحرّم صيد السمك الذي لا قشر له، وحرّم على النساء دخول الحمامات من غير مئزر، وحرّم عليهن كشف وجوههن في الطرقات، ومنعهن من أخذ الزينة عند خروجهن، وحرّم عليهن البكاء والعويل وراء الجنازات، وأمر بقتل الكلاب. المعجبون بالحاكم بأمر الله يستغربون ضيق أفق وضحالة فكر غيرهم من المؤرخين، فيقولون عن تلك القوانين مدافعين: إنه منع أكل الجرجير والملوخية لدورهما في تنشيط الغرائز الجنسية لدى الذكر والأنثى، ومنع ذبح الأبقار إلا في أيام عيد الأضحى من أجل المحافظة على هذا الحيوان الذي يمد الناس بمنافع كثيرة، ونهى عن صيد السمك الذي لا قشر له لأن أعداده كانت في تناقص وخاف عليه الحاكم من الانقراض، وحرّم على النساء كثيراً من السلوكيات والممارسات التي اعتاد عليها المصريون من أجل إشاعة أجواء العفة وحماية الأخلاق ومحاربة الفساد الذي بدأ يستشري داخل المجتمع، وأمر بقتل الكلاب الشاردة فقط وليس كلاب الصيد والحراسة من أجل الحفاظ على النظافة العامة في البلاد.

وكما كان الحاكم لغزاً مثيراً في حياته، فقد أبى إلا وأن يجعل من موته لغزاً عجيباً وسراً دفيناً نسجت حوله حكايات وقصص. وقد جمع محمد محمود خليل مشكوراً في كتابه "الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من المراجع والمصادر التاريخية عشر روايات في محاولة للإجابة عن سؤالين عالقين: من قتل الحاكم؟ وكيف قتل؟ لن نستعرض هنا الروايات العشر كافة تجنباً للإطالة، ولكن حسبنا أن نقف على أشهر الروايات المتداولة في شيء من الإيجاز.

الرواية الأولى: إن الحاكم رمى أخته ست الملك بالفجور، وادعى عليها

أنها حامل، فراسلت حسين بن دواس الكتامي، وكان بينه وبين الحاكم وحشة، فتواعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه. ثم إن ست الملك جاءت بعبدين، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلا الحاكم. وفي ليلة، نهته والدته عن الخروج، فأبى وركب حماره وكان معه ركابي وصبي يحمل أدواته، وذهب ليصعد جبل المقطم من أجل أن يرصد نجماً. وفي الطريق، عارضه سبعة فوارس من بني قرة، فطلبوا منه الأمان فأمنهم، وأمر الركابي أن يحملهم إلى الخازن ليدفع إليهم عشرة آلاف درهم، فذهبوا معه. وأكمل الحاكم طريقه إلى الجبل، فخرج عليه العبدان، فضرباه حتى مات، وقتلا الصبي وأغرقا الحمار، وحملا الحاكم إلى أخته في كساء فدفنته. وبعد أن طالت غيبة الحاكم، ودبّ اليأس في القلوب، أحضرت ست الملك حسين بن دواس ليأخذ البيعة للظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم، فبايعه الناس. وبعد مدة، دبرت ست الملك من قتل العبدين وقتل ابن دواس، ثم لم تطل أيامها وماتت بعد أيام.

الرواية الثانية: إن الحاكم خرج ليلاً قاصداً جبل المقطم وكان يرافقه ركابي. وفي الطريق إلى الجبل اعترضه سبعة من البدو، فالتمسوا منه العطاء ولكن بجلافة، فطلب منهم أن يذهبوا إلى متولي بيت المال ليعطيهم خمسة آلاف درهم، فأبوا إلا أن يذهب الركابي معهم، فسار الركابي في صحبة أربعة منهم وبقي ثلاثة مع الحاكم. ولمّا عاد الركابي بعد أن أدى مهمته لم يجد سيده، فوجد رجلاً وسأله إن كان قد رأى الحاكم وحماره، فقال الرجل إنه وجد الحمار في مكان ما معرقباً، فأخذ الرجل الركابي إلى حيث وجد الحمار. وفي اليوم التالي، سارت ست الملك والأمراء والوزراء والقواد إلى الجبل ليبحثوا عن الحاكم، فوجدوا ثيابه المكونة من سبع جبات صوف مزررة وفيها أثر طعنات ودماء، ولم يجدوا الجثة، فعرفوا أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا معه هم من قتلوه.

الرواية الثالثة: إنه قبض على رجل من بني الحسين في صعيد مصر بعد أربعة أعوام من مقتل الحاكم، فأقر أنه قتل الحاكم في جملة أربعة أشخاص

تفرقوا في البلاد. ولمّا قيل له لما قتلته، قال غيرة للإسلام. ثم قيل له كيف قتلته، فأخرج سكيناً وضرب بها فؤاده فقتل نفسه، وقال هكذا قتلته.

الرواية الرابعة: إن القتلة هم من قبيلة المصامدة المغربية بتحريض من بني أمية في الأندلس.

الرواية الخامسة: إن القتلة هم من الأقباط اليعاقبة الذين كانوا يخوضون حرباً عنيفة ضد الأقباط المالكيين أخوال الحاكم بأمر الله والذي ولد من أم مسيحية مالكية.

الرواية السادسة: إن حسين بن دوراس الكتامي كان يتجنب الحضور إلى قصر الخليفة الحاكم خوفاً على نفسه، فدبر ابن دواس قتل الحاكم مع جماعة من أهل البادية بمصر. ولمّا جرى قتل الحاكم، أدرك ابن دواس سوء فعلته، فاحتمى في بيته، ولكن ست الملك تحايلت عليه فجاءت به إلى القصر، وأرسلت برجل إلى دار ابن دواس يفتشها فوجد في صندوق عنده سكين الحاكم التي كان يحملها، فتحقق للجميع أن ابن دواس هو من واطأ البدو على قتل الحاكم.

وبعد أن وضع محمد خليل بين أيدينا كل الروايات التي قيلت حول مقتل الحاكم، قام بوضع كل رواية من الروايات على طاولة النقد ليكشف لنا عن مواضع الضعف ومواطن الخلل في كل واحدة منها.

ففي الرواية الأولى، يطرح محمد خليل السؤال التالي: كيف علم المؤرخون بتفاصيل الرواية بالرغم من أن العبدين وابن دواس قد قتلا على يد ست الملك بعيد مقتل الحاكم؟! ولا يعقل أن تروي ست الملك (ماتت بعد أعوام ثلاثة من مقتل الحاكم) تلك الحادثة وتذيعها بين الناس! إضافة إلى ذلك، فإن المؤرخين والرواة المعاصرين للدولة الفاطمية عامة وللحاكم بأمر الله خاصة يرفضون التشكيك في تواطؤ ست الملك المعروفة بعقلها واحترامها وهيبتها على قتل أخيها. وهناك - بحسب محمد خليل - نقطة ضعف جوهرية تكفي لنسف تلك الرواية كلياً ومفادها أن الحاكم كان يشكك في شرف ست الملك ويتهمها بأنها حامل. وقد فات مروجو هذه الرواية أن عمر ست الملك

آنذاك كان يناهز الثانية والخمسين، فكيف للحاكم أن يتهم أخته بأنها حامل وهي فوق الخمسين؟!

أمّا الرواية الثانية فهي لا تخلو أيضاً من مواضع شك كثيرة. فعلى سبيل المثال، لماذا يقدم البدو الثلاثة على قتل الحاكم على الرغم من أنه أجاب طلبهم وأرسل بالركابي مع الأربعة الآخرين للحصول على الأموال التي طلبوها؟! ومن العجيب أن تلك الرواية تقول إنهم وجدوا ملابس الحاكم وهي عبارة عن سبع جبات صوف مزررة وعليها أثر الطعنات والدم! ويتساءل محمد خليل في استغراب: كيف للحاكم أن يطيق ارتداء سبع جبات صوف مزررة ونحن نعلم أن طقس مصر لا يتسم بهذه البرودة؟! وهذا بعينه هو السؤال الذي طرحه عارف تامر في "الحاكم بأمر الله: الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين" قبل ثلاثين عاماً. ولعل ما هو أكثر غرابة من قصة جبات الصوف السبع أن يجد أركان الدولة تلك الجبات السبع مزررة بدلاً من أن تكون ممزقة. هل قتلوا الحاكم، ثم جردوه من ملابسه السبعة، ثم قاموا بتزرير الملابس مرة أخرى؟!

وفي الرواية الثالثة، لا يبدو من المقبول منطقياً أن يذهب القاتل بنفسه إلى صاحب الشرطة ويعترف على نفسه بقتل الحاكم. هل فعل هذا ليسكت آلام الضمير التي ظلت تعذبه لأربع سنوات؟ لو صح هذا، لما قال بفخر إنه قتله غيرة على الإسلام وأهله! ويضيف محمد خليل إن الرجل عندما سئل كيف قتله، أخرج سكيناً وقتل نفسه، وقال هكذا قتلته! إذا كان الرجل قتل الحاكم غيرة على الإسلام، فهل فاته أن الإسلام يحرم على المرء قتل نفسه؟ أليس كذلك؟!

أمّا الرواية الرابعة، فمحمد خليل يتجاهلها لأن العلاقات بين الأمويين في الأندلس والحاكم في مصر لم تكن متوترة كما كانت عليه زمن جده المعز لدين الله والذي كان على نزاع دائم مع أول خلفاء بني أمية عبد الرحمن الناصر. وأضيف على ما قاله، إن خلفاء بني أمية في الفترة التي قتل فيها الحاكم بأمر الله كانوا على درجة شديدة من الضعف والهزال، ولم يكن لهم من الأمر شيء، وفوق هذا لم يكن للخليفة أي نفوذ يتجاوز أسوار قرطبة.

ولا يميل محمد خليل إلى الرواية الخامسة بدعوى أن قرارات الحاكم بأمر الله لم تستثن أحداً من الأقباط، فكل طوائف القبط نالهم قسط متساوٍ من العذاب والأذى. ويضيف إلى ذلك أن الطائفة القبطية منذ الفتح الإسلامي لمصر لم يسجل عليها افتعال المشاكل والإحن(*)، وفضلت دوماً التعايش السلمي مع الأكثرية المسلمة.

وختاماً، يرجح محمد خليل ما جاء في الرواية السادسة والأخيرة لخلوها من وجود تناقضات في متنها، ولتطابق مجرياتها مع الوقائع والأحداث والظروف المحيطة بها، ولنضوج واكتمال دوافع القتل فيها. وشخصياً، أجد نفسي أكثر انجذاباً لتلك الرواية دون سواها، لا عن قناعة وتسليم بكل ما جاء فيها، ولكن لأنها تنطوي على أقل قدر ممكن من الأخطاء والنواقص. وعموماً، فإننا إذا قبلنا بضلوع ابن دواس في قتل الحاكم، فإني أتساءل في استغراب: لماذا احتفظ بسكين الحاكم في داره؟ ولماذا شكت ست الملك في احتفاظ ابن دواس بشيء من أثر أخيها عنده بالدار؟ هذه التساؤلات وغيرها من أسئلة ستطالعها عند قراءتك لاغتيال حسين بن دواس في الصفحات القادمة.

(*) الإحن هو الحقد.

حسين بن دواس الكتامي

إن الحديث عن حسين بن دواس الكتامي يستدعي ضرورة الرجوع إلى قصة اغتيال الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله والتي تناولناها باستفاضة في موضع سابق من الكتاب. وحتى نتجنب السقوط في فخ التكرار والإطالة وإعادة اجترار التفاصيل ذاتها فسوف نتوكأ على الرواية التي اعتمدناها كمدخل مقبول بعض الشيء في فك طلاسم اغتيال الخليفة الحاكم بأمر الله. أمّا الرواية المشهورة الأخرى والتي تتحدث عن شكوك الحاكم في سلوكيات أخت ست الملك وتواطؤها مع حسين بن دواس فلن نعيد فتحها بعد أن قمنا باستجلاء مثالبها وكشف مزالقها.

إن كلا الروايتين والتي يطل فيهما ابن دواس بوجهه التحريضي على الايقاع بالخليفة وقتله غيله تتفقان معاً على تردي العلاقة ما بين الخليفة وابن دواس ووصولها إلى حد الاحتقان دون الافصاح عن مزيد من التفاصيل حول ما أفضى بتلك العلاقة إلى حد أن يتهيب ابن دواس من الذهاب إلى قصر الحاكم خوفاً من أن يفتك به الأخير. جاء في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري ما يلي: "إن ابن دواس كان شديد الحذر من الحاكم، وممتنعاً من دخول قصره ولقائه إلا في المواكب على ظهر فرسه، واستدعاه الحاكم مرة إلى قصره فامتنع. فلما كان يوم الموكب عاتبه الحاكم على تأخره، فقال له سيف الدولة المذكور: "قد خدمت أباك، ولي عليكم حقوق كثيرة يجب لمثلها المراعاة، وقد قام في نفسي أنك قاتلي، فأنا مجتهد في دفعك بغاية جهدي، وليس لك حاجة إلى حضوري في قصرك. فإن كان باطن رأيك في مثل ظاهره فدعني على

حالي، فإنه لا ضرر عليك في تأخري عن حضور قصرك. وإن كنت تريد بي سوءاً، فلئن تقتلني في داري بين أهلي وولدي يكفنونني ويتولونني أحب إلي من أن تقتلني في قصرك وتطرحني تأكل الكلاب لحمي، فضحك الحاكم وأمسك عنه". وعلى ما يبدو فإن ابن دواس الذي كان يخاف على نفسه من غدر الحاكم، قد انتهز ولع الخليفة الحاكم بالنجوم، فواطأ جماعة من الأعراب على قتله وهو في طريقه على ظهر حماره إلى جبل المقطم، فتربصوا به وقتلوه، ثم تفرقوا.

شكّت ست الملك في احتمال تورط ابن دواس في قتل أخيها للكراهية المتبادلة بينهما، فتحايلت على ابن دواس ليأتي إلى القصر، فلمّا وصل إلى هناك، بعثت برجل إلى داره ليفتشها فوجد سكين الحاكم مخبأة في صندوق بالدار. عاد الرجل بالدليل إلى سيدته ست الملك، فصاحت بالخدم، فتبادروه بالسيوف حتى قطعوه. وكما ذكرنا من قبل فإن هذه الرواية وإن بدت مقبولة بعض الشيء إلا أنها تعاني من بعض الهنات. فعلى سبيل المثال، نحن لا نجد تفسيراً منطقياً لاحتفاظ ابن دواس بسكين الحاكم في بيته، ولا نعرف مصير الرجال الأعراب الذين قتلوا الحاكم، ولا نعرف ما إذا كان ابن دواس قد قال شيئاً عندما وجهت إليه تهمة القتل، ولا نعرف ما الذي جعل ست الملك تشك في احتفاظ ابن دواس بالسكين في داره! على أي حال، إن صح أن ابن دواس هو من أخفى بنفسه السكين في داره، ولم يقم أحد ما بدسها عليه، فهذا دليل ساطع على تورطه بدم الخليفة.

ولعلي أجد نفسي مرة أخرى متفقاً مع محمد محمود خليل في "الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" حينما أرجع أسباب إقدام ابن دواس على قتل الخليفة الحاكم لمزيج من الاعتبارات السياسية والشخصية. سياسياً، فإن إزاحة الحاكم من الطريق يعني استرداد قبيلة كتامة المغربية لمكانتها المفقودة والتي تعرضت لتراجعات بسبب سياسات الحاكم العدائية لها. وشخصياً، فإن قتل الحاكم سيحرر ابن دواس من كابوس جاثم على أنفاسه

طيلة كل تلك السنين من احتمالات قيام الحاكم بقتله غيلة كما جرى لسلفه الوزير الخلوع حسن بن العمار والذي سبق تناول سيرته واغتياله من قبل. هذان السببان لهما ما يكفي من الوجاهة حتى ولو كان ابن دواس بريئاً من دم الحاكم، ولو كان هناك من يد خفية دست عليه سكين الحاكم!

عزيز الدولة فاتك بن عبد الله الأرمني

كُنِيَ بأبي شجاع، ولقّب من قبل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بأمير الأمراء، عزيز الدولة، وتاج الملة. وقد كان عزيز الدولة في أول أمره غلاماً أرمنياً عند القائد التركي منجوتكين والذي كان بدوره مولى للخليفة الفاطمي العزيز بالله، والد الخليفة الحاكم بأمر الله. ولمّا ضمّ الحاكم بأمر الله مدينة حلب إلى الممتلكات الفاطمية بعد صراع مرير مع حاكمها لؤلؤ وابنه مرتضى الدولة، وقع اختياره على أبي شجاع لتسليمه إمارة حلب. سار عزيز الدولة أبو شجاع إلى حلب، فدخلها في شهر رمضان من عام 407هـ. وخلال السنوات الست التي قضاها عزيز الدولة في حلب، ترك لنا بعض البصمات والتي لاتزال حية حتى يومنا هذا. فعزيز الدولة هو من جدّد قصر الإمارة القابع تحت قلعة حلب الشهيرة. وهو كذلك من أمر بعمارة قناديل الفضة للمسجد الجامع، وهي لاتزال هناك باقية وعليها اسمه منقوش. وإلى جانب اهتمامه بالعمارة، فقد قيل إن عزيز الدولة كان شغوفاً بالأدب والشعر. وقد شاءت الأقدار أن يعاصر عزيز الدولة أثناء ولايته لحلب الشاعر والأديب الكبير أبي العلاء المعري. ويذكر المؤرخون أن أبا العلاء صنّف لعزيز الدولة رسالة شهيرة اسمها "القائف"، وعرفت كذلك باسم بطليها "الصاهل والشاحج" في أسلوب يحاكي حكايات كليلة ودمنة .

وبعد ما يقرب من ثلاثة أعوام قضاها عزيز الدولة أميراً على حلب، بدأت نفس الحاكم بأمر الله تتغير على أميره، فساءت العلاقة بين الاثنين، ووصلت إلى طريق مسدود. أدى تدهور العلاقة بينهما إلى إعلان عزيز الدولة العصيان

على سيده المقيم في القاهرة. وإمعاناً في تمرده على الحاكم بأمر الله، قام عزيز الدولة بسك النقود وعليها اسمه، وأمر خطباء المساجد بإبطال الدعاء للحاكم واستبداله بالدعاء له على المنابر. أثارت تصعيدات عزيز الدولة حنق الحاكم، فأمر بتوجيه الجيوش إلى حلب لتلقين صاحبها درساً لا ينسى. فلمّا علم صاحب حلب بقدوم الجيش، بعث إلى ملك بيزنطة باسيل يستدعيه ليسلم له المدينة على طبق من فضة. فرح باسيل بتلك الدعوة المفاجئة، فخرج على رأس جيشه ليتلقف هديته الثمينة. وبينما هو في الطريق، طارت الأخبار إلى حلب بوفاة الحاكم بالله في ملابسات غامضة، فبعث عزيز الدولة إلى باسيل يعلمه ببطلان ما كان بينهما من اتفاق.

سكّنت وفاة الحاكم مخاوف عزيز الدولة، خصوصاً وأن من ورث الخلافة من بعده كان غضاً بعد، وهو الظاهر لإعزاز دين الله . ثم لم يلبث أن جاءته من القاهرة تطمينات أخرى تمثلت في خُلَعٍ وخيل ورسائل ودية بعثت بها ست الملك أخت الحاكم وعمة الظاهر. لم تكن تلك الهدايا من ست الحكم غير وسيلة ذكية لتخدير عزيز الدولة، تمهيداً لتوجيه ضربة قاتلة لمن تجرأ على تحدي الخلافة في القاهرة وتمرد عليها. تكشف لنا المراجع التاريخية، مثل، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي و"زبدة الحلب في تاريخ حلب" لابن العديم عن الخطة المحكمة التي رسمت خطوطها العريضة ست الملك، وكتب تفاصيلها أحد غلمان عزيز الدولة المقربين منه واسمه بدر أبو النجم. وقد أورد ابن تغري في كتابه المذكور تفصيلاً بوقائع عملية اغتيال عزيز الدولة، حيث ذكر أن ست الملك أغوت بدر بالآمال وأجزلت عليه من الوعود حتى عزم على قتل عزيز الدولة. وكان لعزيز الدولة فتى هندي يهواه قلبه ويقربه إليه. فجاءه بدر وكذب عليه، وقال له إن عزيز الدولة قد ملّه وصمّم على قتله، فخاف الغلام الهندي على نفسه، وامتلأ قلبه حقداً على سيده عزيز الدولة. فسأل الغلام عن الرأي والتدبير، فأشار عليه بقتل عزيز الدولة، فأجابه الفتى لذلك. فلمّا أقبل الليل، جلس عزيز الدولة يشرب حتى ثقل رأسه، فذهب إلى سريره. فلمّا غطّ في نومه، دخل الغلام الهندي في الفراش، وبدر ينظر إليه

وهو واقف خارج المجلس، ثم هوى بسيفه على عزيز الدولة فقتله وقطع رأسه. هنا صاح بدر بالحرس، فجاءوا حاملين سيوفهم، فأشار إلى الغلام الهندي، فقتلوه في التو واللحظة. وعندما تناهى الخبر لست الملك، برّت لبدر بوعودها، فبعثت له بالخلع، ووهبت له جميع ما خلفه مولاه، وقلدته موضعه.

هذه القصة أوردها ابن العديم في "زبدة الحلب في تاريخ الحلب" مع وجود بعض الفوارق الطفيفة والتي لا تأثير لها على سياق القصة. لدي هنا ملاحظتان فقط على قصة اغتيال عزيز الدولة إلا أنهما إجمالاً لا تأثير لهما على الإطار العام للواقعة. الأولى، كيف علم المؤرخون بالتفاصيل السرية التي نسجت منها المؤامرة؟! هل أفشى بدر أبو النجم بعدما وفت له ست الملك بوعودها بما دار بينه وبين ست الملك وما دار كذلك بينه وبين الغلام الهندي؟ في اعتقادي الخاص، أن المؤرخين قد وضعوا من عندياتهم حيثيات للقصة حتى تنسجم مع النتائج النهائية. الثانية، كيف قدر لغلام موصوف بالرقة والنعومة أن يملك الجرأة والقوة على ضرب سيد حلب بالسيف وقطع رأسه بكل يسر وبساطة؟! أيّاً كانت تلك الملاحظات، فهي برأيي لا تسلب الرواية معقوليتها، ولا تجردها من احتمالية وقوعها.

محمد الثالث بن عبد الرحمن الأموي

ذكرنا في صفحات سابقة أن حبل بني أمية في الأندلس قد اضطرب، وأن زمام الحكم قد انفلت من أيديهم منذ وفاة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر والملقب بالمستنصر. لقد تعاقب تسعة خلفاء من بعده فكانوا غاية في الضعف والهوان. كانت الخلافة بالنسبة إليهم جسراً قصيراً يعبرون من فوقه نحو الموت، وكانت توضع في يد أحدهم في أي وقت، وتنتزع من يده في أي وقت. الغالبية منهم خُلِعوا عن كراسيهم وقُتِلوا شر قتلة. صارت الخلافة في تلك الفترة المضطربة من تاريخ المسلمين بالأندلس خرقة بالية لا قيمة لها، وحكماً بالموت لمن يُختار لها.

وذكرنا من قبل كذلك أنه على أيام الخليفة القاسم بن حمود الحمودي، مالت قلوب أهل قرطبة نحو تمليك البلاد لبني أمية بعد أن استبد بنو حمود بالخلافة، فطردوا الخليفة آنذاك القاسم بن حمود الحمودي ومن معه من البربر والسودان خارج أسوار قرطبة. وبعد أن انسحب القاسم مهزوماً، تفكّر أهل قرطبة فيمن يبايعونه خليفة من بني أمية. فاتفق أهل المدينة على اختيار عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر خليفة عليهم، وكان له من العمر حينها اثنتان وعشرون سنة، فجاءوا به ولقبوه بالمستظهر بالله. وصفه المراكشي في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" بأنه كان غاية في الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس. ولسوء الحظ فإن خلافة المستظهر كانت قصيرة الأمد كعمر أزهار الصحارى فلم تستمر لأكثر من شهرين ونصف. انتهت خلافة

المستظهر مقتولاً على يد ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر الذي خرج عليه في طائفة من أرذال العوام.

اغتصب محمد بن عبد الرحمن - والمكنى بأبي عبد الرحمن - الخلافة من ابن عمه، وكان قد بلغ من العمر حينما جلس على كرسي الخلافة ثمانية وأربعين عاماً، وحمل لقب المستكفي بالله. وكعادة الخلفاء في ذاك الوقت، فإن خلافته لم تتجاوز سوى ستة أشهر، حيث ملّه أهل قرطبة، وطردوه منها. وما من أحد من المؤرخين تحدث عن المستكفي بالله هذا إلا ونعته بأحط الصفات. فالمراكشي في كتابه المذكور يصفه بأنه كان غاية في السخف وركاكة العقل وسوء التدبير. وقال عنه ابن الأثير كذلك في "الكامل في التاريخ" إن همه كان لا يعدو فرجه وبطنه، وليس له هم ولا فكر في سواهما.

ومن العجيب أن الأديبة والشاعرة الشهيرة ولادة هي ابنة الخليفة المستكفي بالله. وإذا كان والدها قد وُصف بالتخلف والجهل، فإنها قد وُصفت بالفصاحة والشعر الفخيم والجمال البديع. وكان لولادة مجلس مشهود في قرطبة يؤمه الأعيان والشعراء. وقد اشتهرت ولادة بعلاقاتها مع الوزيرين ابن زيدون وأبي عامر ابن عبدوس، وقد أثمرت تلك العلاقات عن قصائد غاية في الجمال والإبداع.

وبالعودة إلى المستكفي، فإن أهل قرطبة عندما كرهوا خلافته، عمدوا إلى وزيره وكان في الأصل حائكاً فقتلوه، ثم حاصروا المستكفي، فلمّا أشرف على الموت أخرجوه من المدينة. خرج المستكفي من قرطبة لا يلوي على شيء ومعه قائد جيشه الذي كره المضي معه. وعندما نزل المستكفي قرية تدعى شمنت، طلب الغداء، فجاءه القائد بدجاجة، ودهنها بعصارة نبتة يقال لها البيش. فلمّا أكلها المستكفي سرى السم في جسده، فمات في مكانه. فقام هذا القائد بغسله وتكفينه والصلاة عليه، ثم دفنه في موضعه.

وبموت المستكفي، عادت الخلافة لتهرول من جديد إلى يحيى بن علي بن حمود والذي سبق له أن حكم قرطبة زمناً قبل أن يفرّ منها تحت جنح الظلام،

مثلما سيجيء معنا في حديثنا عن القاسم بن حمود الحمودي. غير أن خلافة يحيى لم تستمر هي الأخرى طويلاً فقد خلعه أهل قرطبة، وبايعوا الأموي المعتمد على الله هشام بن محمد، فحكم خمسة أعوام، ثم خلعوه من منصبه. وبخلع المعتمد، انطوت آخر صفحة من صفحات خلافة بني أمية في الأندلس بعد أن حكموا البلاد ما يقرب من ثلاثمائة عام.

القاسم بن حمود الحمودي

ورد معنا أن عليّاً بن يحيى الحمودي، أول ملوك بني هاشم في الأندلس والملقب بالناصر، قد كمن له ثلاثة من خدمه الصقالبة فقتلوه في الحمام، وذلك بعد أن أمضى ما يقرب من عام ونصف العام خليفة على الأندلس. انقسمت أهواء البربر في قرطبة بعد مصرعه ما بين راغب في القاسم، الأخ الأكبر لعلي والوالي على إشبيلية، وما بين راغب في يحيى، الابن الأكبر لعلي والوالي على سبتة. وقع الاختيار على القاسم لقربه من قرطبة أولاً، ولكونه هو الأخ الأكبر للمغدور علي ثانياً. لم يبتهج القاسم بخبر توليته مكان أخيه. خشي أن يكون في الأمر خدعة من أخيه، فمكث في مكانه بعض الوقت حتى تبين له صدق الخبر. قدم القاسم إلى قرطبة، فسار فيها أولاً كما يحب الناس منه، لكنه أحس بفتور هوى البربر وبميلهم إلى ابن أخيه يحيى المتلهف لانتزاع المُلك من عمه. ولكي يحصّن نفسه من خطر انقلاب البربر عليه، تفانى القاسم في اقتناء العبيد والسودان، فازدادت الوحشة بينه وبين البربر.

وبعد حوالى عامين من حكم البلاد، بدأت أفئدة الناس في كل أرجاء الأندلس تلتف حول رجل من بني أمية ويدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ولقبه المرتضى. وجدت الدعوة للمرتضى أصداء واسعة ربما لأن القلوب كانت لاتزال تنبض بشيء من الحنين لعهد بني أمية، وربما لأنّ المرتضى كان يجسد تطلعات العرب نحو الفوز بالسيادة التي صارت في يد البربر، وربما لأنّ الوقوف وراءه كان تعبيراً مستتراً عن رفض غالبية المجتمع الأندلسي ذي الميول السنية لحكم دولة بني حمود العلوية. كان من شبه المؤكد

أن ينجح المرتضى في إسقاط دولة بني حمود، وأن يجلس على كرسي الخلافة الذي لطالما جلس عليه أجداده مئات السنين، لولا خيانة بعض ملوك الطوائف له لخوفهم من أن ينقلب عليهم فيما بعد. وبزوال خطر المرتضى الداهم وذهاب ريحه، آن للقاسم أن يلتقط أنفاسه الحبيسة، وأن تهدأ نفسه، ويرتاح باله.

وبمرور الوقت، بدأ ابن أخيه يحيى في مكاتبة زعماء البربر، يحرضهم ضد عمه، ويستميلهم إلى صفه، ويضيء لياليهم بوعود جمّة. ولمّا اجتمعت له البربر، سار من مالقه بجيش ينوي به منازعة عمه القاسم في قرطبة. أدرك القاسم أن لا طاقة له على الصمود في وجه يحيى وجموعه، فأخلى له قرطبة، وعاد إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصّه. دخل يحيى قرطبة المشرعة أبوابها بلا قتال، فدخلت في طاعته البربر والسودان. لم يقنع البربر بالفتات الذي رماه لهم يحيى منذ مجيئه، فاشتطوا عليه وتمادوا في عصيانهم له حتى خاف على نفسه منهم أن يقتلوه. وفي إحدى الليالي، فرّ يحيى ببعض رجاله إلى مالقة كما فعل عمه قبل عام ونصف.

بلغ القاسم ما جرى من ابن أخيه وهروبه إلى مالقة، فترك إشبيلية إلى قرطبة من جديد. هذه المرة لم تمض الأمور كما اشتهى القاسم. كانت قرطبة منقسمة بحدة إلى ثلاث طوائف. فطائفة البربر كانت لاتزال تهوى يحيى على الرغم من نقمتها عليه، والسودان تهوى القاسم الذي جلبها وأكرمها، وجماعة عرب قرطبة تهوى رجلاً مستوراً من بني أمية لا يعرف أحد له اسم. لم يعد صدر قرطبة المتعب يتسع لما فيها من البربر والسودان فلفظتهم إلى خارج أسوارها. اجتمعت طائفتا البربر والسودان حول القاسم، فدارت معارك حامية بينه وبين أهل قرطبة ولمدة خمسين يوماً حتى انكسرت شوكة القاسم. وبعد أن يأس من استرجاع قرطبة، عاد القاسم إلى إشبيلية وكان ابنه والياً عليها. وقبل أن يصل إليها، قام قاضيها محمد بن عباد، وهو جد المعتمد بن عباد، بالإيحاء لكبير البربر واسمه محمد بن زيري أن يتملك المدينة، وأن يمتنع عن فتح بابها في وجه القاسم. وكأن الأقدار قد حكمت على القاسم أن يبقى طريداً تسد المدن أبوابها في وجهه. حاول القاسم بلا طائل أن يقتحم المدينة، وابنه في

الداخل مغلول اليد لا يملك من الأمر شيئاً. فلمّا تملكه اليأس، عرض على حاكمها أن يخرج له ابنه ويرحل بعيداً عنها.

سار القاسم وابنه وما بقي معه من السودان إلى بلدة يقال لها شريش واستقر بها. إلا أن ابن أخيه يحيى لم يتركه في حاله، فتوجه إليه بجمع غفير من البربر، فدارت معارك صعبة، وقتل من الطريفين خلق كثير، وانتهت الحرب بهزيمة أخرى للقاسم. هذه المرة خسر القاسم الحرب وخسر معها حريته حيث وقع هو وابنه في يد يحيى، فسجنهما في أحد حصون مالقة. وكان يحيى قد حلف إن هو أمسك بعمه ليقتلنه، لكن رجاله نصحوه ألا يفعل. وكان يحيى كلما سكر حدثته نفسه بقتل عمه، لكن رجاله في كل مرة يرغبونه في الإبقاء عليه. وبعد ثلاث عشرة سنة من حبسه، تناهت إلى مسامع يحيى أن عمه قد تحدث مع أهل الحصن على القيام بالعصيان، فانتفض يحيى من كرسيه، وقال في غضب: "أوبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟". فأمر رجاله بقتله، فدخلوا عليه وهو في سجنه، فخنقوه حتى الموت، وكان عمره ثمانية وسبعين عاماً.

أبو سعد التستري

لعلها المصادفة وحدها هي من حملت أبا سعد بن إبراهيم بن سهل التستري إلى المجد، ولعلها هي المصادفة كذلك من حملته فيما بعد إلى اللحد. كان أبو سعد يهودياً يحترف التجارة، وقد نمت تجارته وكبرت لدرجة أنه صار يتردد على قصور الأمراء ويتقرّب من الخلفاء الفواطم. وذات يوم، اشترى منه الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أمة سوداء، فتسرّى بها، وأنجبت منه ولده المستنصر بالله والذي تولى الخلافة لاحقاً، فحكم مصر مدة ستين عاماً!

وبعد أن توفي الظاهر، آلت الخلافة إلى المستنصر بالله وكان له من العمر سبع سنين، فقبضت والدته على الحكم، وأصبحت هي من تدير دفة البلاد من وراء الستار. لم تنس والدة المستنصر فضل التستري عليها، فلولاه لما صارت زوجة خليفة وأم خليفة. حفظت أم المستنصر الجميل، فقرّبت أبا سعد التستري، وفوضت إليه أمر ديوانها. وبعد وفاة وزير الظاهر والمستنصر والمعروف بابن الجرجرائي، عظم شأن التستري، وارتفعت منزلته، وانبسطت كلمته. أثار نجاح التستري وصعود نجمه حسد الحاسدين. ولعل أكثرهم حقداً عليه كان هو وزير المستنصر الجديد صدقة بن يوسف الفلاحي. كان الفلاحي، وهو يهودي ثم أسلم، يشعر بمرارة شديدة لأنه لم يكن له من الوزارة إلا الاسم وبعض التنفيذ، وذلك لاستبداد التستري بالسلطة، ولانفراده بالتدبير.

لم يكن من حل للفلاحي في التخلص من هيمنة التستري والتحرر من قبضته سوى أن يزيحه عن الطريق، ولكن أنّى له أن يفعل ذلك وهو لا يملك من الأمر شيئاً. وتشاء الأقدار أن يشعل بنو قرة، وهم عرب البحيرة، ثورة،

فيخرج إليهم عزيز الدولة ريحان كبير الأتراك، فيظفر بهم ويقتل منهم، ومن ثم يعود إلى القاهرة تزينه أكاليل المجد وتطوقه قصائد المدح. ثقل انتصار عزيز الدولة وجماعته من الأتراك على التستري، فقرّب إليه المغاربة، وزاد من أعطياتهم، وأنقص من أعطيات الأتراك، مما جعلهم يحقدون عليه. وبعدها بزمن قصير، أصيب عزيز الدولة بمرض أدى إلى وفاته. أدت الوفاة المفاجئة لعزيز الدولة إلى تفجير غضب الأتراك واتهامهم للتستري بدس السم إلى صاحبهم. وقيل إن الفلاحي هو من أشاع بين الأتراك أن التستري هو من وضع لعزيز الدولة السم ليوغر صدورهم عليه.

وفي أحد الأيام، خرج التستري في موكبه متجهاً إلى القصر. وبينما هو في الطريق، اعترضه ثلاثة غلمان من الأتراك فقتلوه. ولمّا نما الخبر إلى الخليفة المستنصر بالله أمر بجلب القتلة، فتجمع الأتراك كلهم حول قصره، وقالوا له في صوت واحد: "نحن من قتلناه"، فسكت عنهم المستنصر. لم يكتف الأتراك بقتل التستري، بل قاموا بنهش لحمه وتقطيعه وحرقه في مشهد بربري لا نظير له، وما بقي من لحمه وعظمه جمعه أهل التستري بعد أن دفعوا للأتراك بعض المال. وضُعت بقايا التستري في تابوت ونشرت فوقه قطعة من قماش، وأشعلت حول التابوت الشموع. وعلى ما يبدو فقد أمسك نار إحدى الشموع بذيل ستائر البيت، فاحترقت واحترق التابوت بما فيه. ويقال إن التستري قد أنعم على بني جنسه من اليهود في مصر، فعاشوا في ظلاله أجمل أيامهم وأمتع أزمانهم، حتى قال في ذلك أحد الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إني قد نصحت لكم
تهوّدوا فقد تهوّد الفلك

وقد أدى مقتل التستري إلى إصابة أم المستنصر بحزن شديد على فقدانه.

ولمّا تحققت من أن صدقة الفلاحي هو من أغوى الأتراك بقتل التستري، بدأت في تحريض ابنها المستنصر عليه، فما زالت به حتى أصدر أمراً بالقبض عليه وسجنه في خزانة البنود. وبقي الفلاحي مسجوناً إلى أن أمرت أم المستنصر بعض رجالها، فدخلوا عليه وقتلوه. لم يخمد دم الفلاحي النار المستعرة في صدرها، فطفقت تستكثر من شراء العبيد من بني جلدتها ليكونوا عوناً لها وسيفاً لها على جماعة الأتراك. فلمّا اجتمع تحت أمرها ما يزيد عن خمسين ألف أسود، بدأت في استدراج وزراء المستنصر من أجل إشعال فتيل الفتنة بين العبيد والأتراك. رفض الوزراء إجابة طلبها لما في هذا من تدمير للبلاد وإغراقها في مستنقع الفوضى وبحور الدم. لم تستلم أم المستنصر، فاستمرت تغري الوزير تلو الوزير حتى أجابها أحدهم، فاندلعت الفتنة ووقعت الواقعة. وبالرغم من التفوق العددي للسود إلا أن الأتراك نجحوا في تفريق صفوفهم وتشتيت جموعهم حتى فرّوا إلى الصعيد. أتت الرياح بما لا تشتهي أم المستنصر، فقد تدهورت الأحوال، وسقطت البلاد في يد الأتراك، فلا هي ثأرت لمقتل التستري منهم، ولا هي صانت الملك من تسلطهم وتدخلهم!

محمد بن نوح الدمري

أدى انهيار السلطة المركزية الممثلة بدولة بني عامر ومن قبلها دولة بني أمية إلى تمزيق الأندلس وتفتيت وحدتها. فمنذ مطلع القرن الخامس الهجري، تحولت بلاد الأندلس إلى كيانات متشظية عرفت بممالك الطوائف. كانت العلاقات بينها بين تلك الممالك تظللها السيوف وليس أغصان الزيتون، وكانت العلاقات بينها وبين وقشتالة المسيحية في الشمال يغلب عليها الذل والاستكانة بعد العز والمهابة. فقد قام بنو هود بالاستقلال بشمال شرق الأندلس في سرقسطة، وبنو رزين بشنتمرية، وبنو حمود بقرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء، والعامريون ببلنسية ودانية وجزر البليار، وبنو الأفطس بوسط غرب الأندلس في بطليوس، وبنو عباد بإشبيلية في جنوب الأندلس، وبنو جهور بقرطبة، وبنو ذي النون في وسط الأندلس بطليطلة، وبنو يحيى في جنوب غرب الأندلس في لبلة، وبنو مزين في باجة وشلب غرب الأندلس، وبنو مناد في غرناطة، وبنو برزال في قرمونة جنوب الأندلس، وبنو دمّر في مورور، وبنو خزرون في أركش.

كانت مملكة دَمّر إحدى ممالك الطوائف الصغيرة التي استقلت بمدينة مورور في جنوب الأندلس. لم تحظ تلك المملكة الميكروسكوبية بالشهرة حيث توارت تحت أجنحة ممالك أخرى فاقتها في الحجم والقوة والعمر. كان بنو دَمّر من قبائل زناتة البربرية، وكانوا على المذهب الإباضي الذي ينتشر أتباعه في

شمال أفريقيا وعمان. كان عمر تلك الدويلة قصيراً لا يتجاوز الخمسين عاماً، وتعاقب على حكمها ثلاثة ملوك. وضع عز الدولة نوح بن أبي يزيد مداميك تلك المملكة، وظل متربعاً على عرشها الصغير ما يقرب من ثلاثين عاماً. وبعد وفاته، آل الملك إلى ولده محمد والمكنى بأبي مناد. وصف لسان الدين الخطيب في كتابه "أعمال الأعلام" محمد بن نوح بأنه فتى غِر حديث العهد بالإمارة، جاهل خلو من الفضائل، موصوف بكيس وليانة. إن أوصافاً كهذه ستجعل من مملكة مورور الصغيرة تحت رحمة الآخرين، خصوصاً إذا كان من يجاور محمد بن نوح رجل مثل المعتضد بن عباد ملك أشبيلية. كان المعتضد موصوفاً بالشراسة والصرامة وبقوة القلب وحدة النفس. وكان معاصروه لا يترددون في تشبيهه بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لشدة دهائه وقوة بلائه. لم يكن ملك من هذا الطراز ليكتفي بأشبيلية وحدها، فقد مدّ يده إلى الممالك المجاورة، وزرع في قلوب ملوكها الخوف منه. وكان المعتضد من فرط شراسته أنه زرع في بستان قصره رؤوس أعدائه من الملوك والرؤساء بدلاً من الزهور والأشجار!

لم تكن العلاقات بين المعتضد بالله وجملة من جيرانه من ملوك البربر على ما يرام. يذكر فؤاد السيد في كتابه "معجم المغتالين السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي" أن محمد بن نوح قد بايع المهدي بالله الحمودي (محمد بن القاسم) بالجزيرة الخضراء ممّا أثار حنق المعتضد بالله عليه وتصميمه على الفتك به. بينما يذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه المذكور أن المعتضد بالله طمع في الاستيلاء على الممالك المجاورة له ومنها مملكة مورور. في المرة الأولى جاءهم بالقهر والقوة فلم يفلح، ثم جاءهم باللين واللطف فسقطوا في حبائله. تقول القصة إن المعتضد بالله وجه دعوة إلى ثلاثة من ملوك الطوائف، وكان فيهم محمد نوح، من أجل زيارته في أشبيلية، فأتوه في أحسن زي وأفخم أبهة. فلمّا أقبلوا عليه، بالغ في إكرامهم، ثم أمر بتطييب الحمام لهم

وحملهم إليه عبيده. فلمّا دخلوا الحمام وقعدوا بإزاء حوضه، أمر فبني عليهم خلف دفة الحمام. ولمّا فرغ من البناء، أمر موقد النار بالزيادة والإلحاح في الإحراق، فالتهب الحمام، ولم يجدوا مخرجاً منه، فكان آخر العهد بهم. وبعد أن قضى محمد بن نوح ومن معه في الحمام خنقاً، انتزعت رؤوسهم عن أجسادهم، ثم حُملت إلى البستان لكي تشتل إلى جوار رؤوس من سبقوهم!

نجاح الحبشي

قامت دولة بني زياد في اليمن على أعتاب القرن الهجري الثالث، وعلى يد واليها محمد بن زياد الأموي الذي سيّره الخليفة المأمون العباسي إلى هناك حتى يضبط أمورها. استمرت تلك الدولة التابعة للخلافة العباسية في بغداد تحكم اليمن ولمدة قرنين. وفي أواخر أيامها، آل الحكم إلى صبي صغير من بني زياد، فتولت عمته كفالته حتى يكبر. وكان تحت الصبي ثلاثة رجال من العبيد يتدبرون الدولة، وهم: مرجان، ونفيس، ونجاح الحبشي. وفي أحد الأيام، غدر مرجان ونفيس بالصبي وعمته فقتلاهما شر قتلة. ولمّا علم نجاح بما جرى للصبي وعمته، وكان يجلهما كثيراً، زحف برجاله إلى عاصمة الدولة زبيد، فدارت حرب ضروس انتهت بانتصار نجاح وبمقتل مرجان ونفيس.

استغل نجاح فراغ الساحة اليمنية من وجود منافس له، فأعلن قيام دولة بني نجاح، وضرب السكة باسمه، وكتب إلى الخليفة العباسي القادر بالله معلناً الولاء والطاعة له ، فأقره الخليفة على اليمن، وأجازه بذلك، ونعته بالمؤيد نصير الدين. تعود أصول نجاح إلى بلاد الحبشة، وكانوا عبيداً يخدمون أسيادهم في اليمن. ولمّا انهارت الدولة الزيادية، نصّب نجاح نفسه حاكماً على اليمن، فصار أمثاله من الأرقاء والعبيد هم أهل القمة وسادة الدولة. وخلال فترة حكمه الطويلة والتي بلغت أربعين عاماً، خاض نجاح سلسلة من الحروب مع الصليحيين، وكانوا على المذهب الشيعي الإسماعيلي، فانتصر عليهم في بعضها، وانكسر في بعضها الآخر. وحينما يأس عدوه اللدود علي بن محمد الصليحي من هزيمة نجاح، أهداه جارية جميلة، فقبلها نجاح وعاشت عنده إلى

أن حانت الفرصة لها فدست له السم، ومات في سنة 452 هـ. تمسك المراجع التاريخية عن الإفصاح عن أي معلومات حول الوسيلة التي استخدمتها الجارية في تسميم نجاح. ومهما كان الأمر، فإن قبول نجاح بالهدية كان خطأ قاتلاً، ولكنه من المحتمل أنه لم يقو مقاومة جمال تلك الجارية!

ترك نجاح من بعده خمسة أولاد، وهم: سعيد الأحول، أبو المعارك، جياش، الذخيرة، ومنصور. تولى سعيد الأحول الملك بعد والده، لكن علي الصليحي تمكن من هزيمة سعيد، فهرب هو وبقية أخوته إلى الحبشة، وخلص الأمر في اليمن للصليحيين. رحل سعيد إلى هناك، وحمل بين ضلوعه نار الثأر التي لم تنطفئ يوماً في صدره. ولمّا كبر ونضج، عاد إلى اليمن بعد عشرين عاماً بصحبة إخوته وخمسة آلاف مقاتل من أجل تصفية الحساب القديم وإعادة الملك السليب. وفي غفلة من علي الصليحي المتوجه إلى مكة لأداء الحج، كبس سعيد برجاله مخيم عدوه، فقتله وقتل أخاه وعدداً من الصليحيين، وصادر خزائن أمواله. ومنذ تلك الساعة، ستشتعل الحروب مجدداً في اليمن ما بين الصليحيين وبني نجاح، وستقع بينهما من الأحداث العجيبة ما لا يتسع المقام لذكرها. وستظل شمعة دولة بني نجاح التي أوقدها نجاح الحبشي مشتعلة إلى منتصف القرن السادس الهجري إلى أن أطفأها المهديون وحلوا مكانهم.

ناصر الدولة الحسين ابن حمدان

عندما تناولنا اغتيال أبي سعد التستري على يد جماعة من الأتراك، قلنا إن أم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أصابها حزن بالغ على مقتل وزيرها الأثير، فصمّمت على الثأر له من قاتليه، فعكفت على شراء العبيد والسودان من بني جنسها حتى ضاقت بهم البلاد. وبعد أن اطمأنت على كثرة ما تحت يديها من الرجال، أطلقتهم على الأتراك، فدارت رحى حروب شديدة أثخنت الجراح في البلاد، وأغرقتها في دياجير الظلمة والخراب. لم تنته الحرب كما تمنت أم المستنصر، فقد كانت الغلبة للأتراك والكسرة للسودان. وبهذا خرجت أم المستنصر من تلك الحرب بخفي حنين، فلا هي أشفت غليلها من المرتزقة الأتراك، ولا هي حفظت ثروة البلاد من الهدر والضياع.

كان زعيم الأتراك رجل يقال له ناصر الدولة أبو علي ابن حمدان. عاد من حروبه المظفرة مع العبيد وقد قويت نفسه، وعظم قدره، واشتدت شوكته، وثقلت وطأته، فصار هو صاحب الحل والعقد والأمر والنهي. لم يكتف ناصر الدولة بما يدفعه المستنصر له ولجماعته من الأتراك كل شهر، فطالبه بزيادة المقررات المالية، فلم يجد المستنصر عنده ما يفي بطلباتهم، فهجموا على القصور كالجراد، فنهبوا ما فيها من الهدايا والذخائر والكنوز، والمستنصر يتفرج على ما يجري من دون أن يفعل شيئاً. ولم يعف الأتراك حتى عن نهب المكتبات ودور العلم، فامتدت أيديهم إلى ما في بطونها من نفائس علمية وجواهر فكرية فسرقوها. وهكذا ضاع في غمضة عين حصاد السنين وعصارة الفكر وخلاصة العقل على يد مقاتلين أجلاف. وقد انتهى المآل بآلاف الكتب

إلى أن يكون بعضها مضغة في فم النار، وبعضها أحذية لأقدام الخدم والجواري! ومما زاد الطين بلة كما يقال، أن كف النيل السمراء حبست ماءها سبع سنوات، فجف الضرع، وهلك الزرع، فقلت الأقوات، وغلت الأسعار، وأكل الناس القطط والكلاب، ثم أكلوا الأحياء والأموات. كانت البلاد تحتضر، والجند من أتراك وسودان يتقاتلون على المناصب والأموال. ويقال إن الخليفة المستنصر كما يذكر المقريزي في "إغاثة الأمة بكشف الغمة" كان لا يجد ما يكفي لسد جوعه لولا أن امرأة كانت تبعث إلى داره كل يوم رغيفي خبز!

ولمّا رأى ناصر الدولة ما آل إليه حال المستنصر من ضعف وهزال، بعث بكتاب إلى ألب أرسلان السلجوقي يدعوه فيه إلى الحضور إلى مصر وتسليمها إليه. وبالفعل، فقد خرج ألب أرسلان إلى مصر ماراً ببلاد الشام التي دخلت في طاعته. ولمّا اقترب ألب أرسلان من دمشق، جاءته الأخبار بأن الروم سائرة إلى خراسان، فانشغل بهذه الأخبار، وعاد إلى محاربة الروم، فنجى المستنصر، وتأجل موت الخلافة الفاطمية إلى حين. عرف المستنصر بأن ناصر الدولة هو من زيّن لألب أرسلان الحضور إلى مصر، فاستعان بجموع من الأتراك الناقمة على ناصر الدين لاستئثاره بالمال دونهم، لكن ناصر الدين استطاع أن يجندلهم، فكثرت أمواله، وكبرت نفسه، واستأسد على المستنصر، واستخف به وبمن معه، وقطع الميرة عن القاهرة، فزاد البلاء، وعمت المجاعة، وتساقط الناس أمواتاً.

وعنما بلغت الأمور حداً لا يطاق، تصالح الأتراك من أعوان المستنصر مع ناصر الدولة، فدخلت الأقوات القاهرة، وعادت الحياة إلى أهلها. وبعد زمن قصير، دبّ الخلاف بين ناصر الدولة ابن حمدان وتاج الملوك شادي نائبه على القاهرة لأن الأخير ضنّ بالأموال على ناصر الدولة، فسار هذا الأخير إلى القاهرة فهزم حاميتها، ودخل المدينة وبسط يده عليها. وبعدها قطع الخطبة للمستنصر، وكتب إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يسأله أن يبعث إليه بالخلع والألوية السوداء. وبعث إلى المستنصر يطلبه مزيداً من الأموال، فدخل

رسوله على المستنصر وهو جالس على حصير وحوله ثلاثة من الخدم، فقال له المستنصر: "أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذه الحال؟"، فبكى الرسول وعاد إلى ناصر الدولة ليخبره بما شاهد ورأى، فرق له ناصر الدولة، وأطلق له في كل شهر مائة دينار!

عاث ناصر الدولة في البلاد فساداً، واستبد في الأمر كله، وبالغ في الاستهانة بالخليفة، وسخر من مذهبه، وأمسك بحاشية الخليفة، وقبض على والدة المستنصر، فعاقبها وصادر أموالها، وتفرق عن المستنصر جميع أهله وحاشيته، وبقي الخليفة ظلاً شاحباً وبائساً وفقيراً. ولمّا رأى رجال الدولة وكبار الأتراك أن ناصر الدولة قد بدأ في محو الآثار الفاطمية وإزالة معالمها، خافوا على مواقعهم فيما لو دخلت مصر في الفلك العباسي. فتشاور أمير منهم يقال له ألدكز مع أمير آخر يقال له يلدكوش فيما يجهز له ناصر الدولة، فاتفقا على سرعة التخلص منه قبل أن يقدم البلاد على طبق من ذهب إلى الخليفة العباسي. أمّا ناصر الدولة فقد استطال العافية، وظن أنه مخلد فيها، وأن أعداءه قد تلاشوا. فبينما هو كذلك في صحن داره ذات مساء، هجمت جماعة من الأتراك عليه، فتبادروه بسيوفهم، وحزّوا رأسه، ثم كبسوا دور بني حمدان، فأشاعوا القتل والنحر فيهم حتى استأصلوا شأفتهم من مصر كلها.

تغيرت الأسماء، وتبدلت الوجوه، وملامح الاستبداد والتسلط لا تتغير ولا تتبدل. الخليفة المستنصر ما هو إلا ألعوبة تنتقل من يد ناصر الدولة إلى يد ألدكز، فذاك كان يعصره من أجل المال، وهذا يعصره من أجل المال. لم يطل المقام بألدكز كثيراً، فقد أرسل الخليفة في طلب بدر الجمالي الأرمني من الشام، فجاء إلى مصر ليعيد ترتيب الأمور، وليصلح الأحوال، وليخمد الفتن. وما هي إلا مدة وجيزة حتى تمكن الجمالي من استئصال الوجود التركي ليستبدله بالوجود الأرمني، وبهذا استبدل المستنصر جلاده التركي بجلاد أرمني!

نظام الملك

اسمه الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، ولقبه نظام الملك قوام الدين، وكنيته أبو علي. ولعلنا لا نجافي الحقيقة عندما نصفه بأنه واحد من أعظم وأشهر الوزراء في تاريخ الإسلام لسعة علمه، وطيب خلقه، وعلو همته، وعمق تدينه، وحسن إدارته، وحنكة سياسته. ولا يذكر اسم نظام الملك إلا ويذكر معه المدارس (النظاميات) التي أنشأها في بغداد وطوس واصبهان ونيسابور وغيرها من مدن. وقد تتلمذ نظام الملك على يد شيخ الأشاعرة الغزالي، ولعل هذا ما يفسر شدة حنوه وكثير عطفه على الصوفية طيلة حياته. وتحظى شخصية نظام الملك بحفاوة وتقدير لدى السلفيين لتشدده تجاه القوى والطوائف الإسلامية الأخرى ولا سيما الشيعة الإسماعيلية، ولا شك أن نظام الملك قد ورث هذه الكراهية والنفور من الطائفة الإسماعيلية من شيخه الغزالي والمعروف بعدائه التام لها.

ولقد صاحب نظام الملك ربيع دولة السلاجقة وشبابها، فكان وزيراً للسلطان ألب أرسلان عشر سنين، ووزيراً لولده ملكشاه عشرين سنة. ولا نشاحح في القول إن لنظام الملك ولسياساته الحكيمة دوراً في كتابة ربيع دولة السلاجقة والحفاظ على شبابها وألقها. ويعزى لنظام الملك الفضل في اختيار أفضل الكفاءات من القواد والأمراء، وترشيحها لملكشاه للاستفادة من مواهبها في مواقع متقدمة من أمثال آق سنقر البرسقي وآق سنقر زنكي واللذين سطّرا صفحات مشرقة في مقاومة الوجود الصليبي في المنطقة.

في العاشر من رمضان سنة 485هـ، وبعد أن تفرّق الأمراء والفقهاء

والفقراء عن سماط نظام الملك العامر، أمر غلمانه أن يحملوه في محفة لنقرس كان به إلى مضارب حريمه. وفي طريقه إلى الخيام، أقبل صبي ديلمي في هيئة المتصوفين يستغيث به، فقرّبه نظام الملك ليسمع شكواه، فأخرج الصبي سكيناً وغرسها في فؤاد الوزير. لحق الرجال بالصبي، فتعثر في طنب خيمة وسقط، فتداركوه بسيوفهم فقتلوه. أمّا نظام الملك فلم يحتمل جسده المتعب جرحه القاتل، فمات ليلتها عن سبعة وسبعين عاماً، قضى ثلاثين منها وزيراً. لم يختلف المؤرخون حول الكيفية التي جرت بها عملية الاغتيال، لكنهم اختلفوا حول من دسّ هذ الصبي ليقتل الوزير. ويمكننا بعد الاطلاع على المراجع التاريخية أن نخرج بأربعة احتمالات ممكنة سنتناولها في السطور التالية.

الرواية الأولى جاءت في "الاغتيال السياسي في الإسلام" لهادي العلوي نقلاً عن ابن الأثير وتقول إن جماعة من الباطنية قتلوا مؤذناً من أهل اصبهان كانوا قد عرضوا عليه الدعوة الإسماعيلية فلم يستجب لهم فخافوا أن ينمّ عليهم بعد أن كان قد عرفهم. وكان من قتل المؤذن نجار باطني، فأمر به نظام الملك، فقتل تحت طائلة العذاب، فقتلت الإسماعيلية نظام الملك ثأراً للنجار، وقالوا: "قتل نجاراً فقتلناه به".

الرواية الثانية تشير بأصابع الاتهام إلى الحسن بن الصباح زعيم الإسماعيلية في المشرق وسيد قلعة آلموت بناحية قزوين وذلك بسبب معاداة الوزير نظام الملك لجماعة الإسماعيلية واستعداده لتسيير الجيوش من أجل تحطيم قلاعهم.

الرواية الثالثة ونجدها في "وفيات الأعيان" لابن خلكان، إذ تقول إن هناك شكوكاً تحوم حول قيام أحد كبار أعوان السلطان السلجوقي ملكشاه وهو تاج الملك أبي الغنائم المرزبان والمعروف بابن دارست بدس الصبي على نظام الملك وذلك لوجود عداوة مستحكمة بين الاثنين. ويقال إن السلطان ملكشاه قد خلع عليه لقب الوزارة بعد مقتل نظام الملك مباشرة، لكن ابن دارست لم يهنأ بمنصبه غير أربعة أشهر حيث وثب عليه غلمان نظام الملك فقتلوه وقطعوه إرباً إرباً.

أما الرواية الرابعة فتتهم السلطان ملكشاه بقتل وزيره وذلك بسبب تململه

من استبداد الوزير بالملك ولمدة عشرين عاماً حتى لم يبق له غير التخت والصيد. ويشير السبكي في "طبقات الشافعية" إلى أن ملكشاه لم يكن يرغب في خليفة بغداد، ولكن الوزير كان في كل مرة يذب عن الخليفة والخلافة إجلالاً منه لمنزلة الخليفة واحتراماً منه لمكانة الخلافة. وفي إحدى المرات كانت هناك وحشة بين السلطان ملكشاه والخليفة المقتدي، فأشار نظام الملك على الخليفة أن يخطب ابنة السلطان حتى ينسج حبال الود بينه وبين السلطان، فتزوجها الخليفة، واستمرت معه مدة عامين، ثم فارقته غاضبة إلى والدها، فلم تلبث إلا أن ماتت في العام نفسه، فزاد هذا من حقد السلطان وعزمه على الإطاحة بالخليفة، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ونظام الملك يقف في طريقه. وقيل كذلك إن ملكشاه قد سئم استيلاء أبناء نظام الملك على الممالك، فبعث بكتاب إلى وزيره يقول فيه معاتباً: "إن كنت شريكي في الملك فذلك حكم وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على إقليم كبير ولم يكفهم حتى تجاوزوا أمر السياسة...".

في ضوء المعطيات المتوافرة لنا، أجد أنه من الصعوبة بمكان تغليب رواية على أخرى، خصوصاً وأن الروايات كافة تملك من المبررات المعقولة ما يؤهلها لتفسير عملية الاغتيال. وشخصياً، أجد نفسي أكثر ميلاً إلى الروايتين الثانية والرابعة. إن اغتيال شخصية بقامة نظام الملك تستدعي تدبيراً وتخطيطاً من أسماء وشخصيات كبيرة من أمثال السلطان ملكشاه والحسن بن الصباح. أضف إلى ذلك أن كلا الشخصيتين ستكونان الأكثر سعادة فيما لو خلت الساحة من نظام الملك. فابن الصباح سيتحرر من عبء ثقيل لطالما كان عقبة في طريق الطائفة الإسماعيلية ومصدر تهديد لقلاع الإسماعيلية، وملكشاه سيتذوق ولأول مرة بعد عشرين عاماً طعم الملك الحقيقي دون وصاية من أحد، ولكن لسوء حظ ملكشاه فإنه لم يعش أكثر من شهر وخمسة أيام!

ألب أرسلان بن رضوان بن تتش

تنازل ملكشاه بن ألب أرسلان عن بلاد الشام التي فتحت في عهده لاخيه تاج الدولة تتش. وبعد أن توفي ملكشاه، اعتلى ابنه بركياروق الحكم، فسار عمه تتش في حشد كبير من أجل انتزاع السلطنة من ابن أخيه. وبالرغم من التفوق العددي لتتش إلا أنه انكسر أمام بركياروق بالقرب من الري، وانتهى به الحال مقتولاً. وبتلك الهزيمة انحسرت مملكة تتش، وانطوت صفحتها، ولم يعد يبقَ منها سوى دمشق وحلب. استقل دقماق بن تتش بدمشق فيما استقل أخوه رضوان بن تتش بحلب. وقد حارب رضوان أخاه من أجل الاستيلاء على دمشق إلا أنه لم يقو على كسر عناد أسوار دمشق المنيعة، فانصرف إلى حلب خائباً.

حكم رضوان حلب ما يربو على عشرة أعوام، ثم مات من دون أن يأسف عليه أهل حلب لما ذاقوه منه خلال سنوات حكمه. وكان رضوان على حياته قد فتك بأخويه وهما أبو طالب وبهرام خوفاً من أن ينهباه حكمه. فلمّا مات رضوان تولّى ابنه الأخرس ألب أرسلان الملك من بعده وكان له من العمر ست عشرة سنة. ولم يكن ألب أرسلان أخرسَ بالحقيقة، وإنما كان في لسانه تمتمة. وبالرغم من صغر سنه، فقد وصفه ابن العديم في "بغية الطلب في تاريخ حلب" بأنه كان متهوراً، ميالاً لسفك الدماء، وغارقاً في المعاصي. ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل أريب أن ألب أرسلان عمد إلى قتل أخويه ملكشاه وميريجا كما فعل والده رضوان حينما قتل أخويه أبا طالب وبهرام! وينقل ابن العديم شهادة عن رجل أنه سمع أن ألب أرسلان نصب في يوم خيمة قرب إحدى العيون، ثم جاء بأربعين جارية فوطئهن كلهن في ذاك اليوم! وبظني

أننا لو سلمنا بصحة تلك القصة فإننا يجب أن نقف أمام هذا الرقم الخرافي في شك وارتياب. وينقل ابن العديم شهادة عن والده يقول فيها إن ألب أرسلان جمع عدداً من الأمراء والأجناد، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينتظروه، فلما اجتمعوا كلهم، قال لهم: "ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم هاهنا"، فتضرعوا إليه، وأيقنوا بالقتل، وقالوا: "يا مولانا نحن مماليكك وبحكمك"، وخضعوا له حتى أخرجهم، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه، فأجمعوا على قتله.

وقبل أن يموت رضوان، عهد لخادم أبيض يسمى بدر الدين لؤلؤ بمؤازرة ابنه على تدبير أمر المملكة إلى أن يشتد عوده ويقوى عظمه. وعلى ما يبدو فإن كلاً منهما كان يريد أن يستبد بالأمر دون الآخر، فتواطأ بدر الدين لؤلؤ مع عدد من غلمان الملك فقتلوه في قلعة حلب بعد أن ملك البلاد مدة عام. وبعد مقتل ألب أرسلان، نصّب بدر الدين لؤلؤ ابن الستة أعوام سلطان شاه بن رضوان ملكاً على حلب. ونظراً لصغر سن الملك فقد زاد بدر الدين لؤلؤ من تسلطه واستبداده ونهبه لأموال المملكة. وبعدها بعام، خرج بدر الدين لؤلؤ في جماعة من غلمانه الأتراك إلى إحدى القلاع. وفيما هو في الطريق، نزل بدر الدين ليريق الماء، فقصدته جماعة من الأتراك صائحين: "أرنب أرنب!" متظاهرين أنهم يطاردون أرنباً، فرموه بالنشاب، فسقط صريعاً، ثم نهبوا ما في خزنته، فخرج إليهم أهل حلب فاستعادوا ما سرقوه.

يحيى بن تميم بن المعز باديس

قبل أن يغادر المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفواطم، بلاد المغرب قاصداً مصر التي فتحت له أبوابها بعد طول انتظار، تساءل: لمن سيترك على بلاد المغرب؟ بحث عن رجل تجتمع فيه صفات الكفاءة والإخلاص والهمة، فلم يجد أفضل من بلكين بن زيري بن مناد، أمير قبيلة صنهاجة البربرية. ورث بلكين عن والده زيري الصلابة والجرأة والإخلاص. لقد حارب والده مع خلفاء الفواطم، فأبلى البلاء الحسن، ورسم بدمه صوراً من التضحية والوفاء إلى أن سقط مقتولاً في ساحة الوغى. جاء المعز الفاطمي ببلكين، فسمّاه يوسف، وكنّاه بأبي الفتوح، وأنابه عنه على المغرب وأطلق يده في الجيش، ثم رحل إلى مصر.

استمر ولاء قبيلة صنهاجة لدولة الفاطميين في مصر زمناً إلى أن جاء المعز باديس، حفيد بلكين يوسف، فخلع ثياب الطاعة، وقطع حبال الوصل الممدودة مع القاهرة الفاطمية، ووجه بوصلة صنهاجة نحو بغداد العباسية. أثارت تصرفات المعز حنق الخليفة الفاطمي المستنصر ووزيره اليازوري. فأشار هذا الأخير على المستنصر بتوجيه القبائل العربية كبني هلال وربيعة ورباح والتي غزت مصر كأسراب الجراد الجائعة إلى المغرب للاستيلاء عليه. اندفعت تلك القبائل كالأعصار الكاسح، فانكسر أمامهم المعز بن باديس، وصارت لهم السيادة على المغرب الذي عاد مجدداً ليدخل بيت الطاعة الفاطمي.

تولّى أبو طاهر الملك بعد وفاة والده تميم في عام 501هـ، وكان عمره وقتها ثلاثة وأربعين عاماً، واستمر في ملكه على صنهاجة إلى عام 509هـ

مضت أيام حكمه هادئة دون أن يكدر صفوها عارض أو يعكر مزاجها حادث. وُصف يحيى في كتب السير والأخبار بحبه للفتوح والجهاد، وبشغفه بالأدب والمطالعة والأشعار، وبحسن التدبير وبالعدل بين الناس. وفي عهده، أحيا أبو طاهر سيرة أجداده الأوائل، فارتدى ثوب الولاء للفواطم الذي مزّقه المعز بن باديس.

بقي أبو طاهر على عرش صنهاجة إلى أن مات بعد ثمانية أعوام من حكمه. ولدينا روايتان حول وفاته، لا تلتقيان في شيء إلا في يوم وفاته، والذي كان في أول أيام عيد الأضحى من عام 509هـ. الرواية الأولى، نجدها عند ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" وعند ابن خلكان في "وفيات الأعيان". فابن الأثير يزعم أنه توفي فجأة في صباح يوم عيد الأضحى. فبعد أن انقضت الصلاة، حضر الناس للسلام عليه، وقرأ القراء، وأنشد الشعراء، ثم انصرفوا لتناول الطعام، فقام أبو طاهر من باب آخر ليحضر معهم على الطعام، فلم يمش غير ثلاث خطوات حتى وقع ميتاً. هذه الرواية يبدو أن ابن خلكان قد نقلها عن ابن الأثير مع إضافة عبارة أن أبا طاهر أشار وهو يهم بدخول المجلس إلى جارية، فاتكأ عليها، فلم يقطع غير ثلاث خطوات حتى سقط ميتاً.

الرواية الأخرى، نجدها في مصادر أخرى، مثل "الأعلام" للزركلي، و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري. الزركلي يشير في صياغة مختصرة إلى أن أبا طاهر قد قُتل على يد ثلاثة من أخوته الذين سبق له أن نفاهم خارج البلاد. كما أن الزركلي يرجع وفاة أبي طاهر إلى عام 507هـ، وليس 509هـ كما تذهب غالبية المصادر.

أما رواية ابن عذاري فتزودنا بتفاصيل مثيرة لما حدث بين أبي طاهر وأخوته الثلاثة أو الاثنين. يقول ابن عذاري ما نصه: "وفي سنة 509 وصل إلى المهدية رجلان أو ثلاثة ذكروا أنهم طلبة المصامدة عارفين بصناعة الكيمياء، فأبيح لهما بالدخول إلى دار العمل. فلمّا أحكما ما أرادا، استأذنا على السلطان يحيى بن تميم، فقال لهما: أوقفاني على الطرح وحقيقة السرا، فقال: على أن لا يحضر إلا أنت ووزيرك! فحضر هو ووزيره وعبده أبو خموس فصنعا البوط

وألقيا الرصاص وأحميا عليه وجعلا كأنهما يخرجان الإكسير. فأخرجا خنجريهما وقتلا الوزير وأبا خنوس وأكثرا في السلطان الجراحات. فبقى يعاني جراحه حتى مات. وقالا له حين جرحاه: أيها الكلب تعجب نحن أخواك فلان وفلان نفيتنا وبقيت في الملك! وثارت الصيحة إذ ذاك فدخل العبيد فقتلا الرجلين. ومات يحيى يوم العيد الأضحى من سنة 509، وكان الأمير يحيى مدة مريضاً إثر هذه النوبة والغدر".

لسنا هنا بصدد تغليب رواية على أخرى، ولكني أتساءل بصدق عمّا إذا كانت كلا الروايتين مكملتين لبعضهما بعضاً؟ من الملاحظ أن كلا الروايتين تتفقان على أن موت أبي طاهر قد وقع في اليوم الأول من أيام عيد الأضحى. من المحتمل أن يكون ابن الأثير وابن خلكان محقين، فأبو طاهر سقط ميتاً فجأة، ولكن ألا تكون هذه الميتة بسبب تحامله كل ذاك الوقت على جراحاته القاتلة؟ إنهما لم يعودا بروايتهما إلى الوراء، وإلى نقطة البداية التي انطلقت منها روايتا ابن عذاري والزركلي حين احتال أخواه عليه، فأثخناه بالجراح المميتة، فبقي حياً يكابد جراحه ويصارع آلامه إلى أن هزمته صباح العيد.

الأفضل بن بدر الجمالي

هو الأفضل بن بدر الجمالي وكنيته أبو القاسم. اشتهر تاريخياً بلقب الملك الأفضل شاهنشاه. والده هو بدر الجمالي الأرمني الجنس. عمل بدر نائباً للخليفة المستنصر بالله على مدينة عكا، وقيل صور. ولمّا دبّت في مصر الفوضى، وانخرق ناموس المملكة، استدعاه المستنصر بالله من بلاد الشام فركب بدر البحر. وعندما وطئت قدماه أرض مصر، وضع المستنصر في يده مفاتيح البلاد، فقامت بوصوله الحرمة وانصلحت بمجيئه الدولة. وكان لبدر عندما هبط مصر ولد اسمه أحمد وله من العمر ثمانية أعوام. وبمرور الأعوام، كبر الصغير، وتفتقت مواهبه، وارتفعت مرتبته، فصار لا يقل عن والده نباهة وكياسة وحسن تدبير.

وبعد عشرين سنة وتحديداً في عام 487هـ، توفي بدر، ثم ما لبث أن لحقه المستنصر. في تلك الأثناء كان الأفضل أحمد بن بدر هو المتصرف الفعلي في شؤون البلاد والعباد. كان من المفترض أن تؤول الخلافة من بعد المستنصر إلى ولده الأكبر نزار حسب التقاليد والأعراف الإسماعيلية، لكن الأفضل صرف الخلافة عن نزار وجعلها من حظ أصغر أبناء المستنصر واسمه أحمد ليسهل التحكم به. وقيل إن الأفضل أراد أن يحرم نزار من الخلافة لما بينهما في النفس من رواسب قديمة وأحقاد متراكمة. فمن جملة ما يذكر أن نزار شاهد الأفضل ذات يوم يدخل القصر وهو ممتطياً ظهر جواد، فصاح به: "انزل يا أرمني يا نجس!"، فحقدها الأفضل عليه. جاء الأفضل بأحمد، فأجلسه على الكرسي، ولقبه بالمستعلي، ثم بعث إلى أخوة المستنصر لكي يحضروا. فلمّا

دخلوا أمرهم بتقبيل الأرض بين يدي المستعلي فامتنعوا. وقال نزار إن والده قبل موته قد كتب له وبخط يده عهداً بالخلافة، فانطلق على عجل ليحضر الكتاب. ولم يكن وقتها بحوزة نزار كتاب من والده، لكنه احتال على الأفضل ليهرب منه إلى الأسكندرية حيث كان واليها أفتكين في انتظاره. ولمّا طال غياب نزار اضطرب الأفضل وخاف. ولمّا عرف ما كان من نزار وفراره انزعج لذلك انزعاجاً شديداً. سار الأفضل بجيشه إلى الإسكندرية، فدارت بينه وبين نزار وأفتكين وقائع دامت قرابة عام إلى أن تمكن الأفضل من القبض عليهما وقتلهما. لقد أدى حرمان الأفضل لنزار من اعتلاء كرسي الخلافة إلى التسبب في انشطار حاد داخل الكتلة الإسماعيلية لاتزال مفاعيله ممتدة إلى هذا اليوم، فقسمها إلى طائفتين: نزارية ومستعلية.

لم يكن للمستعلي طيلة خلافته التي امتدت إلى سبعة أعوام من حل أو ربط. كان المستعلي مجرد صورة بلا معنى، فهو الخليفة اسماً والأفضل هو الخليفة رسماً. ولمّا قبض المستعلي في عام 495هـ، أحضر الأفضل ابن المستعلي وكان له من العمر حينها خمسة أعوام، فخلع عليه الخلافة، ولقبه بالآمر بأحكام الله. استبدل الأفضل خليفة بخليفة، ولكنه ظل هو المسير لأمور البلاد والمتصرف بشؤونها. كان الآمر بالله أشبه بطائر محبوس في قفص مصنوع من الذهب. مرت عشرون سنة وكأن شيئاً لم يتغير وباق على حاله. كل ما تغير أن الآمر بأحكام الله، وهو الذي لا يملك من الأمر شيئاً، قد صار له من العمر خمس وعشرون سنة، وأن الأفضل قد صار له من العمر سبع وخمسون سنة.

وفي ليلة عيد الفطر سنة 515هـ قُتل الأفضل. وقد وردت قصة اغتياله في المراجع التاريخية مع بعض الاختلافات الطفيفة التي لا تستحق الوقوف عندها. تقول القصة إنه ركب إلى خزانة السلاح بصحبة كثير من الرجالة والخيالة من أجل أن يفرق السلاح على الجند كعادته في الأعياد، فتأذى بالغبار، فأمر بالبعد عنه، وسار برفقة رجلين. وفيما هو يمشي، ظهر له رجلان في سوق الصياقلة، فضرباه بالسكاكين، وجاء ثالث من خلفه فطعنه بسكين في خاصرته. وبعدها

أقبل أصحابه فقتلوا الجناة، ثم حملوا الأفضل إلى داره وفيه رمق من روح، فدخل عليه الخليفة راسماً على محياه ملامح الحزن والصدمة. وقبل أن يطوي الليل عباءته رحلت روح الأفضل إلى السماء.

وإذا كان المؤرخون لم يختلفوا حول كيفية قتله إلا أنهم اختلفوا حول من دسّ له الرجال الثلاثة ليقتلوه. جاء في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان" لليافعي، و"شذرات الذهب" لابن العماد أن هناك روايتين. الأولى، تقول إن النزارية الحشيشية هم من قتلوه لأن الأفضل وبسبب ميوله السنية قد أفسح للعقائد الأخرى حرية الممارسة والمعتقد، وإنه كان يعمل تدريجياً على إضعاف المذهب الشيعي في مصر. والثانية، تقول إن الخليفة الآمر بأحكام الله قد ملّ من طول الحجر عليه ومن تقييد حركته، فاتفق مع أبي عبد الله البطائحي (وزّره الآمر فيما بعد ولقبه بالمأمون) على التخلص من الأفضل. وفي ظني أن الرواية الثانية هي الأصوب. وحجتي في ذلك أن معظم المؤرخين يغلبونها على الرواية الأولى. بالإضافة إلى ذلك، فإن الآمر بأحكام الله ومشايعه هم الأحق من النزارية بأن يغضبوا ويثوروا على ما بدر من الأفضل من استفزاز متعمد للمشاعر الدينية ومن طمس ممنهج للتعابير الفاطمية. والأهم من هذا أن النزارية كانت تبغض الآمر بالله ووالده المستعلي أكثر من كرههم للأفضل لأنهما غير جديرين - حسب التصور النزاري - بتولي الخلافة التي اغتصبت من نزار الوريث الشرعي.

آق سنقر البرسقي

يعني اسم آق سنقر الصقر الأبيض. أمّا البرسقي فهو نسبة إلى أنه كان مولى الأمير برسق غلام أول سلاطين السلاجقة طغرلبك. نشأ آق سنقر كأحد مماليك السلطان طغرلبك، لكنه استطاع بفضل موهبته ومثابرته وإخلاصه أن يتدرج ويترقى من مملوك إلى محارب ومن ثم إلى أمير. وقد كشف آق سنقر في حروبه إلى جانب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ضد خصومه عن أفانين الشجاعة وضروب البطولة مما جعل السلطان يقرّبه ويخصه برعايته واهتمامه. ولقد تآلف المؤرخون على امتداح آق سنقر ووصفه بالتدين، وبكثرة التهجد والصلاة والعبادة، وبصفاء النية، ونقاء السريرة، وباصطناع الخير، وانتهاج العدل. وقد حكى لنا ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" وذلك نقلاً عن والده طرفاً من سيرة آق سنقر، فقال: "حكى لي والدي - رحمه الله - عن بعض من كان يخدمه قال: كنت فراشًا معه، فكان يصلي كل ليلة كثيرًا، وكان يتوضأ هو بنفسه، ولا يستعين بأحد، ولقد رأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل، وقد قام من فراشه، وعليه فرجية صغيرة وبر، وبيده إبريق، فمشى نحو دجلة ليأخذ ماء، فمنعني البرد من القيام، ثم إنني خفته، فقمت إلى بين يديه لآخذ الإبريق منه، فمنعني وقال: يا مسكين! إرجع إلى مكانك، فإنه برد، فاجتهدت لآخذ الإبريق، فلم يعطني، وردني إلى مكاني ثم توضأ وقام يصلي".

وعندما قتل أمير الموصل على أيدي الجماعة النزارية الحشيشية، سيّر

السلطان محمود خادمه الأمين آق سنقر إلى الموصل أميراً عليها ومكلفاً بمناهضة الصليبيين في بلاد الشام. صرف آق سنقر وقته عندما دخل الموصل في إصلاح أحوالها وتدبير أمورها. وبينما هو كذلك، ضرب الصليبيون حصاراً طويلاً على مدينة حلب حتى أكل أهلها الميتات والجيف، وتفشت فيهم الأمراض. وذكر ابن العديم في "بغية الطلب في تاريخ حلب" أن الناس وقت الحصار العصيب كانوا يفترشون الأرض من شدة المرض، فإذا زحف الفرنج، وضرب بوق الفزع، قاموا كأنما نشطوا من عقال، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى مكانه. وفي تلك الأثناء، كان آق سنقر طريح الفراش من شدة المرض، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول عليه. فلمّا أقبل وفد من حلب، أذن لهم، فدخلوا عليه مستغيثين به لانقاذ المدينة فقد أوشكت أن تنهار من طول الحصار وشدة الجوع وتفشي المرض. فعاهدهم آق سنقر إن عافه الله لينصرنهم، فما لبث ثلاثة أيام حتى عوفي، وما إن أشرف على حلب حتى رحل الصليبيون عنها، فأراد بعضهم أن يلحق بهم فمنعهم، وقال: "قد كفينا شرهم، وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب ونصلح حالها، ونكثر ذخائرها، ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم". فلمّا زال خطر الصليبيين خرج أهل حلب ولقوه، وفرحوا به، وأقام عندهم زمناً حتى ضبط أمورها وأصلح أحوالها.

وبعد أن أعاد آق سنقر لحلب سيرتها الأولى، سار بعساكره لمحاربة الصليبيين، فاسترجع من أيديهم بعض المواقع الحيوية والاستراتيجية، فصار يتنقل من نصر إلى نصر. غير أن نغمة الانتصارات سرعان ما توقفت عند أسوار قلعة عزاز حيث اضطر إلى خوض نزال شرس مع الصليبيين، فكانت الغلبة في نهاية المطاف لهم، وتكبد المسلمون في تلك المعركة خسائر عظيمة. وبعد أن انتهت تلك المعركة، مال الطرفان إلى عقد هدنة، فعاد الهدوء المؤقت إلى بلاد الشام.

عاد آق سنقر إلى مقر ولايته في الموصل. وما هي إلا أيام قلائل حتى غدرت به جماعة من النزارية الحشيشية فتمّ قتله وهو يصلي الجمعة. ويقص علينا ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" أن آق سنقر رأى في المنام أن عدة كلاب ثارت به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه، فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقال: "لا أترك الجمعة لشيء أبداً"، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما رأى: ﴿ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: 38]، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضع عشرة نفسًا مساوية لعدد الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده ثلاثة منهم، وقتل.

يرجع المؤرخون سبب إقدام النزارية على الفتك بآق سنقر إلى أنه تصدى لاستئصال شأفتهم، وتتبعهم في كل مكان، وقتل عصبة منهم. وبالرغم من أن آق سنقر كان لا يسير إلا وقد ارتدى درعاً من حديد، وأحاط نفسه بحرس كثير، إلا أن القضاء النازل لا يُدافع والقدر النافذ لا يُمانع. وفي ذلك اليوم الدامي سقط كل أفراد النزارية بسيوف الجند إلا واحداً منهم هرب إلى كفر ناصح شمال حلب. ومن طريف ما يروى في "بغية الطلب في تاريخ حلب" لابن عديم أنه كان لهذا الشاب النزاري أم عجوز وكانت تعلم أن ابنها ممن انتدبوا لقتل آق سنقر. فلما جاءتها الأخبار بمصرع آق سنقر فرحت واكتحلت، وجلست مسرورة وكأنه عندها يوم عيد. وبعد أيام وصلها ابنها سالماً، فاغتمت لذلك وحزنت، وقامت فجزّت شعرها وسوّدت وجهها.

ومن العجب، كما يقول ابن الأثير في "الكامل في التاريخ": "أن أمير أنطاكية (الصليبي) أرسل إلى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل الخبر إليه شخصياً، وكان قد سمعته الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية". إن خبراً كهذا قد يثير بعض الشك حول ما إذا كان للصليبيين أدوار

خفية في تحريض زعماء النزارية على تصفية آق سنقر وباستخدام الخناجر الفدائية، خاصة وأن كلا الطرفين يجتمعان على كراهية آق سنقر. إن ما يدفع المرء إلى التشكيك في وجود مؤامرة ما يعود إلى أن قتلة آق سنقر قد جاءوا كما يذكر ابن العديم من مناطق بالقرب من حماة والقريبة من معاقل الصليبيين، الأمر الذي قد يرجح وجود اتصالات ما بين الجماعات النزارية والصليبيين.

الآمر بأحكام الله

اسمه الآمر بأحكام الله، ولقبه المنصور، وكنيته أبو علي. وُلد الآمر في عام 490هـ، وبُويع بالخلافة بعد وفاة والده المستعلي بالله في عام 495هـ، أي أن عمره عندما سيقت له الخلافة كان خمسة أعوام. ويعد الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمي العاشر. كان الأفضل بن بدر الجمالي هو الحاكم الفعلي على البلاد والمتسلط الحقيقي على الخلافة منذ أواخر أيام جده المستنصر بالله، وطيلة خلافة أبيه المستعلي بالله، ومعظم سنوات الآمر بأحكام الله، فكأن الأفضل هو أمر الله المفعول وقدره المحتوم والذي لا مفر منه ولا مهروب. وبحسب التقاليد الإسماعيلية، فإنه ينظر إلى الآمر ووالده المستعلي على أنهما قد اغتصبا الخلافة من دون نص شرعي. وقد أدى تنصيب الأفضل للمستعلي خليفة عوضاً عن أخيه الأكبر نزار بن المستنصر بالله إلى حدوث ارتجاج شديد وانشقاق عميق داخل الجماعة الإسماعيلية، فشطرها إلى نزارية ومستعلية يناصبان بعضهما العداء، ويبادلان بعضهما الكراهية، وسيجد هذا الشحن المذهبي والتأزيم السياسي أقصى درجات التعبير في قيام عناصر فدائية من الجماعة النزارية باغتيال الآمر بأحكام الله، كما سيأتي معنا في السطور اللاحقة.

ومنذ تنصيب الآمر خليفة في الخامسة من عمره وإلى أن بلغ الخامسة والعشرين من العمر وهو ليس له من الخلافة سوى المظاهر والمراسم والقشور. وعلى ما يبدو فإن الآمر قد تململ من طول الإقامة في أسر الأفضل واستبداده بكل صغيرة وكبيرة. وكما فصّلنا في حديثنا عن اغتيال الوزير الأفضل بن بدر،

فأغلب الظن أن الآمر وساعده المأمون البطائحي هما من دبّرا لاغتيال الأفضل ليلة العيد. وبمجرد أن أعلن عن وفاة الأفضل متأثراً بجراحه القاتلة حتى قلّد الخليفة ابن البطائحي وزيراً له، ولقبه بالمأمون. وبقي المأمون في وزارته إلى أن قبض عليه الآمر مع خمسة وثلاثين من أخوته وأهله وخواصه، وظل معتقلاً حتى صلب مع أخوته سنة 522هـ. أمّا عن الأسباب التي دفعت الآمر إلى اعتقال المأمون وقتله فقد اختلف فيها. فقد قال بعضهم إنه - أي المأمون - بعث إلى أخ الخليفة الآمر يغريه بقتل أخيه مقابل أن يوصله إلى سدة الخلافة، فعلم بذلك الآمر فجرى منه ما جرى. وقال بعضهم الآخر إن المأمون سمّم مبضعاً ودفعه لفصاد الخليفة فعلم بذلك وضمرها في نفسه عليه. وقال آخرون إنّ المأمون كان يشيع بين الناس أنه من ولد نزار بن المستنصر وأنه الأحق بالخلافة من الآمر. أياً كان الأمر، فقد فتك الآمر بوزيره، ثم أبطل منصب الوزارة، واكتفى باستخدام بعض المستشارين إلى أن قُتل أخيراً على يد بعض النزارية.

وبعد أن مكث الآمر في الخلافة تسعة وعشرين عاماً، دخل القاهرة في عام 524هـ عشرة رجال من النزارية، فخافوا أن يعلم الخليفة بوجودهم فيقتلهم كما حدث لآخرين غيرهم ممن حاولوا التسلل إلى مصر خفية. وتقول الرواية، كما جاءت في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري إن النزارية اجتمعوا في بيت، وقال أحدهم: "قد فشى أمرنا ولا نأمن أن يظفر بنا الآمر فيقتلنا ومن المصلحة والرأي أن نقتل واحداً منا ونلقي رأسه بين القصرين فإن عرفونا فلا مقام لنا عندهم وإن لم يعرفوا تم لنا ما نريد لان القوم في غفلة"، فقالوا له: "ما يتسع لنا قتل أحد ينقص عددنا وما يتم بذلك أمرنا". فقال لهم الرجل: "أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته؟"، فقالوا: "لعله ما تقول"، فقال لهم: "وما أدلكم إلا على نفسي"، ثم أخرج سكيناً، فغرسها في جوفه إلى أن سالت روحه من جسده، فقام أصحابه وحزّوا رأسه، ثم رموه بين القصرين في قلب الليل، وتفرقوا من ساعتهم ينتظرون معرفة ما سوف يجري في البلد من أمر الرأس المجهول. فلمّا كان من الغد، اجتمع الناس

حول الرأس، فلم يقل أحد أنه يعرف صاحبه، ثم حُمل الرأس إلى الوالي، فعرضه على أصحاب الأسواق فلم يستدل عليه، ففرح التسعة بذلك ووثقوا بالمقام بالقاهرة.

في أحد الأيام، خرج الآمر إلى متنزّه له يسمّى الهودج كان قد بناه لزوجته. وكان الآمر معروفاً عنه حبّه للتنزه والترويح عن النفس؛ فإذا خرج، جعل نصف العسكر أمامه ونصفه الآخر من خلفه، وفي منتصف المسافة التي أمامه وخلفه فارسان وحوله أربعة عبيد. وقد علم النزاريون بموعد خروجه، وبالطريق التي سيسلكها إلى الهودج، فانطلقوا إلى هناك حاملين معهم دقيقاً، فدخلوا فرناً يقع على طريق الآمر إلى المتنزّه، فأعطوا الفرّان دنانير، ودفعوا إليه بالدقيق، وقالوا له: نريد منك أن تخبز لنا هذا الدقيق، فنحن قوم على سفر، ثم شغلوه بالحديث. وبينما هم كذلك، مرّت بهم مقدمة العسكر، فأمرهم الفرّان بسرعة مغادرة المحل، فسحبوه بالقوة إلى الداخل، وسدّوا فمه بقطعة قماش، وأغلقوا باب الفرن عليهم إلى أن عبر الخليفة وتفرّق عنه الفرسان والحراس بسبب ضيق الجسر. وفي هذه الأثناء، خرج من الفرن رجل من الجماعة النزارية، فجعل يسجد إلى الأرض السجدة تلو السجدة إلى أن ألقى بيده في شكائم فرس الخليفة، فأخرج سكيناً وضرب بها بطن الفرس، فسقط الخليفة على الأرض، ثم اندفع بقية النزارية من الفرن شاهرين سكاكينهم، فانقضوا على الخليفة، ومزّقوا جسده بطعناتهم، ثم أدركهم الجند متأخرين فقتلوهم عن بكرة أبيهم.

لا خلاف بين المؤرخين حول تفاصيل اغتيال الخليفة الآمر وتحميلهم للجماعة النزارية مسؤولية قتل الخليفة. وكما أوضحنا أعلاه، فإن الانشقاق المذهبي والسياسي داخل الإسماعيلية وما أفرزه من عداء مستحكم بين النزاريين والمستعليين هو من قاد تلك العناصر الفدائية إلى قتل الخليفة بهذه الطريقة المنظمة. ومن الثابت تاريخياً أن النزاريين الحاقدين على سلب الخلافة والإمامة من نزار بن المستنصر سبق لهم أكثر من مرة محاولة اغتيال الخليفة الآمر إلا أن محاولاتهم كافة قد تم إفشالها وإبطال مفعولها مبكراً. وختاماً، تبقى ثمة ملاحظة

هامشية بعض الشيء، وهي كيف عرف ابن تغري بالحوار الذي دار سراً بين الرجال العشرة في البيت الذي اجتمعوا به بالرغم أن السر كان يتوجب أن يموت معهم؟! وباعتقادي الخاص، فإن الحوار الذي جرى بين النزاري الذي قتل نفسه وبين بقية الرجال التسعة قد تم تأليفه لاحقاً، وبشكل يخدم تسلسل الأحداث وتدفقها من وجود رأس مجهول الأصل ملقى بين القصرين إلى قيام البقية بقتل الآمر ومن ثم قتلهم على يد الحراس. ويبقى احتمال آخر وهو أن الشرطة أبقت على أحد القتلة بعد أن فتكت بالبقية من أجل انتزاع الاعترافات منه حول أصلهم، وهوية محرضهم، وكيفية تسللهم إلى البلاد، وطريقة تنفيذهم لجريمة الاغتيال.

أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي

اشتهر أحمد بن الأفضل تاريخياً بلقب كتيفات. والده هو الوزير الأفضل والذي وزر للمستنصر بالله في آخر أيامه، وللمستعلي بالله، وللآمر بأحكام الله قبل أن يُقتل غيلة بتدبير من الآمر نفسه. وأمّا جده فهو الوزير بدر الجمالي والذي وزر للخليفة المستنصر مدة عشرين عاماً. بعد اغتيال الخليفة الآمر بأحكام الله على يد النزارية الباطنية كما ذكرنا من قبل، جاء قائدا الجيش هزار الملك وبرغش بالأمير عبد المجيد ابن عم المقتول الآمر بأحكام الله فنصّبوه كفيلاً للمولود المنتظر من زوجة الآمر، ولقبوه بالحافظ لدين الله، وأقام هزار الملك نفسه وزيراً. فلمّا بلغت الأنباء الجند بتنصيب هزار الملك وزيراً، رفضوا القبول به وثاروا، ونادوا بأحمد بن الأفضل وزيراً، فقام الحافظ بقتل هزار الملك، ثم ألقى برأسه على الجند المتجمعين بين القصرين، فهدأت نارهم وسكنت ثائرتهم. ومما يدعو للتعجب أن هزار الملك لم يفرح بالوزارة غير ساعات من النهار قبل أن يفصل رأسه عن كتفيه!

كان أحمد هو آخر من بقي من أولاد الأفضل، وكان منسياً في السجن منذ أيام الخليفة الآمر. وعلى الرغم من انقضاء عشرة أعوام على مقتل الوزير الأفضل إلا أن الجيش كان على ولائه لآل الجمالي. وكان أول شيء فعله كتيفات أنه قبض على الحافظ وسجنه، واسترد أملاك أبيه التي صادرها الخليفة الآمر، وأخذ يفتش من دون جدوى عن الطفل المزعوم "الطيب" ابن الخليفة الآمر لكي يقتله. وخلال مدة وزارته القصيرة، قام الوزير أحمد والمدفوع بتعصب مفرط للإمامية الأثني عشرية بإلغاء الشعائر الدينية الفاطمية وطمس

ملامح مصر الفاطمية، وأسقط اسم الخليفة الفاطمي واسم إسماعيل بن جعفر الصادق جد الفواطم من الخطبة ودعا للإمام المنتظر.

أثارت سلوكيات الوزير أحمد المستفزة انزعاج الحافظ وبقية الأسرة الفاطمية وشيعة العلويين ومماليكهم، فكرهوه، وعقدوا النية على التخلص منه. ورد في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير قصة اغتيال الوزير أحمد بن الأفضل، وهي لا تختلف عن باقي الروايات المذكورة في مصادر تاريخية أخرى. تقول القصة، إنه وبعد مرور عام من توزيره، خرج أحمد بن الأفضل إلى الميدان ليلعب بالكرة مع أصحابه، فكمنت له جماعة من المماليك ومعهم مملوك فرنجي للحافظ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فقتله المملوك الفرنجي، وحزّوا رأسه، وبمقتل الوزير أحمد، انقطع دابر أسرة الجمالي. وبمجرد أن ذاع في القاهرة خبر مقتل كتيفات حتى تراكض الناس إلى داره فنهبوها، وأخذوا منها ما لا يحصى ولا يعد، وخرج الحافظ من محبسه فركب إلى دار وزيره المقتول، وحمل منها ما بقي إلى قصره، ثم أخذ البيعة لنفسه خليفة وإمام الزمان. وأدى إعلان الحافظ عن نفسه خليفة إلى حدوث انقسام آخر داخل الفرقة المستعلية، فشطرها إلى فرقتين: الحافظية وهي التي اعترفت بخلافته وإمامته، والطيبية وهي التي اعتبرته مغتصباً لحق المولود المزعوم الطيب ابن الآمر. وبإعلان الحافظ عن نفسه خليفة، خرجت بلاد اليمن والتي كانت تملكها أروى الصليحي عن طاعة الدولة الفاطمية لأنها اعتبرت الحافظ مغتصباً لحق الوريث الشرعي.

بوري بن طغتكين

بعد مقتل السلطان السلجوقي على بلاد الشام تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان تداعت مملكته كما لو كانت قصراً من رمال. لم يعد باقياً من تلك المملكة غير حلب ودمشق. فاستقل رضوان بن تتش بحلب، فيما استقل أخوه دقماق بن تتش بدمشق. لم يهنأ دقماق بالملك كثيراً من دون منافسة، فقد زاحمه الأتابك ظهير الدين طغتكين على ملك البلاد وعلى ملك فؤاد والدة دقماق التي تزوجها وأنجب منها. وبعد زمن ليس بالطويل توفي دقماق، فأصبح الطريق إلى كرسي الزعامة ممهداً لطغتكين، فنصّب نفسه ملكاً على دمشق، وحكمها طيلة ربع قرن من الزمان. فلمّا مات طغتكين، بكته العيون، وحزنت عليه القلوب. اتشحت دمشق بالسواد لأنها فقدت رجلاً سار فيها بالعدل، وساسها بالحزم، ووقف شوكة في حلوق الفرنجة.

وبعد وفاة طغتكين، تسنّم ولده بوري ملك البلاد بعهد من والده. وبعد جلوسه على العرش، أقبل رجل من الطائفة الإسماعيلية قادماً من العراق واسمه بهرام، فملك قلعة بانياس وحصوناً أخرى في الشام بمعونة طاهر المزدغاني وزير بوري بن طغتكين. ثم لم يلبث أن قتل بهرام، فحلّ مكانه رجل يقال له أبو الوفا بتأييد من الوزير المزدغاني. استفحل أمر أبي الوفا وعظم شأنه حتى صار هو سيد دمشق. وقيل إنّ أبا الوفا هذا كاتب الفرنجة ليسلمهم دمشق. فلمّا عرف بوري بما يخطط له أبو الوفا، جلب وزيره المزدغاني فقتله، ثم أباح لأهل دمشق الفتك بكل ما هو إسماعيلي في المدينة، فسالت أنهار الدم في طرقات دمشق حتى قيل إن من قتل من الإسماعيلية قد ناهز ستة آلاف.

وبعد أن استراح بوري من التهديد الإسماعيلي، خرج عماد الدين زنكي من الموصل مظهراً أنه سائر لمحاربة الفرنجة، فبعث إلى بوري يستنجده على عدوهما، فكتب بوري لولده سونج على حماة يأمره بأن يضع نفسه بين يدي عماد الدين زنكي. ولمّا خرج سونج لينضم إلى عماد الدين، انقلب الأخير عليه، ثم سار إلى حماة فملكها، وبعدها اقتاد سونج معه إلى الموصل أسيراً. وعلى الرغم مما بذله الأب بوري من أموال لاستنقاذ ولده إلا أن لعاب زنكي لم يسيل لها.

وبعد زمن، شاءت الأقدار أن توقع برجل يقال له دبيس بن صدقة في يد بوري، وكان عماد الدين زنكي يتحرق شوقاً للقبض عليه. فلمّا عرف زنكي أن دبيس هذا قد علق في شباك بوري، كتب إليه يقايضه بولده سونج، فقبل بوري العرض، وعاد الابن إلى أحضان والده من دون أن يتكلف أي شيء من المال.

وبعد ما يقرب من أربعة أعوام قضاها بوري ملكاً على دمشق، وثبت به جماعة من النزارية الحشيشية انتقاماً منه بعد أن قتلهم عدداً وفرقهم بدداً، فجرحوه بسكاكينهم جرحين، برئ من أحدهما فيما بقي الآخر ينسر عليه. واستمر جرحه يكبر ويشتد عليه حتى أضعفه وأقعده، ثم أماته. ومنذ أن قتل بوري وطائر الأحزان يرفرف على بيت آل بوري. فقد قتل ابنه الأكبر إسماعيل والملقب بشمس الملوك أخاه سونج، ثم قتلت زمرد خاتون ولدها شمس الملك على يد غلمانها ونصّبت ولدها شهاب الدين محمود (سنأتي على تفصيله في القادم من الصفحات)، وبعدها غدر بعض المماليك بولدها الملك شهاب الدين محمود فقتلوه وهو في فراشه. وهكذا أصبحت زمرد خاتون وحيدة ومحاصرة بذاكرة تقطر دماء زوجها وأولادها الثلاثة، فخرجت إلى الحجاز لتقضي ما بقي من العمر تحت ظلال القرآن بعد أن قضته تحت ظلال السيوف.

الحسن بن عبدالمجيد الفاطمي

والده هو الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله والذي أخرج من الحبس بعد مقتل ابن عمه الآمر بأحكام الله ليتولى الخلافة مؤقتاً إلى أن تضع زوجة الآمر بأحكام الله وضعها المزعوم. وفي الوقت ذاته، أخرج الجند أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي من محبسه، وقلّدوه منصب الوزارة. فانظر إلى ما آل إليه الحال بدولة الفاطميين، فكل من الخليفة ووزيره كانا في السجن محبوسين قبل أن يتقلدا منصبيهما! وكما جاء معنا في تناولنا لاغتيال الوزير أبي علي أحمد والملقب بكتيفات، فإنه قد حجر على الحافظ، وحبسه في داره، وحرمه من التصرف في شؤون دولته، ومنع أيّاً كان من زيارته بلا بإذن منه. وزاد الوزير على ذلك بأن أسقط اسم إسماعيل (إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنتمي إليه الشيعة الإسماعيلية) من الخطبة لأنه كان إمامي المذهب، وضيّق على المذهب الإسماعيلي، ودعا للإمام المنتظر الإثنى عشر. وبعد عام من وزارته، قُتل أبو علي أحمد على يد غلمان الحافظ ومشايعيه، فانحلت الأغلال عن الحافظ، وبويع مرة أخرى على أنه "ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه"، ثم لم يلبث الحافظ إلا ونصّب نفسه خليفة على البلاد.

وبعد مقتل الوزير أبي علي أحمد، خلع الحافظ الوزارة على أبي الفتح يانس الأرمني. وكما استبد سلفه بالوزارة فعل يانس مثله، فاستوحشه الحافظ، وخاف الوزير على نفسه مما قد يدبره الحافظ، فامتنع عن أكل أو شرب أي شيء عند الخليفة. فاحتال عليه الحافظ بأن طلب من طبيبه أن يدس للوزير السم في ماء الطهارة، فاغتسل به يانس، فوقع الدود من سفله وانفتح دبره واتسع

حتى ما بقي يقدر على الجلوس، كما ذكر المقريزي في "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء". فأشاروا عليه كما يقول ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" بأن يجعل اللحم الطري في المحل، فيعلق به الدود ويخرج ويجعل عوضه، فقارب الشفاء. فلمّا بلغت الأخبار الحافظ، نصحه طبيبه أن يذهب لزيارته حتى يجبر يانس على القيام من الفراش، وكان ذلك المرض لا شيء يزيده تهيجاً مثل الحركة. فذهب إليه الحافظ، فقام له يانس، وأطال الحافظ المكوث عنده. فلمّا انصرف الخليفة من عنده، اشتد على يانس المرض، ففارق الحياة في تلك الليلة.

وبعد وفاة يانس، جاء الحافظ بابنه الحسن، فجعله وزيراً له. فلمّا عُهدت الوزارة إليه، أطلقه والده الحافظ ليثأر له من أعوان الوزير المقتول أبي علي أحمد، فأعمل الحسن السيف في رقابهم، ثم استبدت به شهوة الحكم، فانقلب على والده، فانفرد بالتدبير حتى خافه الحافظ على نفسه. وتلك هي المرة الثالثة التي يجد الحافظ نفسه فيها أسيراً بيد وزيره، ولكن هذه المرة في يد ابنه! ورد في "الوافي بالوفيات" للصفدي أن الحسن كان قد أظهر ميولاً سنيّة. ولا يعرف ما إذا كانت تلك الميول المذهبية سبباً في حجر الابن على والده وتسلطه عليه أم لا. مهما يكن من أمر، فقد وُصف الحسن بأنه كان ظلوماً غشوماً عسوفاً، وأنه جريء على سفك الدماء وإزهاق الأرواح وأخذ الأموال حتى قال فيه أحد الشعراء يهجوه:

لم تأت يا حسن بين الورى حسناً
ولم تر الحق في دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب
والجور في أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب
تيه الملوك وأخلاق المجانين

أراد الحافظ أن ينزع عنه السلاسل التي قيده بها ابنه، فسيّر إليه الجند، فتصدى لهم الحسن وفتك بهم، فزاد من تضييقه على والده. ويحدثنا ابن الأثير

في "الكامل في التاريخ" أن من بقي من أمراء البلاد اتصلوا بالخليفة، وقالوا له: "إما أنك تسلم ابنك إلينا لنقتله أو نقتلكما جميعاً"، فاستدعى الحافظ ولده إليه واحتاط عليه، وأرسل إلى الأمراء بذلك، فقالوا: "لا نرضى إلا بقتله"، فرأى الحافظ أنه إن سلمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل. فلمّا قنط الحافظ، أحضر طبيبين كانا له، أحدهما مسلم والآخر يهودي، فقال لليهودي: "نريد سماً نسقيه لهذا الولد ليموت ونتخلص من هذه الحادثة"، فقال: "أنا لا أعرف غير التقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية"، فقال الحافظ: "أنا أريد ما أتخلص به من هذه المصيبة"، فقال له: "لا أعرف شيئاً". ثم أحضر الحافظ طبيبه المسلم، وسأله عن ذلك، فصنع له شيئاً، فسقاه الولد فمات لوقته. وبعدها أرسل الحافظ إلى الأمراء يخبرهم بموته، فقالوا: "نريد أن ننظر إليه"، فأحضر بعضهم عنده فرأوه وظنوه قد عمل حيلة، فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم، فعلموا موته وخرجوا.

شمس الملوك إسماعيل

شهد العالم الإسلامي مطلع القرن السادس الهجري مزيداً من الهزال والتشظي السياسي. وقد واكب هذا الانحطاط السياسي تراجع الدور الحضاري وتباطؤ الحراك الثقافي بسبب سيادة القوى التقليدية والتي تعزز حضورها مع بزوغ القوى العسكرتارية البدوية: السلاجقة في المشرق والمرابطون والموحدون في المغرب. فعلى حواف المشرق الإسلامي كانت سحابات المغول والتتار الكثيفة تتجمع هناك معلنة عن شر مستطير ينتظر المنطقة. وفي بغداد كان الخليفة العباسي يجاهد عبثاً نفخ الروح في جسد الخلافة الهامدة. وفي مصر كانت الخلافة الفاطمية تتآكل من الداخل وصار خلفاؤها الفواطم دمى تدار بواسطة وزرائها. وفي الشمال الأفريقي والأندلس كانت حروب القبائل والطوائف مستعرة لا تكاد تنطفي أوارها. أما في الشام فكان الصليبيون قد وطدوا أقدامهم في عدد من المدن الشامية فيما كان أبناء وأحفاد سلاطنة السلاجقة الكبار يتعاركون في ما بينهم على ما تبقى منها.

بعد مصرع القائد تتش أخي السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان في عام 487هـ، احترب ولداه رضوان ودقماق على مملكته التي غطت أجزاء من الشام. انتهى هذا النزاع بانتزاع رضوان حلب فيما وضع دقماق يده على دمشق. وبعد أن مات دقماق، استولى أحد خواصه واسمه معتمد الدولة طغتكين على الإمارة، وحكمها زهاء ربع قرن. وبعد مماته، انتقل الملك إلى أكبر أولاده واسمه بوري بن طغتكين، وإليه تنسب الدولة البورية. ولم يستمر حكم بوري غير ستة أعوام إذ مات متأثراً بجرح قاتل زرعه في جسده أحد العناصر الفداوية

النزارية أو الحشيشية. وبعد وفاته، دان الملك إلى أكبر أبنائه إسماعيل والملقب بشمس الملوك وكان ذلك في عام 526هـ. في بادئ الأمر، سار شمس الملوك سيرة جده وأبيه، ووسع تخوم مملكته، وأجبر الصليبيين على التخلي عن مدينة بانياس. غير أنه فيما بعد صدر منه من الأفعال ما جعلت عامة الناس وخاصتها تتمنى زواله. فقد صادر الأموال، وظلم الناس، واستبد برأيه، وقتل أخيه سونج.

أما بشأن ما عجل بهلاكه، فهو أنه قرر سراً تسليم مفاتيح مدينة دمشق. ولكن لمن؟ هناك انقسام بين المؤرخين، فبعضهم مثل ابن خلدون في "تاريخ ابن خلدون" وابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" يذكر أنه اتصل بعماد الدين زنكي يحثه على سرعة القدوم لاستلام المدينة وإلا منحها للصليبيين إن تباطأ، فيما يذهب بعضهم الآخر مثل الزركلي في "الأعلام" وابن كثير في "البداية والنهاية" إلى أنه كان مالأ الصليبيين وقرر إعطاءهم دمشق. ويبقى السؤال: ما الذي يدفع بشمس الملوك إلى التنازل عن دمشق لخصومه؟ لم تجتهد المصادر التاريخية في إماطة اللثام عن الأسباب التي دفعت بملك دمشق التخلي عن مملكته باستثناء ما وجدت عند ابن كثير من أنه ما فعل ذلك إلا نكاية بأهل دمشق، فقد كرههم وكرهوه، فعزم في قرارة نفسه على الانتقام منهم بتسليمها بعد أن شحن حصن صرخد بالأموال والسلاح والمؤن والثياب.

علم بعض الخاصة أن مولاهم قد أسرّ في نفسه أن يسلم المدينة، فذهبوا إلى أمه صفوة الملك زمرد خاتون شاكين لها ما يزمع الابن على فعله، فطمأنت مخاوفهم، ثم إنها عزمت على منعه مهما كلف الأمر حتى ولو استدعى قتل شمس الملوك! وفي ليلة كان حاكم دمشق في خلوته وبلا حراس، أمرت صفوة الملك مماليكها بقتل ولدها، فدخلوا عليه شاهرين سيوفهم اللامعة، ثم انقضوا كالبرق ليمزقوا جسده بلا رحمة أمام مسمع ومرأى والدته التي لم تضعفها صرخات ابنها واستغاثته بها! ويقال إن صفوة الملك لم تقتص من ابنها لهذا السبب فحسب، ولكن لما وصل إلى مسامعها من أنه كان يشكك في عفتها ويتهمها وهي المرأة العجوز ببعض القواد. وبعد أن سقط شمس الملوك على الأرض مضرجاً بدمائه، أمرتهم صفوة الملك بحمله إلى الخارج ليشهد الناس

جسد ملكهم ولآخر مرة، وبعدها نصبت ابنها شهاب الدين محمود ملكاً على دمشق.

وتعميماً للفائدة والمتعة، فسوف نكمل ما كان من أمر صفوة الملك. فبعد أن عاود الهدوء دمشق، واستتب الأمر لشهاب الدين، بعث عماد الدين زنكي الذي طالما حلم طويلاً بضم دمشق لتوحيد الجبهة الإسلامية لتدعيم مساعيه من أجل اجتثاث التواجد الصليبي بكتاب يطلب فيه صفوة الملك للزواج. وجد عماد الدين أن ما من حل لتركيع دمشق العصية غير الاقتران بسيدتها المهيبة. وبعد أن زفت الملكة وخرجت في موكبها إلى خارج دمشق حتى أوصدت أبواب المدينة دونها. ماذا عسى عماد الدين أن يفعل بامرأة ستينية فقدت جبروتها بمجرد أن صارت خارج أسوار المدينة. لم يجد عماد الدين من بد إلا أن أرسل بها إلى حلب، ثم انطلق وراء تحقيق مشروعه الوحدوي. أما صفوة الملك فبقيت في حلب تحاصرها الوحدة والنسيان، فلا هي بالملكة ولا هي بالزوجة. وبقيت على هذه الحال إلى أن استيقظت في يوم على خبر مقتل ابنها شهاب غدراً على يد بعض المماليك. استصرخت الأم الثكلى بزوجها ليثأر لابنها وليروض دمشق المنيعة. وكعادته، سار عماد الدين إلى دمشق ليحصارها بجيشه، فلما يأس من اقتحامها انصرف عنها. أما صفوة الملك فقد رحلت عن حلب لتعود إلى دمشق، ولكن ما من شيء في المدينة يتذكرها. فلما أحست أنها كالغريب هناك، خرجت إلى مكة المكرمة لتمضي فيها ما تبقى لها من العمر وثمالته. وفي رحاب البيت الحرام انكبت صفوة الملك على الصلاة والعبادة ومجالسة الفقهاء وأهل العلم. ثم رحلت إلى المدينة المنورة بعدما شعرت بدنو أجلها لتدفن بجوار النبي عليه الصلاة والسلام. ويذكر أنها بعد أن شح المال في يدها، اشتغلت بغربلة القمح والشعير لتتقوت بأجرته الزهيدة إلى أن أسلمت الروح في عام 557 هـ، فسبحان مغير الأحوال من حال إلى حال!

المسترشد بالله

ترتيبه هو التاسع والعشرون بين خلفاء بني العباس. اسمه الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله، وكنيته أبو منصور، ولقبه هو المسترشد بالله. نعته المؤرخون بالتدين وسداد الرأي، وبالشهامة والشجاعة، وبشدة الهيبة وعلو الهمة. وانفرد دون بقية الخلفاء بروعة الخط وجماله. وكان إلى جانب هذا محباً للأدب وناظماً للشعر.

فمن شعره في الفخر، قوله:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أرض الروم خيلي وتنتضي
بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

ومن شعره عندما وقع في الأسر، قوله كذلك:

ولا عجباً للأسد إن ظفرت بها
كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الورى
وموت علي من حسام ابن ملجم

ولعل من الجائز القول إن المسترشد بالله كان هو آخر صيحة لخلفاء بني العباس لاسترداد مجد الأجداد الغابر وإعادة شباب الدولة الضائع، ولكن الشق كان أوسع من الرقعة، والشجاعة تغلبها الكثرة. لم يكن بمقدور المسترشد بالله إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، بعد أن استبد العسكر الترك بالخلافة، وتشظّى

العالم الإسلامي إلى كيانات صغيرة ومتناحرة. حاول مرة ومرتين لكي يعيد للخلافة هيبتها ويجدد أيامها فانتهى الأمر به مقتولاً. وعندما بلغت الأخبار العراق، غرقت البلاد في بحر من الدموع، وضجت بالبكاء والنواح، فخرجت النساء حاسرات الرأس، وحثّ الرجال على رؤوسهم التراب:

كان السلطان محمود، حفيد ملكشاه آخر ملوك السلاجقة الأقوياء، يقيم خارج العراق، لكن يده تستطيع أن تصل إلى بغداد، وتهز عرش الخلافة. جاءه أحد نوابه في العراق يشكوه جفاء الخليفة، ويحذره من تنامي طموحه وتزايد قوته. هرع السلطان محمود، فسار على رأس عسكره قاصداً بغداد. فلمّا وفدت الأخبار على الخليفة، كتب إلى محمود يهدده بمغادرة البلاد هو وأهله. قال الخليفة له إن حضرت بجندك، زادت البلاد خراباً، وازدادت الأسعار غلاءً، وأصاب الناس الجوع، وعمّ الهلاك. غير أن محمود أبى إلا أن ينزل العراق بجمعه. لم يكن محمود بعسكره مرحباً بهم في البلاد، فأمطره الناس بأفحش سب. ودارت بين رجاله ورجال الخليفة بعض المناوشات حتى بدا وكأن النصر يدنو من الخليفة لولا أن أحد قواده انسحب برجاله لينضم إلى معسكر السلطان محمود. فلمّا رأى المسترشد بالله أن الكفة قد رجحت للسلطان محمود، مال إلى الموادعة، وجرى بينهما الصلح.

وبعد مدة من الزمن، مات السلطان محمود، فنشب نزاع مسلح بين الملك داؤود ابن السلطان محمود وعمه السلطان مسعود إلى أن حسمه الأخير لمصلحته. في تلك الأثناء، نزل بغداد عدد من الأمراء الساخطين على السلطان مسعود، فقرّبهم الخليفة، وأنعم عليهم. ومنذ نزل هؤلاء بغداد، وهم يحسّنون للخليفة الرحيل، ويسهلون عليه الأمر، ويضعّفون عنده أمر السلطان مسعود، حتى تشجع فخرج على رأس جيشه لمحاربة مسعود. ولمّا التقى الجمعان، مالت فئة من العساكر الأتراك في جيش الخليفة، فغدرت به، والتحقت بجوار السلطان مسعود. لم يستمر القتال طويلاً فقد بدا وكأن النهاية قد حسمت منذ أن غدرت جماعة الأتراك بالخليفة. وسرعان ما وقع المسترشد بالله وخاصته في يد السلطان مسعود أسرى، وكان هذا في شهر رمضان من سنة 529هـ.

عامل السلطان مسعود خصمه كما يليق به كخليفة للمسلمين، فلم يغلظ له في القول، ولم يهنه. وأمر مسعود رجاله بإنزال الخليفة في خيمة خصصت له، ووكل به من يحفظه ويحرسه، ثم ترددت الرسل بينهما في الصلح والتعهد من قبل الخليفة ألا يجمع العساكر، وأن يدفع بعض المال للسلطان مسعود. بقي الخليفة برفقة السلطان مسعود في تنقلاته ولمدة شهرين. وفي يوم، تسللت جماعة من الرجال، قيل إن عددهم سبعة عشر وفي رواية أربعة وعشرين، فدخلوا خيمته في غفلة من الخليفة، فقتلوا بعض من كان عنده، ومزقوا بسكاكينهم جسد الخليفة، وجدعوا أنفه وأذنيه، وتركوه عرياناً. ولايزال مقتل الخليفة لغزاً معلقاً وإلى هذا اليوم. فقد اختلف المؤرخون في تحديد هوية قاتليه، وفي تحديد عددهم، وفي من سيّرهم إليه. أغلب الروايات تذهب إلى أنهم من جماعة من الباطنية النزارية أو الحشيشية، فيما يذهب بعضهم إلى أنهم من ثلة من الرعاع وأصحاب السوابق الإجرامية أرسلهم السلطان مسعود لقتل الخليفة. أكثر الروايات تقول إن الحشيشية قتلوه من تلقاء أنفسهم، فيما يقول آخرون إنّ السلطان مسعود هو من سلّطهم على الخليفة، فلمّا قتلوه قتلهم به، على الرغم من أن هناك من يقول إنه أطلقهم.

الراشد بالله

هو أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله، وترتيبه هو الثلاثون من بين خلفاء بني العباس. وصفه السيوطي في "تاريخ الخلفاء" بأنه كان فصيحاً أديباً، شاعراً وسمحاً، يؤثر العدل ويمقت الشر. كان الراشد بالله مقيماً ببغداد حينما جاءت الأخبار بمقتلِ والده الخليفة المسترشد بالله على يد جماعة من الباطنية كما ذكرنا من قبل. ولمّا علم أهل بغداد بمقتل خليفتهم، عمّ البكاء والنحيب، وخرج الرجال حفاة مخرقين الثياب، وخرجت النساء منشورات الشعر يلطمن الفقيد. ومن الغد قعد الناس للعزاء في الديوان ثلاثة أيام، ثم أخذت البيعة للراشد. وبعد أن استقر الأمر لهذا الأخير، أقبل رسول من طرف السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي يطالبه بسداد أموال عظيمة كان السلطان قد ألزم بها الخليفة المسترشد قبل مقتله، فقال الراشد إنه ليس عنده من المال شيء.

أدى امتناع الراشد عن تسديد الأموال إلى السلطان مسعود إلى زيادة الوحشة بينهما. وفي تلك الأثناء، اجتمع كثير من الأمراء على الخروج عن طاعة السلطان مسعود، فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر أذربيجان إلى بغداد، ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل، ووصل يرنقش بازدار صاحب قزوين وغيرها، وصدقة بن دبيس صاحب الحلة، وآخرون. وبعد أن تقوّى الراشد بوجود الجيوش، قطع خطبة السلطان مسعود، وخطب للملك داود بن محمود. ولمّا بلغ السلطان مسعود اجتماع الأمراء والملوك ببغداد على حربه، وأن الخطبة صارت للملك داود ابن أخيه السلطان

محمود، جمع العساكر وسار إلى بغداد، فضرب حصاره عليها نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بها. وبعد أن رفع السلطان مسعود حصاره وعاد أدراجه، تفرّق الملوك والأمراء وخرجوا من بغداد.

خرج الراشد بالله في نفر قليل من أتباعه مع الأتابك عماد الدين زنكي إلى الموصل. وما أن علم السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد سار إليها واستقر بها، ومنع أصحابه من الأذى والنهب. ولمّا حطّ ببغداد، جمع السلطان مسعود القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد لمسعود وفيها بخط يده: "إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعت نفسي من الأمر"، فأفتوا بخروجه من الخلافة. وورد في "تاريخ الخلفاء" للسيوطي أن السلطان مسعود جاء بالشهود، فكتبوا محضراً فيه شهادة طائفة بما جرى من الراشد من الظلم وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر، ثم استفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك هل تصح إمامته، وهل إذا ثبت فسقه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ويستبدل خيراً منه؟ فأفتوا بجواز خلعه، وحكم بخلعه قاضي البلد، وبايعوا عمه محمد بن المستظهر، ولقبوه المقتفي لأمر الله.

وفيما كان الراشد بالموصل، جاءته الأنباء بالخلع، فخرج من الموصل إلى مراغة. واتفق الراشد بالله مع الملك داود بن محمود وملوك تلك الأطراف على محاربة السلطان مسعود، وإعادة الراشد إلى الخلافة. وجرت الحرب بينهم، فغلبهم السلطان مسعود وجرّعهم طعم الهزيمة مرة أخرى. وبعد أن انقشع غبار المعركة، سار الملك داود إلى فارس، وسار من بقي إلى دياره، وبقي الراشد وحده في جماعة قليلة من أتباعه، فسار بهم إلى مراغة فعاثوا فيها، ثم مضوا إلى همدان وأفسدوا بها وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين وحلقوا لحى جماعة من العلماء، ثم مضوا إلى أصفهان فحاصروها ونهبوا القرى. وفيما كان في خيمته يستريح من مرض برئ منه، وثب عليه نفر من الباطنية فقتلوه، ثم حمل جثمانه فدفن بظاهر أصفهان، ولما وصل خبر مقتل الراشد إلى بغداد، جلسوا لعزائه يوماً واحداً.

ولعلك تلاحظ مدى التشابه بين مقتل المسترشد بالله وولده الراشد بالله. كلاهما قتلا خارج بغداد، وكلاهما قتلا في خيمة، وكلاهما قتلا وهما نائمان، وكلاهما قتلا على يد جماعة من الرجال، وكلاهما قتلا بالسكاكين، وكلاهما قتلا بعد أن خسرا الحرب. وكما ذكرنا عندما تناولنا مقتل الخليفة المسترشد واختلاف الآراء حول من قام بقتله، نجد أنفسنا هنا في حيرة حول من قام حقاً بقتل الراشد بالله. الروايات التاريخية تتهم الباطنية بقتله، خصوصاً وأن التكتيك المتبع في الاغتيال هنا يحمل بصماتهم، ولا يختلف عن العديد من العمليات الأخرى التي نفذتها الجماعة الباطنية في تصفية خصومها. ومن الجائز أن يكون الراشد وجماعته قد استفزوا الباطنية الذين ينتشرون بكثرة في تلك الأصقاع بما قام به الراشد وأتباعه من عمليات نهب وتخريب وإفساد. وعلى الرغم من أن احتمال قيام الباطنية بقتل الراشد هو الأرجح، لكن من الجائز أن يكون للسلطان مسعود ضلع في عملية الاغتيال حتى يتخلص نهائياً من أي خطر محتمل قد يأتي من طرف الراشد بالله.

محمود بن بوري بن طغتكين

ذكرنا في أكثر من موضع أن السلطان السلجوقي تتش بن ألب أرسلان بعدما توفي ورثه ولداه رضوان ودقماق، فتملّك الأول حلب، وتملّك الآخر دمشق. وعلى الرغم من مساعي رضوان في الاستيلاء على دمشق إلا أن طموحاته تهدّمت على أسوار دمشق العصية. وبعد وفاة دقماق، نصّب الأتابك طغتكين نفسه حاكماً على دمشق، فنشر العدل في أرجائها، وحمى المملكة من الغازين والطامعين بها، فاستمال إليه بأعماله قلوب أهلها. ولمّا توفي طغتكين، ورثه ولده بوري، فسار على نهج والده، ولكنه في أواخر أيامه أقعده جرح زرعه في جسده خنجر أحد رجال الباطنية فمات متأثراً بآلامه. ارتقى إسماعيل بن بوري سدة الحكم، وتلقب بشمس الملوك، فسار في الناس سيرة محمودة، ومدّ خارج دمشق سلطانه ونفوذه، لكن طباعه تبدلت وأحواله ساءت مع الأيام، فبطش وظلم، وقتل وسلب. ثم كتب إلى عماد الدين زنكي يعرض عليه تسليم دمشق، فتناهى الخبر إلى بعض الخاصة وخافوا ضياع مدينتهم، فأمرت أمه زمرد خاتون صبيانها فشدخوه بسيوفهم.

وبعد أن ارتاحت دمشق من شمس الملوك إسماعيل، أجلست زمرد خاتون ولدها محمود مكان أخيه، وتلقب بشهاب الدين. وفي تلك الآونة، جاء رسول عماد الدين زنكي لاستلام المدينة، فردّه شهاب الدين رداً جميلاً. وبعد أن آلت محاولات عماد الدين للاستيلاء على دمشق إلى الفشل، بعث بكتاب إلى شهاب الدين يخطب فيه والدته زمرد خاتون لنفسه. أراد عماد الدين بهذه الزيجة السياسية أن يفتح أبواب دمشق المقفلة في وجهه. حصل عماد الدين على زمرد

خاتون ولكنه لم يحصل على دمشق. فما أن خرج موكب العروس لتزف إلى عريسها الواقف خارج أسوارها حتى سارع الحرس إلى إقفال أبواب المدينة. أصيب عماد الدين بخيبة أمل واسعة، وذهبت أحلامه أدراج الرياح، فأرسل بزوجته إلى حلب معززة مكرمة وسار هو إلى قاعدة ملكه في الموصل.

لا تزودنا المراجع التاريخية بأي شيء عن شهاب الدين، وعن أحوال دمشق تحت ظلال حكمه الذي دام أكثر من أربعة أعوام، باستثناء ما ذكر من أن معين الدين أنر الطغتكيني كان هو القائم بإدارة المملكة وتصريف شؤونها. وأما فيما يتصل بعملية اغتيال شهاب الدين، فكل ما يتوافر لنا أن ثلاثة من خواصه وخدّامه، وهم التغش ويوسف الخادم والفراش الخركاوي قد قتلوه في فراشه ليلاً، ثم لاذوا بالفرار. ولسوء الطالع، فإننا لا نعلم شيئاً عن الكيفية التي تمت بها عملية الاغتيال، ولا عن الدوافع التي أغرت أولئك الثلاثة على قتل سيدهم وولي نعمتهم. ما نعرفه أن الجند قبضوا على اثنين منهم فصلبا بينما توارى الثالث عن الأنظار.

هل كان معين الدين أنر وراء اغتيال شهاب الدين محمود؟ في اعتقادي - وفي ضوء المعلومات القليلة المتاحة - أنه ليس لمعين الدين أنر صلة بالعملية وذلك لسببين على الأقل: الأول أن المؤرخين وصفوا معين الدين أنر بحسن السيرة، وبعمل الخير، وبرجاحة العقل والشجاعة، وبكثرة التصدق والبر، وبمحبة العلماء والصلحاء، والثاني أنه لو كان معين الدين أنر يريد بإزاحة شهاب الدين أن يقفز إلى السلطة لما استدعى في صبيحة اليوم التالي أخا شهاب الدين واسمه جمال الدين محمد بن بوري الأمير على بعلبك لاستلام ملك دمشق. وبناء على ما سبق، ففي اعتقادي أن عملية القتل قد تمت تلبية لدوافع شخصية أكثر من كونها سياسية. ويبقى قائماً احتمال آخر مفاده أن جمال الدين محمد قد يكون هو من واطأ الخدم الثلاثة على قتل أخيه كما جاء في "معجم المغتالين السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي" لفؤاد السيد. وإذا صح قيام جمال الدين باغتيال أخيه، فإنه ولسوء حظه لم يهنأ بلذة الملك طويلاً فقد وافته المنية بعد مرور عام واحد على امتلاكه لدمشق.

عماد الدين زنكي

هو أحد أبطال الإسلام المشاهير، وأحد قادته المغاوير. والده هو قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله، واحد من كبار قادة السلاجقة، وواحد ممن نقش اسمه على جدار الذاكرة. مات آق سنقر وعود ولده زنكي لايزال طرياً، فحملته يد أمير الموصل كربوقا، ورفعته إلى مصاف أولاده. وعندما بلغ زنكي عمر الشباب، بدت عليه علامات الشهامة والشجاعة والنجابة. سار زنكي على نهج والده، فنسج خيوط المودة بينه وبين السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه. وعندما أقام السلطان مودود بن التونتكين أميراً على الموصل، أرسل إليه عماد الدين زنكي، فحاز عنده مكانة كبيرة، ونال منه إقطاعات كثيرة. ولمّا اشتبك مودود مع الصليبيين في مواطن شتى استطاع زنكي أن يخطف الأنظار بفضل شجاعته النادرة وبسالته الفائقة.

وبعد أن قُتل مودود على أيدي الباطنية، التحق عماد الدين زنكي بخدمة أمير الموصل الجديد آق سنقر البرسقي، وخاض معه سلسلة من المعارك ضد الصليبيين، رفعت من مقام عماد الدين درجات وزادت من شهرته لدى الناس. وعندما بدأ رجل يقال له دبيس بن صدقة بمحاولة الاستيلاء على بغداد، أمر السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه أميره على الموصل آق سنقر البرسقي أن يتصدى لمحاولات دبيس الطامعة، فاصطحب معه زنكي، وخاضا الحرب سوياً ضد دبيس حتى انكسر وارتد مهزوماً. ونظير جهود عماد الدين زنكي المتميزة، منحه آق سنقر ولاية البصرة، فأظهر زنكي جانباً من حزمه

ومهارته، فنجح في دحر الفوضى، ودفع هجمات الأعراب عليها، فصفى الجو في البصرة، وطابت فيها الأحوال.

وعندما عاد آق سنقر إلى الموصل بأمر من السلطان محمود، اختار زنكي البقاء في البصرة، فقربه السلطان إليه وزوّجه من أرملة أحد كبار الأمراء، وأوكل إليه تربية ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه، فنال زنكي بهذا التشريف لقب أتابك. وبعد مقتل آق سنقر البرسقي على يد الباطنية ووفاة ولده عز الدين مسعود بشكل مفاجئ، عُهد إلى عماد الدين زنكي تولي أمر الموصل، فغادر بغداد إلى الموصل، ليضع فيها أول حجر في صرح دولة الزنكيين.

سعى عماد الدين زنكي منذ أن نزل الموصل إلى تأسيس دولة وراثية تضم كلاً من الموصل والجزيرة وبلاد الشام، وإلى تكوين جبهة إسلامية متراصة لتسييج الإمارات الصليبية في المنطقة تمهيداً للقضاء عليها. ولم يكن طريقه إلى تحقيق هذين الهدفين مفروشاً بالورد، فقد أنفق عماد الدين جل وقته في الدخول في صراعات مرهقة مع الخليفة في بغداد ومع ورثة العرش السلجوقي. كانت مواقف عمادِ الدين زنكي السياسية شديدة التقلب، فمرة يهادن الخليفة، ومرة ينقلب عليه، ومرة يسالم دبيس، ومرة يعاديه، ومرة يضع يده في يد السلطان، ومرة يرفع عليه السيف. لم تكن سياسة استبدال الجلود وتغيير الوجوه حكراً على عماد الدين زنكي، فالكل من الخليفة والسلطان والأمراء كانوا يفعلون هذا من أجل تحقيق أهدافهم.

عندما تولى عماد الدين زنكى الموصل تسنى له أن يرى الأوضاع على الجهة الشامية عن قرب حيث كانت الصورة حالكة، فالصليبيون قد استوطنوا معظم سواحل الشام، أما المدن والحصون التي تحت حكم المسلمين فهى أشبه بجزر متناثرة ومعزولة في بحر من الكراهية السوداء، وأغلبية هؤلاء الحكام كانوا يتجنبون شر الصليبيين ويتحاشون الصدام معهم خوفاً على ضياع ملكهم وانهدام دنياهم. أضف إلى ذلك، أن الأمصار الإسلامية كلها تقريباً كانت في حالة فوضى واضطراب، فالخلاف على أشده بين أمراء البيت السلجوقى، كذلك الخلاف بين السلطان مسعود السلجوقى والخليفة العباسي المسترشد بالله على

أشده. وعلى الرغم من سوداوية المشهد السياسي العام وتفتت العالم الإسلامي، فقد عقد عماد الدين زنكي العزم على تجميع الشظايا الإسلامية المتناثرة في بلاد الشام من أجل النهوض في وجه الممالك الصليبية المقيمة.

بدأ عماد الدين زنكى معركته الطويلة بضم مدينة حلب. ولم يكن إسقاط تلك المدينة بالأمر الهين فقد ظل محاصراً لها شهوراً عدة قبل أن يدوخها ويفتحها عنوة، ثم قام بعدها بضم حماة وسرجى ودارا وحصن الأثارب. وعلى الرغم من محاولاته المتكررة لضم دمشق إليه إلا أن محاولاته كلّها تحطمت على أسوار تلك المدينة المنيعة. وشيئاً فشيئاً، استطاع عماد الدين زنكي أن يخلق جبهة إسلامية يمكنها أن تقف في وجه التمدد الصليبي. أما أكبر انجازات عماد الدين والتي لن تسقط من ذاكرة التاريخ فهي استرداده لإمارة الرها والتي كانت بيد الصليبيين قرابة الخمسين عاماً. كان أمير الرها "جوسلين" يعلم بنيّات عماد الدين فعمد إلى تقوية دفاعتها وتحصينها، فتظاهر عماد الدين بانشغاله في محاربة بعض القبائل الكردية عن أمر الرها. انطلت الحيلة على جوسلين الذي خفّف من تحصيناته للمدينة، فما كان من عماد الدين إلا وانقض عليها كالبرق، فوطئها بجيوشه، وأعادها إلى أحضان الأمة.

وبعد عام من نصره المدوي في الرها، انشغل عماد الدين بمحاصرة قلعة جعبر الواقعة على أكتاف الفرات. كانت تلك القلعة أشبه ببقعة سوداء في ثوب مملكته الأبيض، وكان سيدها متمنعاً عن الاعتراف بسيادة زنكي. وفيما كانت أسوار القلعة تتراخى أمام الضربات المتواصلة، اغتيل عماد الدين زنكي على يد أحد خدمه وهو نائم وذلك في عام 541هـ. نقل محمد سهيل طقوش في "تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام" تلك الرواية التفصيلية لواقعة الاغتيال والتي وردت في كتاب "الفتح القُسي في الفتح القدسي" لعماد الدين الأصفهاني إذ تقول إن عماد الدين إذا نام، "ينام حول سريره عدد من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه. ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه، ويزورونه زور الخيال في أحلامه... وهو يحبهم ويحبونه، ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم. وكان من دأبه أنه

إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده وخصاه. وإذا استحسن غلاماً استدام مروديته بالخصي والسل... فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص. فنام تلك الليلة... وحوله مماليكه. فانتبه قد شرعوا في اللعب، وأخذوا في الشرب والطرب. فزبرهم وزجرهم... فحرك رأسه يتوعدهم، وهينم بلسانه يتهددهم... فتولى كبيرهم الأمر والباقون ساكتون... وكان اسمه يرنقش، فخفّ إليه، وبرك عليه، وفرشه على فراشه، وغشيه في غشاشة، وذبحه في نومه... وخرج ومعه خاتمه، وهو لا يُرتاب به لأنه خاص عماد الدين زنكي وخادمه". انطلق يرنقش إلى القلعة، فأخبر حراسها بما صنع، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة، وبثوه بين صفوف عدوهم حتى يشيع الاضطراب، فلمّا دبت الفوضى، وكثر الهرج والمرج، رفع القادة الحصار، ورحلوا من معسكرهم في الحال.

وكما أوضح محمد طقوش فإن المراجع التاريخية تتفق مع الرواية المذكورة مع اختصار أو إهمال بعض التفاصيل الصغيرة. أمّا فيما يتصل بالقاتل، فلا خلاف على اسمه، ولكن الخلاف على هويته، فبعضهم يقول عنه إنه من أصل إفرنجي، وبعضهم الآخر يقول عنه إنه باطني الهوى. ويرجع محمد طقوش دوافع الاغتيال إلى واحد من ثلاثة: شخصية، ونفسية، وسياسية.

● العامل الشخصي: تهديد عماد الدين زنكي له بالعقاب، وخشيته من عاقبة التهديد.

● العامل النفسي: انزعاج يرنقش من قساوة عماد الدين زنكي وإهانته له أمام بقية الخدم، وشعوره الدفين بما حاق به من ظلم نتيجة إخصائه.

● العامل السياسي: احتمال أن يكون ليرنقش ميول باطنية تتناغم مع ميولات صاحب القلعة، الأمر الذي قد يرجح وجود تواطؤ مسبق بين الطرفين من أجل رفع الحصار. أما الاحتمال الآخر فهو أن يكون يرنقش، وبسبب أصوله المسيحية، قد اتفق سراً مع الصليبيين على قتل عماد الدين زنكي بعد استفحال أمره واشتداد بأسه.

وفي رأيي الخاص، إن الاحتمالات الواردة أعلاه تتسم بالمنطقية. وعموماً

لا يعني تغليب واحد منها نفي صحة البقية، إذ من الجائز أن تتشابك الدوافع الثلاثة لكي تدفع بيرنقش على قتل سيده. فعلى سبيل المثال، العاملان الشخصي والنفسي قد يتداخلان ويشتركان في إشعال رغبة القتل في نفس يرنقش. فالإحساس بالظلم بسبب الإخصاء - مثلاً - هو أحساس كامن ومقيم في النفس، ولكنه يحتاج إلى شرارة لتفجيره وإخراجه من عقاله، فجاء تهديد عماد الدين له بالعقوبة ليكون عاملاً مباشراً وداعماً لتبرير عملية الاغتيال.

أبو بكر بن إسماعيل التونسي

استشاط الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ووزيره اليازوي غضباً عندما أقدم المعز بن باديس زعيم قبائل صنهاجة المعروفة بولائها التاريخي للفواطم باستبدال التبعية الفاطمية بالتبعية العباسية، واستبدال الخطبة للخليفة الفاطمي بالخطبة للخليفة العباسي، واستبدال الخلع الفاطمية الخضراء بالخلع العباسية السوداء، وبحمل الشيعة على التحول إلى المذهب السني. أشار الوزير اليازوري على الخليفة أن يرسل إليه قبائل بني هلال وبني سليم التي عاثت في صعيد مصر فساداً. قصد الوزير بمشروعه التهجيري هذا أن يصطاد ثلاثة عصافير بحجر واحد. أولها أن يخلص الأراضي المصرية من شرور هاتين القبيلتين من دون أن يضطر إلى محاربتهم، وثانيها أن يلقن المعز بن باديس درساً قاسياً بعد أن انقلب على الخلافة الفاطمية، وثالثها أن يعيد أفريقيا للسباحة في الفلك الفاطمي. ولمّا تم تجهيزهم لدخول الشمال الأفريقي، بعث المستنصر بالله إلى المعز بن باديس بكتاب جاء فيه: " أما بعد ، فقد أرسلنا إليكم خيولا ، وحملنا عليها رجالاً فحولا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا". مضت قبيلتا هلال وسليم في حشود هائلة تحجب عين الشمس من كثرتها. فنزلت بنو سليم في المدن الليبية بعد أن خربتها، وأكملت قبيلة بني هلال رحلتها باتجاه إفريقيا (تونس الحالية)، فدخلت الحواضر والمدن كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا وأتوا عليه، وما من مكان دخلوه إلا وأفسدوه، وما من أحد وقف في طريقهم إلا وقتلوه. أمّا ابن باديس فقد انهزم أمامهم، فدخلوا القيروان فنهبوها واستباحوها وأحرقوا قلب ابن باديس عليها، فتحوّل إلى المهدية فحصّنها.

وقضى ابن باديس بقية عمره وراء أسوار المهدية حزيناً ومكسوراً يلعق جراحاته إلى أن مات وفي القلب غصة.

وبعد أن مرّت العاصفة، وانقشع الغبار، سار شيوخ مدينة تونس إلى ملك قلعة بني حماد الناصر بن علناس ليختار عليهم والياً على المدينة، فأشار عليهم برجل اسمه عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان. قام ابن خراسان بواجبه على أكمل وجه، وسار في الناس سيرة محمودة، وصالح العرب على إتاوة معلومة، فعاد الاستقرار وانتظم الحال. وبعد أن أقام بينهم أكثر من ثلاثين عاماً توفي عبدالحق، فورث نسله من بعده حكم المدينة زهاء مائة عام. ولم تكن لدويلة بني خراسان في يوم أي استقلال حقيقي، فقد كانت تتأرجح ما بين صنهاجة وبني حماد. ولعل أبرز ولاتها من بعد مؤسسها هو حفيده أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق الذي حكم تونس لأكثر من عشرين عاماً. وقد استهل أحمد ولايته بحمام دم مروع راح ضحيته عمه أبو الطاهر إسماعيل وعدد من أقاربه.

وبعد عشرين عاماً من ولاية أحمد دبتّ الفوضى في البلاد، واستولى صاحب صقلية روجار على عدد من المدن، وانقطع حبل دولة بني خراسان مدة عشرين عاماً. وبعد أن سئم أهل المدينة من الثورات والفتن اتفقوا على دعوة أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحق. كان أبو بكر يقيم وقتها في مدينة بنزرت والتي فرّ إليها بحياته خوفاً من ابن عمه أحمد الذي سبق له أن قتل والده إسماعيل بن عبد الحق. قبل أبو بكر الدعوة، فوصل إلى تونس بالليل، فرفعوه في قفة من السور وتسلّم المدينة. لم تمتد أيامه أكثر من سبعة أشهر فقد غدر به ابن أخيه فقتله، ووضعه في قارب لتحمله أمواج البحر، وأشاع بين الناس أنه مات غرقاً، ثم جلس في الحكم مكانه، وكان هذا في عام 544هـ. وبعد إحدى عشرة سنة انداست دولة بني خراسان وإلى الأبد تحت حوافر خيول الموحدين القادمين من أعماق الصحراء.

علي بن السلار

تدريجياً، ومع اقتراب العد التنازلي لدولة الفواطم، بدأت الدولة بفقدان ممتلكاتها في المشرق والمغرب حتى لم يبق لها سوى مصر. في ذاك الوقت، صار الوزراء وقادة الجيش هم أصحاب الكلمة العليا والخلفاء هم أصحاب الكلمة السفلى. فمنذ خلافة المستنصر بالله، بدأ الوزراء في سلب الخليفة إرادته، وفي انتزاع سلطاته، وفي حجبه عن الناس. وفي تلك الأثناء، كانت بلاد الشام فناءً للمنازعات وساحةً للمناوشات بين القوى الموجودة في المنطقة من السلاجقة والفاطميين والصليبيين. وقبل أن تسقط القدس في إيدي الصليبيين، وتتفجر فيها حمامات الدم، تقاتل السلاجقة والفاطميون على تلك المدينة، فكانت الغلبة للفاطميين. فلمّا صارت في إيديهم، وجدوا فيها طائفة من العسكر التابعين للسلاجقة، فألحقوهم بالجيش الفاطمي، وعادوا بهم إلى مصر.

كان من ضمن الرجال الذين توسّم فيهم الأفضل بن بدر الجمالي - قائد الجيش الفاطمي وقتها - الشجاعة والكفاءة رجل يقال له السلار، وفي قول آخر إسحاق بن السلار، فقرّبه منه وكرّمه، ومنحه لقب ضيف الدولة. ينتمي السلار هذا إلى قبيلة تدعى زرزارة، وهي من أعرق القبائل الكردية. ومن عباءة تلك القبيلة خرج رجال تركوا لنا نقوشهم على جدار التاريخ، مثل الأسرة البرمكية الشهيرة والمؤرخ المعروف ابن خلكان. وكان للسلار صبي اسمه علي قد اكتسبت نفسه منذ الطفولة صفات الفروسية، وتشرّبت منذ الصغر ملامح البطولة. ولتنمية الفنون القتالية في نفس الصبي، ولصقل مواهبه العسكرية عنده، تم

إلحاقه بمؤسسة خاصة لتهذيبه وتعليمه، حتى تخرج منها مكتمل الرجولة وتام الفحولة.

ظل ابن السلار منذ تخرجه، يتسلق سلالم المجد والنجاح، مستثمراً مواهبه العسكرية وسماته القيادية وما جُبِل عليه من حزم وجدية. فاستمر ابن السلار يترقى حتى أنعم عليه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بولاية الإسكندرية. وكان ابن السلار قد تزوج بامرأة يقال لها بلادة بنت القاسم كانت قد جاءت من شمال إفريقيا ومعها طفلها عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي. وأغلب الظن عندي أن ابن السلار ما تزوج ببلادة ولعاً بها وحباً لها. لم يتزوجها ابن السلار، وهي أم وفي يدها صبي، إلا لكونها من قبيلة صنهاجة الكبيرة والتي كانت لدعوة خلفاء الفواطم رحماً، وفي إيديهم سيفاً، ولصدورهم ترساً. كأنما أراد ابن السلار أن يجعل من هذا الزواج مفتاحاً للأبواب المغلقة في وجهه، وهو الكردي الغريب عن هذه البلاد.

وبعد وفاة الخليفة الحافظ لدين الله، واعتلاء ابنه الأصغر الظافر بالله سدة الحكم، اشتعل صراع محموم على منصب الوزارة، ففاز بها رجل يقال له نجم الدين سليم بن محمد بن مصال. أثار توزير ابن مصال حنق والي الإسكندرية ابن السلار، فسار إلى القاهرة لانتزاع الوزارة منه. فلمّا علم ابن مصال بقدوم خصمه، فرّ من القاهرة، فنزلها ابن السلار، وتقلد منصب الوزارة على الرغم من أنف الظافر بالله. في تلك الأثناء، حشد ابن مصال الحشود تأهباً لمنازلة ابن السلار، واسترداد الوزارة التي لم يهنأ بها سوى خمسين يوماً. لم تغب استعدادات ابن مصال عن عين ابن السلار، فسيّر جيشاً عليه ابن زوجته عباس الصنهاجي. التقى الجمعان في أرض الصعيد، فانتصر عباس، وهُزم ابن مصال وقُتل، ثم حزّ رأسه، وحمل إلى القاهرة، وطِيف به على رمح.

وبالرغم من انتصار ابن السلار المبين على خصمه وفوزه بالوزارة، إلا أن العلاقة ما بينه وبين الخليفة الظافر بالله كانت ولمدة أربعة أعوام مغلفة بالشك والتوتر، بدا وكأنهما يخفيان وراء ظهريهما للآخر خنجرا. فمن شدة شكهما ببعضهما أنهما لا يمشيان إلا وقد طوقا نفسيهما بمئات من الحرس خوفاً من

الغدر. ولا تُعرف بالدقة أسباب الوحشة ودواعي النفرة في ما بينهما، ولكن من المرجح أن يكون لتعصب الوزير للمذهب الشافعي، واستماتته جهاراً في استنبات فسائله في أرض مصر الفاطمية دور في تسميم العلاقة بينه وبين الخليفة الشيعي الإسماعيلي. ومن الجائز أن يكون ما بينهما من صدع سببه ما غلب على الخليفة الشاب من ميل للهو واللعب ومن تعلق بالجواري والصبيان والأغاني، فيما كان الآخر يغلب عليه الحزم والجدة، وتأنف نفسه من الهزل ومطارحة الجواري وشرب الخمرة.

وفي عام 548هـ، قدمت لابن السلار أخبار مفادها أن الفرنجة في طريقهم لاحتلال عسقلان، فأجرد عليهم حملة عسكرية بقيادة ابن زوجته عباس الصنهاجي ومعه نخبة من الأمراء ومنهم أسامة بن منقذ. وبينما كان عباس ومن معه ينتظرون قدوم العسكر في بلبيس، تذكّر الاثنان بحسرة طيب أرض مصر وحسنها ولذة المقام فيها، وكيف أنهما سيستبدلان هواء مصر ونيلها وزرعها ورغد العيش فيها بلقاء العدو ومناظر الموت والدم واحتمالات الموت هناك. وهنا بدأ ابن منقذ يوسوس لعباس، ويحرضه على الخلاص من ابن السلار، ويوعده بنيل الوزارة متى خلت مصر من زوج أمه. ولكن كيف السبيل لقتله؟ هنا أشار ابن المنقذ بيده لنصر بن عباس الصنهاجي، وكان يجلس معهما، وقال إن نصر هو من يقدر على القيام بهذه المهمة. لقد أصاب ابن منقذ كبد الحقيقة، فعندما رُزق عباس من زوجته بنصر، عاش الصغير في بيت جدته، وكان ابن السلار يحدب على نصر ويعزه.

عاد نصر قافلاً إلى القاهرة في غفلة من زوج جدته ابن السلار، فاجتمع بالخليفة الظافر بالله سراً، وأعلمه بالحال التي قدم من أجلها، فسرّ الخليفة بذلك وانتشى، وأيده في ذلك وشدّ على يده. وكان من الأمور التي حملها الظافر في قلبه على ابن السلار أن الأخير كان منزعجاً على الدوام من العلاقة الحميمة التي توطدت بين نصر والظافر بالله، وكان الاثنان غاية في الحسن والجمال.

يخبرنا المقريزي في "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء" بتفاصيل

الساعات الأخيرة من حياة ابن السلار الذي غدر به نصر بن عباس، فكان حال ابن السلار مع نصر كحال مجير ابن عامر. مضى نصر إلى دار جدته، فأخبر ابن السلار أن والده قد أعفاه من السير إلى محاربة العدو شفقة عليه من الحرب وأهوالها، فقبل ابن السلار ذلك. ولمّا كان من الغد، قضى ابن السلار يومه بالكامل في تجهيز المراكب الحربية للحاق بالجيش. ولمّا غفا النهار، عاد ابن السلار إلى داره، وقد تملّكه التعب والمشقة، فاستلقى على سريره ونام. فلمّا تأكد الفتى من نوم زوج جدته، دخل بهدوء وبيده السيف، ثم هوى به، فأصابت الضربة قدم ابن السلار. فقام من شدة الألم، وصرخ في نصر: "إلى أين يا كليب؟". فانطلق نصر خائفاً إلى خارج الدار، وكانت تنتظره جماعة من أصحابه، فأخبرهم بما صار، فقالوا له: "قد قتلت نفسك وقتلتنا". ثم دخلوا الدار، وكان أحد الخدم مع ابن السلار في غرفته، فقتلوهما معاً، ثم قطعوا رأسه، وذهب به نصر إلى الظافر لدين الله!

ما أن بلغت الأخبار عباس الصنهاجي حتى خف مسرعاً إلى القاهرة ليقبض على الوزارة التي اشتراها بدم ابن السلار. فاز عباس بالوزارة، وخسرت الدولة عسقلان والتي كانت آخر معاقل الفاطميين في الشام من دون أن يراق في سبيلها قطرة دم. أمّا أتباع ابن السلار فقد ثاروا على الخليفة ووزيره، ثم خرجوا ليلاً قاصدين الشام خوفاً أن يبطش بهم. ولم تمض سنة على مقتل ابن السلار حتى غدر نصر بالخليفة الظافر بالله بتحريض من والده عباس - كما سيأتي معنا في صفحات قادمة - ، وثار والي الصعيد طلائع بن زريك ومعه أمراء الفواطم وأهل القاهرة على عباس وولده، ففرّ الاثنان بأهلهما وخدمهما بعد أن نهبا ما يقدران عليه من المال إلى الشام، فهجم الصليبيون عليهم، فصادروا ما معهم من الأموال والمتاع، وقتلوا عباس، وأسروا نصر. وبعد زمن، أرسلوا نصر مكبلاً في الأغلال إلى القاهرة مقابل مال دفعه الفواطم لهم، فأخذوه وشنقوه على باب زويلة.

الظافر بالله

اسمه إسماعيل، وكنيته أبو منصور، ولقبه الظافر بالله، وترتيبه الثاني عشر بين الخلفاء الفاطميين. تولّى الخلافة بعد وفاة والده الحافظ لدين الله، وكان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً. وما أن تربع فوق عرش البلاد حتى هبّت عاصفة سياسية سببها أن علي بن السلار - والي الإسكندرية - قد هاج وماج عند سماعه تنصيب نجم الدين سليم بن مصال وزيراً للخليفة. حشد ابن السلار الحشود، وسار إلى القاهرة لحرب ابن مصال الذي خاف المواجهة فلاذ بالفرار. دخل ابن السلار قاهرة المعز، وجلس مكان ابن مصال، والخليفة الظافر يتفرج على ما يجري من دون أن يجرؤ على فعل شيء. وكما أوضحنا عند استعراضنا لمقتل ابن السلار أن ابن مصال جمع جيشاً من أجل استرداد الوزارة إلا أن ابن السلار استطاع أن يهزمه وأن يضرب عنقه. أثار انتصار ابن السلار امتعاض الخليفة لكنه أعجز من أن يقف في وجه وزيره.

وكما أسلفنا، فإن العلاقة ما بين الخليفة ووزيره كانت محفوفة بالشك. فالخليفة والوزير لا يمشيان إلا وقد أحاطا نفسيهما بالمئات من الخدم والغلمان خوفاً من طعنة بالظهر. ولعل الأسباب التي ربما أسهمت في تأجيج الكراهية في ما بينهما اختلاف الميول المذهبية، فالخليفة شيعي إسماعيلي والوزير سني شافعي. بالإضافة إلى هذا، فالخليفة بحكم صغر سنه كان شغوفاً بحياة اللهو واللعب، والوزير بحكم سنه ونشأته كان أقرب ما يكون إلى عسكري صارم في زي وزير. ومن المحتمل أيضاً، أن يكون النفور بينهما يرجع كذلك إلى امتعاض

الوزير مما يشاع بين الناس عن علاقة محرمة تجمع بين الخليفة الظافر بالله وربيب ابن السلار وحفيد زوجته نصر بن عباس الصنهاجي.

وبعد قرابة أربعة أعوام من وزارة ابن السلار، قام ربيبه نصر بقتل زوج جدته غيلة وفي سريره، وذلك بتحريض من والده عباس والأمير أسامة بن منقذ، وبمباركة وتأييد من الخليفة الظافر. وكمكافأة لنصر على صنيعه فقد خلع الخليفة على والده عباس منصب الوزارة، وأهدى ابنه نصر الأقطاعات والمنح، الأمر الذي جعل الناس يتحدثون عنهما وأن الخليفة يفعل بنصر ما يفعل بالنساء.

وبعد عام من مقتل ابن السلار، امتدت يد نصر الغادرة لتفتك بالخليفة الذي كان دوماً كغيمة تنسكب عطايا وهدايا في يدي نصر. في تلك الليلة سار الخليفة بصحبة خادمين أو أكثر إلى قصر ابن عباس. فلمّا دخلوا القصر هجم عليهم رجال نصر فقتلوهم إلا واحداً فرّ بجلده وسط الظلام. ولكي يخفي نصر أي أثر فقد قام برمي الخليفة ومن قُتل معه في جب، ثم وضع قطعة رخام على رأس الجب لئلا يعرف به أحد. وبعد أن أخفى نصر معالم الجريمة أخبر والده عباس بما حصل. فانطلق عباس إلى قصر الخليفة متظاهراً بالخوف على ما قد حدث للخليفة، فسأل عنه، فقال له أحد الخدم: "ابنك يعرف أين هو ومن قتله"، فقال عباس: "ما لابني به علم". ثم جاء بأخوي الظافر وابن أخيه فضرب أعناقهم بعد أن اتهمهم بقتل الخليفة. وأحضر ابن الظافر وله من العمر خمسة أعوام فبايعه بالخلافة في بركة من الدماء. ومنذ تلك الساعة والخليفة الصغير لا يقوى على مسح ذلك المشهد السادي والدموي من رأسه الصغير فأصيب بالصرع، ومات بعدها بستة أعوام!

اتفق المؤرخون على تفاصيل عملية الاغتيال وعلى هوية القاتل، لكنهم اختلفوا قليلاً على حيثيات الجريمة ودواعيها. معظم المؤرخين يرجعون أسباب الاغتيال إلى نفور الأمراء والقادة من الأمير أسامة بن منقذ لكونه غريباً عن

البلاد ولدوره في تهييج عباس وابنه على قتل الوزير السابق ابن السلار. ولمّا وصلت إلى أسماع ابن منقذ ما يتهامس به رجال الدولة وما يتحدثون به عند الخليفة محرضين أياه على طرده من البلاد، ذهب ابن منقذ إلى عباس فقال له: "كيف تصبر على ما يقوله الناس في حق ولدك واتهامهم الخليفة أنه يفعل به ما يفعل بالنساء"، فشق كلام ابن منقذ على عباس، فما زال يحرض ابنه على الخليفة حتى قتله على النحو الذي شرحناه أعلاه. أمّا الرواية الأخرى فيسجلها لنا ابن منقذ نفسه في كتابه "الاعتبار" حيث يزعم فيها أن الخليفة الظافر كان يكره عباس، وأنه كان يحرض ابنه نصر على قتل أبيه وتوزيره مكانه. ولمّا علم ابن منقذ بما يخطط له الخليفة ذهب ليعظ نصر وليثنيه عن الاستسلام لهذه الفكرة الرهيبة. ثم أن عباس بدأ هو في استمالة وملاطفة ولده نصر لصرفة عن الإقدام على قتله ولتحريضه على توجيه خنجره إلى صدر الخليفة بدلاً من صدر أبيه.

وفي رأيي الشخصي، فإن رواية ابن منقذ يصعب الأخذ بها لكونها جاءت من أحد الأطراف المتورطة في جريمة الاغتيال، الأمر الذي يرفع من درجة الشك في مدى مصداقيتها، خصوصاً وأنه في روايته تلك قد غسل يديه من كل تلك الدماء التي سُفكت وارتدى فيها دور الناصح الأمين! ولهذا السبب فإنه يمكن لنا قبول الرواية الأولى لعدم وجود نقيض لها ولورودها في معظم المراجع التاريخية. إن قبولنا بهذه الرواية لا يعني تماماً التسليم بها إذ إنها برأيي لا تخلو من بعض الثغرات التي تجعل الشك يتسرب إليها. فمن ضمن الأسئلة التي يمكن للمرء أن يطرحها بعد سماعه للرواية الأولى:

- لماذا يحرض ابن منقذ الوزير عباس على قتل الخليفة على الرغم من أنه لم يصدر من قبل الخليفة أي تهديد سواء بنفي أو بقتل ابن منقذ؟! هل الخلاص من الخليفة سيصرف كبار الدولة عن التحريض على ابن منقذ أم أنه سيزيد من إصرارهم على التخلص منه؟!
- كيف لم يسمع الوزير عباس بما يتداوله الناس بشأن وجود علاقة

مشبوهة بين الخليفة وابنه نصر؟! أيعقل أن يتناقل الجميع تلك القصص من دون أن يعرف بها وزير الدولة وحاكم البلاد الفعلي؟!

● إذا كان نصر بن عباس يريد حقاً أن يخرس الألسنة التي طعنته في رجولته فلماذا أخفى قتله للخليفة؟ ألا يفترض به ما دام حريصاً على تبرئة ساحته أن يفخر بقتله للخليفة ليبرهن لهم أنه لم ينل كل تلك المنح والإقطاعات (مهراً) لذكورته المهدورة؟!

سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه

أدت الخلافات المستعرة ما بين أفراد البيت السلجوقي إلى استهلاك طاقات الدولة وإنهاكها في حروب بينية تسببت في إضعافها وفي تمزيقها إلى ثلاث دويلات: واحدة في العراق وكرمان، وثانية في الشام، وثالثة في الأناضول. فبعد وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، نصّب الأمير خاص بك بن بلنكري ابن شقيق مسعود والمعروف بملكشاه بن محمود بن محمد سلطاناً، لكن سرعان ما عاد وعزله ورماه في السّجن بسبب انصراف ملكشاه الدائم إلى اللهو والشرب، وأقام مكانه أخاه محمد بن محمود، فقام محمد بقتل خاص بك بن بلنكري خوفاً من أن يصيبه ما أصاب أخاه.

وفي تلك الأثناء، فرّ ملكشاه من محبسه، وسرّ الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله بوفاة السلطان مسعود، فتطلّع للتحرر من النفوذ السلجوقي، فجاء بسليمان شاه بن محمد بن ملكشاه عم السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه وأخذ منه العهود والمواثيق، وبايعه بالسلطنة، ثم سيّره إلى محاربة ابن أخيه السلطان محمد بن محمود. خرج سليمان شاه بجيشه، فانضم إليه كلّ من ابن أخيه والسلطان المعزول ملكشاه بن محمود وإيلدكز أتابك أذربيجان، فالتحموا بجيش السلطان محمد بن محمود الذي استطاع أن يشتت جيوش التحالف ويمزق جمعهم، وأن يمسك بعمه سليمان شاه أسيراً.

وعلى الرغم من انتصار السلطان محمد الصريح على القوى المناوئة له إلا أن الخليفة المقتفي بالله أصرّ على عدم الاعتراف به سلطاناً، فسار إليه السلطان محمد وحاصر بغداد. وأثناء تطويقه لها، جاءته الأخبار بأن أخاه ملكشاه

وإيلدكز أتابك أذربيجان قد أعادا لملمة صفوفهما وأنهما يزحفان بجيوشهما من أجل الاستيلاء على همدان، فاضطر السلطان محمد إلى رفع الحصار والعودة إلى همدان. وبعد زمن قصير من نجاحه في كسر جيش ملكشاه وإيلدكز توفي السلطان محمد.

أدت الوفاة المفاجئة للسلطان محمد إلى تفجير الخلافات وإشعال الصراعات مجدداً حول السلطنة حيث انقسم الأمراء والأتابك ما بين ثلاثة أسماء: ملكشاه بن محمود، وعمه سليمان شاه بن محمد، وأرسلان بن طغرل. انتهى الصراع بمبايعة سليمان شاه بعد أن غُيب ملكشاه بن محمود عن الساحة بواسطة سُم دسّه عليه أعداؤه.

لم تطل أيام سليمان شاه في الحكم كثيراً فقد برهنت الأيام القليلة التي جلس فيها على سرير الملك أنه ليس بكفء له. فقد عُرف عنه أنه كان فاسقاً متهتكاً، منصرفاً إلى اللهو واللعب، منكباً على الخمر والمساخر. وقال ابن الأثير عنه في "الكامل في التاريخ" إنه كان لا يتحرج من شرب الخمر في نهار رمضان. وينقل الصفدي في "الوافي بالوفيات" عن ابن الأثير أن سليمان شاه كان يجمع المساخرة ولا يلتفت إلى الأمراء والعساكر، فأهمل الأمراء والعسكر الوقوف على بابه والجلوس بين يديه. وكان لسليمان رجل معروف بالعقل والتدين يقال له كردبازو وهو من كبار الخدم. وفي يوم، دخل عليه هذا الأخير مجلسه، فبدأ في معاتبة سليمان شاه على إفراطه في الشراب وانصرافه عن النظر في أحوال العباد والبلاد، فأمر سليمان من عنده من المساخرة بالعبث بكردبازو حتى أن بعضهم كشف له سوءته، فخرج من عنده مغضباً وسليمان يضحك.

ويقول ابن الأثير في كتابه الكامل إن سليمان لمّا أفاق من سكره في الغد بعث إلى خادمه يعتذر له عما جرى له، فقبل كردبازو عذره، لكنه ترك الحضور إلى مجلسه. ثم أن كردبازو علم أن سليمان قد كتب إلى صاحب الري يستنجد به ضد كردبازو، فزادت الوحشة بينهما، فجمع كردبازو الأمراء وقادة الجيش، فعقدوا العزم على التخلص من سليمان شاه. وكان أول ما عملوا أنهم جاءوا

بالمساخرة الذين يغشون مجلسه كل ليلة فقتلوهم، ففزع سليمان شاه، لكن كردبازو طمأنه، وقال له: "إنما أفعل ذلك صيانة لملكك"، فتصالحا.

وفي أحد الأيام، أقام كردبازو دعوة عظيمة في بيته دعي إليها السلطان والأمراء والقادة. فلمّا دخل السلطان بيته، قُبض عليه وعلى وزيره وأصحابه، ثم أخذوا الوزير وأصحابه فقتلوهم، وسيق السلطان المغلوب على أمره إلى الحبس، ثم بعث إليه كردبازو من خنقه حتى الموت، وقيل بل سقاه السم فمات في موضعه وذلك في عام 556هـ.

طلائع بن رزيك

ذكرنا في معرض حديثنا عن الوزير علي بن السلار أن ربيبه نصر بن عباس الصنهاجي، وبتحريض من والده عباس والأمير أسامة بن منقذ، وبمباركة من الخليفة الظافر بالله، قد غدر بزوج جدته ابن السلار، فقتله غيلة وهو نائم. وبعدها بزمن قصير، وبتحريض أيضاً من والده عباس وابن منقذ، غدر نصر بالخليفة الظافر، فقتله ورمى بجثمانه في بئر. وعلى الرغم مما أظهره الوزير عباس وابنه نصر من غضب لمقتل الخليفة، ومن حزن على فقدانه، فإن الحيلة لم تنطل على أحد. فقد شغب الجند، وهاج صبيان الخليفة، وبعثت أخت الخليفة المغدور وعمة الخليفة الفائز الصبي بخصلات من شعر نساء القصر في طي كتاب إلى طلائع بن رزيك والي صعيد مصر. وعندما بلغت صرخة الأميرة الفاطمية ابن رزيك نهض ليلبي نداء الدم وأخذ الثأر.

علم الوزير عباس بحضور ابن رزيك إلى القاهرة في جموع غفيرة من الجند، فغشيه الخوف والهلع، وأحس أنه قد أشرف على الهلاك، خصوصاً وأن الجند من حوله قد تفرقوا عنه، والناس يسمعونه في كل يوم ما يكرهه من الأقوال والأفعال. فلمّا تقطّعت به حبال الأمل، وسدت في وجهه أبواب النجاة، طفق هو وولده نصر في نهب خزائن القصور، وسرقة ما خف حمله وغلا ثمنه من التحف والمتاع، ثم هربا برفقة الأهل والخدم باتجاه الشام. في تلك الأثناء، وصل رزيك ورجاله القاهرة، فشقّ طرقاتها وقد تلفع هو وأصحابه

بالسواد، ونثر شعره حزناً على مقتل الظافر، وسار والرماح بين يديه وعليها شعور الأميرات الفاطميات. ثم جاء ابن رزيك بخادم كان قد شهد مقتل الخليفة، فأرشدهم إلى المكان الذي أخفي فيه جثمان الخليفة، فأخرجوه وغسلوه وكفنوه، ثم صلوا عليه ودفنوه.

كان الحريق لايزال مستعراً في الصدور، ولا شيء يطفئ هذا الحريق غير دم عباس وولده نصر. وقيل إن أخت الظافر وعمة الفائز بعثت بكتاب إلى الفرنجة تعلمهم بقدوم عباس ومن معه، وتبذل لهم من الأموال للإمساك بهم. فخرج الفرنجة للقائهم، فسلبوهم ما سرقوه من الأموال والتحف والمتاع، وقتلوا عباس، وأسروا ابنه نصر. وكأن بنصر وهو يرسف في الأغلال محمولاً إلى مصر تمنى لو أن الفرنجة قد أجهزوا عليه قبل أن يعيدوه إلى مصر. وقد أخبرنا ابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" روايتين حول ما ذاقه نصر بن عباس من ألوان العذاب قبل أن يسلم الروح. فهناك رواية تقول إن أخت الظافر قطعت يد نصر، وضُرب ضرباً مهلكاً، وقرض جسمه بالمقاريض، ثم صُلب على باب زويلة حياً حتى مات. والرواية الأخرى تقول إن ابن رزيك دفع بنصر إلى نساء الظافر، فأقمن يضربنه بالقباقيب أياماً، وقطّعن لحمه وأطعمنَه إياه، إلى أن مات ثم صُلب.

قبض ابن رزيك على الوزارة بلا ضربة سيف، وبلا قطرة دم. كان هو الآمر الناهي، وبيده الحل والربط، ولا أحد في طول البلاد وعرضها يفوقه شأناً. كان ابن رزيك هو الخليفة رسماً، والفائز هو الخليفة اسماً. وكيف للفائز أن يكون له من الأمر شيء وهو مازال في الخامسة من العمر. وبما أن لا شيء يضاهي ابن رزيك في مصر كلها، فقد استبد به شبق التسلط، وأعماه حب التملك عن قراءة ما حلّ بمن سبقوه من الوزراء. وبعد ستة أعوام قضاها خليفة على البلاد، مات الفائز عن عمر لا يتجاوز الإحدى عشرة سنة. ولمّا مات الفائز، دخل ابن رزيك القصر، وقال: "من ها هنا يصلح للخلافة؟"، فعدّد له

كبير الخدم أسماءهم، وذكر له منهم رجلاً كبير السن، فأمر بإحضاره، فقال له بعض اصحابه: "لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير (يقصد الفائز) وترك الكبار واستبد بالأمر". فصرف ابن زريك الرجل، وأمر بإحضار العاضد لدين الله، وكان مراهقاً قد شارف على البلوغ، فنصّبه خليفة على البلاد، ولم يكن والده خليفة من قبل. وقد أثار اختيار ابن رزيك للعاضد حالة من الاحتقان لدى كبار أفراد الأسرة الفاطمية لما في هذا الاختيار من مخالفة صريحة لقواعد المذهب الإسماعيلي والذي يقضي بالخلافة في الأعقاب. وحتى تكون الخلافة في عقبه، ولا تخرج أبداً عن نسله، أجبر ابن رزيك الخليفة بالزواج من ابنته، فاضطر العاضد لتنفيذ مشيئة ابن رزيك كرهاً.

ضجّ الفواطم والأمراء من تزايد قبضة ابن رزيك وتماديه حتى صار أشبه بالكابوس الثقيل. فقد فرّق الأمراء، وقتل بعضهم، وعيّن العاضد خليفة وهو ليس بأهل للخلافة، وزوّجه من ابنته، واستبد بالأمر والنهي، وصارت أموال مصر تصب في يديه. وكان أشدهم نقمة عليه وكرهاً له عمة الخليفة العاضد ست القصور. ويحكى أن ابن رزيك قد سبق له أن قتل أختها الكبرى بعد أن دبّرت مؤامرة لتصفيته، لكنه أبطل مفعولها في اللحظات الأخيرة، وقتلها سراً. ويقال إن ست القصور راحت تكتب إلى الأمراء تحرضهم عليه، وتغريهم بقتله، فأجابوها إلى ذلك. غير أن ابن خلكان في "وفيات الأعيان" والذهبي في "سير أعلام النبلاء" يشيران بأصابع الاتهام إلى الخليفة العاضد بعد أن ضيّق عليه ابن رزيك قبضته، وجعله في أسره. أمّا في ما يتعلّق بتفاصيل حادثة الاغتيال، فيذكر المؤرخون أن جماعة من الرجال تربّصوا به في دهليز القصر. وعندما خرج إليهم ابن رزيك في الدهليز، وثبوا عليه بسكاكينهم، فأصابوه بجراحات عديدة. ولمّا علا الصوت، هجم مماليكه، فقتلوا من أصابوه. وبعدها حمل ابن رزيك إلى داره، وفيه بقية حياة، ودماؤه تسيل بغزارة. ثم بعث ابن رزيك إلى الخليفة العاضد يعاتبه على هذا الصنيع، فحلف له الخليفة أنه ما فعل ذلك، ولن يرضى

بمثل هذا. فقال له ابن رزيك : "إن كنت بريئاً فسلم عمتك إلي حتى انتقم منها"، فأمر العاضد بحملها إلى ابن رزيك، فأخذوها قهراً، وأحضرت عنده، فقتلها خنقاً. ومن عجيب ما يرويه ابن خلكان عن ابن رزيك في "وفيات الأعيان" أنه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولة ابن رزيك بعد مقتل ابنه في التاسع عشر!

المستنجد بالله

وصفه ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ" بأنه من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس. ويذكر أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس، فأطال حبسه، فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال: "أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس"، ولم يطلقه. وكانت خلافة المستنجد قد دامت إحدى عشرة عاماً (555-566 هـ). وللمستنجد قليل من الاسهامات الشعرية كما جاءت في كتاب "تاريخ الإسلام" للذهبي. ومن ذلك قوله في وصف بخيل:

وَبَاخِلٍ أَشْعَلَ فِي بَيْتِهِ
تَكَرُّماً مِنْهُ لَنَا شَمْعَهْ
فَمَا جَرَتْ مِن عَيْنِهَا دَمْعَةٌ
حَتَّى جَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَهْ

وكذلك بيتين في الغزل:

عيرتني بالشيب وهو وقار
ليتها عيرت بما هو عار
إن تك شابت الذوائب مني
فالليالي تزينها الأقمار

وهذان البيتان الأخيران قد طبقا الآفاق شهرة، ولطالما تغنى بهما أهل الطرب في مواويلهم وأغانيهم من أمثال المرحوم ناظم الغزالي.

أما عن اغتياله، فتفصيل ذلك أن المستنجد كان أثناء مرضه الأخير قد ضاق ذرعاً باستبداد استاذ الدار عضد الدين وقطب الدين قايماز أكبر أمراء بغداد، فكتب إلى وزيره أبي جعفر البلدي الذي كان على عداء مع عضد الدين يخبره فيه بعزمه على القبض عليهما وصلبهما. غير أن طبيب الخليفة ابن صفية حمل كتاب الخليفة إلى أستاذ الدار بدلاً من الوزير، فقال له الأخير: "تعود وتقول إنني أوصلت الخط إلى الوزير"، ففعل الطبيب ذلك. ثم أن أستاذ الدار استدعى من فوره كلاً من الأمير قطب الدين والقائد يزدن وتنامش، وعرض كتاب الخليفة عليهما، فاتفق رأيهم على قتله، فدخل إليه يزدن وقايماز، فحملاه إلى الحمام بعد أن حمي زمناً بناء على وصية طبيبه ابن صفية وهو يستغيث والقياه، وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات مخنوقاً من الحرارة.

وبعد أن تأكد لهم وفاة الخليفة، أخرج كل من عضد الدين وقطب الدين ابن الخليفة أبا محمد الحسن من حبسه، وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيئ بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وحلف أيماناً غليظة. وفي اليوم التالي دعي الوزير أبي جعفر لمبايعة المستضيء. وعندما مثل أمام الخليفة، أخذه رجال الخليفة وسحبوه، ثم عمدوا إلى قطع أنفه ويديه ورجليه، وبعدها دقت عنقه، وجمع في ترس وألقي في نهر دجله.

غير أن دوائر السوء سرعان ما دارت على المتآمرين، فطالهم العذاب والعقاب ولو بعد حين. فالطبيب الخائن خيّره المستضيء ما بين تجرع شربة مسمومة أو ضرب عنقه بحد السيف، فاختار السم مكرهاً وهلك. وأما كبير أمراء بغداد قطب الدين فقد أراد الوقيعة بالخليفة إلا أن مخططه باء بالفشل، فنهبت داره وأخذت أمواله، فهرب من بغداد، ومرض في طريقه إلى الموصل

حيث دفن فيها. وأما تنامش فقد نهبت داره وأمواله، وتاه زمناً بعيداً عن بغداد، ثم عاد إليها ليقضي ما تبقى من عمره فيها وقد اضمحل أمره وتلاشى ذكره ورق حاله. وأما الوزير عضد الدين فقد مزقت جسده خناجر النزارية الحشيشية فيما كان يهم بمغادرة بغداد قاصداً مكة للحج. فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين!

محمد بن سعد الجذامي

اشتهر بين الناس بابن مردنيش - نسبة إلى جَدّه الثالث - وأيضاً بصاحب مرسيه. أمّا كنيته فهي أبو عبد الله. وقد جاء في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي أن محمداً هذا كان خادماً لابن عياض، يحمل إليه السلاح، ويتصرف بين يديه في حوائجه. فلمّا حضرته الوفاة، اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد، فسألوه عن الشخص الذي سيسند إليه أمورهم من بعده، وكان لابن عياض ولد فأشاروا به عليه، فرد عليهم بقوله: "إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر، ويغفل عن الصلاة. فإن كان ولا بد، فقدموا عليكم هذا - وأشار إلى محمد بن سعد - فإنه ظاهر النجدة، كثير الغناء، ولعل الله أن ينفع به المسلمين".

أفرد له أهل السير والتراجم مساحات من المديح ومثلها من القديح. وصفوه بالشجاعة والرئاسة، وبالفروسية والشهامة. وتحدثوا عن نسبه الراقي وعن طموحه العالي. لكنهم نعتوه كذلك بالانغماس في حب القيان والزمر والرقص، وبالميل لحياة الدعة واللهو، وقالوا في مجونه ولعبه حكايات. ولعل أكثر ما أُخِذَ على ابن مردنيش ممالأته للفرنجة ومصانعتهم، والاستنفار بهم ضد بني جلدته من ذوي الدين الواحد واللسان الواحد والدم الواحد. وقد قيل في تبعيته لهم واستكانته أمامهم إنه كان يبذل لملك برشلونة في كل عام ضريبة، ويدفع مثلها لملك قشتالة. ولم يكتف بذلك، بل استقدم عناصر من الفرنجة لبناء جيشه وتقويته. ولكي يرغبهم في العمل عنده، قام ببناء منازل لهم وأقام لهم حانات للخمور. ولكي يفي بوعوده لملوك الفرنجة، ويمنع عنه سخطهم، قام ابن

مردنيش بعصر شعبه حتى آخر قطرة، فأثقل عليهم الضرائب والمغارم إلى حدّ لا يطاق ولا يحتمل. وقد قيل إنه لكي يشبع بطون ملوك قشتالة وبرشلونه وغيرهم، فرض رسوماً على كل شيء حتى الأعراس والمآتم!

وهنا حكاية عجيبة لرجل منحوس من عامة الناس، نقلها ابن الخطيب في "الإحاطة في أخبار غرناطة" على لسان أحد الثقاة: " كنت بجيان (منطقة في الأندلس) مع الوزير أبي جعفر الوقشي، فوصل إليه رجل من أهل مرسية، كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيره فقال الرجل، أخبرك بما رأيته من جور عماله وظلمهم. وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن، كان له بنظر شاطبة، ضويعة يعيش بها، وكان لازمها (عبئها) أكثر من فايدها (غلتها)، فأعطى لازمها حتى افتقر، وفر إلى مرسية. وكان أمر ابن مردنيش، أن من فرّ من الرعية أمام الغزو، أخذ ماله إلى المخزن. قال الرجل الشاطبي، فلما وصلت إلى مرسية فاراً عن وطني، وخدمت الناس في البنيان، فاجتمع لي مثقالان سعديان، فبينما أنا أمشي في السوق، وإذا بقوم من أهل بلدي شاطبة، ومن قرابتي، فسألتهم عن أولادي وزوجتي، فقالوا إنهم باقية بيد أولادك، فقلت لهم عسى تبيتوا عندي الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً، وضربنا دفاً. فلما كان عند الصباح، وإذا بنقر عنيف بالباب. فقلت من أنت؟ فقال إنا الطرقون الذي بيده قبالة اللهو، وهي متفقة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذي عملت. فقلت له والله ما كانت لي عرس. فأخذت وسجنت. حتى افتديت بمثقال واحد من الذي خدمت به. وجئت إلى الدار. فقيل لي إن فلاناً وصل من شاطبة الساعة. فمشيت لاسأله عن أولادي. فقال تركتهم في السجن. وأخذت الضويعة من أيديهم في رسم الجبالى، فرجعت إلى الدار إلى قرابتي. وعرفتهم بالذي طرأ عليّ، وبكيت طول ليلتي، وبكوا معي. فلما كان من الغد، وإذا بناقر بالباب. فخرجت فقال إنا رجل صاحب المواريث. أعلمنا أنكم بكيتم البارحة. وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غني، وأخذتم كل ما ترك. فقلت والله ما بكيت إلا نفسي، فكذبني وحملني إلى السجن، فدفعت المثقال الثاني، ورجعت إلى الدار وقلت أخرج إلى الوادي، إلى باب

القنطرة، أغسل ثيابي من درن السجن، وأفر إلى العدوة فقلت لامرأة تغسل الثياب، إغسلي مما عليّ، وجردتها، ودفعت لي زناراً ألبسه. فبينما أنا كذلك، وإذا بالخصى قائد ابن مردنيش يسوق ستين رجلاً من أهل الجبل، لابس الزنانير. فرآني على شكلهم، فأمر بحملي إلى السخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام. فلبثت أخدم وأحضر مدة عشرة أيام، وأنا أبكي وأشتكي للقائد المذكور، حتى أشفق عليّ وسرحني. فرجعت أريد مرسية، فقيل لي عند باب البلد، ما اسمك، فقلت: محمد بن عبد الرحمن، فأخذني الشرطي، وحملت إلى القابض بباب القنطرة. فقالوا هذا من كتبته من أرباب الحالي بكذا وكذا دينار. فقلت والله ما أنا إلا من شاطبة. وإنما اسمي وافق ذلك الاسم، ووصفت له ما جرى عليّ، فأشفق وضحك مني؛ وأمر بتسريحي فسرت على وجهي إلى هنا"(*).

كبر أمر ابن مرديش وكبرت معه مملكته. وشيئاً فشيئاً، بدأت مدن شرق الأندلس تتساقط كالثمار اليانعة في سلته، حتى كاد أن يستولي على جميع بلاد الأندلس. أثارت انتصارات ابن مرديش وانفتاح شهيته لالتهام الأندلس وانتزاع أراضيه من باقي ملوك الطوائف قلق دولة الموحدين والتي كانت حينها في عنفوان شبابها وتمام عافيتها. كان السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي بعد أن توطدت له أفريقيا ودانت له بالطاعة، قد عزم على دخول الأندلس وضم شظاياها المتناثرة تحت راية الموحدين. ومنذ وطئت أقدام هؤلاء القادمين من جوف القفار، وأمر ابن مردنيش كل يوم في انحسار. ظل الموحدون يتقدمون إليه وهو يتأخر للوراء حتى أطبقوا حصارهم على مرسية. وأثناء حصار أبي يعقوب له، أسلم ابن مردنيش الروح. لا يحدثنا ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" عن كيفية وفاته، ولكنه يخبرنا أن صاحب مرسية عندما استشعر الموت، جمع أولاده وأوصاهم أن يدخلوا في طاعة أبي يعقوب، ويسلموا له البلاد. وهذا ما جرى بالفعل، فالمؤرخون يتفقون على أن أبناء صاحب مرسية

(*) نص مأخوذ من كتاب ابن الخطيب، "الإحاطة في أخبار غرناطة".

قد أقبلوا على الموحدي أبي يعقوب يحملون له مفاتيح البلاد، ففرح بهم وطرب لمقدمهم، وتزوج من أختهم، ووصلهم بالآمال الجزيلة، وأقاموا معه.

غير أن الصفدي في "الوافي بالوفيات" يشير صراحة بأصابعه إلى والدة صاحب مرسية، ويتهمها بدس السم له لمّا خافته، ولا نعلم ما السبب الذي جعلها تخاف ابنها! ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" يضعنا بين روايتين. الأولى، تقول إن وفاة أبي عبد الله محمد تعود إلى هلعه الشديد من الأخبار التي جاءته محذرة من زحف أبي يعقوب على رأس أكثر من مائة ألف مقاتل، فلم يحتمل قلبه الخبر، فسقط مريضاً حتى مات! أمّا الرواية الأخرى، فتقول إن والدته سقته السم لأنه قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته، فنصحته وأغلظت عليه في القول، فتهددها، وخافت بطشه، فاحتالت عليه بالسم.

لا يخيل إلي أن الخوف من مقدم الموحدي أبي يعقوب سيصعق قلب ابن مردنيش، فيعتل إلى درجة أن يسقط طريح الفراش، ثم يموت من شدة الخوف. أمّا الرواية الأخرى فهي تبدو لي مقبولة، خصوصاً وأن دس السم للضحية - كما تقدم معنا في أكثر من موضع - قد أصبح من أكثر الوسائل المستخدمة نجاعة وفعالية في تصفية الطرف الآخر بهدوء.

عضد الدين أبو الفرج

قلنا عند تناولنا لمقتل الخليفة العباسي المستنجد بالله خنقاً في الحمام، إن المتآمرين على قتله قد طاردتهم اللعنة بعد موته، فتساقطوا الواحد تلو الآخر. وكان من ضمن المحرضين على قتل الخليفة المستنجد بالله أستاذ داره المعروف بعضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح. وكما ذكرنا من قبل فإن الخليفة المستنجد بالله كان قد عزم على الفتك بعضد الدين وكبير أمراء بغداد قطب الدين قايماز وذلك بسبب تسلطهما عليه، فكتب إلى وزيره أبي جعفر البلدي يطلعه على نيته في القبض عليهما وصلبهما لولا أن طبيب الخليفة سَرّبَ إليهما ما عقد الخليفة نيته عليه، فقتلا الخليفة غيلة وبمعونة من رجال آخرين.

ولمّا تحقق عضد الدين من مقتل الخليفة مخنوقاً في الحمام، أخرج ولد الخليفة المستضيء بالله من محبسه، فبايعه بالخلافة بعد أن شرط عليه شروطاً كثيرة، وحلّفه عليها أيماناً غليظة، منها أن يكون عضد الدين وزيراً، وأن يكون ولد عضد الدين أستاذ الدار، فالتزم المستضيء له بذلك وحلف أيماناً غليظة. وعلى الرغم من تلطخ يدي عضد الدين بدماء الخليفة إلا أن المؤرخين ما انفكوا يطوقون عنقه بأكاليل المديح، فقيل عنه إنه كان جواداً، مهيباً، عالي النفس، كبير القدر. وقيل في وصفه كذلك إنه كان ذا انصباب إلى أهل العلم والتصوف، فكان يقربهم منه، ويسبغ عليهم النعم، وإن الناس في عهده كانوا في بلهنية.

وخلال مدة خدمته في الوزارة والتي دامت قرابة سبعة أعوام، أوغر الأعاجم صدر الخليفة المستضيء بالله عليه، فعزله من مكانه، ونهبت داره،

وصودر ماله. ففي "تاريخ الدول الإسلامية" لابن طقاطقا أن عضد الدين كان جالساً في الدست فهجم عليه خادم الخليفة، فقال: "قد استغني عنك"، ثم كبس الأتراك دار الوزير فنهبوا ما فيها، ودخل العوام أيضاً وكسرت الصناديق الآبنوس والعاج وأخذ ما كان فيها، فوقف فيهم عضد الدين يقول: "أما تستحيون مني؟ أما دخلتم داري؟ أما أكلتم زادي؟"، وهم عنه منشغلون بنهب ما في داره من النفائس والمتاع. فما هي إلا ساعة واحدة حتى صارت داره بلقعاً تصفر في ردهاتها الريح. وبعد زمن قصير، صفى الجو بينه وبين الخليفة، وعادت المياه بينهما إلى مجاريها، فأعاده الخليفة مكرماً معززاً إلى وزارته، وكأن شيئاً ما صار.

وفي عام 573هـ تهيأ عضد الدين للحج، فخرج في موكب عظيم. وبعد أن عبر نهر دجلة، تقدّم منه كهل يصيح: "مظلوم! مظلوم!"، فزجره غلمان الوزير، فنهرهم الوزير، فتقدم الكهل الذي لم يكن غير أحد العناصر النزارية الحشيشية (الفداوية) فناول الوزير قصة، فتناولها الوزير منه، فوثب الباطني عليه وثبة عاليه وضربه بسكين في ترقوته، فسقط الوزير من على دابته، ووثب عليه آخر فضربه في خاصرته، ووثب آخر وبيده سكين مسلولة فلم يصل إليه، وتكاثر الناس على الثلاثة فقتلوهم، ثم مات الوزير وصُلّيَ عليه ودفن.

ونقل ابن طقاطقا في كتابه المذكور شهادة لواحد من الناس، قال فيها: "دخلت قبل قتل الوزير بساعتين إلى مسجد هناك فرأيت به ثلاثة رجال، وقد قدموا واحداً منهم إلى المحراب وأناموه ثم صلّى الرجلان الآخران عليه صلاة الميت، ثم قام ونام آخر وصلى الآخران عليه حتى صلّى كل واحد منهم على الآخر، وأنا أراهم وهم لا يرونني، فعجبت مما فعلوا، ثم لمّا قتل الوزير وقتل الثلاثة تأملت وجوههم فإذا هُمْ هم".

أرسلان شاه بن طغرل شاه

تعكس حالة أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه كملك ثامن لسلاجقة العراق وكرمان الحالة التي آلت إليها دولة السلاجقة من تفسخ وانحلال. لقد كان الملك أرسلان على شاكلة الخليفة العباسي في بغداد لا يسمع منه رأي ولا يطاع له أمر. وقبل أن يتوج أرسلان ملكاً كان عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه هو من يحكم البلاد. كان رجال دولته وأمراء عسكره شديدي النقمة على سليمان شاه. فقد عُرف عنه استهتاره ومجونه، وإسرافه في شرب الخمر حتى في شهر رمضان، وانصرافه عن شؤون الحكم وانشغاله بالتفاهات والمساخر. فلمّا سئم منه كبار دولته ونفضوا أيديهم منه، أزاحوه عن كرسيه وسجنوه، ثم دسوا له السم في سجنه فقتلوه. وبعد أن أقصي سليمان شاه من الملك جيء بأرسلان شاه بن طغرل ونُصّبَ مكان عمه سليمان شاه ملكاً.

لم يكن لأرسلان من الملك غير دعاء الخطبة وسك العملة. لقد استأثر أتابكه ووزيره شمس الدين إيلدكز بالملك واستبد بالتدبير. ولكي يغرس إيلدكز أقدامه في الملك أكثر، ويعبد الطريق لأولاده من بعده، فقد تزوج بأم أرسلان شاه، وأنجب منها بهلوان. أصبح أرسلان المسكين محصوراً بين زوج أمه وبين أخيه من أمه. نجح شمس الدين إيلدكز في إدارة البلاد على أحسن وجه وأتم حال. وعندما توفي حلّ ابنه بهلوان مكانه، فسار في البلاد مثل سيرة أبيه.

وبالرغم من أن بهلوان كان أصغر من أخيه لأمه أرسلان شاه إلا أنه واصل سياسة أبيه في الحجر والتضييق على أخيه حتى بدا وكان أرسلان شاه أشبه بخيط دخان قد تلاشى في الهواء. ولا نعرف ما الذي جرى بينهما من أحداث

وما الذي وقع بينهما من أمور حتى يقدم بهلوان في آخر المطاف على الزج بأخيه وملك البلاد في الحبس. وبعد أن رماه في السجن، جاء بهلوان بابن أرسلان شاه الصغير المعروف بطغرل، ونصّبه ملكاً حتى يكمل سيطرته على مفاصل الحكم. وكما دُس السم إلى الملك السابق سليمان شاه في سجنه فقد وضع بهلوان السم لأخيه فقتله. كم هو مسكين أرسلان شاه هذا! قضى عمره ملكاً ولم يذق طعم الملك في حياته مرة.

ناصر الدين محمد بن شيركوه

هو ابن محمود أسد الدين شيركوه والذي كان الساعد الأيمن لنور الدين محمود زنكي في نضالاته ضد التواجد الصليبي على الأراضي الإسلامية. وقد كان لشيركوه هذا ابن أخ ظهرت عليه من الصغر سمات النباهة وصفات القيادة واسمه صلاح الدين الأيوبي. ولمّا ارتحل شيركوه إلى مصر لتولي وزارة الدولة الفاطمية التي كانت تحتضر وقتها، اصطحب معه ابن أخيه إلى هناك. وبعد مدة وجيزة توفي شيركوه، فصار صلاح الدين هو المتصرف الفعلي في مصر. وما هي إلا مدة قصيرة حتى لفظت الدولة الفاطمية آخر أنفاسها وهي بين يدي صلاح الدين، وليبتدئ بعدها قيام دولة الأيوبيين. انطلق صلاح الدين بعد تثبيت دعائم سلطانه على أرض مصر إلى الشام، لينتزعها من أيدي الزنكيين، وليقطعها على أمراء بيته. ومن الإمارات والممالك التي وزّعها صلاح الدين على أقاربه كانت مملكة حمص، فقد أقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه. تربع ناصر الدين محمد على عرش حمص والتي كانت من قبل تحت يد والده شيركوه، وتسمّى بالملك القاهر.

انضم ناصر الدين محمد إلى صلاح الدين في حملاته ضد الصليبيين. وذات مرة، هاجمت طائفة من الفرنجة أعمال حمص، فنهبوها وغنموا، وأسروا وسبوا. وبينما هم في طريقهم عائدين، خرج إليهم ناصر الدين من مكمنه، فوضع السيف في رقابهم، فقتل أكثرهم، وأسر بعضهم، ومن سلم من سيفه أفلت وهو مثخن بالجراح، ثم استرد الأسلاب منهم وأعادها لأصحابها. لم

تكن حمص وأعمالها على الرغم من ذلك لتسع طموحات ناصر الدين. كان يريد أن يحصل على ما هو أكبر منها. لهذا فعندما سمع باستعداد صلاح الدين لانتزاع الموصل من يد الأتابك عز الدين مسعود، سارع ناصر الدين محمد ببذل أموال كثيرة لصلاح الدين ليقطعه الموصل فيما لو نجح في إسقاطها، فأجابه صلاح الدين لذلك. ضرب صلاح الدين حصاره للموصل، وبقي مطوقاً المدينة زمناً حتى تسرب اليأس إليه لشدة تحصيناتها ومنعة أسوارها. فلمّا ارتد صلاح الدين عنها، أعاد الأموال إلى ناصر الدين محمد.

وفي طريق العودة، عرّج صلاح الدين وابن عمه ناصر الدين محمد على حران. وبينما كانا هناك، أقعد مرض شديد صلاح الدين حتى استيأس الناس من شفائه. فلمّا طال مرضه، سار عنه ناصر الدين إلى حمص على دروب مفروشة بالأماني في انتزاع الملك. ولمّا نزل حمص، بدأ بمراسلة جماعة في دمشق يغريهم بتسليم البلاد له متى ما أعلن عن وفاة صلاح الدين. أمضى ناصر الدين محمد الأيام والليالي وهو يستضيء بوعود الملك وأحلام السلطنة. وإذ هو كذلك، جاءته الأخبار بشفاء صلاح الدين وإبلاله من مرضه، فأسقط في يده، وانكسرت أحلامه، ثم لم تكد تمضي بعض أيام حتى مات ابن شيركوه. انتظر ناصر الدين محمد أن يأتي الموت صلاح الدين وهو في فراشه بحران ولم يكن يدري أن الموت سيأتيه هو في قصره بحمص!

يذكر المؤرخون أن ناصر الدين قد مات ليلة عيد الأضحى، وذلك لأنه شرب الخمر فأكثر منها، فلمّا جاء الصبح، وجدوه ميتاً. وجاء في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير و"المختصر في أخبار البشر" لابي الفداء أن صلاح الدين وضع عليه إنساناً يقال له الناصح بن العميد، وهو من دمشق، فحضر عنده، ونادمه وسقاه سماً، فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح، فسألوا عنه، فقيل: "إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين"، فكان هذا مما قوّى الظن بضلوع صلاح الدين في تصفيته. وإذا صحت تلك الرواية، فإن هذا يعزز من احتمال أن يكون لصلاح الدين يد في قتله. ولا أعتقد أن صلاح الدين قد فعل هذا - إن صح

دسه للرجل عليه - إلا انتقاماً لما جرى من ناصر الدين محمد ومكاتبته سراً لأهل دمشق بتسليم المدينة له. ولعل من الجائز أن نقول إن صلاح الدين لم يعد يأمن على نفسه من طعنة غادرة في الظهر قد تأتيه من ابن عمه الذي كشف عن نيّاته الحقيقية عندما كان صلاح الدين طريح الفراش.

قزل أرسلان عثمان بن إيلدكز

أدت الصراعات الدائمة بين ملوك السلاجقة إلى تمزيق أوصال الدولة السلجوقية، وتقطيعها إلى ثلاث ممالك موزعة بين الشام والأناضول وكرمان. وبمرور الوقت، أصبح الملوك المتأخرون في حالة يرثى لها من الضعف والهوان لدرجة أن وزراءهم وأتابكتهم صاروا هم أصحاب اليد الطولى والكلمة العليا. فبعد وفاة السلطان مسعود السلجوقي صار أتابك الجيش والوزير شمس الدين إيلدكز هو المتصرف الفعلي والحاكم الحقيقي نظراً لصغر سن السلطان الجديد أرسلان شاه بن طغرل وضعف رأيه. لم يكن لأرسلان بن طغرل من الأمر شيء سوى سك العملة ودعاء الخطبة. انقلب حال سلاطين السلاجقة رأساً على عقب. فبعد أن كان أجدادهم العظام هم المتحكمون بخلفاء بني العباس في بغداد صار أحفادهم الآن دمى يتلاعب بها وزراؤهم وأتابكتهم، فسبحان مقلب الأحوال من حال إلى حال!

ترك شمس الدين إيلدكز لولده محمد جهان بهلوان عند رحيله دولة واسعة الأطراف ومهابة الجانب. كان بهلوان نعم الخلف لوالده، فثبت قواعد دولته، ووسّع رقعة بلاده. وواصل بهلوان نهج والده وسياسته في التضييق على سلطان البلاد أرسلان شاه الذي كان ظلاً شاحباً لا حول له ولا قوة. ويقال إن السلطان الصوري عندما تملكه اليأس مما هو عليه آثر العزلة والانزواء، ثم حبسه بهلوان ودس إليه السم. وكما كان الحال مع الأب فقد انضوى ابنه الصغير طغرل تحت جناح بهلوان. وبعد أن أمضى بهلوان ما يقرب من خمس عشرة سنة في الحكم توفي بعد صراع مع المرض.

دان الحكم من بعد وفاة بهلوان إلى أخيه من أمه قزل ارسلان. في تلك الأثناء، كبُرَ الصغير طغرل واشتد عوده، فالتف حوله عدد من الأمراء والجند حتى قوي أمره وكثر جمعه. وعندما أحس قزل أن طغرل بدأ في سحب البساط من تحت قدميه، كتب إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله رسالة يستنجده فيها، ويضع نفسه طوع بنان الخليفة، ويبصره بتنامي خطر طغرل. وما هي إلا ساعات قليلة حتى أقبل رسول طغرل على الخليفة ليطلب منه في استعلاء ببناء دار السلطنة حتى يسكنها طغرل متى وصل إلى بغداد. أراد طغرل الذي كسر لتوه قيود الذل والهوان أن يحيي سيرة أجداده عندما جعلوا من الخليفة ألعوبة في أيديهم. أشعلت كلمات طغرل جمرة الغضب في صدر الخليفة، فأمر بهدم دار السلطنة حتى سويت بالأرض. ثم أمر بتوجيه جيش كثيف لنصرة قزل في حربه ضد طغرل. خرج جيش الخليفة برئاسة الوزير ابن يونس وهو في أتم زينة وأبهى حلة. وقبل أن يمتزج جيش الخلافة بجيش قزل، انقض طغرل على جيش الخلافة، فأثخن فيه حتى انتهى جيش ابن يونس مهزوماً مدحوراً. ما فتّت الهزيمة في عضد قزل، فخرج إلى طغرل مشمراً ساعده وشاهراً سيفه في وجهه إلى أن تمكن منه وأمسك به. لم يزهق قزل روح عدوه كما ظُنّ، بل اكتفى بحبسه.

لم تعرف أيام حكم قزل شيئاً من الهدوء والاستقرار. فما كادت البلاد تضمد جراحها بعد حرب طاحنة بين قزل وطغرل، حتى اندلعت نار الفتنة بين السنة والشيعة، وأخرى بين الشافعية والحنفية. وعلى ما يبدو فإن قزل كان متعصباً للحنفية، لهذا فقد نكّل بالشافعية، وصلب جماعة من أعيانهم. وفي إحدى الليالي، دخل قزل إلى بيته لينام، فتسلّل أحدهم إلى مرقده، فقتله وهو نائم، ولم يُستَدل على قاتله. اتفق المؤرخون، أمثال ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، وابن شداد "النوادر السلطانية"، والذهبي "سير أعلام النبلاء"، والصفدي "الوافي بالوفيات" على كيفية اغتياله، لكن لا أحد منهم خمّن لنا هوية قاتله. وقد جاء في "الموسوعة العربية" أن دم قزل قد تفرق بين ثلاثة أطراف اجتمعت على كراهيته والرغبة في الخلاص منه . فهناك من يقول إن

الشافعية هم من قتلوه بسبب اضطهاده لهم وقتله لعدد من مشائخهم. وهناك من يقول أيضاً إن الإسماعيلية النزارية أو الحشيشية هم من قتلوه ربما بسبب وقوفه إلى جانب السنة في نزاعهم ضد الشيعة. وهناك أيضاً من يرجح، وهو ما تذهب إليه الموسوعة العربية، أن يكون اغتياله قد تم ضمن إطار خطة محكمة دبّر لها عدد من الأمراء وبالتعاون مع زوجته الخاتون (أرملة بهلوان) والتي كانت تشكو سوء معاملة قزل لها ولولدها من أخيه بهلوان.

أي من الروايات الثلاث يبدو هو الأصوب؟ من المتعذر الإجابة عن سؤال كهذا، خصوصاً وأن الروايات الثلاث لها مبرارتها المقبولة ودوافعها المفهومة. شخصياً، وهذا مجرد رأي شخصي ربما يعوزه الدليل، أرجح الرواية الثالثة والتي تقول إنه ذهب ضحية تآمر مجموعة من الأمراء مع زوجته وأرملة أخيه بهلوان، وذلك للأسباب التالية:

● إن كثيراً من التصفيات الجسدية التي وقعت في تلك الفترة والتي شهدت ازدهاراً ملحوظاً لنشاطات الجماعة النزارية الحشيشية كانت غالباً ما تنسب إلى تلك الجماعة. وفي رأيي أن عدداً من القتلة من خارج الجماعة قد استثمروا وجود الحشيشية في الساحة، وما اقترن بها في الأذهان من سمعة رديئة، كستار للاختفاء وراءها في تنفيذ عملياتها، ومن ثم نسبتها إلى الحشيشية.

● لا يخيل إلي أن الشافعية مهما لحق بها من أذى، ومسّها من ضر تملك القدرة على التخطيط والتنفيذ لعملية على درجة عالية من التعقيد والسرية. إن القيام بعملية كتلك يتطلب أولاً الاحتيال على حرس القصر، وثانياً التسلل بكل هدوء لفراش الحاكم، وثالثاً وأخيراً الفرار من مسرح الجريمة دون ترك أي أثر. ربما يمكن لنا تصديق ذلك فيما لو كانت الشافعية جهازاً تنظيمياً يملك عناصر قتالية، وليس مجرد مذهب سني يفتقد أي صفة تنظيمية أو توجه عسكري.

● وأخيراً، فإن العداوات التي نشأت بين قزل وبين عدد من الأمراء وزوجته الناقمة عليه يوفر غطاءً معقولاً لتبرير التخلص منه. ونظراً لسهولة تسلل هؤلاء أو رجالهم إلى داخل القصر فإن عملية القتل تصبح عملية غاية في اليسر.

وقد جاء معنا في تناولنا لكثير من عمليات الاغتيال أنها غالباً ما يتم تنفيذها داخل أرجاء القصر ومن قبل أقرب الناس للمقتول. ومما قد يدعم وجهة النظر هذه أنه بمجرد قتل قزل، أسرع الأمراء لإخراج طغرل بن أرسلان من سجنه، وتنصيبه ملكاً عليهم، الأمر الذي يعزز احتمال وجود تواطؤ مسبق لتغييب قزل وإخراج طغرل.

سنجر شاه بن غازي بن مودود

ما كتبه المؤرخون المتأخرون وأصحاب التراجم عن سنجر شاه بن غازي بن مودود بن الأتابك زنكي ليس سوى صدى لما تردد في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير. في حوزتنا قليل لا يشبع من جوع عن سنجر شاه. لا عجب في قلة المدون عنه، فلم يكن سوى ملك صغير بصغر مملكته المسماة جزيرة ابنَ عمر والواقعة إلى الشمال الغربي من الموصل. سُميت تلك بجزيرة ابن عمر نسبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر التغلبي، بناها فنسبت إليه. ولد وعاش ومات سنجر شاه في زمن كان التشرذم والتفكك هو خير عنوان لذلك المشهد السياسي البائس. فالخلافة العباسية اختزلت في مراسم التشريف والمظاهر والدعاء على المنابر، ومملكة السلاجقة تحللت إلى ممالك صغيرة استنزفتها التناحرات والتنافسات، والحملات الصليبية كانت تقذف بأمواجها على صدر بلاد الشام من حين لآخر.

عندما أشرف سيف الدين غازي - صاحب الموصل والجزيرة - على الموت، أراد أن يُورثَ ولده سنجر ابن الحادية عشرة سنة دولته لولا نصائح كبار القادة ممن أنضجتهم التجارب وعركتهم الأيام. قبِلَ سيف الدين بنصح رجاله، فترك الموصل لأخيه عز الدين مسعود، وأعطى جزيرة ابن عمر لولده الأكبر سنجر وقلعة عقر الحميدية لولده الأصغر ناصر الدين كسك. كبر الصغير سنجر وكبر الحقد في قلبه على عمه. ربما كان يرى أنه الأحق بما هو في يد عمه عز الدين مسعود. وخلال حياته، لم يتردد سنجر يوماً في إيذاء عمه، والتشنيع به، ومحالفة خصومه ضده. أما عمه عز الدين فكان يتصبّر على الأذى

لصلة الرحم تارة، وخوفاً من ردة فعل صلاح الدين الأيوبي تارة أخرى. لقد وضع سنجر يده في يد صلاح الدين، لا حباً فيه، ولا إيماناً برسالته العظيمة في تحرير التراب من الغزاة الفرنجة. تحالف سنجر مع صلاح الدين الذي كان يريد ضم الموصل لا لتوسيع حدود مملكته ولكن ليرص الصفوف ويوحد الجهود. إلا أن محاولات الأيوبي وسنجر لم تفلح في كسر كبرياء الموصل. فاضطر صلاح الدين لرفع الحصار وعقد معاهدة مع عز الدين مسعود.

وذات مرة، كان سنجر في معسكر لصلاح الدين وهو في عكا. سئم سنجر من مكوثه وانتظاره، فطلب الإذن بالعودة لدياره، إلا أن صلاح الدين طلب منه الانتظار بعض الوقت. غير أن سنجر لم يلتفت إلى قول صلاح الدين، وأصرّ على الرحيل مع جنده. فلمّا تناهى الخبر إلى مسامع صلاح الدين، غضب أشد الغضب، فكتب إلى عز الدين يأمره بالاستيلاء على الجزيرة والقبض على صاحبها. وبالفعل، سار عز الدين إلى الجزيرة التي لم تلبث أن تداعت مقاومتها وخارت قواها، فاستسلمت له، فأخذ نصفها وترك النصف الآخر لابن أخيه.

امتلك سنجر منذ طفولته جزيرة ابن عمر بمن فيها ومن عليها ومن تحتها. حوّل سنجر تلك الجزيرة التي يلتف ذراع دجلة حول خاصرتها وكأنه يراقصها إلى سجن مفتوح ومقبرة لأهلها الأحياء. نقل المؤرخون ما كتبه ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" عن سنجر شاه. قال عنه إن كان ظلوماً غشوماً، وإنه كان قبيح السيرة مع الناس كافة من الرعية والجند والأولاد والحريم، وإنه كان لا يتردد عن مصادرة الأموال والممتلكات وعن ارتكاب القبائح والموبقات. لم يكن غريباً في زمنه أن ترى وجوهاً بشرية تسير في طرقات المدينة الحزينة بلا أنوف وآذان وألسنة. وقد قيل إن الرجل إذا جاءه خبر بأن الملك يستدعيه فقد يتوفى في مكانه من شدة الخوف.

لم يسلم أحد على تلك الجزيرة من شرور سنجر شاه وطغيانه بما فيهم أولاده الثلاثة: غازي ومحمود ومودود. لقد بلغت قسوته وشكه في أبنائه أن حبس محمود ومودود في قلعة، وحبس ابنه غازي في دار بقرب بستان. كانت الأفاعي والعقارب تتسلل إلى تلك الدار فتبقي الفتى المسكين ساهراً ليله الطويل

خوفاً من لدغاتها. وفي يوم، أمسك غازي بحية، فأرسلها إلى أبيه في منديل لعل قلبه يرق له ويعطف عليه، فلم تتحرك فيه مشاعر الأب. ولمّا يئس غازي من حالته تلك، فرّ إلى الموصل، وقصد حاكمها نور الدين أرسلان. أكرمه حاكمها وأنعم عليه المال والخيل والثياب، ثم طلب منه الرحيل إلى الشام حتى لا تقع بينه وبين والده سنجر حرب. خرج غازي لا إلى الشام، بل إلى الجزيرة. تسلق دار والده، واختفى عند بعض سراري أبيه اللاتي كن يكرهن سنجر ويتمنين الخلاص منه اليوم قبل الغد. وفي ليلة، دخل سنجر الخلاء وهو يترنح من كثرة ما شرب، فانقض عليه ابنه غازي ليسدّد إليه أربع عشرة طعنة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. ترك غازي جثة أبيه ملقاة، وذهب إلى الحمام ليلعب مع الجواري!

علم أحد الخدم بما وقع، فأخبر أستاذ دار سنجر، فأسرع في طلب أعيان الدولة، وأخذ بيعتهم لولده محمود. فلمّا تمت البيعة، وجاءوا بمحمود وأخيه مودود، دخلوا على غازي وقتلوه، ثم ألقوا به خارج الدار، فأكلت الكلاب بعض لحمه، ودفنوا ما بقي منه! ولمّا نُصِّبَ محمود ملكاً على الجزيرة، أخذ كثيراً من جواري أبيه فأغرقهن في دِجلة. وينقل ابن الأثير عن شاهد عيان أنه رأى سبع جوار مغرقات، منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن في النار قبل أن يلقين في دجلة. وبعد أن تمكن محمود، أخذ أخاه مودود فقتله حتى يخلو له الملك ويروق له الجو. لقد زرع الأب القاسي في قلوب أبنائه الشر، فحصد ما زرعه في قلوبهم طيلة تلك السنين. أمّا الأبناء فلم يتعلموا من أبيهمْ الحب ومعنى الأخوة، فاقتتلوا في ما بينهم على الملك، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

عبد الله بن يعقوب الموحدي

بعد أن بهت وهج دولة المرابطين، وولّى شبابها، وتراجع دورها، أصبحت بلاد المغرب والأندلس تتوسل قوة يافعة ودماء حارة، وروحاً شابة تعيد النظام والاستقرار، وتحفظ بلاد الأندلس من الضياع، وتمسح كل ما علق بالعقيدة من شوائب وظلال. كانت تلك الحركة الصاعدة ردة فعل على ما كان يجري في أراضي المغرب والأندلس من تدهور سياسي وتراجع ديني. ولعلنا لا نجافي الواقع إذ قلنا إن تلك الحركة هي في أصلها إعادة لأنتاج حركة المرابطين التي سبقتها بمائة عام قبل أن يسقط أحفاد المرابطين في مصيدة السلطة وشهوة الحكم، وينقلب أبناؤها على مبادئ الحركة المرابطية. وإذا كانت حركة المرابطين ذات طابع مالكي تقليدي فإن حركة الموحدين حملت في إطارها الفكري مزيجاً تلفيقياً من العناصر والتصورات والتيارات الدينية المتنافرة. ولا غرابة في ذلك لأن مُنظر الحركة وعرّابها ابن تومرت قد جالس وخالط كثيراً من أصحاب المذاهب الدينية المتنوعة في رحلته العلمية الموسعة والتي شملت الأندلس والشام ومصر والعراق والحجاز. وعندما عاد ابن تومرت إلى بلاد المغرب، اتصل به عبد المؤمن بن علي، فامتزجت السياسة بالدين. وكما هو قدر كثير من الحركات الدينية التي تتحول في نهاية المطاف إلى مشروع سياسي يستلهم مشروعيته وشعاراته من ينابيع دينية، فقد اكتست أفكار ابن تومرت عظاماً ولحماً، وتحولت إلى دولة استطاعت أن تقوم على أنقاض دولة المرابطين، وأن تحتل أجزاء شاسعة من بلاد المغرب على حساب دول الزيريين وبني حماد وآل خراسان، وأن تثبت أقدامها بقوة في بلاد الأندلس.

شهدت السنوات الأولى من حكم عبد المؤمن علي مؤسس دولة الموحدين نجاحات مثيرة وانتصارات عظيمة. وبعد وفاته، أكمل مسيرته ولده أبو يعقوب يوسف، وصرف جل اهتمامه إلى وقف زحف قوى قشتالة وليون والبرتغال، وتمكن من استرداد مناطق واسعة كانت تحت يد ابن مردنيش. وخلفه ولده أبو يوسف يعقوب والملقب بالمنصور والذي عاشت دولة الموحدين في عهده الذي دام خمسة عشر عاماً أجمل أيامها لما حققه من انتصارات عسكرية مدوية وانجازات حضارية مضيئة. وبعد أن لامست دولة الموحدين في زمن المنصور ذرى المجد، بدأت شمسهم تنحدر، وموجتهم تنحسر مع الناصر محمد بن المنصور. ففي أواخر أيام حكمه، خاض الموحدون معركة العقاب الفاصلة والتي دارت فيها الدوائر على المسلمين، فشربوا من الكأس المرّة التي تجرّعها القشتاليون من قبل، وانتهى الموحدون ما بين هارب ومقتول. أمّا الناصر محمد فقد كان فوق ظهر حصان ينهب الأرض نهباً حتى وصل إلى قاعدة ملكه في مراكش، وليموت بعد أن تلطخ بعار الهزيمة بعد عام واحد.

ومنذ ذاك الوقت، ونسل بني عبد المؤمن وأقاربه في قتال عقيم حول كرسي السلطان. وتدريجياً، بدأت الدولة تتفسخ وأجزاؤها تتآكل بسبب ضعف السلطة المركزية وانقراض الرجال الأقوياء وانصراف الخلف إلى حروب عبثية في ما بينهم. وشيئاً فشيئاً، بدأت الأمور تعود إلى سابق عهدها قبل ولادة دولة الموحدين، فبنو حفص وبنو زيان أخذوا يبسطون نفوذهم فوق أراضي الموحدين. أمّا في الأندلس، فتحدّر القشتاليون من الشمال في ثبات، يطوون بين أيديهم أراضي الأندلس، ويكنسون المسلمين منها حتى لم يعد يبق لهم إلا غرناطة وأجزاء صغيرة في الجنوب.

وفي خضم نزاع الأسرة على الملك، وثب عبد الواحد - وقيل عبد العزيز - بن أبي يعقوب يوسف على السلطة فجلس على عرش مراكش. لم يعجب هذا ابن أخيه أبا محمد عبد الله بن أبي يوسف يعقوب فاستقل بما تبقى من الأندلس، وتلقب بالعادل، ثم سلط على عمه عدداً من المغاربة فخلعوه ثم قتلوه فيما بعد. ومن العجب أن ما حلّ بعمه المخلوع قد وقع للعادل أبي

محمد، فقد ثار عليه الأمراء في الأندلس وتمرّد عليه المغاربة في مراكش. ومن أكثر المحرضين عليه كان أخوه الملقب بالمأمون والمقيم في الأندلس. وعلى ما يبدو فإنه قد دسّ على أخيه من خنقه في قصره حتى الموت. وبوفاة العادل في عام 627 بعد أن دام حكمه أربعة أعوام، نصّب المأمون نفسه سلطاناً على الموحدين. وكما قضى أخوه العادل أيامه في إطفاء الفتن فقد قضى المأمون سنوات حكمه الست في محاربة ابن أخيه الطامع بالكرسي. كل هذا التطاحن كان يجري على قدم وساق في الوقت الذي كان النصارى يستولون على بلاد المسلمين في الأندلس حصناً بعد حصن ومدينة بعد مدينة على حد تعبير المراكشي في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب".

بهرام شاه بن فروخشاه الأيوبي

بالرغم من طول مدة ملكه، ومن معايشته لمخاضات الدولة الأيوبية وتحوّلاتها إلا أن الرواة لم يوفروا لنا ما يكفي من أخبار لسبر أغوار شخصية الملك الأمجد بهرام شاه وقراءة ملامحه الممحوة وراء غبار النسيان. ومن المعروف تاريخياً أن الناصر صلاح الدين حينما ضمّ بلاد الشام إلى أملاكه عمد إلى تقسيمها بين أقاربه. وقد خصّ صلاح الدين ابن أخيه فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب - والد بهرام شاه - بولاية بعلبك. ولقد وُصف فروخشاه في بعض المراجع التاريخية بالتواضع والجود والشجاعة والإقدام. وينسب إليه شعر مليح:

أنا في أسر السقام
وهو في هذا المقام
رشا يرشق عينا
فؤادي بسهام
كلما أرشفني فاه
على حرّ الأوام
ذقت منه الشهد
المصفى في المدام

وبعد أن توفي فروخشاه عام 578هـ أقرّ صلاح الدين ولده بهرام شاه على ملك أبيه، فأقام في الملك ما يقرب من نصف قرن من الزمان. وقد اشترك الملك الأمجد بهرام شاه مع عم والده صلاح الدين في حروبه ضد الاستيطان الصليبي في بلاد الشام. وبعد وفاة صلاح الدين شهد الملك الأمجد بهرام شاه

ما جرى من انقسامات وخلافات بين أبناء الأسرة الأيوبية على أملاك الدولة. ولعل أكثر ما تستحضره الذاكرة عندما يتردد اسم الملك الأمجد هو براعته الشعرية حتى أنه وُصف بأنه شاعر بني أيوب، وقد جُمعت قصائده في ديوان شعر. فمن أشعاره التي اشتهر بها:

كم يذهب هذا العمر في الخسران
يا غفلتي فيه وما أنساني
ضيعت زماني كله في لعب
يا عمر فهل بعدك عمر ثاني

وقد جاء في "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي أن يد الملك الأمجد امتدت على أموال الناس وانتزعت منهم أولادهم، فثار عليه عدد من الجند، ودعوا العزيز فخر الدين عثمان بن العادل للاستيلاء على بعلبك، فامتنعت عليه أسوارها. وفيما كان العزيز مستمراً في حصاره، بعث إليه الناصر داود صاحب دمشق يأمره برفع الحصار، فغضب العزيز وسار إلى الملك الكامل ملتجئاً إليه، فوعده الأخير بانتزاع بعلبك من الأمجد وتسليمها له. ولا يبدو أن الملك الكامل قد أنجز وعده للعزيز لأن الأشرف موسى بن العادل شقيق الملك الكامل هو من أسقط بعلبك بعد حصار طويل دام عشرة أشهر. وبعد أن جرّد الأشرف موسى الملك الأمجد من مملكته التي حكمها زهاء نصف قرن قام بتعويضه عنها بمنطقة يقال لها الزبداني بالقرب من دمشق.

وبعد انتقال الملك الأمجد إلى مقره الجديد وبزمن قصير، اكتشف اختفاء دواة من ذهب لديه تساوي مائتي دينار. وبعد التفتيش عنها وُجدت مخبأة عند مملوك جميل له، فحبسه الأمجد في خزانة داره. وبعد أيام نجح المملوك من كسر قفل الخزانة بسكين معه، فخرج خلسة، والتقط سيف الأمجد الذي كان غافلاً عنه بلعب الشطرنج، ثم باغت المملوك سيده، فضربه بالسيف على كتفه، ثم غرسه في خاصرته فأرداه صريعاً. ولمّا سقط الأمجد على الأرض غارقاً في دمه، هرب المملوك، فلحقته المماليك فأدركوه وقتلوه بسيوفهم، وقيل إنه رمى بنفسه من أعلى فسقط ميتاً.

ويخيل إليَّ من الوقوف على الفتات الذي كتب عن الملك الأمجد أن للملك هذا ميولاً مثلية ربما يتحرّج المورخون عن التصريح بها إلا أن رائحتها تكاد تنبعث من بين السطور. هناك على الأقل ثلاث علامات تجعل المرء يتكئ عليها في تبرير هذا الاعتقاد. أولها نجدها في نقمة الجند وثورتهم عليه عندما كان الأمجد مقيماً في بعلبك وذلك بسبب تماديه في سلب الأموال وانتزاع (الأولاد) من أحضان أهاليهم. كما أن للملك الأمجد شعراً مشهوراً يتغزل فيه بشاب مليح حيث يقول:

من لي بأهيف قال حين عتبته
في قطع كل قضيب بان رائق

تحكي شمائله الرشاق إذا انثنى
ريان بين جداول وحدائق

سرقت غصون البان لين معاطفي
فقطعتها والقطع حد السارق

وثالثها أن المملوك الذي أقدم على قتل الملك الأمجد كان موصوفاً بالجمال. إن وصفه بالجمال ليس من عندياتي، ولكنه ورد في عدد من المراجع، مثل "شذرات الذهب" لابن العماد و"فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي و"الوافي بالوفيات" للصفدي. إن نعتهم للملوك بالجمال لم يأت عبثاً - حسب رأيي الشخصي - وإنما بقصد توصيل رسالة ما وبطريقة غير مباشرة، الأمر الذي قد، وأقول قد، يعني وجود أبعاد أخرى للحادثة ذات صلة بالعلامات المذكورة أعلاه قد جرى تغييبها. ومن المحتمل جداً أن ما قلناه ليس إلا إسرافاً في الخيال، وإيغالاً في الأوهام، وتحميلاً للواقعة فوق طاقتها، ولكن مهمة الباحث هو أن لا يقف مكتوف اليدين أمام المرويات التاريخية، بل يجب أن يتناولها بعقلية تساؤلية وروح نقدية.

جلال الدين منكبرتي

الخوارزميون، أو الخوارزمشاهات، هم سلالة تركية، كانوا يعملون في خدمة السلاجقة. وعندما بدأت دولة السلاجقة تتآكل وتتساقط، بدأ الخوارزميون يتطلعون إلى بناء دولتهم فوق أنقاض دولة السلاجقة. وبالفعل، فقد نجح سلاطين خوارزم في تأسيس مملكة عظيمة فوق أجزاء واسعة من آسيا. وفيما كانت الدولة تعيش أزهى أيامها في عهد السلطان علاء الدين محمد، كان جنكيز خان قد جمع قبائل المغول على كلمة واحدة، وزعامة واحدة، وغاية واحدة. ولو أن السلطان علاء الدين تحلى بقليل من التواضع والذكاء، لحقن الدماء، وجنّب دولته الفناء. تقول القصة بإختصار، إن جنكيز خان مدّ يد السلام إلى السلطان، وخاطبه متودداً بقوله "وأنت عندي مثل أعز أولادي" فاستشاط السلطان غضباً، وفسّر كلمة جنكيز خان بمعنى تبعية الابن للأب. ولمّا أرسل جنكيز خان إليه بقافلة من التجار بقصد تشجيع التجارة بين الدولتين، قام السلطان، بناء على نصيحة ابن خالته، فقتل التجار وصادر البضائع. ولمّا علم جنكيز خان بما صار، هاج وماج، وأرعد وأزبد، ولكنه قرر أن يمنح السلطان آخر فرصة، فبعث إليه برسله يطلب منه الاعتذار وتسليم ابن خالته. ولمّا وقف الرسل بحضرة السلطان، أمر بقتلهم، ليقطع بعمله الشائن هذا وبتصرفه الأرعن كل خيوط الأمل. فتح السلطان على نفسه وعلى بلاد الإسلام أبواب جهنم الحمراء، فقد تحدّرت جيوش المغول كالطوفان الكاسح مدمرة كل ما في طريقها. ولمّا حلت بالسلطان الهزيمة المنكرة، فرّ إلى جزيرة نائية شريداً طريداً، بلا مال وجاه، وبلا خدم وحشم، محاصراً بالأحزان، ومطارداً بالأشباح.

لم يصمد جسد السلطان علاء الدين كثيراً فقد أكلت قلبه الحسرة والندم. أوصى السلطان قبل موته بما بقي من السلطنة إلى ولده جلال الدين منكبرتي. كان لجلال الدين قلب من حديد، وعزيمة لا تفتر ولا تلين. سار جلال الدين إلى غزنة، فاجتمعت بين يديه الفلول الهاربة وكثير من المتطوعين. كان المغول لا يخافون من الخوارزميين أحداً مثل جلال الدين لعلمهم بقوة بأسه وشجاعته، فساروا إليه لمحاربته، لكنه انقض عليهم كالصاعقة، فأعمل السيف فيهم حتى ولوا الأدبار. وبدلاً من أن يستثمر المسلمون هذا النصر الثمين في توحيد الصفوف، تنازعوا في ما بينهم على الغنائم والأسلاب. ويقال إن جلال الدين جثى على ركبتيه يتوسل باكياً أحد القادة الذي قرر أن ينسحب بقطعة من الجيش لعدم رضاه عن التوزيع. في تلك الأثناء، جاءته الأنباء تعلن عن قدوم جنكيز خان على رأس جيش للثأر من الهزيمة، فمال جلال الدين بمن بقي معه من الجند إلى نهر السند. وبينما كان على ضفاف النهر، قدمت جيوش المغول فدارت رحى معركة غير متوازنة. وعلى الرغم من ضروب البطولة التي سطّرها جلال الدين ومن معه من الرجال إلا أن الكثرة غلبت الشجاعة، فقذف بنفسه في الماء ولحقه ما بقي من رجاله. وقيل إن جلال الدين عندما وصل الضفة الأخرى، وجد والدته وحريمه وأم ولده يصحن بأعلى صوتهن: "بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر"، فأمر بهن فأغرقن!

توجه جلال الدين برجاله إلى الهند والتي كانت في مأمن من الإعصار المغولي. قضى جلال الدين في الهند ثلاثة أعوام استطاع خلالها أن يجمع حوله المقاتلين والمتطوعين. وعندما اطمأن إلى ما لديه من قوة، رحل جلال الدين إلى بلاد خوارزم والتي تركها المغول بعد أن ذبحوا أهاليها وجعلوها أثراً بعد عين. لم يجد جلال الدين عناء في بسط سيطرته على كثير من الأقاليم والتي كانت في حالة يرثى لها من أثر الخراب والدمار. استطاع جلال الدين خلال تلك الفترة من هزيمة المغول في أكثر من مناسبة مستغلاً رحيل جنكيز خان وانشغال المغول بتنصيب خليفة له. وبعد أن نصّب المغول أوكتاي خاقاناً على المغول، أرسل بجيش هائل لمحاربة جلال الدين، فهزموه وطاردوه،

وذهبت صرخات جلال الدين أدراج الرياح وهو يستنجد بالخليفة العباسي الناصر وأمراء المسلمين. ولمّا فتك المغول بجيش جلال الدين ومزقوه شر ممزق، فرّ بجلده إلى جبال كردستان.

لحق بجلال الدين خمسة عشر فارساً من فرسان المغول، وأدركه اثنان منهم، فقتلهما جلال الدين، وعاد البقية بعد أن يئسوا من الإمساك به. هام جلال الدين على وجهه حتى وصل إلى قرية من قرى ميافارقين. وهناك التقى برجل كردي، فأخبره أنه هو السلطان جلال الدين منكبرتي، فأخذه الرجل إلى بيته ريثما يدبر له خيلاً ليعود بها إلى وطنه. وفيما كان جلال الدين ينتظر رجوع الرجل، قدم رجل كردي آخر وفي يده حربة، فقال لزوجة صاحب البيت: "ما هذا الخوارزمي، وهلا تقتلونه؟"، فأجابت: "لا سبيل إلى ذلك وقد أمنه زوجي". وكان لهذا الرجل أخ قتله جلال الدين في إحدى غزواته، فضربه بحربته ضربة أغنت عن الثانية، وألحقته بالنفوس الفانية. فمن كان يصدق أن بطلاً دوّخ المغول طويلاً، وتصدى لهم وحيداً، يموت هكذا على يد جلف من أجلاف الأكراد! وتلك الحكاية أوردها فؤاد الصياد في كتابه "المغول في التاريخ" نقلاً عن النسوي صاحب كتاب "سيرة جلال الدين منكبرتي". ويضيف فؤاد الصياد أن الناس نسجت حول جلال الدين شرنقة من الأساطير، واحتفظت به في قلوبها حياً لا يموت، وكان بعضهم من وقت لآخر يتحدث عن ظهور السلطان جلال الدين، فيستبشر الناس بذلك، ويغتم المغول لسماعه. لقد كان الناس بحاجة إلى بطل عظيم كجلال الدين، فكانوا يعيدونه إلى الحياة كلما حلت بهم الهزائم، وتقطعت بهم دروب الأمل والخلاص.

محمد بن يوسف الهودي

تنحدر هذه الأسرة من رجل يقال له هود الجذامي كان قد دخل الأندلس منذ بواكير الفتح الإسلامي لها في العهد الأموي. والقد لمع نجم هذه الأسرة في زمن ملوك الطوائف بعد إلغاء خلافة بني أمية نهائياً وطرد بني مروان كافة من قرطبة وتفرقهم في البلاد وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. ويعزى الفضل في قيام مملكة بني هود وانفرادها بسرقسطة الواقعة في الثغر الأعلى بالأندلس إلى سليمان بن محمد (المستعين). وخلال فترة حكمه والذي دام ثلاثة عقود، نجح المستعين في نشر نفوذه على المناطق المجاورة لسرقسطة مما فجّر حروباً بينه وبين مملكة بني ذي النون دون أن يحقق أي منهما النصر. وقبل وفاة المستعين، قام بتوزيع ممتلكاته على أولاده الخمسة، فانتزع ابنه أحمد (المقتدر) ما تحت أخوته من أراضٍ، وذاع صيته في أرجاء الأندلس. وبعد وفاة المقتدر، بدأت ظلال دولة بني هود في الانحسار، ودخلت تلك المملكة الشمالية في طور الاحتضار، ولولا جيوش المرابطين الملثمين لصارت المملكة مضغة في فم الأسبان. لقد أدى صعود المرابطين إلى تأجيل سقوط دولة بني هود خمسين عاماً إلى أن كتب الأسبان نهايتها في عام 540هـ.

وبعد مرور ما يقرب من قرن، انتهز أهل الأندلس تحلل دولة الموحدين وتفسخها وانشغالها بحروبها الداخلية، فأوقدوا نار الثورات والفتن. وفي تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأندلس، سطع في الأفق اسم رجل ادعى أنه من سلالة بني هود، وكان يسمى محمد بن يوسف بن هود الجذامي. وقد جاء في "الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب أن رجلاً من الصعاليك

قد توسّم في محمد بن يوسف أنه هو من سيملك الأندلس، فاجتذبه إلى جماعته من قطاع الطرق وشرار القوم. وشيئاً فشيئاً، بدأت الجماعة تجتذب مزيداً من الأتباع، وبدأ اسم ابن يوسف يكبر وصيته في الأندلس يذاع. ولمّا شاع ذكر ابن يوسف، ثار على الموحدين في منطقة يقال لها الصخيرات، فدان له النصر، ودخل مدينة مرسية، وخطب باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله، فأرسل إليه الخليفة من بغداد بشعارات الخلافة، فلبس ابن يوسف السواد، وتلقب بالمتوكل على الله.

أثارت انتصارات ابن يوسف مخاوف السلطان المأمون الموحدي، فالتقى الجيشان قرب إشبيلية، فحلت بابن يوسف أقبح هزيمة، فلاذ من خصمه بمدينة مرسية وتحصن فيها. ولحسن طالع ابن يوسف أن المأمون اضطر إلى رفع الحصار والذهاب إلى مراكش عاصمة الموحدين لإطفاء نار فتنة اشتعلت فيها. وبعد انصراف المأمون، خلت الساحة لابن يوسف، فابتلع المرية وغرناطة وشاطبة وقرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء. وبعد عشرة أعوام من التمدد، شرعت دولة بني هود الثانية في التقهقر أمام ضربات الأسبان من جهة ومنافسيه من بني الأحمر. وفي تلك الآونة، سار ابن يوسف من مرسية إلى المرية ليرى سبيته الرومية التي أخفاها ابن يوسف عند عامله على المرية والمعروف بابن الرميمي. وكان سبب إخفاء ابن يوسف لتلك الفتاة عند عامله أنه قد عاهد زوجته ألا يتخذ عليها امرأة طوال عمره، فلمّا وقعت تلك الفتاة في يده وكانت من أجمل الناس، فتن بها ابن يوسف فاصطفاها لنفسه وأخفاها عند ابن الرميمي. ويزعم أن ابن الرميمي قد امتدت يده إلى الفتاة فحملت منه، فخاف افتضاح أمره وثورة سيده، فأوعز إلى أربعة من رجاله أن يغتالوا ابن يوسف. فلمّا هبط الظلام، تسلّل الرجال الأربعة إلى دار بظاهر المرية نزل بها ابن يوسف، فخنقوه بينما هو نائم بالوسائد حتى فاضت روحه. كانت دولة بني هود الثانية وابن يوسف وجهين لعملة واحدة، فعندما غاب ابن يوسف غابت الدولة، وسقطت آخر أوراقها، وطويت آخر صفحاتها.

علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو

اسمه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، ويلقب بصاحب الروم وأيضاً بالكبير، وهو يعد واحداً من أحد أعظم ملوك سلاجقة الروم. إن تسمية سلاجقة الروم قد أطلقت على الفرع السلجوقي الذي انفرد بامتلاك مناطق واسعة من بلاد الأناضول. فمنذ وفاة آخر ملوك السلاجقة العظام وأحد بناة أمبراطوريتها الكبار وهو ملكشاه، بدأت الدولة في التفسخ والتحلل، وتحولت المملكة الواحدة إلى ممالك متحاسدة ومتنازعة، فظهرت واحدة في كرمان، وثانية في الشام، وثالثة في الأناضول.

قبل أن يتقلد علاء الدين كيقباذ الملك، كان قبلها سجيناً عند أخيه الملك كيكاوس. وبعد وفاة أخيه، تحرّر كيقباذ من الحبس ومن أغلال الظلمة والبرد والخوف من الموت، ليعانق آفاق الحرية، وليرتدي حلة الملك، وليتذوق طعم السلطة. لقد رمى به أخوه في الحبس لأنه نازعه في ملكه وخرج عليه. وقد قال الذهبي في "سير أعلام النبلاء" عن كيكاوس، نقلاً عن الجوزي إنه كان جباراً وسفاكاً للدماء، وإنه أي كيكاوس لمّا انهزم أمام الملك الأشرف الأيوبي نقم على أمراء وقادة جيشه، فقام بسلق بعضهم في قدور تغلي، وشوى بعضهم بالنار، وإنه لمّا شارف على الموت، أمر جنده بإخراج أخيه من محبسه وتقليده الملك وذلك لأنه - أي كيكاوس - لم يكن له ولد كبير يلي الملك من بعده.

بويع علاء الدين كيقباذ بالملك، فطالت أيامه، واتسعت رقعة مملكته، وسار في رعيته سيرة حسنة، فأحبه الناس لحدبه عليهم وعدله بينهم. وفي عهده، خاض علاء الدين كيقباذ حروباً كانت له فيها الغلبة. ولعل أعظم حروبه

كانت ضد جلال الدين ابن خوارزم شاه الذي مالأه ابن عم علاء الدين صاحب منطقة يقال لها أرزن الروم لطمعه في بعض من أراضي علاء الدين كيقباذ. وقد ورد في "الكامل في التاريخ" لابن الأثير وصفاً لتلك المعركة التي انتهت باندحار جيش جلال الدين وبسقوط صاحب أرزن الروم في يد ابن عمه علاء الدين كيقباذ. لم يكتف علاء الدين كيقباذ بأسر ابن عمه، بل جرّده من مملكته الصغيرة وقلاعها وخزائنها، فكان كما قيل، والحديث لابن الأثير: خرجت النعامة تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين.

عاش علاء الدين كيقباذ ملكاً على البلاد إلى ما يقرب من ثماني عشرة سنة إلى أن مات. والحقيقة أن المراجع التاريخية لا تحدثنا عن كيفية موته. فالصفدي في "الوافي بالوفيات" وابن كثير في "البداية والنهاية" وأبو الفدا في "المختصر في تاريخ البشر" وابن الأثير في "الكامل في التاريخ" لا يذكرون أي شيء بالمرة عن أسباب موته. غير أن فؤاد السيد في "معجم المغتالين السياسيين" يذكر أنه قد دس له السم، فمات على إثره.

أرتق أرسلان بن إلغازي الثاني

قبل أن نتحدث عن أرتق أرسلان ينبغي أن نلقي بقعة من الضوء على الدولة الأرتقية. تنسب الدولة الأرتقية إلى مؤسسها أرتق بن أكسب الذي ينتمي إلى إحدى القبائل التركمانية الكبيرة والتي تعرف بالدقر. وقد قدمت هذه القبيلة منذ الإرهاصات الأولى لدولة السلاجقة خدمات جليلة لسلاطينهم. كان أرتق من مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، وقد أظهر في الحروب كافة التي خاضها ملكشاه كفاءة عسكرية نادرة جعلت ملكشاه ينعم عليه بمنطقة حلوان في العراق. ولمّا توفي ملكشاه، وضع أرتق نفسه طوع بنان تتش بن ألب أرسلان. وكمكافأة له على جهوداته المميزة في المعارك فقد أقطعه تتش القدس. وبعد وفاة أرتق خلفه ولداه سقمان وإلغازي على القدس، فحكماها مدة إلى أن تمكن الأفضل بن بدر الجمالي من الاستيلاء على القدس وإجلاء ولدي أرتق منها. سار سقمان إلى ديار بكر فملكها وملك عدداً من الحصون القريبة والهامة منها، وأما أخوه إلغازي فقد ذهب إلى العراق. ولمّا توفي سقمان توجه إلغازي إلى ديار بكر فورثها عن أخيه، ووسّع رقعة أملاكه فضم ماردين. المهم أن تلك الدولة قد تجزأت مع الوقت إلى ثلاث دويلات موزعة ما بين: ديار بكر وحصن كيفا، وماردين وميافارقين، وخرتبرت (هاربوت). وقد كانت مساحة تلك الدويلات تتمدد وتنكمش حسب الأوضاع السياسية السائدة في المنطقة. وقد امتد العمر ببعض تلك الفروع إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام. والملاحظ أن تلك الدويلات لم تعرف في يوم طعم الاستقلال الحقيقي، فقد كانت تعيش في

ظلال الممالك والقوى المتسيدة، فمرة تحت راية السلاجقة، ومرة تحت راية الزنكيين والأيوبيين، ومرة تحت راية الخوارزمشاهات، وهكذا.

أمّا أرتق أرسلان، والملقب بالملك المنصور، هذا فهو سادس ملوك بني أرتق على ماردين، وأمّا أولهم فهو إلغازي بن أرتق بن اكسب. توفي والده قطب الدين إلغازي تاركاً وراءه أولاده الصغار، وكان أكبرهم حسام الدين بولق أرسلان. تولّى هذا الأخير الملك صورياً لكن الأمر والنهي كان بيد مملوك أبيه نظام الدين البقش. لم يستمتع الصغير بالملك طويلاً فقد مات بعد عام من جلوسه على الكرسي. فلمّا مات الفتى، أقام نظام الدين البقش أخاه الأصغر أرتق أرسلان، ولقبه بناصر الدين. ظل الصغير خمس عشرة سنة أشبه بالأسير في قبضة البقش ومملوك للبقش اسمه لؤلؤ. وكما أن البقش قد استبد بأبناء سيده قطب الدين إلغازي فقد استبد لؤلؤ بسيده البقش، وعلى طريقة كما تدين تدان. وذات يوم، ألزم المرض نظام الدين البقش الفراش فجاءه ناصر الدين أرتق ليعوده. فلمّا استأذن سار معه لؤلؤ، فغافله ناصر الدين وطعنه بسكين فأرداه قتيلاً، ثم عاد إلى حجرة البقش فقتله وهو على فراشه. وبمقتلهما خلا الجو لناصر الدين وصفى له الملك.

وبعد حكم دام قرابة الأربعين سنة أو ما دون قتل ناصر الدين على يد مماليكه وبمواطأة من حفيده واسمه ألبي بن غازي بن أرتق. لا تخبرنا المراجع التاريخية عن الوسيلة التي قتل بها ناصر الدين أرتق ولا الكيفية التي حبكت فيها عملية الاغتيال. وقد جاء في "سير أعلام النبلاء" للذهبي أن ناصر الدين كان شديد المحبة لحفيده ألبي، ثم خافه فأبعده وحبس والده. وعلى ما يبدو فإن ناصر الدين ربما تخوّف من قيام ابنه أو حفيده بإزاحته عن الحكم فحبس الأول وأبعد الثاني. وقد وصفه الذهبي في كتابه بالعدل وحسن السيرة، وبكثرة الصيام، وترك الخمر خلال ثلاثة أشهر. وبعد أن قتل ناصر الدين، أخرج الحرس ابنه غازي فملّكوه، ولقبوه بالملك السعيد. وكما فعل والده به من قبل فقد قام الملك السعيد غازي بسجن ابنه خوفاً من أن ينقلب عليه!

عثمان الأول بن عبد الحق المريني

بدأت تتشكل في الفضاء المغربي قوة بدوية جديدة يقال لها بنو مرين. بدأت تلك القوة الصاعدة في مزاحمة دولة الموحدين التي أنهكتها صراعاتها العائلية وخلافاتها الداخلية مما أدى إلى فقدان تلك الدولة أملاكها الواسعة في المغرب والأندلس. لم يكن المرينيون، وهم سلالة بربرية من زناتة، ببعيدين عن التفاعلات السياسية والتحولات الاجتماعية التي عاشها المغرب طيلة قرنين قبل أن يلمع اسمهم في الأفق. لقد تواجد المرينون منذ أن كان المرابطون يحكمون البلاد، وبرز منهم زعيم يقال له المخضب بن عسكر. كان المخضب هذا مرهوب الجانب، عالي الهمة، صعب المراس، وكثير الغزو. ولولا صعود نجم دولة الموحدين وقتها لما وُجد من يوقف غاراته ويكبح جماحه.

استمر بنو مرين متواجدين تحت ظلال دولتي المرابطين والموحدين. ولمّا بدأ الضعف ينهش في جسد دولة الموحدين، بدأ بنو مرين في النزوح الجماعي من مناطق المغرب الأدنى والأوسط باتجاه المغرب الأقصى حيث الخصب والمراعي الخضراء ممّا أدى إلى اشتباكهم مع الموحدين هناك في أكثر من مناسبة إلى أن نجح بنو مرين في القضاء النهائي على دولة الموحدين والتي كما قلنا قد استهلكت طاقاتها وصرفتها في تغذية الصراعات الداخلية.

ويدين بنو مرين بالفضل إلى ملكهم الأول عبد الحق بن محيو المريني الذي صرف جهوده للاستيلاء على بلاد الموحدين، فدخل معهم في حروب عديدة، لعل أشهرها معركة وادي نكور التي توجها عبد الحق بنصر مجلجل على خصومه، لكن عبد الحق لم يهنأ بهذا النصر طويلاً فقد سقط بعدها بعام

واحد في إحدى المعارك قتيلاً. أمّا أشهر حكامهم على الإطلاق فهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي يُنظر إليه على أنه المؤسس الحقيقي لدولة بني مرين. ويوسف هو من قضى كلياً ونهائياً على دولة الموحدين. وفوق هذا وذاك، فهو أيضاً من أجّل سقوط آخر حصون المسلمين في الأندلس، أي غرناطة، ولمدة قرنين من الزمان وذلك بفضل صعوده الدائم إلى الأندلس ووقوفه إلى جوار مملكة غرناطة بالعتاد والرجال.

وبالعودة إلى الوراء قليلاً، فبعد مقتل عبد الحق بن محيو في عام 614هـ في إحدى المعارك، تولى ولده عثمان الأول أمر جماعته، فنهض بهم ونظّم شؤونهم على أحسن وجه. ورث عثمان عن والده الصلابة والأنفة والشجاعة، فواصل توسعاته، وفرض الضرائب والأتاوات على قبائل المغرب، فأجابوه خوفاً من بطشه وعذابه. ولم يزل عثمان الأول يواصل سياساته الجبائية والتوسعية حتى غدر به كما جاء في "الأعلام" للزركلي علج له كان قد ربّاه صغيراً، فطعنه بحربة في منحره. وكان مقتل عثمان الأول في وادي ردات بعد أن حكم ثلاثة وعشرين عاماً أعزّ فيها قبيله(*) وأذلّ فيها عدوه.

(*) قبيله أو قبيلته. والقبيل هو جمع مكون من ثلاثة فأكثر رغم أن الكلمة ليست شائعة قدر قبيلته.

نور الدين عمر علي بن الرسولي

في اليمن كتب الفصل الأول من قصة بني رسول، وفي اليمن أيضاً كتب الفصل الأخير منها، وما بين الفصلين الأول والثاني طافت قصة بني رسول بلداناً وتلونت بألوان الجغرافيا. يقال إن بني رسول ليسوا بتركمان، وإنما عرب وعرب أقحاح، وإن التركمانية ما هي إلا قشرة رقيقة تحجب وراءها ملامح عربية قديمة القدم. إن أجداد بني رسول الأوائل- كما يقال - استوطنوا اليمن، وبعد انهيار سد مأرب نزحوا شمالاً وسكنوا أطراف الشام، وأقاموا مملكة الغساسنة. وبعد أن أغرق الطوفان الإسلامي المندفع من أعماق الجزيرة الكيانات السياسية القائمة في بلاد الرافدين والشام، تحول آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الأيهم إلى الإسلام، ثم عاد فارتد إلى المسيحية في قصة مشهورة، والتحق ببلاد الروم فعاش بينهم ما بقي له من العمر إلى أن هلك. وبعد موته بزمن، اختار بعض أولاده الرحيل، فنزلوا بلاد التركمان، وذابوا في وسط إحدى القبائل العريقة. وفيما كانت دولة بني العباس تمر بالمنعطف الأخير من عمرها، انحدر بعض من أحفاد الغساسنة إلى العراق، واتصلوا بالخليفة العباسي المستنصر بالله. فمن لم يكن يعرفهم، كان ينسبهم إلى التركمان، ومن كان يعرفهم، كان ينسبهم إلى غسان. وبرز من بينهم رجل جليل القدر، واسع الفهم يقال لهم محمد بن هارون. كان ابن هارون هذا لسان الخليفة إلى امراء الشام ومصر. وبمرور الوقت، غلبت وظيفته على اسمه فاشتهر بين الناس برسول. رحل رسول بأبنائه من العراق إلى الشام فأقام مدة، ثم استقر بهم في مصر، واتصلوا مع ملوك بني أيوب وعملوا في خدمتهم.

عرف الأيوبيون فضل بني رسول وصلابة رأيهم، وقوة بأسهم، وشدة همتهم، فجعلوهم في خدمة الملك المعظم تورانشاه بن أيوب السائر نحو اليمن لتوطيد دعائم ملك بني أيوب فيها. كان عددهم خمسة رجال: وهم الأب شمس الدين علي بن رسول وأولاده الأربعة بدر الدين الحسن، نور الدين عمر، فخر الدين أبو بكر، وشرف الدين موسى. انضوى بنو رسول تحت لواء ملوك بني أيوب في اليمن، فأقاموا على خدمتهم، وعملوا على مد بساط دولتهم، ووقفوا في وجه أعدائهم. . دام ملك بني أيوب في بلاد اليمن ما يقرب من ستين عاماً، وتعاقب على ملكها خمسة ملوك، كان تورانشاه أولهم، والمسعود آخرهم. وجاء في "العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية" للخزرجي أنه وفي زمن آخر ملوكهم المسعود والذي كان في مصر مقيماً، زاد خوفه وخوف بقية بني أيوب من زوال ملكهم على يد بني رسول في اليمن وذلك لما لمسوه فيهم من الشجاعة والمهابة، وعلو الهمة، وبعد الصيت، وحسن السياسة، وابتناءِ المجد، واكتساب الحمد.

دخل الملك مسعود اليمن فقبض على أبناء شمس الدين علي بن رسول، ولكنه عاد وأطلق نور الدين عمر، وقرّبه وجعله من خواصه، وأرسل بإخوته مقيدين إلى عدن ومنها إلى مصر. وفيما كان الملك مسعود في اليمن، وصله كتاب الملك الكامل الأيوبي يقطعه دمشق، فطار الملك المسعود من الفرحة، وبدأ يتجهز للرحيل على الرغم من ظهور علامات المرض عليه. وقبل أن يترك اليمن، قال لنور الدين: " قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبي في اليمن فإن مت فأنت أولى بمُلك اليمن من إخوتي لأنك خدمتني وعرفت منك النصيحة والاجتهاد وإن عشت فأنت على حالك وإياك تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاءك الملك الكامل ولدي مطوياً في كتاب". ولسوء طالع الملك المسعود، فإنه ما أن بلغ مكة حتى أشتد به المرض، وفارقته الروح هناك قبل أن ينال ما كانت نفسه تتوق إليه.

ولمّا بلغ نور الدين خبر وفاة الملك المسعود، أضمر في نفسه الاستقلال، فلم يبدل العملة ولا الخطبة. وحمل نور الدين الناس هناك على طاعته

وانقيادهم لأمره طوعاً وكرهاً، وقام بأمر اليمن كله سهله ووعره وبره وبحره. وبعد سنوات قليلة، استشعر نور الدين في نفسه القدرة على الاستقلال باليمن عن بني أيوب الذين شغلتهم حروبهم ضد بعضهم بعضاً. ولم يكتف نور الدين بملك اليمن وحدها، فقد مدّ بصره إلى أرض تهامة ومكة المكرمة. كان نور الدين حريصاً على تزيين تاج ملكه بأثمن جوهرة وهي مكة، لكن بني أيوب نازعوه عليها طويلاً، فكانت تتنقل ما بين هذه اليد وتلك اليد، فعام مكة في حوزة نور الدين وعام هي في حوزة بني أيوب، واستمرت هذه الحال عشرة أعوام إلى أن استقرت في يد نور الدين.

تربع نور الدين على بلاد تمتد من حضرموت جنوباً إلى مكة شمالاً، ودانت له بالطاعة الأئمة الزيدية في صعدة وآل حاتم في صنعاء. وبعد أن مرّت سبع عشرة سنة على تأسيس دولة بني رسول، اغتيل نور الدين في قصره بعد أن وثبت عليه جماعة من مماليكه. وكان نور الدين قد استكثر من شراء المماليك، وقيل إنهم كانوا يحسنون من الرماية والفروسية ما لا يحسنه مماليك مصر. ويقال إن الذي دسّهم على قتله هو ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسن وذلك لأن عمه نور الدين أراد أن ينتزع صنعاء من تحته ويقطعها لولده الأكبر شمس الدين يوسف، فخاف أن تضيع منه صنعاء، فواطأ جماعة من المماليك على قتله. ترك نور الدين لأولاده من بعده ملكاً قوي الدعائم، فتعاقب على الملك من بعده الأبناء والأحفاد، واستمر حكمهم للبلاد ما يقرب من 232 عاماً. ومن طريف ما يحكيه الخزرجي في كتابه المذكور أن خطباء المساجد ظلوا متعلقين بأذيال آخر خلفاء بني العباس المستعصم بالله، فكانوا يدعون له في صلواتهم على الرغم من وفاته منذ حوالى قرن ونصف القرن!

الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

حين أحس السلطان صلاح الدين بقرب ساعته، عمد إلى تقسيم مملكته بين أبنائه وأخوته، وكأن هذا القائد الفذ لم يستوعب دروس التاريخ القاسية ولم يتعظ بعبر الماضي القريب. حمل هذا التقسيم في أحشائه بذور الفناء ودواعي الفرقة، فدب الصراع بين الأخ وأخيه والعم وابن أخيه. ومنذ ذاك العهد، استنزفت مقدرات الدولة الأيوبية وطاقاتها في صراعات دامية عبثية، الأمر الذي أتاح للغزاة الصليبيين سلب ما استرده صلاح الدين من ممالك ومدن وحصون كانت قد وقعت بين أيديهم. وبعد ما يقرب من ستين عاماً من النزاعات التي مزقت الأسرة الأيوبية، لم يتبق غير آخر ملوك الأسرة وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر والشام.

ومن سوء الطالع أن مرض السل أقعد الملك الصالح عن مباشرة إدارة البلاد، والتصدي للحملة الصليبية السابعة برئاسة لويس التاسع ملك فرنسا التي اجتاحت الأراضي المصرية فاحتلت مدينة دمياط. لم يقو جسد الرجل الكهل على هزيمة المرض فمات. لكن زوجته وجاريته شجر الدر كشفت عن رباطة جأش وعقل راجح، فأخفت خبر موته عن رجال الدولة وعامة الشعب حتى لا ينهار ما تبقى من معنويات لدى الناس، ثم أمرت بحمل جثته سرًا في سفينة إلى قلعة الروضة بالقاهرة، وألزمت الأطباء بالدخول كل يوم إلى حجرة السلطان كعادتهم، وكانت تدخل الأدوية والطعام إلى غرفته كما لو كان حيًا، واستمرت الأوراق الرسمية تخرج كل يوم ممهورة بخاتم السلطان. وبعد وفاة الملك الصالح، استمرت شجر الدر في ترتيب أمور الدولة، وعهدت للأمير

فخر الدين بقيادة الجيش، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى تورانشاه ابن الصالح أيوب تحثه على مغادرة حصن كيفا والقدوم إلى مصر، ليتولى السلطنة بعد أبيه.

وصل تورانشاه إلى مصر، وكان آخر من بقي من أبناء الملك الصالح، فبادر من فوره إلى وضع الخطط العسكرية لمواجهة الصليبيين الذين كانوا يضربون حصاراً على مدينة المنصورة. وتكللت خطة تورانشاه بنجاح باهر، فهزم الصليبيين شر هزيمة، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر. ولقد سقط الملك لويس التاسع في الأسر، وسيق مكبلاً إلى المنصورة، وسجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان. ولم يفرج عن الملك إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ مالي كبير، وأطلق سراح الأسرى المسلمين، وسلم دمياط إلى المسلمين، وأبرم صلحاً مدته عشر سنوات.

لقد أبانت الحرب عن براعة تورانشاه العسكرية، لكنه لم يكن للأسف يملك القدر ذاته من الكياسة السياسية، مما أوقعه في أخطاء سياسية فادحة كلفته حياته. لقد عرف تورانشاه بسوء الخلق والتصرف، والجهل بأمور الحكم والسياسة. فمنذ وطئت قدمه مصر، وهو لا يكف عن تأليب المماليك البحرية ضده. فقد نسي تورانشاه في غمرة انتصاره أن يحفظ لهم الجميل في ضمان سلامة الدولة وتأمين الملك له. فمن جملة أفعاله، ما جاء في "السلوك في معرفة الملوك" للمقريزي، أنه بعث إلى شجر الدر يتهددها، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يديها من الجواهر، فداخلها منه خوف كثير لما بدا منه الهوج والخفة. ويذكر المقريزي كذلك أن تورانشاه كان قد أساء للمماليك وتوعدهم، وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول: "هكذا أفعل بالبحرية". مثل هذه التصرفات لا شك أنها توحي بفقدانه الحصافة والذكاء السياسي. فبدلاً من أن يستميلهم لصفه، ويتقرّب إليهم لكسب قلوبهم، صار يتهددهم صراحة وكأنه لا يعلم أنه بذلك سيجعلهم يتآمرون على الخلاص منه، وهذا ما حصل فعلاً. وقد تواترت كتب السّير في شرح تفاصيل اغتياله المروعه مع بعض التفاوتات الطفيفة. وإليك ما جاء في كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري من تسجيل لواقعة

اغتياله. "...فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من محرّم جلس المعظم على السماط فضربه بعض مماليك أبيه البحرية بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض أصابعه؛ وقام من وقته ودخل البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور وصاح: "من جرحني؟"، فقالوا: "الحشيشية"، فقال: "لا والله إلا البحرية، والله لا أبقيت منهم بقية". واستدعى المزين فخيط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: "تمموه وإلا أبادكم!" فدخلوا عليه، فانهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب، فرمى بنفسه، وهرب نحو البحر، وهو يقول: "ما أريد ملكاً! دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمون! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني!"، والعساكر واقفة فما أجابه أحد، والنشاب تأخذه، فتعلق بذيل الفارس أقطاي فما أجاره، فقطعوه قطعاً وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً لا يجسر أحد أن يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به".

ولا يظهر لي من مراجعة عمليات الاغتيال التي وقعت في تاريخ الإسلام أن اجتمعت في المقتول ثلاثة عناصر: السيف والنار والماء! وبمقتل تورانشاه، اندثرت الدولة الأيوبية بعد أن حكمت أجزاء واسعة من العالم الإسلامي زهاء ثمانية عقود، لتفسح المجال لدولة المماليك والتي ستتصدى بعد عشر سنوات من الآن لجحافل المغول الكاسحة وتهزمها في موقعة عين جالوت التاريخية.

الأمير فارس الدين أقطاي

يعد أقطاي أحد ألمع فرسان المماليك وأكثرهم شهرة. وكان أقطاي كباقي زملائه، من أمثال بيبرس وقطز وقلاوون وعز الدين أيبك من أتباع الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأقطاي هو أحد المشاركين في كتابة آخر فصول الدولة الأيوبية على أرض مصر وبداية فصول دولة المماليك البحرية. وأقطاي كذلك هو أحد الشاهدين على الأيام الحالكة التي كانت الأمة الإسلامية تعيشها والظروف البائسة التي كانت تمر بها. فجحافل المغول قد اكتسحت الأطراف الشرقية من العالم الإسلامي واقتربت طلائعها من عاصمة الخلافة العباسية، والحملات الصليبية استنفدت مقدرات المسلمين وأنهكت قواهم وأوقفت نموهم الحضاري، والعالم الإسلامي قد تفتّت إلى دويلات وممالك وإمارات كرتونية.

كان السّل قد استفحل وتمكن من جسد الملك الصالح، فأقعده عن محاربة الصليبيين الذين اجتاحوا بلاده المصرية في حملتهم الصليبية السابعة وبقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع. لم يمهل المرض الملك الصالح طويلاً ففارقت روحه المتعبة جسده المنهك ذات مساء. خافت جاريته وزوجته شجر الدر أن تعلن خبر وفاته حتى لا تذبل روح العسكر وتنكسر معنويات الشعب. أبقت شجر الدر خبر وفاة زوجها طي الكتمان، ولم يعلم به غير قلة قليلة. استمرت المكاتبات الرسمية وعليها خاتم السلطان تخرج كل يوم، واستمر البساط السلطاني يمد كل يوم، واستمر الأطباء يدخلون عليه في حجرته وكأنه لايزال فيها. في تلك الأثناء، بعثت شجر الدر بالفارس أقطاي إلى حصن كيفا البعيد

والرابض على أكتاف نهر دجلة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى ليستدعي ابن الملك الصالح والمدعو تورانشاه. وعندما وصل أقطاي إلى هناك، أخبر تورانشاه بوفاة والده وبتقليده الحكم من بعده. سُرّ تورانشاه بخبر تمليكه مصر والشام، فوعد أقطاي من شدة فرحته بأن يقطعه إحدى الإمارات مكافأة له بعد أن يُجْلى الصليبيون ويكنسوا إلى ما وراء الحدود المصرية. وكما جاء معنا في تناولنا لتورانشاه، فإن الملك الجديد وبجهود المماليك وشجاعتهم قد نجح في تكبيد الصليبيين هزيمة مريرة، وفي أسر الملك المتعصب لويس التاسع، واحتجازه بدار لقمان والتي حُولت خلال القرن الماضي إلى متحف ومعلم يحرص على زيارته كل من يأتي إلى مدينة المنصورة.

أدارت خمرة النصر رأس تورانشاه، فتكبر على المماليك وتجبر عليهم. حسب أن فرسان المماليك هم رهن أصابعه. وبلغت به الجرأة أنه أرسل إلى شجر الدر يهددها إن هي لم تفصح عن أموال وجواهر كانت عند أبيه. فلمّا توجست منه خيفة، كتبت إلى المماليك تستغيث بهم. لم تكن شجر الدر وحدها من انقلب عليها تورانشاه، فقلب أقطاي قد امتلأ حقداً عليه لأنّ تورانشاه نسي وعده القديم له عندما كان في حضن كيفا. انقضت القصة - كما أوضحنا سلفاً - بمقتل تورانشاه بعد أن تمزّق جسده ما بين سيف ونار وماء.

وقع اختيار المماليك على شجر الدر لتتربع على عرش البلاد، لكن هذا الاختيار قوبل بغضب عارم أشعل الحرائق في دماء رجال العالم الإسلامي. لم يتقبل المسلمون فكرة تنصيب امرأة مهما فاقت الرجال موهبة وحنكة وبزّتهم في الاتقان والحبكة. ولكي يفوز المماليك باعتراف الخليفة العباسي ورضاه، اضطرت شجر الدر أن تتزوج من أحد الفرسان واسمه عز الدين أيبك. قيل إنها اختارته من دونهم لأنه كان أضعفهم، وأكثرهم انقياداً لتلك المرأة التي تمكن منها شبق السلطة وشهوة الحكم.

ولمّا تملك عز الدين أيبك البلاد، انحدر بقايا الأيوبيين من الشام إلى مصر لسحبها من تحت أقدام المماليك، فخرج لهم أقطاي فكسرهم، وأجبر

فلولهم على النكوص لدمشق. وما كاد أقطاي يعود إلى القاهرة حتى اندلعت ثورة خرجت نارها من قلب الصعيد بقيادة رجل من آل البيت اسمه الشريف خضر الدين أبو ثعلب. ومرة أخرى، ينجح أقطاي في إخماد الثورة والقبض على صاحبها وقتله فيما بعد .

ما كان أقطاي يرى نفسه خادماً لعز الدين أيبك، بل كان يرى أنه أفضل منه وأقوى منه. كان أيبك قد أقطعه الإسكندرية، لكنه ما اكتفى بذلك، .فأطلق يده يأخذ من بيت المال ما يشاء ووقت ما يشاء. وكانت مماليك أقطاي قد استبد أمرها وكثر أذاها، فكانوا يدخلون الحمامات فيأخذون النساء عنوة حتى كرههم الناس وتمنوا زوال أمرهم. وبلغ التسلط بأقطاي واستخفافه بعز الدين أيبك أن المخاطبات الرئاسية كانت تفد البلاد باسمه، فكان هو بحق الآمر الناهي وصاحب الحل والربط في البلاد. وجاءت ثالثة الأثافي عندما طلب أقطاي من عز الدين أيبك انزال شجر الدر من قصرها بالقلعة ليكون عشاً لزوجة أقطاي الأيوبية بنت الملك المظفر صاحب حماة. لم يعد الأمر يحتمل مزيداً من الصبر، فعقد عز الدين أيبك عزمه على التخلص من مزاحمة أقطاي وتجاوزاته التي هوّنت من أمر عز الدين، وحطت من مكانته في عين زوجته وعيون الناس.

وفي أحد الأيام، بعث عز الدين إلى أقطاي يطلب منه المجيء إلى القلعة من أجل مشاورته في أمر ما. سار أقطاي إلى هناك بلا اكتراث، وكأن غروره واستهتاره قد أعماه عمّا كان يدبره عز الدين له. فلمّا أغلق باب القلعة، خرج له في دهليزها ثلاثة من مماليك عز الدين، وهم: قطز وبهادر وسنجر، فبادروه بسيوفهم حتى سقط صريعاً. استبطأ أصحابه بقاءه في القلعة، فتوافدوا عليها ينتظرون خروجه إليهم. وبينما هم في الخارج واقفين أمام باب القلعة، ألقى إليهم عز الدين برأس صاحبهم أقطاي، فانفضوا وتفرقوا في المدينة لا يلوون على شيء. وعندما حلّ الليل، أحرق بعض من مماليك أقطاي، وكان فيهم بيبرس وقلاوون والألفي، باباً في القاهرة يقال له باب القراطين، وهربوا إلى الشام.

أزاح مقتل أقطاي عن صدر عز الدين أيبك جبلاً ثقيلاً، فتذوق لأول مرة طعم الملك وحلاوة السلطة التي منعها عنه أقطاي. وكما أن الغرور هو من أفضى بأقطاي إلى درب الهلاك، فإن الغرور سيتلبس بدوره عز الدين، وسيعض يد شجر الدر التي حملته إلى الكرسي، مما سيدفعها في النهاية إلى خنقه انتصاراً لكرامتها.

عز الدين أيبك

بعد أن أجهز المماليك البحرية على تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب كما تقدم معنا، استيقظ المماليك على واقع جديد لم تألفه نفوسهم من قبل. فمصر بتاريخها وجغرافيتها وعراقتها ونيلها وزرعها وأهلها قد صارت الآن في أيديهم. ربما لم يشهد العالم من قبل حالة شاذة كهذه حيث أصبح المملوك الرقيق سيداً وحاكماً فعلياً!، لم يكن من أحد يستحق قيادة مصر غير المماليك، فأمراء بني أيوب في الشام كانوا في حالة يرثى لها من الضعف والتشرذم، والخلافة العباسية في بغداد تلفظ أنفاسها الأخيرة، والإمارات والممالك الصليبية في الشام تتربص، والموجة المغولية العاتية تطرق البوابة الشرقية من العالم الإسلامي.

سلطن(*) المماليك شجر الدر على عرش البلاد، فهي من المماليك أولاً، وأرملة الملك الصالح ثانياً، وهي فوق ذلك كشفت عن براعة سياسية وإدارة واثقة في وقت كانت مصر تمر بامتحان عسير أثناء الحملة الصليبية السابعة. أثار تنصيب شجر الدر على عرش مصر عاصفة من الاحتجاجات في الداخل والخارج. كيف لامرأة في مجتمعات الفحولة الذكورية أن تحكم البلاد وتخضع لها رقاب العباد؟! ولم تجد عمليات التمويه السياسي، مثل إضافة لقب المستعصمية (نسبة إلى آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله) إلى اسم سلطانة مصر في تليين رأس المستعصم الذي بعث بكتاب شديد اللهجة إلى الأمراء في

(*) سَلْطَنَ: أي جعله سلطاناً.

مصر يقول فيه: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالاً". وللالتفاف على هذا الوضع (القانوني) المعقد، كان لابد لشجر الدر من أن تتزوج بأحد فرسان المماليك ليصبح هو السلطان. وقع اختيار شجر الدر على أحد الفرسان المغمورين واسمه عز الدين أيبك، وكأنها أرادت باختيارها هذا أن تظل قابضة على أمور الحكم ما بقيت ولو من وراء الستار.

لكن أيبك برهن مع الأيام على حسن تدبيره وقدرته على إطفاء الحرائق التي حاصرت البلاد من الجهات كافة. فعندما اقتربت طلائع الملك الناصر يوسف الأيوبي من الجهة الشرقية لمصر، بعث بجيش يقوده الأمير أقطاي فكانت الغلبة للأخير. ثم لم يلبث أن اندلعت في قلب الصعيد ثورة عارمة قادها أحد العربان واسمه ثعلب إلا أن أقطاي نجح في سحق التمرد وسجن ثعلب في الاسكندرية التي أقطعها له أيبك. ملأت الانتصارات المتتالية نفس اقطاي بالغرور، فصار يتصرف كما لو كان هو السلطان المطلق لمصر مما جعل أيبك يصمم على التخلص منه قبل أن يستفحل أمره ويزاحمه في سلطانه. ومما زاد قلب أيبك كرهاً لأقطاي أنّ هذا الأخير لم يكن يحفل بأيبك، ولا يراه نداً له، فكان يتعمد تصغيره والتعدي على مهامه واختصاصاته. ثم إن أقطاي تطاول في صفاقته، فطلب من أيبك أن ينزل شجر الدر من قصرها بالجبل لتسكن مكانها أميرة أيوبية خطبها لتوه. عقد أيبك العزم على قتل أقطاي جزاء على وقاحته وتأمّره، فبعث إليه يطلب منه المجيء إلى قلعة الجبل بغرض المشورة، فلما دخل القلعة انقض عليه المماليك وعلى رأسهم قطز فهبروه بسيوفهم، ثم رموا برأسه من فوق على أصحابه المماليك المتجمعين أسفل القلعة، فأصابهم الرعب ولاذوا بالفرار، وكان بيبرس البندقداري ممن فرّ إلى الشام. وهذه الرواية تبدو الأكثر قبولاً بين المؤرخين، كالمقريزي في "السلوك لمعرفة دول الملوك" وابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" وأبي الفداء في "المختصر في أخبار البشر". وبالمناسبة، كنت قد قرأت مؤخراً مسرحية للأستاذ علي باكثير بعنوان "شجَر الدر" تفوح بين سطورها رائحة الحب ما بين شجر الدر وأقطاي، ولكن شهوة الاستبداد بالملك والتفرد بالحكم المتأصلة في نفسيهما

حالت دون زواجهما. وتنتهي المسرحية بأن تأمر شجر الدر مماليكها بقتل أقطاي في سرداب القلعة بعد أن أعلن خطبته من أميرة أيوبية، وأرسل إلى أيبك يطلب منه أن تخلي شجرة الدر مسكنها لتحل الأميرة الوافدة مكانها، مما تسبب في انكسار كبريائها وإشعال نيران الغيرة في قلبها، فعزمت على قتله. ما دفعني إلى قول ذلك هو أن استحضار التاريخ في الأعمال الأدبية والفنية لا يقتضي التوافق التام مع ما دونته كتب التاريخ وإلا فإن الفوارق ما بين المبدع والمؤرخ ستمحى وتتلاشى. إن من حق المبدع الاستعانة بخياله في ملء الفراغات التاريخية وتعبئتها، وتوظيف معارفه وثقافته في استنطاق الشخصيات وإعادة اكتشافها. زبدة الكلام، أن القارئ حري به أن يتوخى الحذر عند مطالعة الأعمال الأدبية والفنية؛ فشخصية المبدع غالباً ما تلقي بظلالها على مجريات التاريخ وشخوصه.

وبالعودة إلى أيبك، فإنه بعد أن فرغ من عدوه أقطاي، وصفا له الجو في مصر، بدأ في تمتين دفاعاته وتقوية حصونه خوفاً من قيام الأمراء المماليك الذين فروا إلى الشام بإغراء الملك الناصر يوسف الأيوبي على مهاجمة مصر وضمها إلى الشام. وزاد أيبك على ذلك بتوقيع هدنة مع الملك لويس التاسع المقيم في عكا للحؤول دون حدوث تفاهم مشترك بين أعدائه في الشام والإمارات الصليبية ضده، وتوّج أخيراً مساعيه الدبلوماسية بطلب الزواج من ابنة أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ حتى يغرس خنجراً في خاصرة الناصر يوسف الأيوبي. وبالرغم من أن تحركاته قد أفصحت عن فطنة سياسية وقدرة على المناورة إلا أنه نسي أن الزواج بامرأة على شجر الدر سيكلفه حياته كلها! فما أن عرفت شجر الدر بأن من صنعت منه سلطاناً سيكافئها بضرة حتى أكلت النار قلبها، فأمرت خدمها بخنق أيبك في الحمام. إلا أن خيوط الجريمة سرعان ما تكشفت، فحبست شجر الدر أياماً، ثم قتلت بالقباقيب بواسطة الجواري وبتحريض من أم علي الزوجة الأولى لعز الدين أيبك، ثم رمي بجثتها من سور القلعة وبقيت أياماً ملقاة في العراء قبل أن تدفن. وهكذا، قاد الجهل بطبيعة المرأة ونفسيتها أيبك إلى الموت مخنوقاً، وقادت الغيرة ولذة الحكم شجر الدر للموت ضرباً بالقباقيب!

شجر الدر

أتينا في أكثر من موضع على شيء من سيرة شجر الدر، فقد كانت شاهدة على مقتل تورانشاه والفارس أقطاي وعز الدين أيبك. قلنا إن شجر الدر كانت جارية وزوجة للسلطان الأيوبي نجم الدين أيوب، وإنها أنجبت منه ولداً سمّته خليل، لكنه مات وهو صبي. وقلنا إنها أخفت عن الناس والجيش والأمراء خبر وفاة زوجها المريض حتى لا يتسلل الوهن إلى النفوس في وقت كانت جيوش الملك لويس التاسع تحتل دمياط المصرية. وقلنا أيضاً إنها أرسلت في طلب ابن السلطان تورانشاه من حصن كيفا ليتولى الحكم وليدير معركة التحرير والتي توجت بنصر تاريخي وبسقوط الملك لويس التاسع في الأسر. لم يحفظ تورانشاه الذي اغتر بنصره الجميل لزوجة أبيه التي حفظت له الملك ولا لمماليك أبيه الذين لولاهم ما تم له النصر. فأرسل إلى شجر الدر يتهددها إن لم تدفع إليه بأموال ادعى أنها أخفتها، ولحس وعوده لمماليك أبيه التي قطعها عندما دخل البلاد، فما كان من المماليك إلا أن قتلوه شر قتله، ونصّبوا شجر الدر على عرش البلاد.

ولمّا علم الخليفة المستعصم بتولي امرأة عرش مصر، أرعد وأزبد، وكتب إليهم يقول: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً". فتزوجت شجر الدر من عز الدين أيبك ونزلت عن ملك مصر بعد أن حكمتها ثمانين يوماً. وقلنا إن شجر الدر كانت تشارك عز الدين المُلك من وراء الحجاب، فقد كان شبق السلطة يجري في عروقها مجرى الدم. وبعد سبعة أعوام من التربع على عرش البلاد، تغيرت نفس عز الدين أيبك على شجر

الدر، فبعث إلى أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ يخطب ابنته، فتفجرت براكين الغضب في صدر شجر الدر، وأكلت نار الغيرة قلبها، فعزمت على الانتقام من عز الدين أيبك. وقال المقريزي في "السلوك في معرفة دول الملوك" إن مُنجماً لعز الدين أخبره أن موته سيكون على يد امرأة. وعلى ما يبدو فإن الغيرة والرغبة في الانتقام قد حجبت عن عيني شجر الدر ما عرف عنها من التعقل والحنكة وحسن التدبير فبعثت إلى الملك الناصر يوسف الأيوبي في الشام تغريه بقتل زوجها والتزوج به وتمليكه مصر، فخشي أن تكون خدعة فأهمل الرد عليها. وكتب بدر الدين لؤلؤ إلى عز الدين أيبك يبصّره بما تخطط له شجر الدر، فزاد الشرخ بينه وبينها.

وبعد أن أطل مساء يوم الثلاثاء من عام 655هـ، أقبل عز الدين أيبك إلى القلعة ليغتسل من أثر لعب الكرة طيلة النهار في ميدان اللوق، فدخل إلى الحمام وخلع ثيابه، فوثب عليه خمسة من المماليك، فسحبوه أرضاً وبدأوا في خنقه، فاستغاث عز الدين بزوجته شجر الدر، فأمرتهم أن يتركوه، فأغلظوا لها في القول وقالوا لها إنهم إن فعلوا فسوف ينال منها ومنهم، فهجموا عليه وخنقوه حتى الموت. وكما ذكرنا فإن شجر الدر لم تخطط لما بعد مقتل عز الدين. كل ما كانت تفكر فيه هو أن تثأر لنفسها من خيانته لها وتنكره لصنيعها معه. سرى في المدينة خبر موت عز الدين، فأرجفت القاهرة، وأقبل المماليك إلى القصر، وقبضوا على الخدم والحريم، فأقروا بما جرى، وقبضوا على شجر الدر، وقتلوا مماليكها الذين تواطأوا على قتل عز الدين أيبك.

أراد مماليك عز الدين أن يقتلوا شجر الدر بعز الدين، فحماها المماليك الصالحية، وحملوها إلى البرج الأحمر. ثم جيء بابن عز الدين ابن الخمسة عشر ربيعاً واسمه نور الدين علي وأجلسوه مكان أبيه. ولمّا عرفت شجر الدر أن زوجة عز الدين الأولى أم علي تنوي الانتقام منها خصوصاً وأن شجر الدر كانت تمنع عز الدين من زيارة زوجته الأولى وتحرضه على تطليقها، أمرت شجر الدر أن يؤتى إليها بجواهرها فأتلفتها وكسرتها إلى فتافيت. وفي اليوم الموعود، حُملت شجر الدر إلى أم علي، فأمرت جواريها أن يضربنها بالقباقيب

إلى أن ماتت، ثم أخذوها بعد أن جرّدوها من ملابسها ورموها من سور القلعة إلى الخندق، فمكثت جثتها ملقاة في الخندق أياماً حتى نتنت، ثم أمر بعدها أن تحمل في قفة لتدفن. ولعل من نافلة القول إن نشير هنا إلى أنه يزعم أن أصل الحلوى العربية الشهيرة "أم علي" يرجع إلى زوجة عز الدين أيبك أم علي والتي احتفلت بمقتل ضرتها شجر الدر بتوزيع طبق كبير مكوناته سكر وعيش أبيض وحليب ولمدة شهر كامل على الناس، فارتبط اسم هذه الحلوى باسم أم علي!

المحتويات

يتناول هذا الكتاب أشهر عمليات الاغتيالات التي وقعت في الإسلام، بدءاً من زمن الخلافة الراشدة، مروراً بالعهد الأموي، وانتهاءً بزوال الخلافة العباسية في عام 656 هـ. لم يكن مخططاً عند البدء بالنبش في دفاتر التاريخ أن يكون الكتاب مقتصرا على الاغتيالات السياسية، ولكنك ستجد عند تصفح أوراق هذا العمل أنَّ جلّ، إن لم يكن كل العمليات، قد وقعت في سبيل التنافس والتحاسد على السلطة. سوف تتفاجأ عند قراءتك لعمليات الاغتيال أن أواصر القرابة والمودة قد تم التفريط بها والتخلي عنها من أجل صعود القمة وتسنم العرش. سوف تصعق عندما تجد الأب يقتل ابنه، والابن يغدر بأخيه، والأم تسمِّم ولدها، وهكذا.

(من المقدمة)

خالد عبدالله السعيد، المملكة العربية السعودية.

- **ماجستير محاسبة، حائز على عدد من شهادات الزمالة المهنية في المحاسبة والإدارة المالية.**
- **حالياً يكتب مقالة أسبوعية في جريدة «الحياة».**

صدر له:

- الظلال الحزينة (قصص قصيرة من التاريخ الإسلامي)، دار كتابنا، بيروت، 2010.
- ليبراليات نجدية (مقالات حول التعددية والحرية ونقد الفكر الديني)، دار كتابنا، بيروت، 2010.